

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الشهيد حمّـه لخضر - الوادي



قسم العلوم الإنسانية

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

حركة القبائل الجزائرية التونسية على المناطق الحدودية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ميلادي

أطروحة مقدّمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر

إشراف الأستاذ الدكتور:

مُحمّد السّعيد عقيب

إعداد الطالبة:

كوثر العايب

أعضاء لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة العلميّة	الصّفة	الجامعة الأصليّة
محمد عبد الرؤوف ثامر	أ. التّعليم العالي	رئيساً	جامعة الشّهيد حمّـه لخضر - الوادي
مُحمّد السّعيد عقيب	أ. التّعليم العالي	مشرفاً ومقرراً	جامعة الشّهيد حمّـه لخضر - الوادي
نجوى طوبال	أ. التّعليم العالي	عضواً مناقشاً	جامعة الشّهيد حمّـه لخضر - الوادي
عبد القادر كركار	أستاذ محاضر أ	عضواً مناقشاً	جامعة الشّهيد حمّـه لخضر - الوادي
جمال قندل	أ. التّعليم العالي	عضواً مناقشاً	جامعة الشلف
محمد ودوع	أ. التّعليم العالي	عضواً مناقشاً	جامعة تيبازة

السّنة الجامعيّة 1442-1443هـ / 2020 - 2021م.

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الشهيد حمّـه لخضر - الوادي



قسم العلوم الإنسانية

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

حركة القبائل الجزائرية التونسية على المناطق الحدودية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ميلادي

أطروحة مقدّمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر

إشراف الأستاذ الدكتور:

مُحمّد السّعيد عقيب

إعداد الطّالبة:

كوثر العايب

أعضاء لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرّتبة العلميّة	الصّفة	الجامعة الأصليّة
محمد عبد الرؤوف ثامر	أ. التّعليم العالي	رئيساً	جامعة الشّهيد حمّـه لخضر - الوادي
مُحمّد السّعيد عقيب	أ. التّعليم العالي	مشرفاً ومقرراً	جامعة الشّهيد حمّـه لخضر - الوادي
نجوى طوبال	أ. التّعليم العالي	عضواً مناقشاً	جامعة الشّهيد حمّـه لخضر - الوادي
عبد القادر كركار	أستاذ محاضر أ	عضواً مناقشاً	جامعة الشّهيد حمّـه لخضر - الوادي
جمال قندل	أ. التّعليم العالي	عضواً مناقشاً	جامعة الشلف
محمد ودوع	أ. التّعليم العالي	عضواً مناقشاً	جامعة تيبازة

السّنة الجامعيّة 1442-1443هـ / 2020 - 2021م.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ

مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ

شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ

أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ إِنَّ

اللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٢٤﴾. ﴿سورة الحجرات: الآية. 13﴾

إهداء

أهدي ثمرة علمي هذا

إلى أئلى ما فى الوجود والديّ الكريمن حفظهما الله لى .

إلى من كان عملى هذا على حساب وقتى معهم ليغفروا لى ذلك وأخص بالذكر هنا قرة عيني وسر بهجتى ابنتى الغالية "فاطمة" وزوجى الشهم الفاضل.

إلى أشقاء القلب أخوتى وأخواتى كل واحد باسمه وزوجاتهم وأزواجهم وأبنائهم.

إلى عائلة زوجى.

إلى أفراد عائلة "العابج"، عائلة "نصراء"، و"نصرى".

إلى كل من درسى حرفاً فى مشوارى الدراسى من الابتدائى إلى الجامعى .

إلى كل الطاقم العامل معى بقسم العلوم الإنسانية بجامعة أم البواقى.

إلى كل الصديقات الغليات .

إلى من ساعدنى ودعمنى ليخرج هذا العمل إلى عالم النور.

كوثر العابج

شكر و تقدير

ولو أنني أُوتيتُ كلَّ بلاغةٍ ***** وأفنيْتُ بحرَ النُّطقِ في النِّظم والنَّثْرِ

لما كُنْتُ بعدَ القولِ إلاَّ مُقصرًا ***** ومُعترفًا بالعجزِ عن واجبِ الشُّكرِ

أتقدم بأسمى عبارات الشُّكر والتَّقدير لجامعة الوادي التي احتضنتني طيلة فترات تكويني بدءاً من ليسانس وحتى الدُّكتوراه، وأخص بالذكر أساتذة قسم العلوم الإنسانيَّة الفضلاء، وعلى رأسهم البروفسور "محمَّد السَّعيد عقيب" الذي تعلمت منه المثابرة والاستمرارية وأن نيل المجد يتطلب لعق الصبر فأشكره على وقوفه معي ودعمه المستمر لي.

إلى كل من دعمني بالقليل أو الكثير وقدم لي الدعم بابتسامة طيبة ونظرة مشجعة أو بكلمة ملهمة جددت الأمل في نفس تسلسل لها اليأس وأخص بالذكر هنا الدكتور "محمد حناي" الذي لم ييخل عليا بكرمه الذي أَلفناه منه، وأدعوا الله أن يقيه شمس علم متوهجة لا يخبوا ضيائها أبداً.

كوثر العايب

قائمة المختصرات الواردة في البحث

المعنى	الرّمز
الأرشيف الوطني التونسي	أ. و. ت
تحقيق	تح
تخصص	تخ
ترجمة	تر
تعليق	تع
تقديم	تق
جزء	ج
دون دار نشر	(د. د. ن)
دون طبعة	(د - ط)
دون سنة نشر	(د. س. ن)
طبعة	ط
مجلد	مج
مراجعة	مُر
ضبط	ض
صفحة	ص
عدد	ع
طبعة خاصة	ط.خ
غير منشورة	غ.م
Page	P
Revue Africaine	R. A
Tome	T

مكة

القبيلة في المفهوم الخلدوني لا تتحدّد بكونها جماعة مُنحدرة أو متفرعة عن جدّ أوّل، ولا تتحدّد فقط بما قد يجمع بين أعضائها من روابط الدّم. إنّ النّسب لا يعدو أنّ يكون معطاً وهمياً، لا يصمد أمام وقائع الاختلاط وعلاقات الحوار والتّعايش المكاني، أمّا النّسب في معناه الرّمزي والواسع، النّسب والانتساب البعيد، أو ما يمثله من أشكال التّحالف والولاء والانتماء، فإنّه يشكّل الإطار الحقيقي للقبيلة، ويظلّ هذا الإطار غير مكتمل طالما لم تعززه عناصر الألفة والتّعامل الطّويل، طالما لم يكتسب الفرد عادات وأعراف القبيلة، ولم يتبلور لديه الوعي بوجود مصلحة عامة ومشاركة تشدّه إلى بقيّة أعضاء جماعته، ولعلّ أبرز وأحقّ ما يستدعي تكتل أعضاء القبيلة وتوحدتهم هو توفيرهم على أرضٍ جماعيّة، إلى جانب ملكيتهم العائليّة، لذا كانت حماية هذه الملكيّة الجماعيّة والدّفاع عنها ضدّ مهاجميها من مرتكزات الحياة القبليّة. ومما يذكّي أيضاً الإحساس بالانصهار ضمن المجموعة القبليّة ويُعزّز تلاحمها الدّاخلي، الخطر الخارجيّ الذي يستهدفها والذي قد يتهدّد استمرار وجود الكيان القبلي، سواء كان ناجماً عن عصبيّة زاحفة أو عن تدخل سلطة مركزيّة؛ وفي هذا المضمار تأتي الحركة والتّنقل بين القبائل الحدوديّة الجزائريّة والتّونسيّة.

أولاً- التعرّف بموضوع البحث.

كان للظروف التّاريخيّة والجغرافيّة دوراً هاماً في فرض حتميّة التّنقل بين القبائل الحدوديّة الجزائريّة والتّونسيّة في المجال الحدوديّ المشترك بينهما، كما كان للأنشطة الاقتصاديّة الممارسة من قبل هذه القبائل دوراً هاماً في تكريس هذا التّنقل و المتمحور أساساً في الرّعي والزّراعة وتجارة القوافل التي أوجبت عليهم التّنقل المستمر من وإلى المجال الآخر.

وقد كانت التّنقلات بين هذه القبائل تتمّ بشكل دوّوب وبصورة مستمرة، ولم تفكر السّلطة العثمانيّة البتة بإيقاف هذا التّحرك، إدراكاً منها لارتباطه بواقع التّواصل الاقتصادي والاجتماعي بين القبائل الحدوديّة.

غير أنّ الأمور لم تفضل بمثل ماهي عليه فور وقوع "الجزائر" تحت الهيمنة الاستعماريّة الفرنسيّة عام 1830م، عن طريق مساعي هذا الأخير من أجل كسر مسار هذا التّحرك القبلي وإيقاف عجلته، بل واعتبره تعدياً على نفوذه وسلطانه، فلذلك لم تدخر لا الوقت ولا الجهد في سبيل حصر هذا التّحرك القبلي على الحدود، فأقدمت على اتخاذ جملة من التّدابير والآليات كان أخطرها مشروع ترسيم الحدود بين البلدين.

وعلى مضض ومخافة من توسع المحتلّ الفرنسي في الأراضي التّونسيّة قبلت السّلطة التّونسيّة بمشروع ترسيم الحدود بين البلدين، لتدخل القبائل على إثرها لأصعب مرحلة وأخرجها في تاريخها جراء هذا التّحديد الذي لم يراع خصوصياتها البشريّة والجغرافيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، وما أعقبه من انعكاسات تراوحت درجات تأثيرها على القبائل الحدوديّة التي وقع على كاهلها كافة تبعات هذه الإجراءات، لأنّ التّمازج كان على أشدّه بين القبائل، ومن الصّعوبة بما كان الفصل بين هذه المجموعات البشريّة، الشّيء الذي أوقعها في أزمات اقتصاديّة واجتماعيّة عديدة، لم يكن هناك سبيل للخروج منه إلاّ عن طريق النشاط الإغاري الذي تعزّز أكثر في فترات الأزمات بهدف توفير ضروريات العيش.

وإن كانت السُّلطة الرُّمَنِيَّة قد وافقت على هذا التَّحديد فإن القبائل لم تتقبل وأشهرت السُّلاح في وجه "فرنسا" ودخلت في عدَّة مواجهات عنيفة مع المحتل، في تعبير صريح لرفضها لهذه الإجراءات التَّعسفية في حقها.

في هذا الصَّدَد اندرج موضوع أطروحتنا الموسوم بـ: حركة القبائل الجزائريَّة التُّونسيَّة على المناطق الحدوديَّة خلال القرنين الثَّامن عشر والتَّاسع عشر ميلادي.

على أن القبائل الحدودية قد تمتعت بمكانه هامة في ساحة البلدين نظير الخصائص العديدة التي تتوفر عليها مما جعلها تؤدي دوراً هاماً في علاقات البلدين.

ثانياً- دواعي اختيار الموضوع.

يُعتبر تاريخ القبائل الحدوديَّة الجزائريَّة التُّونسيَّة من بين المواضيع التي تعتبر بكرةً في حقل الدِّراسات الجامعيَّة الجزائريَّة، وذلك لقلّة الدِّراسات التي تناولته بحسب اطلاعنا، وبحسب ما وقع تحت أيدينا من مقالات ودراسات؛ وعليه ارتأينا أن نُسلِّط الضُّوء على هذا الجزء من تاريخ أحد مكونات الشَّعب الجزائري المهمَّة والتي نتج عن تحركاتها إضفاء البعد الجيو استراتيجي على الحدود الجزائريَّة، بحسب ما تيسر لنا من قُدرة. وقد كان اهتمامنا بهذا الموضوع ناتجاً عن أسباب ذاتيَّة وأخرى موضوعيَّة نشير إليها فيما يلي:

✓ الأسباب الدَّاتيَّة:

- (1)-الرَّغبة الحثيثة في التَّعرف والتَّعمق أكثر بجملِّ حيثيات الموضوع والبحث في تاريخ القبائل الحدوديَّة.
- (2)-البحث في الأسباب القريبة والبعيدة المؤثِّرة والفاعلة في حركة القبائل وتبيان آثارها على البلدين.
- (3)-إعطاء هذا الموضوع حقه من الدِّراسة والبحث خاصة في ظلِّ توفر مادة مصدريَّة أرشيفيَّة استدعت منَّا استثمارها، لإعطاء دراسة قيمة ومفيدة عن الموضوع.

✓ الأسباب الموضوعيَّة:

- (1)-المساهمة في تزويد المكتبة الوطنيَّة ببحث من شأنه أن يغطي مرحلة هامة من تاريخ ونضال فئات اجتماعيَّة مشتركة بين البلدين "الجزائر" و"تونس".
- (2)-إبراز الأهمية التي تتبوأها المنطقة الحدوديَّة حيث كانت معبراً للسُّلاح وملاذاً للمقاومين ومنطلقاً لمقاومات عديدة.

- (3)-إبراز الدُّور الذي تؤده القبائل الحدوديَّة في السَّاحة السِّياسيَّة بين البلدين، حيث كان لها دوراً مؤثراً ومتأثراً بمجريات الأحداث السِّياسيَّة بين البلدين في الحقبين العثمانيَّة والفرنسيَّة.

ثالثاً- الأهداف المسطرة من البحث.

- أتطلع من وراء هذه الدراسة إلى تحقيق مجموعة من الأهداف أوجزها فيما يلي:
- توضيح قيمة المكوّن القبلي بالمناطق الحدوديّة في حياة الشّعبين الجزائري والتّونسي.
- لفت الانتباه لواقع ومعاناة المكوّن القبلي الحدودي، وإظهار مدى شراسة المحتل الفرنسي في سعيه الخبيث لتفكيك هذا المكوّن، وإخراجه من دائرة التّأثير.
- إبراز نديّة المكوّن القبلي وعدم استسلامه وذهابه باتجاه المقاومة العننيّة والشّريفة على قاعدة أكون أو لا أكون، إمّا أن أعيش فوق أرضي بكرامة أو أدفن شهيدا في ثراها.
- توضيح سبل مساهمة المكوّن القبلي، في كلّ أشكال المقاومة الاقتصاديّة والاجتماعيّة والثّقافيّة، انتهاء بالعمل الثّوري المسلح.
- تزويد المكتبة الوطنيّة بدراسة تاريخيّة تُبيّن أثر المكوّن القبلي في إقلاق راحة المحتل الفرنسي.

رابعاً- حدود الدّراسة والبحث.

ينحصر الإطار الزّمني للأطروحة بين القرنين الثّامن عشر والتّاسع عشر، وهي مرحلة انتقالية هامة من تاريخ البلدين المتجاورين عرفت نهايات الوجود العثماني وبدايات وجود المحتل الفرنسي على أراضيها وما أعقب هذا الانتقال من متغيّرات مست القبائل الحدوديّة على وجه الخصوص، أما الاطار المكاني فيشمل الشّريط الحدودي الغربي للإيالة التّونسيّة والشّريط الحدودي الشّرقى للجزائر وأهم التّركيبات البشريّة القاطنة به.

خامساً- إشكالية البحث.

تتمثّل إشكاليّة البحث المثارة في هذه الدّراسة التاريخيّة في التّالي: كيف كان واقع حركة القبائل الحدوديّة الجزائرية والتّونسيّة على الشّريط الحدودي إبّان القرنين الثّامن عشر والتّاسع عشر ميلادي؟

وقد أدرجت تحتها تساؤلات عدّة أبرزها:

- ✓ أهم القبائل الحدودية ومراكز تموضعها في البلدين؟
- ✓ ما هي العوامل والظّروف المتحكّمة في حركة القبائل؟
- ✓ ما مدى تأثير هذا التّحرك على واقع العلاقات بين البلدين؟
- ✓ ما موقف الإدارة الاستعماريّة منه وكيف تعاملت معه وما مبرراتها في ذلك؟
- ✓ ما أسس واستراتيجيات المحتل الفرنسي لحصر حركة القبائل الحدوديّة؟
- ✓ ما تداعيات وأبعاد حالات العنف القبلي وما هي آثاره على القبائل الحدوديّة؟

سادساً-مناهج الدراسة والبحث.

المناهج التي اعتمدت عليها في هذه الدراسة هي توليفة مركبة، فقد استعملت فيها المنهج التاريخي لدراسة الوثائق التاريخية الأرشيفية ولرصد الأحداث التاريخية للواقع القبلي الحدودي، وكذا المنهج الوصفي في محلّ وصف مجريات الأحداث المحيطة بهذا الواقع، إلى جانب التحليل للوقوف على طريقة تكوّن وتطور الواقع القبلي للقبائل الحدودية الجزائرية والتونسية، مع استعمال المنهج الإحصائي في تقديم معطيات إحصائية مجدولة والمنهج المقارن والاستعانة بالمناهج الأخرى حسب الحاجة.

سابعاً-المصادر والمراجع.

اعتمدت في بحثي على مجموعة من المصادر والمراجع يأتي في مقدمتها وثائق الأرشيف الوطني التونسي الذي أولينا اهتماما بالغا به لقيّمته العلميّة، حيث قارب مجموع ما استخدمناه ووظفناه من وثائق المئة وثيقة، مما صعب علينا من مهمّة إيرادها كملاحق وظيفيّة واكتفينا بالاستشهاد ببعضها فقط في الملاحق، حيث شمل تنقيبنا ثلاث صناديق أرشيفية كالحافظة 212، الملف 236 المؤطر بتاريخ (1879-1881م)، والذي يتضمن المراسلات في شأن الإغارات بين عروش "الرّقة" والعروش الجزائرية المجاورة لهم.

والحافظة 213 الملف 245 المؤطر بتاريخ (1879-1883م) والمتضمن مراسلات وتقارير حول اغارات العروش وأعمال الشّعب والعنف في الحدود الشرقية الجزائرية التونسية¹. والصّندوق 223 الملف رقم 384.

أمّا المخطوطات فاستعملت مخطوط "الكتاب الباشي" لمؤلفه حمودة بن عبد العزيز المتوفي عام 1202هـ/ 1788م والذي اهتم فيه بسيرة "الباي علي باي بن حسين" و أمدا بمعلومات هامة حول الصّراع القائم بين "التماشة" و"علي باي".

ومخطوط "الصّروف في تاريخ الصّحراء وسوف" لمؤلفه إبراهيم العوامر (1881-1932م)، الذي قدّم معلومات هامة عن سكان "سوف" وعلاقتهم بـ"التماشة" و"الهامة".

كما استخدمت من المصادر المطبوعة كتاب بياركاستيل: (حوز تبسة، دراسة وصفية جغرافية تاريخية لإقليم تبسة وأعراشه من فجر التاريخ إلى بداية القرن العشرين، تح: محمّد العربي طبع بالجزائر، 2010م)، وهو من أمّهات المصادر المطبوعة التي خدمت موضوعنا وغطّت كافة عناصره بداية بتعرضه لأصول قبيلة "التماشة" وتعرضه لمناوشات القبائل التّبسيّة والقبائل الحدودية التونسية، ورصده لمخطط إعادة هيكلة القبيلة والذي كان مخطط تفكيكي الغرض منه تجزئة القبيلة وإضعافها .

¹ - ورد عنوان الحافظة 213 الملف 245 المؤطر بتاريخ (1879-1883م) والمتضمن مراسلات وتقارير حول اغارات العروش وأعمال الشّعب والعنف في الحدود الغربية الجزائرية التونسية.

بالإضافة لكتاب بول فييناير وكتون: المعنون بـ: (عرق البرنوس. جرائم الاستعمار الفرنسي في عهد الجمهورية الثالثة، تعر: الأزهر الماجري، طبع بتونس سنة، 2019م)، وقد استقينا منه مادة توثيقية حول الظلم والجور الذي سُلط على الفئات الاجتماعية التونسية من طرف رجال السياسة الفرنسيين.

وكتاب البارون الفونصو رسو: (الحواليات منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر، تر: محمد عبد الكريم الوائي)، الذي أمدنا بمعلومات قيّمة حول العلاقات الجزائرية التونسية خاصة في عهد "حمودة باشا".

وكتاب أحمد بن أبي الضياف (1802-1874م) الذي كان كاتباً ومستشاراً للبايات الحسينيين، ابتداء من 1827م في عهد "حسين باي الثاني" (1824-1835م)، ويعتبر كتابه (إتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان)، من أهم المصادر المعتمد عليها في البحث، وذلك للزخم المعرفي الذي تحتويه صفحات هذا الكتاب، وقد وظفنا أجزاء عديدة منه.

وكتابتنا: محمد الصالح العنتري (1790هـ / 1870م) (فريدة منسية في حال دخول التُّرك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها) أو (تاريخ قسنطينة) والذي ألفه بطلب من الضابط الفرنسي "بواساني" (Poissenet) رئيس المكتب العربي بقسنطينة عام 1843م الذي كان على شغف واهتمام كبيرين بدراسة تاريخ "قسنطينة" خلال العهد العثماني، وهو من المصادر الهامة التي قدمت معلومات مفيدة عن تاريخ "قسنطينة" وباياتها وعلاقاتهم بالسلطتين الجزائرية والتونسية .

أمّا في كتابه (سنين المسغبة والقحط بقسنطينة) أو (مجاعات قسنطينة) فقد ألفه بطلب من الضابط "أدليير" (Adlleur) رئيس المكتب العربي بقسنطينة عام 1870م، وبحث فيه عن الأسباب التي كانت وراء هذه الفاقة، موضحة فيه صور تدهور أوضاع المدينة خلال القرن التاسع عشر.

كذلك استخدمت كتاب (تاريخ العدواني) لمؤلفه محمد بن عمر العدواني المتوفي في النصف الثاني من القرن الـ 11هـ / 17م ويعتبر من أهم المصادر التي أرخت للطريقة الشائبة.

و استخدمت العديد من المراجع والأبحاث في الواقع القبلي الحدودي، وإن كان البحث في تاريخ القبائل الحدودية لم يحظ باهتمام من قبل الباحثين الكثيرين من الجزائريين وظلّت الأبحاث المتعلقة به حصراً على التونسيين إذا استثنينا دراسة توفيق بن زرّة المعنونة بـ: (الكفدراليات القبلية الحدودية ودورها في العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الجزائر وتونس خلال العهد العثماني - الحنانشة أنموذجاً -، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، تخصص العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الجزائر العثمانية ودول المغرب الكبير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة، الجزائر، 2014م). والتي سلط فيها الباحث الضوء على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية بين الجزائر وتونس من خلال كنفدارلية الحنانشة.

أمّا الدّراسات التّونسيّة فقد جاءت عديدة منها: دراسة "العربي الحناشي" التي جاءت بعنوان: (الحنانشة وعلاقتهم بالسلطة في تونس (1640-1740م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الكفاءة في البحث، جامعة تونس الأولى، 1988م). حاول من خلالها الباحث إبراز علاقة "الحنانشة" بالبايات المراديين والحسينيين ومسامي السلطات للتقرب من "الحنانشة" للاستفادة من إمكاناتها العدديّة والعسكريّة، كما كشف دور القبيلة في تحريك الأحداث السياسيّة بتونس من خلال دعمها لأحد طرفي النزاع ضدّ الآخر.

كذلك كتاب الأزهر الماحري الموسوم بعنوان: (قبائل ماجر والفراشيش خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في جدلية العلاقة بين المحلي والمركزي، منشورات كليّة الآداب والفنون والإنسانيات، جامعة منوبة - تونس، 2007م)، والذي تناول فيه المؤرخ تفصيلات قيمة عن قبائل ماجر والفراشيش من حيث التّوضع الجغرافي والتّركيبات البشريّة وعلاقتها بالسلطة المركزيّة بتونس، وكتابه الثّاني بعنوان: (القبيلة الولائيّة والاستعمار أولاد سيدي عبيد والاستعمار الفرنسي في الجزائر وتونس، ط1، المغاربيّة للطباعة والنّشر، تونس، 2013م)، والذي قدّم فيه دراسة جدّ قيمة عن قبيلة "أولاد سيدي عبيد" هذه القبيلة الحدوديّة المرابطيّة ذات الانتماء المزدوج، كما تحدّث عن جذورها ومسار تفكيكها من طرف المحتل ودورها في مقاومة المحتل.

وكتاب إدريس رائسي: الذي يحمل عنوان: (القبائل الحدوديّة التّونسية الجزائريّة بين الإجارة والإغارة (1830-1881م)، ط1، دار المتوسطة للنشر، تونس، 2016م) وقد تطرق فيها لحياة القبائل الاقتصاديّة والاجتماعيّة وتناول تفصيلات نشاطها الإغاري وكذا نزاعها حول الأراضي مستعينا برصيد أرشيف هام من وثائق الأرشيف التّونسي.

كما استقيت مادة الموضوع من مجموعة مراجع هامة منها: (الأرض والهويّة. نشأة الدّولة التّرابيّة في تونس 1574 - 1881م) للدكتورة فاطمة بن سليمان، إذ يعتبر من خيرة المراجع التي خدمت موضعنا بشكل جيد خاصة في الفصل الأوّل بتعرضها لإجراءات التّحديد وآلياته والإجراءات المعززة له من طرف السّلطة الاستعماريّة وأثر هذه الإجراءات على القبائل الحدوديّة.

دون أن أنسى الإشارة لكتاب هواري عدي: (الاستعمار الفرنسي في الجزائر سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي 1830-1960م)، والذي زدنا بمعلومات قيّمة عن المخطط التّفكيكي الذي تعرضت له القبيلة الجزائريّة وأثره عليها، وكتاب (تاريخ الجزائر الثّقافي) للدكتور أبو القاسم سعد الله والذي يُعدّ موسوعة ثقافية رصد خلالها المؤلّف جوانب عديدة من الحياة الثّقافيّة في الجزائر في العهد العثماني وحتى فترة الاستعمار، كذلك كتاب (التّجارة الخارجيّة للشرق الجزائري) للدكتور محمّد العربي الرّبيري، الذي يعتبر من أهم الدّراسات التي بحثت في علاقات الشّرق الجزائريّ التّجاريّة بإفريقيا، الحجاز، أوروبا والهيئات الأجنبيّة، وكتاب: (علاقات بايلك الشرق الجزائري بتونس أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي) لعميرواي حميده، الذي أفادني بمعلومات تتعلق

ببعض الجوانب السياسيّة والاقتصاديّة والثّقافيّة التي ربطت البلدين، وكتاب الدكتور مُحمّد علي الحباشي: (عروش تونس)، المطبوع بتونس سنة 2016م، والذي خدمني بشكل واضح فيما يخص تراجم القبائل التّونسيّة. بالإضافة إلى مجموعة هامة من المقالات العلميّة المحكّمة والمداخلات، وكذا أطروحات دكتوراة ورسائل ماجستير خدمت الموضوع، مثبتة في ببلوغرافيا البحث.

ثامناً-خطة البحث.

قسّمتُ الدّراسة إلى مُقدمة وفصل تمهيدي وأربعة فصولٍ وخاتمة، مردفة بعدّة ملاحق تُخدم الموضوع ومجموعة فهارس.

جاء الفصل التّمهيدي للتعريف بأصول أمّهات القبائل الحدوديّة الجزائريّة والتّونسيّة وأماكن تموضعها. أمّا الفصل الأوّل قد رصدت فيه حركة القبائل من التّأحيّة السياسيّة أين تطرقت فيه لعلاقة القبائل الحدوديّة بالسلطتين الجزائريّة والتّونسيّة مركزين على دورهم في التّأثير على العلاقات السياسيّة بين البلدين، وقمت فيه بالتّعريح أيضاً على توضيح مساعي السّلطة الاستعماريّة في حصر التّحرك القبلي، وموقف القبائل الحدوديّة منه وأثار هذه المساعي عليها.

و الفصل الثّاني الذي جاء مسطراً تحت عنوان: "مظاهر التّفاعل الاقتصادي بين القبائل الحدوديّة ونتائجه"، فسطلت فيه الضّوء على محورين أساسيين: الأوّل تشاركي تآلفي تمثل في: الاشتراك في النّشاط الزراعي والرّعوي والتّبادل التجاري عن طريق تجارة القوافل، والحوار الثّاني، وهو حاد وعنيف تمثل في: الصّراع حول الأرض وأعمال الإغارة والنّهب بينهما.

ليزيح الفصل الثّالث اللثام على التّواصل الاجتماعي بين القبائل الحدوديّة وتناولت فيه حالات العنف المتولدة بين القبائل بالتّطرق للإغارة كمعطى له أبعاد اجتماعيّة، كما تطرقت فيه أيضاً لحالات الانسجام والتّآزر التي وحدت المجموعات عن طريق الصّف والحوار والمصاهرة، دون أن أغفل التّطرق للهجرة المتبادلة بين المجموعات الحدوديّة، بعرض أسبابها وأشكالها وأحجامها، وموقف الإدارة الاستعماريّة والسّلطة التّونسيّة منها.

أمّا الفصل الرّابع فقد جاء ليبين أبرز صور التّفاعل الثّقافي القائم بين القبائل الحدوديّة والذي برزت تجلياته في محطات بارزة على رأسها: الرّحلات والهجرة العلميّة والطّرق الصّوفيّة وتبادل الرّيارات للأضرحة والأولياء، كما تناولت فيه سرداً لأوجه التّشابه بين المجموعات الحدوديّة والتّشارك في بعض الأنشطة الثّقافيّة والاجتماعيّة والترفيهيّة.

تاسعاً-صعوبات البحث.

خلال بحثنا هذا واجهتنا عراقيل وصعوبات عديدة تمثلت أولها في: غلق الحدود مع البلد الشقيق "تونس" بسبب جائحة كورونا التي امتدت تأثيراتها إلى حقل البحثي العلمي، مما أستهال بسببها التَّنقل إلى هذا القطر الشقيق للتزود بوثائق أرشيفية تخدم الموضوع بشكل أكثر.

الصُّعوبة الثَّانية: تكمن في تشابك جزئيات الموضوع وتداخلها مما صعب عليا من مهمة الفصل بين عناصره لارتباطها الشَّدِيد ببعضها البعض، بالإضافة إلى أنني حاولت في هذه الدراسة الإحاطة بكل المعطيات مما تطلب مني إعطاء صورة كاملة على تفصيلات هذا التَّحرك في مختلف الميادين المشار إليها في متن البحث .

وفي الأخير أأمل أنني قد وفقت في عرض حيثيات هذا الموضوع وكشف تفصيلاته والبحث في أبعاده وتبعاته على القبائل الحدودية على البلدين. فما كتب من توفيق فهو من الله عز وجل، وما أعتري من أخطاء ونقائص فمني ومن الشَّيطان، كما لا يفوتني في هذا المقام أن أتقدم بالشُّكر لكل من قَدَّم لي يد المساعدة وأخص بالذكر الأستاذ المشرف الذي علمني أن أكابد الصُّعاب بشموخ، وأن لا استسلم لليأس، كما أتقدم بالشُّكر الوارف لأعضاء لجنة المناقشة التي تشرفت بقراءة وتقييم هذا العمل.

كوثر العايب

وادي سوف يوم الجمعة: 18 رمضان 1442هـ

الموافق ل: 30 أبريل 2021م.

الفصل التمهيدى

القبائل الحدودية الجزائرية والتونسية

(التكوين - الموقع (المجال) - العلاقة).

- أولاً- القبيلة التعريف والمكونات.
- ثانياً- القبائل الحدودية بين البلدين.
- ثالثاً- مسألة الحدود بين البلدين وعلاقة القبائل بالسلطة القائمة في الفترتين العثمانية والفرنسية.

تعتبر مسألة الحدود¹ بين الجزائر وتونس من أبرز العوامل المتحكمة في طبيعة العلاقات بين البلدين في فترة الوجود العثماني وحتى فترة الاحتلال الفرنسي، وذلك بفعل حركة² القبائل القاطنة على هذه الشحوم، حيث كانت هذه الأخيرة في حركة دؤوية بفعل المصالح الاقتصادية، وفي تواصل مستمر نظرا للروابط الاجتماعية التي كفلتها رابطة المصاهرة فخلفت حؤلة بين هذه القبائل، وكذا الهجمات والمصادمات العنيفة التي كانت تنشأ بين الفينة والأخرى فيما بين هذه القبائل، بفعل تصادم المصالح تارة والانتقام تارة أخرى، فكانت القبيلة عنصراً رئيسياً في رسم مشهد هذه العلاقات. فما هو مدلول القبيلة وما هي مكوناتها؟

أولاً- القبيلة التعريف والمكونات:

القبيلة هذا النسيج الاجتماعي المتناسق الذي أوجد لنفسه مكانة ودورا هاما في تاريخ العلاقات بين الجزائر وتونس والتي تباينت شدتها حسب الظروف السياسية والاقتصادية وكذلك حسب المراحل التاريخية من خلال تنقلاتها المستمرة بين مجالي البلدين.

1- تعريف القبيلة:

1 - 1 - لغة:

القبيلة هي مفرد جمع قبائل ، وهم أبناء أب واحد، والشعب القبيلة العظيمة، وقيل الحي العظيم يتشعب من القبيلة وقيل هي القبيلة نفسها والجمع شعوب، والشعب أبو القبائل الذي ينسبون إليه أي يجمعهم و يَضُمُّهم، وفي مُحكم التنزيل قال الله تعالى:

1 - الحدود: مفردا "الحد"، وهو الحاجز بين الشئيين، وحد الشئ منتهاه، والحد هو المنع، وهناك من عرفه بأنه الفصل بين شئيين لئلا يختلط أحدهما بالآخر، أو لئلا يتعدى أحدهما على الآخر، وجمعه "حدود". أما اصطلاحاً: فالحد أو التَّخْمُ عبارة عن خطوط مرسومة تحدد كيان الدولة وتعليمها الأرضي ومساحتها الأرضية والمائية، وهناك من يرى أن معنى الحدود لا يقتصر على معنى خطي فقط، بل هو يحمل مدلول ترابي و بشري وسياسي، وأنه الفضاء الذي يصل إليه نفوذ الحاكم، كما يحمل معنى المناطق الفاصلة بين الوحدات الإدارية، وأن نطاق الحدود هو المكان الذي يشير إلى نمو أو تقلص الدول. ينظر: أبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، تح: محمد محمد تامر وآخرون، (د. ط)، دار الحديث، القاهرة، 2009م، ص230. وينظر أيضاً: جمال الدين ابن منظور: لسان العرب، باب الحاء، مادة: حد، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، مج2، ج9، (د. ط)، دار المعارف، القاهرة، 1981م، ص799. وينظر أيضاً: محمد رياض: الأصول العامة في الجغرافيا السياسية والجيوبوليتيكا، ط1، مؤسسة هندية، القاهرة، 2012م، ص150. وينظر أيضاً: فاطمة بن سليمان: الأرض والهوية. (نشأة الدولة الثرائية في تونس 1574 - 1881م)، ط1، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 2009م، ص86. وينظر أيضاً: عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، مج2، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1985م، ص166.

2 - الحركة: ضد الشكون، وهي من الفعل الثلاثي: حرك، حرك، حركة، ونقول: وقد أعيا بما به حراك، قال "ابن سيدة" وما به حراك أي حركة. أما اصطلاحاً: فإن الحركة في دقائقها ومشمولاتها هي عنصر أو عامل شديد التغير يجلب معه تغيرات جذرية على المكان فيحمله من عنصر ثابت إلى عنصر متحرك ومتغير متخذة ثلاثة أوجه هي: الطريق الذي تتخذه الحركة، وسيلة الحركة (بر - بحر - جو)، وميدان الحركة ويشمل كل منطقة طريق الحركة من البداية إلى النهاية. ينظر: جمال الدين ابن منظور: لسان العرب، باب الحاء، مادة: حرك، المرجع السابق، مج2، ج10، ص844. وينظر أيضاً: مجد الدين محمد بن يعقوب فيروز أبادي: القاموس المحيط، مرتب ترتيباً ألفبائياً وفق ترتيب الحروف، تع: أبو الوفاء نصر الهوري المصري الشافعي، ط2، دار الحديث، القاهرة، 2008م، ص352. وينظر أيضاً: محمد رياض: المرجع السابق، ص42.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾¹.

وفي هذا قال عبد الله ابن عباس رضي الله عنه: الشُّعُوبُ الجُمُاعُ، والقبائل البطون، بطون العرب، والشُّعُوبُ ما تشعب من قبائل العرب والعجم².

2-1 - اصطلاحا:

القبيلة وحدة اجتماعية و سياسية مستقلة تقوم غالباً على فكرة الانتماء لجدٍّ مشترك حقيقي أو وهمي، وتتربك القبيلة البدوية من تجمُّع سياسي مستقل يضم بضعة آلاف من الأفراد كحد أقصى، وتضمُّ مجموعتين أو ثلاثة متحدين برابط القرى، وينحدرون من جدٍّ مشترك يحملون اسمه ويمتلكون مرعى مشتركاً ويقودهم شيخ يسمى "السَّيد"³؛ على أن المصالح المشتركة هي التي في الغالب كانت تدخل في تكوين هذه التجمُّعات القبليَّة، فالمصالح المشتركة امتصت ذاتية الفرد بفعل ولائه لها، كما فرضت عليه الالتزام بضرورات أخلاقيَّة واقتصاديَّة ودينيَّة مقابل حصوله على حماية وأمن ومورد رزق من الأرض، وتكون الأرض هنا محلُّ النَّشاط والقاعدة الأساسيَّة لتلك القبيلة والعشيرة، مثلما هو لسلالة الدَّم من أساس، لأنَّ اسم الجدِّ كان يُرفع لتعزيز الأبوة الذُّكوريَّة وللتخفيف من النَّزعات داخل القبيلة ولتعاقد أفرادها⁴.

ويذهب فريق آخر إلى أنَّ القبيلة عبارة عن تطور اجتماعي لمجموعة من الأسر عبر الزَّمن، وأحياناً تتكون من انضمام مجموعات بشريَّة لمجموعة أخرى بفعل الحجرات أو الحلف والجوار⁵.

2- /مكونات القبيلة:

تتكون القبيلة من التَّركيبات⁶ المعتمدة التَّالية: "الفصيلة" وكلُّ "فصيلة" إلى مجموعة من

1 - سورة الحجرات: الآية. 13.

2 - جمال الدِّين ابن منظور: لسان العرب، باب الشُّبُن، مادة: شعب، المرجع السَّابق، مج 4، ج 25، ص 2270.

3 - عبد الوهاب الكيالي: المرجع السَّابق، مج 4، ص 759.

4 - احمدية عمراوي: علاقات بابل الشُّرق الجزائري بتونس أواخر العهد العثماني وبدايات الاحتلال الفرنسي، (د. ط)، دار البعث، قسنطينة، (د.س.ن)، ص 23.

5 - بوزيانى الدراجي: القبائل الأمازيغيَّة أدوارها ومواطنها وأعيانها، ط1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007م، ص 63.

6 - رتب علماء الأنساب قبائل العرب على مراتب، هي: (شعب، ثم قبيلة، ثم عمارة، ثم بطن، ثم فخذ، ثم فصيلة). فالشعب النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان، والقبيلة مثل ربيعة ومضر، والعمارة مثل قريش وكنانة، والبطن مثل بني عبد مناف وبني مخزوم، ومثل بني هاشم وبني أمية، والفصيلة مثل بني أبي طالب وبني العباس. وجعل "ابن الكلبي" مرتبه بين الفخذ والفصيلة، هي مرتبة العشيرة. ينظر: جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، ط2، طبعة جامعة بغداد، بغداد، 1993م، ص 506 - 511.

الفصل التّهميدي القبائل الحدودية الجزائرية والتونسية (التكويين - الموقع - العلاقة)

"العَمَارَات" ¹، كما أنّ كلَّ "عَمارة" تنقسم إلى مجموعة من "البطون"، وكلُّ "بطن" إلى مجموعة من "الفخاذ"، التي يُعرف مفردُها بـ: "الفخذ" ²، وهناك تقسيم ثانٍ يُقسّم القبائل إلى: "برادع" وكل "بردعة" ³ إلى مجموعة من "العروش" وكل "عرش" إلى مجموعة من "الفرق" وكل "فرقة" إلى مجموعة من "الدّواوير"، وكل "دوار" إلى مجموعة من "البيوت"، وكلُّ "بيت" من "أسرة أبويّة" ⁴.

و من خلال ما سبق فإن القبائل الحدودية الجزائرية والتونسية تخضع في غالب الأحوال إلى التصنيف الأخير بحيث تضم القبيلة مجموعة من العروش والعروش مجموعة من الفرق والفرق مجموعة من الدواوير والدوار يضم مجموعة من البيوت وكل بيت من أسرة.

ثانياً- القبائل الحدودية بين البلدين ⁵:

1- القبائل الجزائرية:

1 - 1 - أولاد سيدي عبيد: يعود نسبهم حسب "عبد القادر المشرفي" ⁶ إلى جدّهم "عبيد بن حميد بن عامر بن زغبة"؛ ويذهب آخرون أنّ نسبهم إلى الولي الصّالح سيدي عبيد بن خضير الذي يعود حسب شجرة النّسب إلى الأدارسة الشّرفاء وهو الأصح، باعتبار أنّ عبد القادر المشرفي ردهم إلى بني عامر القاطنين بجهة وهران، في حين أنّ هذه القبيلة تتمركز حول الشّريط الغربي للبلاد التّونسيّة الذي يمتد من سهول "مجردة العليا" إلى بلاد "الجريد" و"نفزاوة"، وتنتشر من الجانب الجزائري على كامل منطقة "تبسة"، أي أنّهم يتربعون على المساحة الواقعة جنوب "تبسة" حتى منطقة الوسط والجنوب الغربي للبلاد التّونسيّة ⁷، ويشمل المجال الجغرافي لـ"أولاد سيدي عبيد" الفضاء الواقع بالجنوب الشرقي للجزائر وتحديدًا جنوب "تبسة"، إلى جانب منطقة

¹ - في وادي سوف يصغرون مفردة "العَمارة"، إلى "عميرة" بكسر الميم، ويكتبونها معرفة بالألف واللام "العميرة"، وهي عندهم عبارة على تقسيمات للعرش الواحد، فيقولون: ويتشكل العرش من مجموعة "عمائر". ينظر: بن سالم بن الطّيب بالهاف: **سوف تاريخ وثقافة، ط1**، مطبعة الوليد، وادي سوف، الجزائر، 2007م، ص51.

² - ابن حماد الجوهري: المرجع السّابق، 599.

³ - إدريس رائسي: **القبائل الحدودية التّونسية الجزائرية بين الإجارة والإغارة (1830-1881م)**، ط1، دار المتوسطة للنشر، تونس، 2016م، ص21.

⁴ - إدريس رائسي: المرجع نفسه، ص22.

⁵ - ينظر الملحق رقم (01)

⁶ - **عبد القادر المشرفي:** هو عبد القادر بن عبد الله بم تحمّد المشرفي الغريسي، تعلم بمسقط رأسه "معسكر"، كما درس بجامعة القرويين بفاس، وكان من خاصة فقهاء المالكيّة، بّحث، له اشتغال بالتاريخ. من آثاره "بهجة الناظر في أخبار الدّاخلين تحت ولاية الاسبان بوهران من الأعراب كيني عامر"، الذي أمّ تدوينه سنة 1178هـ/1765م، توفي سنة 1192هـ/1778م. ينظر: عادل نويهض: **مُعجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط2**، مؤسسة نويهض التّقافيّة، بيروت، 1980م، ص303.

⁷ - عبد القادر المشرفي: **بهجة الناظر في أخبار الدّاخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من أعراب كيني عامر**، تق وتحمّد بن عبد الكريم، (د. ط)، (د. م. ن)، (د. س. ن)، ص16. وينظر أيضاً: الأزهر الماجري: **القبيلة الولائيّة والاستعمار أولاد سيدي عبيد والاستعمار الفرنسي في الجزائر وتونس، ط1**، المغاربيّة للطباعة والنّشر، تونس، 2013م، ص12.

الفصل التمهيدي **=====** القبائل الحدودية الجزائرية والتونسية (التكويين - الموقع - العلاقة)

الوسط والجنوب الغربي للبلاد التونسية ويضمُّ بذلك منطقة "الهضاب العليا" و"السَّباسب" من الجهة الشماليَّة والواحات والشُّطوط التي تلتحم بالبحال الصَّحراوي من الجنوب، ويضمُّ كذلك منطقة "تبسة" و"بكارية" و"الماء الأبيض" و"صفاصف الوسرة" و"بئر العاتر" و"قنتيس" من الجانب الجزائري، أمَّا من الجانب التونسي فتضمُّ المناطق التَّالية: "توزر" و"نفطة" و"واحات تمغزة" و"ميداس" و"الشَّيكة" إضافة إلى المدن المنجمية خصوصا "الرديف" و"المتلوي"¹.

1 - 2 - قبيلة الحنانشة: تتشكَّل من ثلاث فروع رئيسية هي:

- الشَّاوية: وهم بربر الأوراس من هوارة و الحراكطة، وبني بربار والتَّمامشة.
- هوارة وإخوانهم أداسة: فرعان لشعب "زناتة"، وهم من سكان طرابلس الغرب وتحوَّل بعضهم إلى المغرب الأقصى مع الفتح الإسلامي.
- عرب بني هلال وبني سليم: الذين قدموا إبَّان الهجرة الهلالي على بلاد المغرب الإسلامي في القرن الخامس هجري العاشر ميلادي.

وأصل قبيلة الحنانشة هم الذين يعرفون بأحرار الحنانشة، أمَّا بقية الفروع سميت بالحنانشة إمَّا بالحلف أو الموطن، وجغرافيا يمتد نفوذها من "تبسة" إلى "سوق أهراس" ثمَّ إلى "عنابة"، ومنها إلى "قلعة سنان" و"جبال مسيد" إلى جنوب "وادي مجردة" وإلى "جبل قلاله" و"دقمة" و"سلسلة الكاف مسخوط الرِّعوريَّة" و"جبل تليس"، في مساحة شاسعة تمتد بين حدود البلدين، وقد أقرَّت الاتفاقية المبرمة بين الإيالتين عام 1628م أنَّ ما كان من غربي "وادي السَّراط" فهو لعمالة الجزائر، وعليه تكون هذه القبيلة جزائرية الموقع².

1-3- التَّمامشة: هم فرع من القبيلة البربرية (هواره)، ويسكنون الإقليم الذي يحمل اسمهم، ويعتبر هذا الإقليم امتدادا طبيعياً للكتلة الأوراسية، ويعتبر سكَّانه فرع من الشَّعب البربري الجبلي الذي تذكره المصادر الرُّومانية باسم موسلام (Musulames) أو الموسلان³، وقد جاءت تسميتهم في كتاب تاريخ العدواني بلفظة "المامشة"⁴، وقال عنهم: «أَنَّ والدهم "جالوت"، وتفرَّق

¹ - الأزهر الماجري : المرجع السابق، ص 17.

² - احميده عميراي: المرجع السابق، ص 25. وينظر أيضا: العربي الحناشي: الحنانشة وعلاقاتهم بالسلطة في تونس (1640-1740م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الكفاءة في البحث، جامعة تونس الأولى، تونس، 1988م، ص 11. وينظر أيضا: محمَّد الأمين بلغيث: الشَّيخ محمَّد بن عمر العدواني مؤرخ سوف والطريقة الشَّابية، ط2، دار كتاب الغد للنشر والتَّوزيع، الجزائر، 2008م، ص 105.

³ - بياركاستيل: حوز تبسة، دراسة وصفية جغرافية تاريخية لإقليم تبسة وأعراسه من فجر التَّاريخ إلى بداية القرن العشرين، تح: محمَّد العربي عقون، ط1، مطبعة بغيجة حسام، الجزائر، 2010م، ص 298.

⁴ - الممامشة: جاء في شأن تفسيرها عدَّة روايات، منها: أنَّه بعد انتصاب الحكم العثماني في الجزائر تمَّزَّد "العواسي" على القيادات التي فرضتها عليهم الحكومة المركزية، مما دفع بهذه الأخيرة إلى تسيير حملات عديدة فرقتهم في الجبال، ولكن الباشا ظلَّ يتوجَّس منهم خيفة باستمرار، وكان يسأل عنهم بعبارة "تلموشي"؟ بمعنى هل تجمعوا؟ ومن هنا جاء اسم "الملمشة"؛ وهناك رواية أخرى في مدونات "سان جرمان" تعود إلى سنة =

الفصل التمهيدي — القبائل الحدودية الجزائرية والتونسية (التكويين - الموقع - العلاقة)

الحال حتى نفذ ما سبق في علم الله آخرهم من "نفزاوة" في "جبل الملاهي" ... حتى كثرت رجالهم، وكانوا أربعين قبيلة ولا يزالون يختارون البقاع، نزلوا بموضع "قسنطينة" فكانوا بها أمراء ثم اختلف رأيهم¹، وكان لجدهم الأكبر "محمد بن عثمان" ثلاثة أبناء وهم: "رشاش"، و"علوان"، و"بريش"، ومنهم نسل كبير تكونت منه الفرق الكبرى الثلاث للنامشة الحاليين وهم: "أولاد رشاش" و"العلوانة" و"البرارشة"؛ والنامشة قبيلة موهوبة الجانب، وأثناء الفترة العثمانية كانوا يتمركزون في إقليم واسع يمتد ما بين "خنشلة" و"تبسة" ويصلون في انتجاعهم إلى واحات "وادي سوف"².

1-4-4 - طرود: نسبة إلى شيخهم وولي أمرهم "طرده بن دابس"، وهم من الأقوام الذين عمّروا "سوف" بعد "عدوان" حيث لم يكتب للأقوام التي قبلها القرار فيها، وهم من العرب المنتسبين لأولاد سليم، وهناك من يقول أن "طرودا": ليسوا لسليم وأهم من "منبس" إحدى بطون "هلال بن عامر"، ويُرجع "ابن خلدون" أن "طرودا" من "بني فهم بن عمر" وأن "قيس بن عيلان" بن "عدوان" وقد عاشوا في أول الأمر مع "بني دلاج" ثم اندمجوا مع "أولاد حكيم" أحد فروع "بني عوف" التابعة لبني سليم، ولقد هاجر "الطرود" بعضهم إلى الجنوب الجزائري كما تقدم، وبعضهم الآخر إلى المنطقة الشمالية الشرقية من البلاد التونسية³.

2/- القبائل التونسية:

2-1 - الفراشيش: قبيلة بربرية قديمة وهي مستعربة بالكامل مثل القبائل المجاورة لها، أما تسميتهم فيشير بعض الضباط الفرنسيين بالرجوع إلى بعض الروايات الشفوية بأنها مأخوذة من الكلمة المركبة من فعل "فر"، واسم "شيش"، ففرّ تفيد الهروب ومغادرة الموقع، أما "شيش" فهو

=1843 حيث قال: «عندما احتل أهل هذه القبيلة بلاد السند كان قسماً منهم يسكن تحت الخيام وقسم آخر يسكن في القرى وذات يوم جاء السُلطان إلى بلادهم وطلب منهم ضريبة على أملاكهم مما دفع يسكان الخيام للاستنجاد بإخوانهم من أهل القرى وطلبوا منهم المعونة لدفع الضريبة مناصفة فوعدهم، ولكن لم يأخذوا المسألة على محمل الجد وكان أهل الخيام يعودون إليهم ويلحون في طلبهم هل "الموشي"؟ أي "هل جمعوا؟" ما عليهم، ولقد خيَّب أهل القرية رجاءهم وألصقوا بهم هذه التسمية بصيغة الجمع». ورواية أخرى تقول بأن العرب تطلق على الألمان التمسا وهو مشتق من الكلمة البيزنطية (Nemitzia) للدلالة على "الجرمان"، وهي التسمية التي جاء بها الأتراك العثمانيون وأطلقوها على سكان إقليم "تبسة" بصيغة "اللامشة"، ويذكر كاستيل: «بأن هذا كله محض ... افتراءات». ينظر: بيار كاستيل: المصدر السابق، صص 169-170.

¹ - محمد بن عمر العدواني: تاريخ العدواني، تق: أبو القاسم سعد الله، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، ص303.

² - بيار كاستيل: المصدر السابق، ص296.

³ - محمد بن عمر العدواني: المصدر السابق، صص 86-92. وينظر أيضاً: روبرتشفيك: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15، تر: حمادي السّاحلي، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، صص 343-344. وينظر أيضاً: أحمد عمر مصطفى أبو ضيف: القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص218.

الفصل التمهيدي القبائل الحدودية الجزائرية والتونسية (التكويين - الموقع - العلاقة)

اسم القائد العسكري البيزنطي لشكنة "تالة"، وتقول الرواية بأن "شيش" تراجع عن المقاومة أمام توسع حركة الفتح الإسلامي لجهة الوسط الغربي إثر هزيمة "جرجير" ¹ بسببلة عام 648م².

أما عن أصلهم فيفيد البعض بأنها تعود إلى العساكر الثلاث الذين رافقوا القائد "عقبة بن نافع" رضي الله عنه، عند تأسيسه لمدينة القيروان وسيطرته على جهة الوسط التونسي سنة 686م، وهؤلاء القادة هم: "علي" و"ناجي" و"زاز" وقد نصبهم سيدنا "عقبة بن نافع" قادة على جهة الوسط الغربي وعلى سكنائها وإليهم أيضا تنسب عروش الفراشيش³.

ولا تزال اليوم من الفراشيش عشيرة في جهة "تبسة" ولكن أغلبها لا يزال يقطن بالقطر التونسي⁴.

وتعتبر قبيلة الفراشيش من أكبر القبائل في منطقة "السباسب العليا"، ويمتد مجالها الجغرافي من الحدود الغربية من جبال "بوزيعة" و"الصري" بحيدرة شمالا حتى جبل "درناية" حول "فريانة"، وجبل "السلموم" جنوب مدينة "القصرين"، ليمتد باتجاه الشمال الشرقي، مثل "جبل السراقية" وجبل "العطراء" وجبل "مغيلة" وصولا إلى "جلمة" و"حاجب العيون" شرقا، ويقدر عددها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مابين 40000 و45000 ألف نسمة، وقبيلة الفراشيش تتكون من ثلاث أعراش هي: "أولاد زاز" و"أولاد علي" و"أولاد ناجي"، ويضم كل عرش مجموعة من الفرق، فعرش "أولاد زاز" يتكون من ثمانية (8) فرق هي: "أولاد عسكر"، "الزغابة"، "الفرضة"، "الحنادرة"، "البعاصة"، "الأفيال"، "أولاد بولعابة"، "القصارنية"، و"أولاد موسى بن ععبوب"؛ أما "أولاد علي" فيضم تسع (9) فرق هي: "الحواظ"، "قماطة"، "السماعلة"، "البنانة"، "أولاد زيد"، "أولاد غيدة"، "الهياشرة"، "أولاد محمد" و"المروانة"؛ أما عرش "أولاد ناجي" فيتكون من تسع (9) فرق هي: "أولاد الحاج"، "الحوادث"، "الحراكتة"، "أولاد محفوظ"، "أولاد العسال"، "أولاد موسى بن ناجي"، "البريكات"، "أولاد عون" و"العسيلات"⁵.

1 - جرجير: القائم على أمر إفريقية زمن ملك القسطنطينية "هرقل"، قُتل على يدي القائد الصّحابي الجليل "عبد الله بن أبي الزبير" في "سببلة" التي تبعد عن "القيروان" مسيرة يومين. ينظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تح: أبي الفداء عبد الله القاضي، مج 2، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م، ص 485. وينظر أيضا: الحافظ بن كثير: البداية والنهاية، تح: حسان عبد المنان، ج 1، ط 1، دار الأفكار الدولية، بيروت، 2004م، ص 1096.

2- الأزهر الماجري: قبائل ماجر والفراشيش خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في جدلية العلاقة بين المحلي والمركزي، منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات، جامعة منوبة - تونس، 2007م، ص 54.

3- الأزهر الماجري: قبائل ماجر والفراشيش، المرجع السابق، ص 54.

4- بيار كاستيل: المصدر السابق، ص 44. وينظر أيضا: عميراي احميد: المرجع السابق، ص 57.

5- Nomenclature et répartition De Tribus De Tunisie ; Chalons -sur -Sanon, Imprimerie française Orientale, F. Bertrand, 1900, P.246 - 253. نقلا عن: إدريس رائي: المرجع السابق، ص 21.

2-2 - الهمامة: رغم أن ذكرهم لم يرد في المؤلفات القديمة ، مع ذلك يرجح أن يكونوا ذوي أصل عربي قدموا إلى إفريقية ضمن قبائل الزحفة الهلالية ، ارتحلوا إلى المغرب ثم عادوا للاستقرار في قفصة إبان انتصاب الأتراك بالإيالة التونسية¹.

والهمامة ينسبون إلى جدهم المؤسس "همّام" الذي أنجب ولد وهو "ربيعة" الذي أنجب بدوره ولدين هما: عزيز ومعمر وبنتا تزوجت رجلا اسمه إدريس وأنجبت له ولدين هما: رضوان وسلامة، وهؤلاء الأحفاد الأربعة هم الذين أعطوا أسماءهم للفروع الأربعة للهمامة أولاد عزيز أولاد معمر ، أولاد رضوان وأولاد سلامة ، كما أشتهر الهمامة بالفروسية وشدة البأس حيث كانوا يدرّبون أبناءهم في سن مبكرة على ركوب الخيل والقتال ، واعتمد البايات على فرسان الهمامة ضمن قبائل المخزنية².

2 - 3- أولاد ماجر: يُرجع "ابن خلدون" أصلهم إلى "زواغة" عند قوله «...أمّا "زواغة" فلم يتأدّ إلينا من أخبارهم وتصاريح أحوالهم ما نعمل فيه الأقدام، ولهم ثلاثة بطون وهي: "دمر بن زواغ" و"بنو أطيل بن زحيك بن زواغ" و"بنو ماخر بن تيغون" من "زواغة" ومن "دمر بنو سمكن"، وهم أوزاع في القبائل ومنهم بنواحي طرابلس متفرقون في براريها ولهم هنالك الجبل المعروف بدمر وفي جهات "قسنطينة" أيضا رهط من "زواغة" وكذلك بجبال الشّلف "بنو أطيل" منهم، وبنواحي "فاس" آخرون»³.

وتتكون هذه القبيلة من ثلاث عروش، أولهم: "أولاد مهني" المستقرين حول "وادي جلمة" في الجزء الجنوبي الشرقي من أرض "ماجر"، ويضمّ الفرق التّالية: "أولاد مرزوق"، "فرافرة"، "الهواشم"، "أولاد الرّعاوي"، الدّبابة"، "أولاد صالح"، "التّسليستات"، "أولاد عمران"، "أولاد غيلان"، "أولاد عباس"، "السّعادنة"، "أولاد الشّايب"، "أولاد الشّيخ"، "السّمانه"، "أولاد يعقوب"، "أولاد خليفة"، أمّا ثانيهم: فهو عرش "الغزاليين" القاطنين بجبال "مغيلة" ويجوي الفرق التّالية: "أولاد خلف"، "أولاد فايد"، "الغزلان"، "أولاد عون"، "أولاد عقيل"، "أولاد حجاز"، "أولاد علي" و"العثامنة"؛ وعن ثالث عروشهم: فهو عرش "شقمطة" الذين يسكنون الغرب باتجاه "سبيبة" وتنضوي تحته الفرق التّالية: "الخلجان"، "الخوالقنية"، "أولاد عبد السّميع"، "أولاد طريف". أمّا أصلهم فهو خليط غيرمتجانس ما بين عرب وبربر وبيزنطيين⁴، وموطن قبائل "ماجر" فيمتد من "حاجب العيون" إلى "وادي الفكة"⁵.

1- محمّد علي الحياشي: عروش تونس، ط1، منشورات ستوميديا، تونس، 2016م، ص23.

2- محمّد علي الحياشي: المرجع نفسه، ص23 - 24.

3- عبد الرّحمان بن خلدون: تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج6، ط1، دار الفكر، بيروت، 2000م، ص170.

4- الأزهر الماجري: قبائل ماجر والفرانجيش، المرجع السّابق، ص55.

5 - إدريس رائسي: المرجع السّابق، ص21 - 22.

4-2 - ورغة: يُعتقد أن أصلهم بريري من قبائل "هواره"، وقد يكونوا أوائلهم أبعادوا منذ القرن الحادي عشر من طرف قبائل "طرود" من المجال الترابي الذي كان لهم قرب الفايز بطرابلس، فارتحلوا رفقة عروش بريرية أخرى في اتجاه الشمال يتقدمهم "ضيف الله بن سعيد" جد الورغية الذي استقر في المرتفعات المطلّة على وادي ملاق، وبمحا عن الحماية دخل عرش ورغة مبكراً في دائرة العروش الموالية للدولة الحفصية ثم البايات الحسينيين وكان فرسان هذا العرش ضمن القوات المخزنية¹.

ثالثاً- مسألة الحدود بين البلدين وعلاقة القبائل بالسلطة القائمة في الفترتين العثمانيّة والفرنسيّة:

1/- مسألة الحدود في الفترتين العثمانيّة والفرنسيّة:

تعتبر أزمة الحدود بين البلدين وليدة القرن السّابع عشر ميلادي ورغم الفصل فيها باتفاق ضبط الحدود الأولى عام 1614م، والثّاني عام 1628م، والذي يُعتبر فيه "واد السّراط" حداً فاصلاً بين البلدين، غير أنّ المتمعّن لهذه الاتفاقية سيلحظ تغييب مجال الوسط والجنوب الغربي، مما يطرح تساؤلات عديدة عن حقيقة تغييب هذه الأجزاء من الأراضي من طرف السّلطات الحاكمة، وهنا يرى "الماجري" أن هذا يعود لاعتبارات عدّة أهمّها:

- تعقد المسألة داخل هذه المجالات.
- تشابك المصالح بين المجموعات الحائزة لها.
- عدم مقدرة سلطة البلدين على إخضاع هذه القبائل لسلطانها، أي عدم تمكنها من فرض سلطانها عليها.

ونظراً لخطورة الموقف وتجنباً لقيام أي قلاقل عُضَّ الطّرف من جانب سلطتي البلدين عن هذه الفضاءات الجغرافيّة والبشريّة².

وانطلاقاً من هذا التّحديد غير الدّقيق والذي استمر إلى غاية سنة 1860م نشبت صراعات ومناوشات بين القبائل الحدوديّة على بعض الأراضي التي يُبرّر كلّ طرفٍ أحقيته بها، ويصف لنا "كاستيل" هذا المشهد بقوله: «...وهي خطٌّ فضفاض وهناك أماكن يطالب بها التّونسيون بينما تصرّح قبائل الحوز بأنّها ملكٌ لها وكثيراً ما كان هذا الوضع سبباً في نزاعات مؤسفة بين الطّرفين مرّات عديدة، وتكوّنت الأحقاد والتّزعة إلى الثّأر، عوض أن يسود السّلم بين البلدين المجاورين سادت الكراهية التي تغذي الرّوح العدوانيّة لدى الطّرفين وتحولت إلى أعمال سطوٍ ونهب واقتتال»³.

1- محمّد علي الحباشي: المرجع السّابق، ص16.

2 - الأزهر الماجري: القبيلة الولائيّة والاستعمار، المرجع السّابق، ص 269-270.

3- بيار كاستيل: المصدر السّابق، ص219.

الفصل التّهميدي القبائل الحدودية الجزائرية والتونسية (التكويين - الموقف - العلاقة)

ولقد ظلّ الفضاء الجغرافي بين القبائل خاضعا لعامل التمدد والانكماش والمرتبطة أساسا بقوة القبيلة ومصالحها الاقتصادية والاجتماعية، فلا ضير أن تنشأ صراعات ونزاعات بين القبائل جراء التصادم في المصالح، ولكن عند تمعنا في وصف "كاستيل" لهذا المشهد، جعلنا نتصور أن المرحلة اللاحقة من هذا التاريخ قد عرفت انفراجاً لهذا المأزق الذي ظلّت القبائل الحدودية للبلدين تتخبّط فيه إلى غاية سنة 1860م، بمعنى آخر أن سلطة الاحتلال الفرنسي قد تمكّنت من إيجاد حلول لهذه التركيبيات البشرية التي كانت تتخبّط في ضوضاء عجزت السلطتين المركزيتين في الجزائر وتونس على حلّها قبل مجيء المحتل الفرنسي وسيطرته على أراضيها (1830-1881). خاصة إذا علمنا أن مسألة ترسيم الحدود الفعلية كانت من نتائج الاحتلال الفرنسي من خلال إبرام عديد المعاهدات في سنوات 1883م - 1884م - 1888م، مما يدفعنا للتساؤل هنا: عن الأسس المعتمدة في عمليات ترسيم الحدود؟ والآليات والإجراءات المتخذة؟ وأهدافه منها؟ ونتائجها على قبائل البلدين؟

إنّ فرنسا قبل هذه السّنوات بنصف قرن تقريباً وبمحجة عدم وجود حدود معلّمة بين البلدين كشفت عن نياتها في ضمّ أجزاء من التراب التونسي منذ احتلالها للجزائر عام 1830م، حيث نجدها عام 1837م، ضمت فحذا من قبيلة "نهد" المستوطنة غرب القطر التونسي إلى فخذ آخر لنفس القبيلة المستوطن بالقالة، ولأغراض مالية وإستراتيجية تخدم مصالحها ومصالح حلفائها، وعمّدت إلى تكوين لجنة (فرنسية - تونسية) لدراسة مشكلة الحدود¹.

وبعد بسط المحتل الفرنسي نفوذه على البلاد التونسية عام 1881م، أولى عناية خاصة بمسألة الحدود منتهجاً في ذلك نمط النظام السياسي للدولة الثرائية، ولتحقيق رغبته في ضمّ أجزاء من التّخوم التونسية للبلاد الجزائرية ساق تبريرات وحجج واهية لتبرير هجمته عليها، والتي تدور في فلك التّحرك القبلي للقبائل الحدودية من خلال:

- ✓ اتهام السّلطة التونسية بالتّقصير وعدم الجدّية في حماية الحدود الشّرقيّة للجزائر.
- ✓ الاعتداءات المتكرّرة من القبائل التونسية.
- ✓ تهديد المصالح الفرنسية في الجزائر.
- ✓ نمو تجارة التّهرب على الحدود.
- ✓ تهريب السّلاح باتجاه الجزائر عبر الحدود².

وعلى هذا الأساس وبدافع حماية المصالح الفرنسية وتأمينها وإيقاف سلسلة التّهديدات هذه، عمدت السّلطات الفرنسية إلى ترسيم الحدود بهدف ضمّ مناطق حدودية ذات بعد استراتيجي إلى نفوذها، كضم

¹ -احميدة عميراي: المرجع السابق ، ص89.

² - الأزهر المجري: القبيلة الولائية والاستعمار، المرجع السابق، ص 269-270.

الفصل التمهيدي **=====** القبائل الحدودية الجزائرية والتونسية (التكويين - الموقع - العلاقة)

منجم الرصاص بـ"أمّ الطبول" الواقع بين "طبرقة" و"القالا"، زيادة عن رغبتها في ضمّ المناطق الممتدة من "القالا" إلى "طبرقة" و"جبل خمير" وصولاً إلى "أولاد علي"¹.

هذا فيما يتعلق بالدوافع والأهداف، أمّا عن الأسس والآليات فقد اعتمدت الإدارة الاستعمارية على لجنة من الخبراء في مجالات عديدة، كالجغرافيا، ورسم الخرائط، والعلوم القانونية، وقامت هذه الأخيرة برسم خطوط فاصلة بدل الحدود الواصلة المعروفة سابقاً بين البلدين، مستخدمةً في ذلك آليات تقوم على العلامات المادية والعلامات المرقمة المثبتة على الأرض، وتفصل بينها مسافات مضبوطة ومتفق عليها، ودعمت هذه الآليات بإجراءات مكثفة، كإنشاء مؤسسات رقابة بهذه المناطق عسكرية وأمنية، وتجديد دوريات مراقبة حسب الظروف والتداعيات، وتأسيس أبراج مراقبة وثكنات على المعابر كمعبر "بودرياس" و"بكارية"².

إنّ هذه الإجراءات الجديدة لم تراخ أبداً الخصوصيات الجغرافية والبشرية لهذه القبائل مما تسبّب فيما يلي:

- ✓ إحداث خلل بحالة التوازن الطبيعي والبشري الذي كانت تعيشه القبائل الحدودية.
 - ✓ عدم مراعاة هذا التقسيم لواقع التشكيلة الديمغرافية لهذه القبائل، وذلك لوجود قبائل ذات منشأ مشترك بين البلدين كـ"أولاد سيدي عبيد" مثلاً.
 - ✓ عدم استجابته للواقع المحلي وعدم مراعاته للخصوصيات الجغرافية³.
 - ✓ تفكيك القبائل وتقسيمها وإعادة تركيبها إلى عدّة مجموعات منفصلة عن بعضها مجالياً وإدارياً وإحاق بعضها بدوائر إدارية مختلفة.
 - ✓ إحاق عدد من المجموعات التونسية بالجزائر وبعض الأراضي التونسية بالمجال الجزائري، كضمّ "أولاد وزاس" بالمجال الجزائري⁴.
 - ✓ تفكيك القبائل وتجزئة مجالاتها عن طريق الحواجز الطبيعية من غابات وجبال وأودية، أو عن طريق إقامة الحواجز المصطنعة كـ"الخنادق" مثلاً.
 - ✓ تفكيك المنظومة القبلية بهدف تسهيل بيع أراضي القبائل وتسهيل انتقالها للمعمرين⁵.
- غير أنّ هذه الإجراءات لم تضع حدّاً نهائياً لحركة القبائل الحدودية، وذلك بالنظر لطابع الترحال لهذه القبائل والذي يفرض عليها التنقل بين حدود البلدين لتحقيق المكاسب الاقتصادية، والقائمة في الأساس على النشاط الرعوي مما أوقعها في مصادمات عنيفة مع المستعمر الذي أراد إيقاف شريان الحياة بالنسبة لها. وستنطرق أكثر لهذه المحطات في الفصول اللاحقة.

1 - احميده عميراي: المرجع السابق، ص 89.

2 - الأزهر الماحري: القبيلة الولائية والاستعمار، المرجع السابق، ص 269-270.

3 - الأزهر الماحري: القبيلة الولائية والاستعمار، نفس المرجع، ص 265.

4 - إدريس رايسي: المرجع السابق، ص 27.

5 - المرجع نفسه، ص 26-28.

2/- علاقة القبائل الحدودية بالسلطين العثمانية و الفرنسية:

2 - 1 - علاقة القبائل بالسلطة العثمانية:

تمتعت القبائل الحدودية بخصائص عدة عن غيرها من القبائل الأخرى، وذلك لتوفرها على امتيازات جعلت إمكانية إخضاعها من طرف السلطين المركزيين ليس بالأمر السهل وذلك نظراً لـ:

- ✓ سيطرتها على الحيز الجغرافي الواقع في حدود البلدين.
- ✓ طبيعة نشاطها الاقتصادي الذي يفرض عليها التحرك المستمر بين مجالي البلدين.
- ✓ طابع التملص لديها من المستحقات الجبائية والفرار من قبضة السلطة المركزية¹.
- ✓ توفر بعضها على عامل القوة العددية والإمكانات العسكرية، مما أهلها لأداء دور ضابط على السلطة المركزية.

✓ تمتع بعضها بالحظوة الدنيئة مما أكسبها هالة من التقدير والإجلال من طرف السلطة الدنيوية².

بناء على هذا، كيف كانت علاقة القبائل الحدودية التونسية بسلطات الإيالة؟

2 - 1 - 1 - القبائل في الإيالة الجزائرية:

أما القبائل في العهد العثماني في الجزائر فقد انقسمت إلى القبائل الحليفة و المستقلة الممتعة التي بحكم علاقاتها مع الحكام وطبيعة اقتصادها تعيش على هامش النشاط الاقتصادي والعلاقات الاجتماعية، مما قد يتسبب في ترك آثار سلبية على جهاز الدولة الإداري ونظامها السياسي³.

أ) - القبائل الممتعة عن سلطة البايلك: كانت هذه القبائل تقطن في المناطق الجبلية الحصينة كـ"البابور" و"جرجرة" و"الونشريس" و"طرارة" و"شمال" و"قسنطينة" و"الأوراس"، وابتعاد نفوذ هذه القبائل عن السلطة اصبغها بصبغة الاستقلالية عنها، فسعت الحكومة القائمة من أجل الحد من هذه الاستقلالية وفق مايلي:

- تنصيب الحاميات وإقرار عشائر المخزن في الأماكن المهمة التي تتحكم في الأقاليم التي تقطنها هذه القبائل، كما قامت بإنشاء نقاط حراسة ومراقبة دائمة في مناطق القبائل ذات التحرك الثوري، وقامت بتوزيع حاميات عسكرية على كل من كتلي الأوراس والتمامشة.
- تعيين قياد مزودين بحامية تركية ومجموعة من فرسان المخزن بنية التحكم في شتى الأسواق الموسمية وكذا

1 - الأزهر الماحري: القبيلة الولائية والاستعمار، المرجع السابق، ص 236.

2 - ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي: الجزائر في التاريخ العهد العثماني، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1995م، ص 107 - 108.

3 - ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي: المرجع السابق، ص 112.

الفصل التّامهيدي **=====** القبائل الحدوديّة الجزائريّة والتّونسيّة (التّكويين - الموقع - العلاقة)

الأسبوعيّة الواقعة بقرب مواطن هذه القبائل، وذلك من أجل إحكام السّيطرة على هذه الأماكن كي لا تتحوّل إلى مراكز دعاية مضادّة للسلطة أو بؤر خطر عليها، لذلك وضعت السّلطة على هذه الأسواق هؤلاء القياد وإن حصل ما تخوفوا منه فيهرعون إلى إلغائها ونقلها إلى أماكن أخرى يحكمون سيطرتهم عليها.

● اللجوء إلى استعمال القوة لتدمير المداشر وإتلاف المحاصيل الزراعيّة بُغية إخضاع هذه القبائل للسلطة جراء تردي أوضاعها الاقتصاديّة والاجتماعيّة¹.

ب)- القبائل المتحالفة مع السّلطة: تعامل البايك عن طريق شيوخها وزعمائها المحليين الذين يتوارثون حكمها بحكم العادة والعرف معتمدين في ذلك على نفوذهم الدّيني كـ "قبيلة أولاد عبيد" مثلاً، التي كانت معفاة من الضّرائب طيلة أربعة قرون من وجودها، وكان بايات "فسنطينة" وباشوات الجزائر وحتى بايات تونس لا يطلبون منها سوى الدّعاء لهم بالخير في خطب الجمعة².

لقد تحالفت السّلطة معها من منطلق مقدرتهم الحربيّة وأصالة نسبهم، كما نجد أنّ هذه المجموعات القبليّة في جهة الشّرق الجزائري قد غلب عليها الطّابع الحربي، مثل قبيلة "الحنانشة" التي تمتعت بعدد الامتيازات والخصائص منها:

- ✓ تربعها على مساحة شاسعة من الأراضي الممتدة بين حدود الإيالتين.
- ✓ تمتعها بنفوذ قوي، حيث كان شيخ القبيلة يحظى بمكانة مرموقة تضاهي مكانة الباي أحياناً، فقد كانت له امتيازات تتمثل في حرية جباية الضّرائب والتّصرف بها دون مراقب، مع حرّيّة الإشراف الإداري وقت السّلم، فضلاً عن امتلاكه قوة عسكريّة³.
- ✓ قيامها بعقد أحلاف⁴ مع كبريات الطّرق الصّوفيّة والقبائل، كحلفها مع الشّايبة والنّمامشة وهذا من أجل توسيع دائرة نفوذها وقوتها، وكذا للحصول على أنصار وأتباع بشكل أكبر.
- ✓ لجوؤها إلى عامل المصاهرة، وهو عامل جدّ هام مكّنها من تدعيم نفوذها أكثر، كذلك الزّواج الذي جمع "علي باي" بابنة الشّيخ منصر⁵.

¹- ناصر الدّين سعيّدون والمهدي بوعبدلي: المرجع السّابق، ص 109-110.

² - بيار كاستيل: المصدر السّابق، ص 211 - 212.

³ - بيار كاستيل: المصدر السّابق، ص 211 - 212.

⁴ - الحلف: هو إجراء عمدت إليه القبيلة لضّمّ القبائل المجاورة لها أو ضمّ القبائل ذات الأصل الواحد والتي تدعي الانتساب إلى جد مشترك، وهو عبارة عن ميثاق يتعاهدون فيه أنّ يكونوا صفاً واحداً مسانداً، ينفرون إلى القتال معاً ويتحمّلون الدّيّات معاً، ويأخذون بثأر بعضهم بعضاً، وقد دفعها لهذا الأمر ظروف اقتصاديّة وحتى حربيّة، وأحياناً قامت الأحلاف بين القبائل المجاورة من أجل تحقيق الأمن والسّلام بينها. ينظر: أحمد عمر مصطفى أبو ضيف: المرجع السّابق، ص 248.

⁵ - محمّد الصّغير بن يوسف: المصدر السابق، ج 2، ص 86.

الفصل التّهميدي — القبائل العدويّة الجزائريّة والتّونسيّة (التّكويين - الموضع - العلاقة)

✓ شَعَلَهَا مركز استقطاب للقبائل المجاورة لها مثل: "أولاد شارن"¹، و"أولاد بوغانم"²، و"الفراشيش"، وأيضاً أسركَ "بني معمري"، و"أولاد علي"، و"بني زنداي"، و"توبسة"، و"أولاد سالم"، و"بني سقوال"، و"بني من الله"³.

✓ قوتها العدديّة، حيث كان بإمكانها تجنيد ما يفوق ثمانية آلاف (8000) فارس.

ورغم التّحالف الذي جمعها بالسلطة، إلّا أنّ ذلك لم يمنع السّلطة من اتخاذ عديد التّدابير في سبيل إخضاع هذه المشيخات القبليّة إلى سلطاتها، وذلك وفق الخطوات التّالية:

• التّقرب إلى الشيوخ ومرابطيهم وذوي الرّأي منهم بإسقاط المطالب المخزنيّة عنهم، وتقديم الهدايا، وإصدار فَرَمَانَاتِ التّولية مقابل خدمات محدّدة، كتأمين الطّرق، وجمع الصّرائب من الدّواوير والمداشر التّابعة لهم، وبهذا أدى هؤلاء الشيوخ والرّعماء دور الوسيط بين الأهالي والسلطة وأصبحوا أداة طيعة يستخدمها الحكام في بسط نفوذهم غير المباشر على المجموعات القبليّة التي يصعب إخضاعها.

• خلق تنافس وتناحر بين الأحلاف القبليّة الكبرى، وذلك بتشجيع الصّراع العشائري المعتمد على مبدأ الصّفّ والعصبيّة القبليّة، ومن أشهر الأحلاف المتصارعة على مناطق المياه والمراعي نجد كلاً من: أحلاف "عبد النور" ضد "الحراكتة" بمنطقة الهضاب العليا بقسنطينة وكان للسلطة يدٌ في إثارة صراعها.

• شنّ الحملات الانتقاميّة المفاجئة بين الحين والآخر، وذلك عندما تظهر من تلك القبائل بوادر الامتناع عن تقديم المطالب المخزنيّة أو يحاول بعضها التّخلص من رقابة البايلك⁴.

2 - 1 - 2- القبائل في الإيالة التّونسيّة:

قامت السّلطات التّونسيّة بالتّحالف مع بعض القبائل والاستعانة بهم كقبائل "المخزن" و"المرزاقية".

(أ) -قبائل المخزن: تتكون من تحالف مجموعة من القبائل التي لا تعود لنسب واحد وأصل مشترك، بل تقوم على تقديم الدّعم العسكري حسب الحاجة وتحصل هذه القبائل مقابل هذا التّحالف على امتيازات جبائيّة واقتصاديّة وتحظى بمكانة متميزة بين القبائل الأخرى، وازداد الاعتماد عليها في العهد العثماني وتوسعت

¹- أولاد شارن: هم طائفة من أهل بر "ماجر" من "أولاد عامر بن هلال". ينظر: مُحمّد بن عمر العدواني: المصدر السّابق، ص 79.

²- أولاد بوغانم: قبيلة تونسيّة تسكن بموازة الشّريط الحدودي، ويرى فريق آخر أنّ أصل هذه القبيلة جزائري. ينظر: بيار كاستيل: المصدر السّابق، ص 219. وينظر أيضاً: عبد الوهاب شلاي: نظرات فاحصة في تاريخ تبسة وجهاد أهلها في القرن 19م، تق: عبد الكرم بوصفصاف، ط 1، دار الهدى للطباعة والنّشر والتّوزيع، عين مليلة - الجزائر، 2006م، ص 74.

³- احميده عميراي: المرجع السّابق، ص 26.

⁴- ناصر الدّين سعيدوني والمهدي بوعبدلي: المرجع السّابق، ص 108-109.

الفصل التّمسيدِي ===== القبائل الحدوديّة الجزائريّة والتّونسيّة (التّكويين - الموقع - العلاقة)

في عهد "حمودة باشا"¹ معرفته بأهميتهم البالغة في إحكام السّيّطرة على المجال الدّاخلي، فقد تمتّعت هذه القبائل بقوة تفوّقت على كلّ من الجيشين النّظامي والانكشاري وذلك انطلاقاً من الاعتبارات التّالية:

- الخبرة الحربيّة في ميدان الفروسية وسرعة التّنقل.
- كونها جزء من المجتمع القبلي.
- معرفتها الجيدة بمكوّنات المجال الجغرافيّة والبشريّة².

وقد مكنتها هذه الاعتبارات من أداء دور الوسيط بين المجتمع والسّلطة، وتعتبر قبيلة "دريد" من أوّل القبائل التي تمّ مخزنتها وكذلك قبيلة "أولاد سعيد" في عام 1710م في عهد "الحسين بن علي"³، وبانضمام هذه القبائل لصف السّلطة الحاكمة تمكنت من تحقيق:

- ✓ توحيد المجال الدّاخلي وإعلاء سيادة الحُكّام.
- ✓ الوقوف في وجه القبائل المتمرّدة.
- ✓ حماية المجال الحدودي خصوصاً في المناطق التّخوميّة⁴.

(ب) - **المزراقيّة:** تتكون من فرسان القبائل المخزنيّة، تمّ تنظيمها في شكل دواوين برئاسة القائد وهو المشرف على هذه المجموعة، ويؤدي دور الوسيط بين الباي وبقية أفراد القبيلة، وهو في مرتبة "كاهية صبايحيّة"، بالإضافة إلى الشيوخ والفرق ومجموعة من الفرسان يختلف عددها من قبيلة إلى أخرى، فديوان "الفراشيش" مثلاً ضمّ 250 مزراقي، مقابل 750 مزراقي لفروع "ماجر" التّلاث ويتمثل دورها في:

1 - **حمودة باي:** ويدعى أيضاً "مُحمّد باشا" تولى حكم تونس في الفترة الممتدة بين 1631/1666م، قال عنه ابن دينار ما يلي: «الأمير الأُمجد أبو عبد الله مُحمّد باي... انفرد بالولاية بجنان قوي، وقابل الرّعيّة برفق، وقزّب القاصي، ونهر العاصي، وهو إذ ذاك في عنفوان شبابه، وكان... معتدل القامة، تام الخلق، أزهر اللون، بديع الشّكل لا يمتلي منه النّاطر لحسن اعتداله، ولم يكن في زمانه أحد من أمثاله في حدة ولين وعقل رزين». ينظر: ابن أبي دينار: **المؤنس في أخبار إفريقيّة وتونس**، ط1، مطبعة الدّولة التّونسيّة، تونس، 1869م، ص215.

2 - فاطمة بن سليمان: المرجع السّابق، ص160.

3 - **الحسين بن علي:** ولد سنة 1086هـ/1675م، من والد قدم من جزيرة كريت متطوعاً للخدمة العسكريّة في الدّولة المراديّة، وحَدّ ابنه حذوه وأخذ يرتقي سلّمها شيئاً فشيئاً إلى أن أصبح مؤسس العهد الحسيني بمبايعته للحكم في يوم الأحد 20 ربيع الثّاني 1117هـ/12 جويلية 1705م، كان متبني لابن أخيه "علي" وبذلك عُدّ المرشح الوحيد للسّلطة من بعده، لكن بمجرد إنجابه للولد، درأ ابن أخيه عن السّلطة مقدماً في ذلك ابنه عليه، وهو من أبرز الأسباب التي دفعت "علي باشا" للثورة عليه. ينظر: أحمد ابن أبي الضّيّاف: **إتحاف أهل الزّمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، تح: لجنة من وزارة الشّؤون الثّقافيّة، ج2، ط2، الدّار العربيّة للكتاب، تونس، 2004م، ص105 - 107. وينظر أيضاً: مُحمّد الصّغّير بن يوسف: **المشروع الملكي في سلطنة أولاد علي التّركي**، تق: أحمد الطويلي، ج1، ط1، المطبعة العصريّة، تونس، 1988م، ص69 - 75.

4 - فاطمة بن سليمان: المرجع السّابق، ص161 - 162.

الفصل التمهيدي **=====** القبائل الحدودية الجزائرية والتونسية (التكويين - الموقع - العلاقة)

✓ مؤازرة المحلة عند خروجها لجباية الضرائب.

✓ الاستعانة بها للقضاء على تمردات بعض القبائل¹.

(ج) - القبائل الخارجة على نفوذ السلطة والتمردية: وهي القبائل التي كانت تستغل سوء الأحوال السياسية للثورة على السلطة، كقبائل "أولاد شنوف" في الغرب، و"أولاد سعيد" في الجنوب، وقد انصرف كل اهتمام البايات لإخضاع هذه القبائل من أجل إقرار الأمن والقضاء على الفساد².

2-2- علاقة القبائل بالسلطة الفرنسية:

بمجيء المحتل الفرنسي وسيطرته على تراب البلدين اتخذت علاقة القبائل به سمتين، هما:

2-2-1 - الرضوخ لسلطة الاحتلال: ومن جملة القبائل الخاضعة له نجد: "أولاد يحيى بن طالب" و"البرارشة" و"العلاونة" و"أولاد رشاش".

2-2-2 - قبائل معارضة لسلطة الاحتلال: حيث فضلت هذه القبائل الدخول في صراع مرير مع المحتل الفرنسي الذي سعى إلى تركيعها وإذلالها من خلال تسخير قدراتها ومقدراتها بدل القبول والرضوخ لأوامره، ومن جملة هذه القبائل نجد: "الفراشيش" و"أولاد زايد" فرع من فروع "أولاد رشاش" و"العيساوي" من فرع "العلاونة"³.

من خلال ما تقدم نلاحظ أنّ القبائل الحدودية كانت تمتلك نفوذاً داخل دواليب الحكم في الإيالتين إبان الفترة العثمانية، وكذا فترة الاحتلال الفرنسي بالنسبة للقبائل الجزائرية والتونسية منذ إعلان الحماية، من خلال حضور وزن هذه القبائل في رسم معادلة العلاقات بين البلدين، في شتى مناحيها، التي أصبحت تتأثر بالسلب والإيجاب بناء على تحركات هذه القبائل. وعليه، ما البعد السياسي الذي مثلته حركة القبائل الحدودية بين الدولتين الجزائرية والتونسية زمن الاحتلال؟

¹ - سلوى هويدي: أعوان الدولة بالإيالة التونسية الأفراد، القبائل، المجموعات، شبكات العلاقات (1735-1814م)، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، مخبر البحث تاريخ اقتصاد المتوسط ومجتمعاته، تونس، 2014م، ص 131 - 132.

² - فاطمة بن سليمان: المرجع السابق، ص 146 - 148.

³ - بيار كاستيل: المصدر السابق، ص 197.

الفصل الأول

حركة القبائل الحدودية الجزائرية

التونسية وبعدها السياسي.

- أولاً- حركة القبائل عند المنطقة الحدودية خلال القرن الثامن عشر.
- ثانياً- حركة القبائل عند المنطقة الحدودية وتأثيره على علاقات البلدين خلال القرن التاسع عشر.
- ثالثاً- أثر الإجراءات الفرنسية على التواصل القبلي وموقف القبائل الحدودية منه.
- رابعاً- القبائل الحدودية بين الإغارة والتآزر لمقاومة المحتل الفرنسي.

سيادة الدول تتجسد في فرض سيادتها على أقاليمها الحدودية والمجموعات البشرية التابعة لها، ولأنّ حدود الجزائر بتونس كانت تشهد ضبابية وغموضاً بفعل ذلك التمازج الكبير القائم بين المجموعات البشرية القاطنة عند الحدود، فقد شكّلت هذه الأخيرة أحد بؤر الصّراع بين الإيالتين بفعل حركة القبائل الحدودية وتجاوزاتها التي تُحلّ بقوانين الإيالتين على الحدود الجزائرية التونسية، والتي كانت تتم بتأثير عوامل ومعطيات كالمعطى السياسي.

لقد تسبّب هذا التّحرك الممارس من طرف القبائل في نشوب خلافات بينها بفعل صراعها حول نقاط المياه والمراعي، والذي سرعان ما انتقل ليؤثر على علاقات السّلطتين ببعضهما البعض، حيث عرفت علاقتهما توتراً بفعل تجاوزات القبائل الحدودية، الأمر الذي أدّى في نهاية المطاف إلى مواجهات عديدة عبر تاريخهما الطويل خلال الفترة العثمانية وفترة الاحتلال الفرنسي، هذه الأخيرة والتي شهدت فيها الحدود نقلة نوعية بفعل خبرة الفرنسيين في هذا المجال، حيث ادخلوا تغييرات كثيرة كان لها التّأثير البالغ على نمط حياة القبائل الحدودية، فكيف كانت تحركات هذه القبائل؟ وما تأثير حركتها الحدودية على رسم العلاقات السياسية بين البلدين؟

أولاً- حركة القبائل عند المنطقة الحدودية خلال القرن الثامن عشر:

1/- علاقة السّطة القائمة بالقبائل الحدودية في كلّ من الجزائر وتونس:

توافقت هذه الفترة الزمنية من عمر القطرين الجزائري والتونسي ومرحلة تشكّل نفوذ مستقل للإيالتين عن مقرّ السّطة العثمانية والتي اضمحلت فيها مظاهر ولائهما لها، وأصبحت مقتصرة فقط على تادية بعض الرمزيات كالدّعاء للسلطان في خطب الجمعة، والتّعاون أثناء الحروب¹، أمّا أمور التسيير فكانت من اختصاصات السّطة المركزية في كلا البلدين، وبما أنّ السّيادة ما هي إلّا تجسيداً لهيمنة السّطة على كافة التّركيبات البشرية في الأقاليم التابعة لها، فإنّ أيّ تجاوز بأيّ شكل من الأشكال يعتبر بمثابة تعدّ عن سيادتها².

من هنا نشبت بين البلدين صراعات ونزعات ومناوشات عديدة حول نقاط التماس الموجودة بين مجاليهما الحدودي، بحكم التّجاوزات المفتعلة من طرف القبائل الحدودية؛ وهو ما سنحاول معالجته أكثر بالتّطرق لعلاقة السّلتين بالقبائل الحدودية.

1 - 1 - علاقة السّطة القائمة بالقبائل الحدودية في الجزائر:

كانت السّطة العثمانية في الجزائر تتوجس خيفة من القبائل القاطنة على التّخوم وتخشى أن تشكّل ضدها قوة من شأنها أن تهدّد استقرارها، ولذلك تباينت سياستها مع القبائل الحدودية، فتارة نجدتها تقوم بإخضاع تلك

1 - ناصر الدّين سعيدوني والمهدي بوعبدلي: المرجع السّابق، ص 15.

2 - احميده عميراوي: المرجع السّابق، ص 18.

القبائل لسلطانها عبر منع تحالفها أو السعي لكسب وُدّها لجعلها طرفاً فاعلاً في صفّها، وأحياناً أخرى بإخضاعها للمراقبة والمتابعة؛ هذا التباين في موقف السلطة اتجاه القبائل مرده للاختلاف الموجود في خصائص القبائل بحد ذاتها، والمتعلق بطابعها وقوتها ونفوذها وحجمها ومقدار تأثيرها في الحياة السياسية في البلاد، يضاف إليه تغير الظروف والمعطيات التاريخية من عمر السلطة القائمة والتي تفرض عليها التكيف حسب المعطيات التي تملحها كل فترة، ومهما يكن فالسلطة العثمانية في الجزائر عمدت إلى اتخاذ جملة من التدابير والآليات المختلفة التي من شأنها أن تضمن السير الحسن لسياستها في البلاد وذلك عن طريق:

أ - منع اتحادات القبائل فيما بينها: لأنّ اتحادات القبائل مع بعضها البعض يعني ازدياد قوة هذه القبائل وبالتالي ازدياد عصيائها وتمردتها على السلطة، وامتناعها عن دفع الضرائب ورفض تنفيذ أوامر السلطة، فبالتحالف يمكن لها شدّ عضدها وازدياد قوتها، ولتجنب هذه المشكلات الخطيرة لجأت السلطة إلى شنّ حملات متكررة على القبائل المتحالفة، ومثال ذلك: الهجوم الذي شنته السلطة الجزائرية بقيادة "الوزناجي"¹ ضد قبيلتي الحراكتة² والنمامشة اللتين اتحدتا عام 1797م وعلنتا تمردهما على السلطة المركزية، وقد أحرز "الوزناجي" انتصارات عليهما وأرغمهما على الخضوع، بل رجع إلى قسنطينة محملاً بالغنائم الوفيرة، وبعد عامين من التاريخ السابق الذكر تحدّد هذا المشهد وتعرضت ذات القبيلتان لنفس المصير أيضاً، لتشهد الفترة الممتدة ما بين 1803-1805م قيام تمردين آخرين كان الأوّل منهما: بقيادة قبيلة الحنانشة وقضى عليه الباي "مصطفى انجليز"³، والثاني: بقيادة النمامشة، وأحمد "أحمد عثمان باي"، واستمرت تمردات هذه القبائل حتى في سنوات لاحقة، ففي سنة 1817م شنّ النمامشة تمرداً آخر، وفيه تحرك "شاكر باي"⁴ من أجل إخماده، لكن قبيلة النمامشة فرّت عنه، ليصبّ جام غضبه على قبيلة "سيدي عبيد" وأخذ كل ما لديهم من

¹ - مصطفى باي الوزناجي: وهو من الأتراك المقيمين في الجزائر حكم بايلك قسنطينة خلال الفترة الممتدة (1795 - 1798م) وقبلها حكم بايلك التيطري لمدة عشرين سنة. ينظر: مُحمّد صالح العنتري: فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها (تاريخ قسنطينة)، مر: يحي بوعزيز، ط2، دار هومة للشر والطباعة والتوزيع، الجزائر، 2005، ص ص 86-87.

² - الحراكتة: يرجع نسل الحراكتة إلى "مُحمّد نايل" والد أسلاف الحراكتة الذي نشأ في الصّحراء ثم توجه نحو الرّيف ومنه تشكّل سته وعشرون جيلاً، وبعدها استقر "مُحمّد نايل" في "عين البيضاء" كسيد، أمّا اسمهم فقد استمدوه من حركات أحد أبناء "زكري بن مُحمّد نايل" الذي ينتقل في علم الأنساب صعوداً ليصل إلى ابن عم رسول الله علي ابن أبي طالب رضي الله عنه. ينظر: Sellah Drradgi Yacine: Mémoire D'Ain Beida, Achevée d'imprimer de Dar-EL-Houda Ain M'lila, 2006, P.31-32.

³ - مصطفى انجليز (1798 - 1803م): اسمه الحاج مصطفى وهو تركي قادم في قسنطينة، كانت ولايته تشبه ولاية "صالح" باي في الرخاء والعافية وتمهيد الوطن، وعن سبب عزله يردها العنتري إلى قبيل صنيع ابنه الذي اشتهر بالفساد وإيذاء النَّاس. ينظر: مُحمّد صالح العنتري: المصدر السابق، ص ص 68 - 69.

⁴ - شاكر باي (1814 - 1818م): وهو من قدماء الأتراك في قسنطينة عرف ببطشه وكثرة سفكه للدماء في الحق والباطل، وأخذ أرزاق النَّاس، وفي زمانه اشتهر الأتراك بالظلم والجور. ينظر: مُحمّد صالح العنتري: المصدر نفسه، ص 81.

أنعام، ولما كانت سنة 1822م رفض التمامشة دفع الضرائب، فسُيرت ضدّهم جيوش غفيرة أفتكت لهم أربعون ألف رأس من الغنم¹.

ب - إتباع سياسة فرق تسد بين القبائل: وهي أيضا من الأنماط التي اتخذتها السُلطة في الجزائر من أجل كسر أيّ احتمال لتحالف القبائل، فشرعت في إشعال لهيب الفرقة والفتنة بين القبائل الحدودية، ومثال ذلك ما حدث للحنانشة والحراكتة والتمامشة، وأصبحت القبائل على إثر هذا الفعل تعيش في أتون صراع دائم بحكم هذه الخلافات التي كانت تنشر بذورها السُلطة، التي لا يروقها طبعاً أن تعيش القبائل الحدودية في استقرارٍ وأمنٍ، لذلك عمدت إلى إثارة النزاعات بينها لتصرف أذهانهم عن الانشغال بها، وبالتالي تمنع حركات تمرداتها ضدها².

ج - المهادنة ومحاولة كسب الولاء: خاصة تلك القبائل ذات النفوذ الكبير والمقدرة العسكرية العالية، كقبيلة الحنانشة ذات النفوذ القوي، لذا مالت السُلطة إلى مهادنتها وكسب وُدّها بعد فشلها في محاولة احتوائها³، وكان لشيخ القبيلة مكانة مرموقة تضاهي مكانة الباي أحياناً، من خلال حضوره بامتيازات تتمثل في جرية جباية الضرائب والتصرف بها دون مراقب، مع حرية الإشراف الإداري وقت السلم⁴.

د - استخدام القبائل المخزنية: وذلك من أجل ضرب القبائل المعزولة في المناطق الجبلية والصحراوية وجنّدت هذه القبائل في نقاط استراتيجية بالقرب من الطرق الرئيسية وبجوار المراكز العسكرية للحد من تحركات القبائل واحتواء تمرداتها⁵.

1-2- علاقة السُلطة القائمة بالقبائل الحدودية في تونس: لقد اتخذت صور تعامل السُلطة التونسية مع القبائل الحدودية عدّة أوجهٍ تباينت بين بعضها البعض بحسب الدّور الذي تشغله كل قبيلة، ومن هنا فالدّولة اعتمدت عدّة سياسات في كيفية تعاملاتها مع القبائل كلّ بحسب حجمه وتصنيفه ودوره.

أ - صنف فُرِضَ عليه المحبّي: ويُطبّق هذا الصّنف على القبائل الرّعية وظلّت هذه القبائل تدفع الضرائب بصفة مستمرة وعلى مَضَضٍ لتأكيد ولائها للسُلطة المركزيّة، ويبدو أنّ السُلطات التّونسيّة في عهدي البايات المراديين وحتى الحسينيين قبل "حمودة باشا"، لم تربطها بالمجموعات القبليّة أيّ علاقات مباشرة وإنّما كان نفوذها عليها يتمّ عن طريق الأعيان والمشايخ، وهؤلاء كانت لهم روابط وثيقة بالسُلطة، وكلا النّظامين كانا في حاجة

¹ - محمّد العربي الرّيزي: التّجارة الخارجيّة للشرق الجزائري، ط1، الشّركة الوطنيّة للنشر والتّوزيع، الجزائر، 1979م، ص27.

² - محمّد العربي الرّيزي: المرجع السابق، ص26.

³ - العربي الحناشي: المرجع السّابق، ص19.

⁴ - احميده عميراوي: المرجع السّابق، ص ص25-26.

⁵ - ناصر الدّين سعيدوني: وراقات جزائريّة. دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000م، ص279.

الآخر - القبائل - لتأكيد نفوذ كل منهما، فالشيخ المعين في حاجة ماسة لتزكية السلطة له لكي تصبح سلطته للمجال القبلي بصورة تامة وصريحة، في مقابل منح السلطة أداء يسمى بطريق الشيخ، وهو يعتبر بالنسبة للسلطة المركزية اعتراف أو تحديد اعتراف المجموعات المحلية بسيادتها، كما يعتبر في المقابل منه اعتراف من السلطة للمجموعات القبلية باستقلاليتها في إدارة شؤونها الداخلية، ومنه فعلاقتها اتخذت هذا النحو وتجددت في تبادل الهدايا فيما بينهما في مختلف المناسبات¹، على أن التزام القبائل دفع الضرائب لا يعني أن علاقاتها بالسلطة كانت ثابتة ومستقرة، بل شهدت أحيانا توترات وصراعات بفعل التأثير بالظروف الاقتصادية والاجتماعية، لذلك اندلعت انتفاضات عديدة على السلطة المركزية كانتفاضة قبيلة "ماجر" عام 1795م و1812م، بفعل ضيم الجباية التي أثقلت كاهل هذه القبائل، وكانت سبباً في اندلاع انتفاضات أخرى في فترات لاحقة كالتالي اندلعت عام 1864م².

ب - صنف القبائل الخاضعة: وطبقت السلطة على هذا الصنف سياسة قمعية لتأكيد سيادتها على المجموعات القبلية في جهة الريف، ولم تلق هذه التصرفات التي تقوم بها السلطة المركزية أي استهجان من طرف العلماء، بل بالعكس تماماً، فقد قاموا بتدعيمها إيديولوجيا في سبيل تأمين أجمع الطرق لتحقيق استغلال أمثل للأرياف³.

ج - القبائل المخزنية: وتندرج ضمن هذا التصنيف القبائل المتحالفة والمتعاونة مع السلطة، ومن القبائل الحدودية التي ينطبق عليها هذا التصنيف نجد قبيلة "الهمامة" التي تمتعت فضلا عن امتلاكها لأكبر مساحة بالبلاد التونسية واحتوائها لأكبر نسبة من سكان الإيالة، فقد كان اغلب أفرادها من رجال الباي، واستغلت القبيلة من طرف السلطة لقمع القبائل المتمردة، وتم انتداب المخازنية منها لتوفير الفرسان والقوات العسكرية لمساعدة السلطة في جباية الضرائب وتأمين الطرقات، مع ذلك فعلاقتها معها تراوحت ما بين الولاء تارة والمناهضة تارة أخرى⁴.

وبمجيء "حمودة باشا" تغيرت صورة تعامله مع القبائل، حيث تواصل معها بعلاقات مباشرة وهذه السياسة مكنته من الحصول على ولاء مختلف القبائل بما فيها تلك المتمردة على السلطة، وبفضل هذا الإجراء تمكن من الحصول والاستفادة من دعمها خاصة في حروبه ضد الإيالة الجزائرية، كما تمكن من إضعاف النفوذ القبلي

1 - عبد الحميد هنية: بناء الدولة المجالية في البلاد التونسية والمغرب الأقصى وآليات الاندماج في خلال الفترة الحديثة ما بين القرنين 17 و19، دراسة مقارنة، ط1، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، 2013م، ص14.

2 - الأزهر المجاري: قبائل ماجر والفراشيش، المرجع السابق، ص 515-516.

3 - عبد الحميد هنية: المرجع السابق، ص26.

4 - محمد علي الحباشي: المرجع السابق ص 44-45.

لصالح النفوذ المركزي عبر اختراق الكتلة القبليّة وربطه بأفرادها علاقة مباشرة، ومن هنا أضحت الدولة تمارس سلطتها على جميع الأفراد، بعدما كانت تمارسها على مجموعة من القبائل¹.

وقد مكنت الإستراتيجية المتبعة من طرف "حمودة باشا" من تحطّي سلبات سابقه، والمتمثلة في إهمالهم لدور القبائل وخاصة منها الحدودية في تحقيق هذه المساعي السامية التي تمضي في سبيل تحقيق السيادة الوطنيّة من أجل التخلّص من ثقل التبعيّة للإيالة الجزائرية، وعليه فقد صبّ جام اهتمامه بالقبائل ولم يستثن منها أيّ واحدة حتى التي تقطن في أطراف الإيالة، لأنّه كان على معرفة تامة بأهمية هذا العنصر في تحقيق مثل هكذا انجازات، وفشل سابقه كان بسبب عدم استغلالهم الجيد للعنصر القبلي، وهو ما تسبب في تحويله للطرف المضاد أثناء صراعهم مع الطرف الآخر، وبالتالي عُدت القبائل الحدودية أحد الوسائل التي تمّ اعتمادها من طرف حكام الإيالتين أثناء قيامهم بهجوم مضاد على الإيالة الأخرى²، إذن فحمودة باشا عمل على استغلال هذا العنصر بقيامه بعدد الإصلاحات التي مسّت دواخل البلاد، وعيّن على العروش أعياناً من مشايخهم وأبناءً من زواياهم، يعرف أشخاصهم وأسماءهم وحسبهم ويُسمّيهم في جموعهم مثل: "محمّد بن الشبوعي" في "جلاص" و "قاضوم بن محمّد" ممثل القرى ورجل الفراشيش، يسترشدهم في مصالح قبيلتهم، وكان لا يعزل شيخ إلا إذا اشتكاه الأكثر من أخوته ولا يعزله بقول العامل باتهامه بعدم الكفاءة، ولا يوليه إلا باتفاق الأكثر من أخوته، وبهذا أضحي العامل يجرس الرعيّة من تعدي المشايخ والمشايخ يجرسونها من تعدي العُمال³، ومنه فسياسته هذه مكنته من استقطاب عديد القبائل إلى جانبه، وتمكّن من الحصول على دعمها في حربه المشنّة على الجزائر عام 1807م، حيث انظم إليه فرسان الأعراس المختلفة في ساحة القتال، كونيقة، وشارن، ودريد، والأعراض، ورغم الهزيمة التي مُني بها في البداية، إلا أنّ القبائل ثبتت ولم تتراجع عن موقفها ولم تنحاز للطرف الآخر على عكس ما كان يحدث سابقاً، وبهذا التأييد والمساندة الفعّالة من طرف القبائل، تمكّن "حمودة باشا" (1782 - 1814م) من تحقيق نصرٍ على الجزائر عام 1807م، كما تمكّن من التحرر من تبعية الجزائر التي قاربت نصف قرن، ليتبيّن بهذا العمل شكل الدور الهام الذي أدته القبائل في الحفاظ والدّفاع على حدود ومجال السُلطة عندما تمّ استثمارها استثماراً جيداً⁴.

ثم إنّ القبائل لم تكن في منأى عن الأحداث السياسية التي عصفت بالإيالة التونسية، والتي نجدها قد أثّرت فيها بمشاركتها في مجريات أحداثها وأثّرت عليها بحكم تبعات تلك الحروب عليها، خاصة في تلك الحرب الأهلية التي جمعت بين "الحسين بن علي" وابن أخيه "علي باشا" (1730-1740م)، والتي انشطرت فيها القبائل الحدودية إلى شطرين، شطر يوالي "حسين بن علي" وسمو بالحسينية كالدريد والهمامة وجلاص، وشرط

1 - فاطمة بن سليمان: المرجع السابق، ص 217.

2 - فاطمة بن سليمان: المرجع السابق، ص 217.

3 - محمّد علي الحباشي: المرجع السابق، ص 62.

4 - فاطمة بن سليمان: المرجع السابق، ص 217.

يوالي "علي باشا" وسموا بالباشية، كالفراشيش وماجر، وهذا الانشطار أثر على علاقات القبائل ببعضها البعض، فقامت صراعات عديدة بين القسمين الباشي والحسيني، كذلك الصراع الذي جمع "الهمامة" مع "بني يزيد" و"ماجر" و"الفراشيش" لأحدهما ينتميان إلى صفتين متباينين سياسياً¹.

وبتجدد الصراع في البيت الحاكم بقيادة "يونس بن إسماعيل" عام 1759م، قامت بعض القبائل الحدودية بدعمه ومساندته لاحتمائه بهم، وبانتهاء الحرب قامت السلطة بملاحقة فلول القبائل الحاربة معه من أجل معاقبتهم، ومثاله: ما حصل لعروش "أولاد عيار" و"ماجر"، أين نزل الباي لتعقب أثرهم بنفسه مخافة من تكاثرهم وتحالفهم، وبالتالي يزداد شرهم فنزل فيهم بالمتابعة والقتال².

وتأثير القبائل على المجرىات السياسية أثر عليها بشكل أو بآخر، والذي تراوحت درجات تأثيره عليها بمقدار تأثيرها فيه.

2/- دور بعض القبائل الحدودية في الحياة السياسية بين البلدين:

تعتبر قبيلة الحنانشة من كبريات القبائل التي أدت هذا الدور بامتياز في كلا البلدين في آن واحد، ولم يكن لبقية القبائل مهما أشتد مدى تأثيرها على مجرىات العلاقات السياسية بين البلدين أن تشغل نفس الدور والحجم لقبيلة الحنانشة، التي ظلّت تحركاتها تشكّل ضغطاً مستمراً على السلطة في "الجزائر" و"تونس"، وحتى داخل البلد الواحد في حد ذاته، حيث نجد في تونس مثلاً أن تأثير هذه القبيلة ابتداءً منذ العهد المرادي، من خلال مساندتها لأحد طرفي النزاع على السلطة في تلك الحرب التي اندلعت بين كل من "محمد باي"³ الذي استمال إلى صفه "الحاج المرادسي" شيخ قبيلة الحنانشة فرع "أولاد نصر"، ضد عمه "محمد الحفصي"⁴، وظهر دورها مجدداً مع قيام الصراع السلطوي بين "محمد باي" وشقيقه "علي باشا"⁵، هذا الأخير الذي لجأ إلى الجزائر وبكل دهاء وحنكة سياسية قام بمصاهرة أحد فرعي هذه القبيلة، ومن خلال ذلك الزواج الذي جمعه بابنة سلطان "بني منصر"، تمكّن من تحقيق الانتصار على أخيه والجلوس على كرسي الحكم بفعل دعم هذه القبيلة والسلطات الجزائرية عام 1677م⁶.

1 - محمد علي الحباشي: المرجع السابق، ص 61.

2 - محمد علي الحباشي: المرجع السابق، ص 61.

3 - محمد باي: هو رابع حاكم من البيت المرادي تولى الحكم خلفاً لولده مراد باي المتوفى سنة 1675م، دخل في صراع عن السلطة مع عمه محمد الحفصي، ثم أخيه "علي باي" الذي استولى على الحكم بدعم "الحنانشة" والقوات الجزائرية سنة (1677-1686م) ثم عاد "محمد باي" للحكم مجدداً في الفترة الممتدة بين (1688-1699م) وقد تخللها حكم كاهيته وصهره من أخته "ابن الشكر" الذي ثار عليه وتمكن بفضل مساندة القوات الجزائرية من الجلوس على كرسي الحكم سنة (1695م). ينظر: ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 2، ص 60.

4 - العربي الحناشي: المرجع السابق، ص 42.

5 - علي باي المرادي: تولى الحكم في الفترة الممتدة بين (1677-1686م). ينظر: محمد بن محمد الأندلسي الوزير السراج: الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تق وتحرر: محمد الحبيب الهيلة، ج 2، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985م، ص 544.

6 - ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 2، ص 63-65. وينظر أيضاً: الوزير السراج: المصدر السابق، ج 2، ص 458.

ليتجدد دورها في العهد الحسيني من عمر الإيالة التونسية من خلال دعم الحرب الباشية الحسينية (1735-1740م) بين "حسين بن علي" باي، وابن أخيه "علي باشا"، بل أنّ هناك من يقول: بأنّ اندلاع الحرب بين العم وابن أخيه كانت بإيعاز من فرعي هاته القبيلة وخاصة "أولاد نصر" وشيخهم "بوعزيز" المنضم إلى صف "علي باشا"، في حين انضم شيخ "الحنانشة" من "فرع منصر" الشيخ "أحمد الصّغير" إلى "حسين باي"، وبالتالي يتضح لنا أنّ الحرب الباشية الحسينية كانت حرب بين فرعي القبيلة كذلك¹. ولقد أنهكت هذه الحرب الإيالة التونسية، حيث استمرت لأكثر من خمس سنوات كاملة انتهت باعتلاء "علي باي" كرسي الحكم عام 1740م².

وفيما يتعلق بدور الحنانشة على مستوى سلطتي الإيالتين فلمسه من خلال تمردات قبائل الشّرق الجزائري على السّطة عام 1694م، ويرى البعض أنّ أسبابها تعود إلى مساعي "محمّد باي" في تحريض هذه القبائل ودعوها للامتناع عن أداء الضريبة اللازمة عليها، حيث لم يتمكن باي قسنطينة "علي خوجة باي" (1692-1700م) من جمع سوى ثلاثين ألف (30.000) إيكو في ظرف ثلاث سنوات من جملة أربع مائة ألف (400.000) إيكو، أي بمعدل 7.5% مخصصة لدفع رواتب الجنود³، ولعل هذا ما دفع الدّاي "شعبان" (1689-1695م) لإعلان حربه على "محمّد باي" وعيّن بدلاً منه كاهيته "ابن الشّكر" باياً على تونس عام 1695م⁴.

وتجلى تدخلهم أيضاً من خلال دعمهم حملة سليل أسرهم "مراد باي" بن "علي باي" (1699-1702م) على قسنطينة سنة 1700م⁵، هذه الحملة كانت بإيعاز من مراد باي لهذه القبيلة حتى تثور على باي قسنطينة "علي خوجة باي"، تاركة وراءها أضراراً بالغة على الإيالتين، لأنّها من أخطر المواجهات في تاريخ الإيالتين⁶.

ولقد كان وراء هذا التأثير البالغ لهذه القبيلة على السّلطتين العديد من العوامل التي مكّنتها من أداء هذا الدور بفاعلية كبيرة من أهمها :

¹ - العربي الحناشي: المرجع السّابق ، صص 51-52.

² - أبو عبد الله محمد الباجي المسعودي: الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، ط1، مطبعة الدّولة التونسية بمحاضرتها المحميّة، تونس، 1283هـ، ص 121.

³ - العربي الحناشي: المرجع السّابق، ص 45.

⁴ - ابن ميمون الجزائري: التحفة المرضية في الدّولة البكداشية في بلاد الجزائر المحميّة، تح: محمّد بن عبد الكريم، ط1، الشّركة الوطنيّة للنشر والتّوزيع، الجزائر، 1972م، ص 25.

⁵ - محمّد الصالح العنتري: المصدر السّابق، ص 64.

⁶ - العربي الحناشي: المرجع السّابق، ص 47.

- ترعّتها على مساحة شاسعة من الأراضي الممتدة بين حدود الإيالتين - يمتد نفوذ هذه القبيلة من تبسة إلى سوق أهراس ثم إلى عنابة، ومنها إلى قلعة سنان وجبال مسيد إلى جنوب وادي مجردة وإلى جبل قلاله ودقمة وسلسلة الكاف، ثم مسخوط الزعرورية وجبل تليس، في مساحة شاسعة تمتد بين حدود البلدين¹.
- تمتعها بنفوذ قوي، حيث كان شيخ القبيلة يحظى بمكانة مرموقة تضاهي مكانة الباي أحيانا، فقد كانت له امتيازات تتمثل في حرية جباية الضرائب والتصرف بها دون مراقب، مع حرية الإشراف الإداري وقت السلم فضلا عن امتلاكه قوة عسكرية².
- لجوؤها إلى عامل المصاهرة، وهو عامل جد هام مكّنها من تدعيم نفوذها أكثر، كذلك الزواج الذي جمع "علي باي" بابنة الشيخ "منصر"³.
- قيامها بسياسة عقد أحلاف مع كبريات الطرق الصوفية والقبائل، كحلفها مع "الشايبة" و"النمامشة"، وهذا الإجراء جاء من أجل توسيع دائرة نفوذها وقوتها والحصول على أنصار وأتباع بشكل أكبر.
- شغلها مركز استقطاب للقبائل المجاورة لها، مثل: "أولاد شارن" و"أولاد بوغانم" و"الفراشيش"، وأيضا أسر ك"بني معمري" و"أولاد علي" و"بني زنداي" و"توبسة" و"أولاد سالم" و"بني سقوال" و"بني من الله"⁴.
- قوتها العددية: حيث كان بإمكانها تجنيد ما يفوق ثمانية آلاف (8000) فارس، وهذا العامل على وجه الخصوص على خلاف بقية العوامل السابقة كان من أهم العوامل التي استقطبت سلطتي الإيالتين، بل وجعلتهما تتنفسان حول الظفر بدعمهم خاصة في فترات الحروب.

وقد كانت قبيلة "الحنانشة" تارة توالي "تونس" وتارة أخرى تأتي ضدها، ونفس الشيء ينطبق على الإيالة الجزائرية، ففي سنة 1700م كانت قبيلة الحنانشة تدعم "مراد باي" باي "تونس" ضد "الجزائر"، ثم انقلبت عليه لتتحالف مع الجزائر التي انقلبت عليها بدورها عام 1702م، وهكذا دواليك ليؤول بهم الوضع في النهاية إلى وقوعها في مرمى ضربات كل من الجزائر وتونس عام 1714م وكذا عام 1724م، أين هجمتا كل من القوات التونسية وقوات بايلك قسنطينة الذي سلبهم ثمانية آلاف (8000) جمل، بالإضافة إلى عدد من الأبقار والخيام⁵.

أما قبيلة الفراشيش التي كانت تتحرك على الشريط الحدودي بحكم موقعها الذي كان يمتد إلى كامل شرق البلاد الجزائرية، كانت في تنقل دائم وتغير مواقع استقرارها بسهولة ويسر، قد قبلت السلطة التونسية بإجراء

1 - احمده عميراوي: المرجع السابق، صص 25-26.

2 - احمده عميراوي: المرجع السابق، صص 25-26.

3- مُحَمَّد الصَّغِير بن يوسف: المشرع الملكي في سلطة أولاد علي التركي، تق: أحمد الطويلي، معج 2، ط1، المطبعة العصرية، تونس، 2009م، صص 86.

4 - احمده عميراوي: المرجع السابق، صص 26.

5- صالح عباد: الجزائر خلال الحكم التركي (1514-1830م)، ط1، دار هومه للنشر والطباعة، الجزائر، 2011م، صص 155. وينظر أيضا: العربي الحناشي: المرجع السابق، صص 51.

تخفيفات جبائية لهذا القبيلة في مقابل حفاظ الفراشيش على حدود الإيالة من محاولات قبائل "التماشة" و"الحنانشة" التوسع داخل مجالها¹.

ثانياً- حركة القبائل عند المنطقة الحدودية وتأثيره على علاقات البلدين خلال القرن التاسع عشر:

نشبت بين الإيالتين مشاحنات عديدة في الجانب السياسي بسبب العديد من العوامل التي تضافرت فيما بينها لتخلق هذه الصورة المتوترة والعدائية بينهما²، ومن ضمن العوامل التي أثرت على علاقات البلدين، حركة القبائل الحدودية وضلوعها في العديد من المناوشات، مما دفع بسلطة البلدين البحث في الخروج من هذه الأزمة والمشكلة الحدودية، فانتهت بعد جولات عديدة لعدة سنوات بإبرام اتفاقية الحدود سنة 1628م والتي نصت على التالي:

- ✓ أن يبقى مجرى واد السراط هو الحد الفاصل بين البلدين في المناطق الجنوبية.
- ✓ أن يقوم التونسيون بتهديم المراكز العسكرية التي أسسوها في المناطق المتنازع عليها.
- ✓ يتواصل تحديد الحدود هكذا بين البلدين من وادي ملاق ابتداء من نقطة الإحيرش إلى الكرش، فقلوب الثيران و رأس جبل الحافة، ومن هناك إلى البحر.
- ✓ الذين يعبرون الحدود من كلا البلدين، لا يتم الإعلان عنهم من طرف الدولة، ويعتبرون متخليين عن بلدهم، كما يعتبرون من اختصاص البلد الذين اختاروا الاستقرار فيه³.

هذا الأمر لم يرق لبعض القبائل الحدودية الجزائرية فاعترضت عن هذا الإجراء باعتبار أن أجزاء من أراضيها قد مُدّدت ودخلت في حوز السلطة التونسية مما كان سببا في نشوب الخلافات بين القبائل الحدودية مجدداً، ومثاله: ذاك الصراع الذي جمع طرود ببعض القبائل الحدودية التونسية⁴.

ولأن تحركات القبائل الحدودية ظلّت تتّم بصورة مستمرة ودائمة متجاوزة بذلك سلطتي البلدين اللتين تدمرتا من هذه التصرفات، طيلة القرن السابع عشر وكذا الثامن عشر، فقد شدّدت هذه المرة في لهجة خطابها للقبائل الحدودية من أجل الالتزام بالتعليمات و إيقاف محاولات تعديها للحدود، ونجد لها تجسيدا في أوامر "حمودة باشا" لأعراش "ونيفة" وخاصة "أولاد بوغانم"، إذ نبههم وبشدة في عدم تجاوز واد الصراط وذلك في قوله: «نهبو على كافة أولاد بوغانم أن لا يرفعوا شيئا إلى القلعة (قلعة سنان) ولا يعاملوهم في شيء ولا يشترتون

1 - الأزهر المجري : قبائل ماجر والفراشيش، المرجع السابق، ص 289-292.

2 - العايب كوثر: العلاقات الجزائرية التونسية خلال عهد الدايات (1711-1830م)، (رسالة مُقدّمة لنيل شهادة ماجستير(غ.م)، تخ: تاريخ حديث ومعاصر)، قسم العلوم الإنسانية، كَلْبَةُ العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الشهيد حمّـه لخضر- الوادي، الجزائر، 2014م، ص 29.

3 - مُحمّد الصالح العنترى: تاريخ قسنطينة، المصدر السابق، ص 49.

4 - إبراهيم العوامر: الصُروف في تاريخ الصحراء وسوف، ج 2، مخطوط بالمكتبة المنزلية لعمار عوادي بلدية تغزوت، الوادي، الجزائر، و 13.

الفصل الأول حركة القبائل الحدودية الجزائرية التونسية وبعدها السياسي

منهم ولا يبيعون لهم شيئا، وبلغنا أن مرادهم يحرثون "تاجموت" ويتوسعون فيه ببيعهم لكن نهبو عليهم يردون بالهم من العدو ويكونوا على حذر». والمقصود بالعدو هنا الرعايا الجزائريين، مما يؤكد ويجسد عمق الخلافات وأثرها في نفوس الحكام التونسيين بفعل التحركات القبلية على الحدود¹.

ومن هنا فالحدود شكّلت هاجسا أمنيا تجسدت توجساته في تلك المراسلات المتبادلة بين الطرفين، والتي تبرز بوضوح في المراسلة التي أرسلها "أحمد باي" "باي قسنطينة للسلطة التونسية والتي يشتكي فيها من تجاوز أحد العروش التونسية ألا وهو "ورغة" ودخوله للمجال الجزائري، ويبيّن له أنّ هذا التصرف من قبل هذا العرش من شأنه أن يوقد الشحنة ويخلق العداوة مجدداً بين القبائل الحدودية، وعليه فقد طلب منه أن يرسل أحد العارفين بعالم الحدود للتأكد من تجاوز هذه القبيلة لمعالمها، وفي الأخير اهتدى إلى حلّ سلمي يقوم على قبول حرث "ورغة" في الأراضي الجزائرية شريطة أن تؤدي الحكر، لكي يكون انتجاعها بصفة قانونية يحفظ لها حقوقها وحقوق القبائل الجزائرية القاطنة في تلك المناطق، وبهذا النحو يتمكن من سدّ بؤرة النزاع المتأزمة بين القبائل حول مناطق الانتجاع، ونلمس هذا في قوله: «إن "ورغة" قد تعدوا الحد الفاصل بينهم وبين الحنانشة وهذا السبب يقع بينهم الفساد وإن شئت فابعث من قبلك من يقف على الحد المعروف والرسم الفاصل المألوف فإن الكثير... من معشر الوطن يعملون ويتحققون لكن إن شاءت "ورغة" أن يحرثوا ببلادهم بأجر المعروف عندهم بالحكر فيحرثون برضاهم ويودون الحكر على حسب العادة والطريقة السالفة المعتادة ومراد هذا سدّ الدّرايع بأن تنقطع بين الفريقين مادة والمرج فلا تقع شكوى لأحد ولا ترفع لأحد منهم قصة إن شاء الله»². وبدوره الطرف التونسي تباحث في هذه المسألة وخلص لنتيجة أنّ "ورغة" مازال على حدودها ولم يتجاوزها للحدود الجزائرية، وأخبر باي قسنطينة "أحمد باي" بأنه في حال ثبوت تجاوزه ولو بمقدار شبر في الحدود الجزائرية فإنهم سينزلون عليه عقابهم ويقومون باسترداد ما أخذه لصالح الإيالة الجزائرية بحسب ما هو وارد في النص التالي: «.. أن "ورغة" قد تجاوز الحد فإننا ما وجدنا عليه من قبلنا لم نتجاوزه ولا زلنا باقين على حدّه وما نحن موجهون من له خبرة وبصارة بأرضهم وبحدودها فإذا وجدهم قد تجاوزوا حدّهم ولو قدر شبر فإننا رجعه ونحكم فيهم فهذا ما ظهر لنا أيديكم الله عرفنا به السيادة والنظر الأعلى لكم أدام الله سعادتكم وسرمد مجدكم في عزّ دائم وهنا ذكر طيب وثنا والسّلام من أخيكم "مصطفى باي" وفق الله الجميع بمنه وكرمه في رجب 1243هـ / جانفي 1827م»³.

هذا وقد أسهمت الإغارات المتبادلة بين القبائل الحدودية في اضطراب العلاقات السياسية بين البلدين، كذلك الإغارة التي قامت بها "وشتاتة" أحد قبائل الحدود التونسية على قبيلة "الحنانشة" الجزائرية سنة 1826م، الأمر الذي دفع بالحنانشة إلى الاشتكاء منهم للسلطات الجزائرية والتي راسلت الباي التونسي وطالبت بالتدخل

1 - فاطمة بن سليمان: المرجع السابق، ص 218.

2 - أ. و. ت: الحافظة 223، الملف 384. نقلا عن: احميده عميراي: المرجع السابق، صص 101-102.

3 - أ. و. ت: الحافظة 223، الملف 384، الوثيقة رقم 57(72) ينظر: الملحق رقم: (02).

لإيقاف زحف "وشتاتة"، والتي ألحقت الأذى برعاياه. وبينت ذات الوثيقة أنّ مرد النزاع يعود إلى دين قدم لوشتاتة على الحنانشة لم تؤديه قبيلة الحنانشة إليهم الشيء الذي دفعها للهجوم عليهم انتقاماً منهم عن عدم أداء الدين القديم حسب قوله: «.. ثم بعد أن وجهنا لحضرتكم الجواب السابق بلغنا جوابكم في شأن "وشتاتة" وهي فرقة من وطن "الحنانشة" لهم عوايد من قدم الزمن محسوبون من رعيتهم جاري عليهم مختلطين مع غيرهم كثر بهم الشكاية وفشا فسادهم وباتت منهم الأذية حتى تعدى شرهم لبعض ديارتنا أخذ سعيهم ووجد بعينه بعد أخذهم فلم يأخذوا إلا رعية وطن الحنانشة»¹.

كما أفادت نفس الوثيقة أعلاه بأنّ هناك خلاف بين البلدين جراء عمليات فرار بعض قبائل الحدود التونسية واستقرارها بالحدود الجزائرية والعكس صحيح، وهذا بتأثير عوامل سياسية واقتصادية كالتهرب من ضيم الجباية أحيانا والتهرب من الحملات التأديبية المشنة من طرف حملات السلطة المركزية ضدها ونجد لهذه الصورة تجسيداً في قول "أحمد باي": «وهؤلاء رعيتهم المعلومة كشارن وأولاد بوغانم وورغة... في أمن وأمان لم (بمسسهم) أحد بسوء ولا يقع إن شاء الله ما دُمننا بالصواب أكرمك الله أن ينير الأمر ويسدّ هذا الباب برد كل رعية لمحلها وردعها من الفرار من مقرها فترجو بذلك الهنا وبلوغ القصد والمنى وتكون العافية في الوطنين وينصلح أمر الوجاقين، وهذا هو المراد الأهم والدستور الأعظم بحول الله وقوته وفضله آمين»².

وأدلت السلطات التونسية بدلوها في هذا المقام، ويبدو أنّها صنفت الفارين من الجزائريين إلى قسمين وفرقت بينهما بحسب الطبقة والمكانة الاجتماعية لكل صنف، والمتمثل في صنف الأعيان المنتمين للسلطة، وصنف الطبقة العامة، وقد تشدّدت في شأن إرجاع الأولى وتجاوزت بعض الشيء في شأن الفئة الثانية، مع ذلك فقد نبّتهت رعاياها على العموم برفض قبولهم لما لذلك من تأثير في تأزم علاقات البلدين التي تؤدي في كثير من الأحيان إلى قيام مصادمات عنيفة تؤثر سلباً على أمن واستقرار البلاد، ومنه فقد حذرهم قائلاً: «...ولا يسعى أحد الوجاقين في إذابة الآخر وضرره، وإذا تقدّم أحد من أعيان بلدهم فاراً إلى أرضنا من غضبهم واحتما بحرم وجقنا فماله يرضون عليه ويرجع إليهم كما كان، وإذا كان من غير الأعيان وكان طالبا للمعيشة في بلدنا فلا نعني بقدومه ولا نسأل عنه فهذا إذا الوجاق المستوية أهلها يتمعشون من بعضهم ومع ذلك إنّنا نبه على أهل بلدنا أنّ لا يقبلوا قادمًا بينهم وليرجعوه من حيث أتى وكذلك أنتم فإنّه بلغنا أنّ هذا شأنكم مع من يفرّ من بلدنا وكل من الوجاقين حرم لأهل الآخر كما لا يخفاكم»³.

وفي حقيقة الأمر أنّ عملية الفرار هذه قد أدّت إلى نشوب صراعات دامية بين السلطتين كتلك التي نشبت بين "حمودة باشا" وباي قسنطينة عام 1783م إثر فرار أحد القبائل التونسية إلى الأراضي الجزائرية ودخولها في طاعة باي قسنطينة، وقد طالب "صالح باي" من "حمودة باشا" تقديم تعويضات عن الأضرار التي تسببت

1 - أ. و. ت: الحافظة 223، الملف 384، نقلا عن: احميده عميراي: المرجع السابق، ص 100 - 101.

2 - نفسه.

3 - احميده عميراي: المرجع السابق، ص 100 - 101.

فيها هذه القبيلة النَّازحة إلى تبسة ما قيمته أربعون ألف ريال بندقي (سكوين)، وهُدِّدَ باي تونس بإعلان الحرب عليه في جوان 1787م في حال رفضه لدفع المبلغ، وقد اعترض "حمودة باشا" لدى الدَّاي "مُحمَّد عثمان باشا" لكن ردَّ هذا الأخير بتأييده لمطلب باي قسنطينة¹. وهناك من قال أنَّ المراسلة التي وفِّدَت على "حمودة باشا" قد طالبت بدفع تعويضات للقبيلة جراء الأضرار التي ألحقها بها أحد كبار ضباط الباي وهو "الحسن الكبير"، الذي ترأس محلَّة صغيرة لمعاوية هذه القبيلة عن تمردِها، ونظراً لطابعها البدوي الذي طغى عليها وجعلها ميالة للتمرد أكثر من بقية القبائل الأخرى، ورغم صرامة "الحسن الكبير" إلا أنَّها استمرت في تمردِها وقامت بطي خيامها وتحركت بقطعان ماشيتها وعبرت الحدود التونسية واستقرت في تبسة².

ويُدنُّو شبح الحرب بين البلدين قام "حمودة باشا" بجولة شاملة وكاملة في جميع أنحاء بلاده لمدة أربعة أشهر متواصلة وهي سابقة من نوعها لم يسبقه بها أحد من البايات قبله بهدف فرض سيطرته على كافة ربوع بلاده، فمن خلالها تمكن من تبديد جميع أسباب التمرد والعصيان ضده بفعل سوء التفاهم مع القبائل الحدودية، كما ضمن تجنب أيِّ ردِّ فعل من القبائل ضده في حربه على الجزائر أثناء عبوره للحدود، ورغم كل التَّحضيرات إلا أنَّ فتيل الحرب خبا قبل أن يتقد بفعل انشغال الباي "حمودة باشا" بحربه مع البندقية لذلك رأى أن يدفع ما عليه من تعويضات حيث دفع خمسة وعشرون ألف ريال بندقي بدل أن يسوق البلاد في حرب لا يحمدها³.

ثم ما فئات النزاعات أن تهدأ حتى تجددت بين الإيالتين، وهذه المرة بحكم توفر عدَّة ذرائع وحجج بالنسبة للإيالة الجزائرية ضد "حمودة باشا"، فقد اتهم بـ:

- استقبال "تونس" لأعداد كبيرة من سكان قسنطينة الفارين إلى أرضها، كفرار قبائل الشَّرْق الجزائري عام 1787م تملصاً من دفع الضَّرائب لعمال صالح باي.
- اتهام حمودة باشا بتحريض القبائل للتمرد على السُّلطة ودفعها نحو الهجرة إلى إيالته⁴.
- سعي الحكومة التونسية لزعزعة أمن واستقرار الجزائر عن طريق دعم "حمودة باشا" لحركات التمرد، ومن ذلك دعمه لثورة "ابن الأحرش" (1804 - 1807م) في القطاع الشرقي بالجزائر ووعدته بتقديم كافة

1 - رزيقة مُحمَّدي: «العلاقات التونسية المغاربية في عهد حمودة باشا 1782 - 1814م»، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، مج4، ع8، مركز الحكمة للبحوث والدراسات، الجزائر، 2016م، ص205.

2 - الفونصو رسو: الحوليات منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر، تر: مُحمَّد عبد الكريم الوافي، ط1، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي - ليبيا، (د. س. ن)، ص ص255 - 256.

3 - مُحمَّد الصالح العنترى: المصدر السابق، ص80.

4 - ناصر الدِّين سعيدوني: المرجع السابق، ص ص244 - 245.

السند والدعم المادي والمعنوي اللازمين له¹.

فهذه الأسباب كانت كفيلة لدايات الجزائر للقيام بشن حربهم على تونس وجهزوا في المقابل منه قوات قدّرت بنحو ستة آلاف جندي، وبدوره الطرف التونسي تجهز بقوات ضخمة مؤلفة من ألفين تركي وثلاثة آلاف كورغلي فضلاً عن أعداد فرسان ومقاتلي القبائل البدوية، لكن سرعان ما انتهت هذه الحرب قبل أن تندلع لتعود العلاقة بين البلدين، ثم عاد التوتر مجدداً بين القطرين بسبب وقوع مراسلة سريّة بيد "حمودة باشا"، والتي كانت تتم بين باي قسنطينة ورعايا تونسيين، وتبيّن له باطلاعه عليها أنّها تدعو لتدبير مؤامرة عن طريق تأليب القبائل ودفعها لخلع طاعة "حمودة باشا" ودعوها للدخول في طاعة داي الجزائر، الأمر الذي دفعه لإلقاء القبض على المتمردين وانزل عقابه فيهم، ودعا وكلاء قسنطينة لمغادرة الإيالة، وبدأ يجهز قواته للدخول في حرب مع الجزائر باتت شرارتها تلوح في الأفق القريب، مستغلاً فرصة وجود "مصطفى الجليلي" إلى جانبه وقد وعده هذا الأخير بدعم قبائل الشرق له فور دخوله لقسنطينة، كما باشر باتخاذ تدابير حربيّة عديدة تمثلت في: زيادة تحصينات مدينة تونس ومرسى حلق الوادي، وزود مدينة الكاف بقطع المدفعية اللازمة²، واندلعت الحرب في عام 1807م، حيث أمر فيها "حمودة باشا" القوات التونسية التي كانت تحت قيادة "سليمان كاهية الكبير" والتي فاق عددها خمسين ألف مقاتل بالهجوم على قسنطينة، تكبّد بسببها أهالي قسنطينة أضراراً جسيمة بحكم أنّ أرضهم كانت مسرحاً للحرب وهو ما دفع بعضهم للكتابة عن أضرارها قائلاً:

قومان والعساكر في مثل الجراد يا ريم	حتى التوانسة جاوننا حاركين
وبعث خليفة هاذوك الازفات	خرج محلة حمودة ذلك اللعين
سليمان كاهية والجوانب تزداد ³	علي وبن عباد هاذوك الضايعين

وكانت كفة النّصر فيها مرّجحة لصالح التونسيين الأمر الذي اضطر الدّاي الجزائري لتحرير مراسلات يطلب فيها من "حمودة باي" الجنوح للصلح لكنه رفض، ثم انقلبت موازين الحرب فجأة وهذه المرة لصالح الطرف الجزائري بفعل البسالة والمقاومة العنيفة التي أبداها سكان قسنطينة، ثم إنّ قبائل الشرق التي وعدت "حمودة باشا" بالمؤازرة انقلبت ضدّه وأخذت تحاربه الشّيء الذي اضطر "سليمان كاهية" للانسحاب⁴، وبسرعة أدرك "حمودة باشا" الوضع وقام بتعيين "يوسف صاحب الطّابع" على رأس قوات قدرت بثمانية عشر ألف

1- أحمد الشّريف الرّهار: مذكّرات الحاج أحمد الشّريف الرّهار، تق: أحمد توفيق المدني، ط1، الشّركة الوطنيّة للنشر والتّوزيع، الجزائر، 1974، ص85. وينظر أيضاً: محمّد بن عبد القادر الجزائري: تحفة الرّائر في مآثر عبد القادر وأخبار الجزائر، ج1، ط1، المطبعة التّجاريّة، الإسكندرية، 1903م، ص77.

2- أحمد ابن أبي الضياف: إتحاف أهل الرّمان بأخبار تونس وعهد الأمان، المصدر السّابق، ج3، ص40-42.

3- رزيقة محمّدي: المرجع السّابق، ص209.

4- أحمد ابن أبي الضياف: المصدر السّابق، ج3، ص42.

جندي توجهت نحو الحدود الجزائرية والتقى الجيشان في موقعة "سلاطة" التي انتهت بهزيمة القوات الجزائرية¹، وفي السنة الموالية تجدد النزاع بين الجزائر وتونس و استعد لها الطرفان بقوة، غير أنّها انتهت بعقد صلح بينهما استغلوه في استئناف العلاقات التجارية ولم يكن صلحاً نهائياً حيث سرعان ما لاح شبح نزاع جديد بين البلدين بفعل المناوشات القائمة بين القبائل الحدودية، وهنا بدأ الطرفان مباشرة بأخذ التدابير اللازمة بداية من عام 1813م في كل من مدينة الكاف التونسية وعمالة قسنطينة الجزائرية، ومع ذلك فالقتال لم يستأنف من الوجهة البرية وإنما أخذ الوجهة البحرية².

ومما سبق ذكره في استعراضنا لمختلف المناوشات التي تمت بين البلدين، والتي كان للقبائل الحدودية ضلع فيها بحكم تحركاتها المستمرة على الحدود من منطلق أنّ الحدود المرسمة بينهما لم تعرف الثبات والاستقرار، فقد انضوت تحت مسمى الحدود غير الثابتة لكونها محددة بشريا أكثر مما هي محددة سياسيا، ثم أنّ أوطان القبائل الموالية للنظام الجزائري أو التونسي كانت تقع ضمن مجال السيادة لنظام الجزائر أو نظام تونس، وكان للولاء غير الثابت للنظامين دور في تصعب عملية رسم الحدود بين الإيالتين³.

ليسهم بدوره الحضور الضعيف للحدود في أذهان القبائل الحدودية إلى إبقاء كافة ممارستها - سوى كان منحها اقتصادياً أو سياسياً وحتى اجتماعياً - قائمة على أساس التقلبات المستمرة بين الحدود، وهو ما دفع بالسلطتين إلى التسليم بالأمر الواقع وتقبل نمط العيش الحدودي الذي سيعرف تغيراً كبيراً بمجرد مجيء الاستعمار الفرنسي⁴.

1/- التّواصل السياسي بين القبائل الحدودية:

إنّ علاقات التّواصل في كافة المناحي بين القبائل الحدودية سواءً منها الجزائرية أو التونسية قد فرضت نفسها كمعطى أساسي لا يمكن نكرانه بحكم احتياج الأطراف القبليّة لبعضها البعض، بغض النظر عن الخلافات القائمة بينهما، والتي نجد لها تجسيدات في عديد الصّور بما في ذلك الجانب السياسي الذي بيّن مدى التّرابط القائم بين قبائل البلدين في فترات من تاريخهما الطّويل، وبخاصة خلال فترة الاستعمار الفرنسي في الجزائر الذي حاول إحداث تغيرات على مسارات التّواصل القائمة بين الطرفين عبر ضبطها وفق أسس و كفاءات تضمن بقائه واستمراره أكثر، فما هي صور ومظاهر هذا التّواصل⁵؟

1 - محمّد الصالح العنتري: المصدر السابق، ص 96. ولمعرفة أسباب هزيمة القوات الجزائرية، ينظر: العايب كوتر: المرجع السابق، ص 40 .

2- الفونص روسو: المرجع السابق، ص 300.

3- احميده عميراي: المرجع السابق، ص 16.

4- فاطمة بن سليمان: المرجع السابق، ص 220.

5- صور التّواصل بين القبائل الحدودية تعددت بتعدد الميادين وجسدت مدى التّضامن القائم بين الطرفين في جوانب أخرى، اقتصادية، اجتماعية وثقافية وهو ما سنحاول التّطرق له أكثر في الفصول الموالية، أمّا هنا فقد اقتصرنا على ذكر بعض الإشارات المتعلقة بالجانب السياسي، حتى لا يقع التكرار والحشو، و تركنا التّفصيلات الكثيرة في هذه الصّور في الفصول اللاحقة .

1-1 - مظاهر تواصل القبائل الجزائرية بالتونسية سياسياً:

نجد تجسيدات هذا التواصل في دعم قبيلة "أولاد سيدي عبيد" للقبائل التونسية والتي كانت تربطها بها علاقات متينة منذ الأزل، منها: استضافة قبيلة "أولاد سيدي عبيد" أعداداً غفيرة من أفراد القبائل الحدودية التونسية الباحثة عن ملجأ لها في المجال الحدودي الجزائري، إمّا تملصاً من دفع الضريبة أو للإفلات من عقوبة، أو لغرض آخر، ثم أنّ هذه القبيلة في ظلّ غياب الرقابة بحكم طابعها المرابطي الذي كان يسمح لها بالتنقل بين قبائل المنطقة بكل حرية، أضحت ملتقى لكلّ المشاغبين الذين تُحوّل لهم أنفسهم القيام بأعمال النهب والاعتداءات من كل نوع، بل تحولت هذه القبيلة لمركز لكل المتابعين الجرمين، يقول فلونيني: «ولم تتمكن إدارة الاحتلال من تنفيذ الأمر بها بحكم طابعهم المرابطي وبحكم علاقاتها المتينة التي كانت تربطها حتى بالساسة التونسيين»¹.

ومن جانب آخر نجد سكان سوف الذين كانت علاقاتهم جد متوترة بالهامة بحكم الخلافات القائمة في الميدان الاقتصادي عبر التّعرض للقوافل التجارية المارة عبر الحدود بالنهب والسلب، لم يترددوا البتة في تقديم العون للهامة أثناء ملاحقات السُلطة التونسية لها، فرغم العداوة الكائنة بين أهل سوف والهامة إلا أنّهم أسعفوهم وانجدهم²، ووضعوا أحقادهم جانبا عندما تعلق الأمر بالرّكون لأعراف الحوار بين القبائل الحدودية.

وغير بعيد عن المشهدين السابقين قامت قبيلة "أولاد سيدي يحي" بالتعاون خفية عن أعين الإدارة الاستعمارية مع بعض القبائل التونسية المجاورة لها كالهامة والفراشيش، وهو الشيء الذي رأت فيه إدارة الاحتلال عرقلة لأمن المنطقة الحدودية الساعية باستمرار لاستتبابه فيها عن طريق إخضاع القبائل لسلطانها وإجبارها على العمل والتّحرك وفق مخططاتها، ومنه فأبى تحرك مخالف لتعليمات الإدارة الاستعمارية يعتبر خرقاً يعاقب مرتكبوه أشدّ عقاب، مثل: ما حدث لهذه القبيلة التي كانت تحت قيادة القايد "أحمد لخضر" فقامت بعزله وعينت بدل منه "علي بن محمّد" الذي كان ملازماً في كتيبة الصبّايحية الثالثة³.

وعلى هذا النحو تجسّدت صور الدّعم والتّفاعل بين القبائل الحدودية الشيء الذي جعلها عرضة لملاحقات ومعاقبات السُلطة الاستعمارية. هذا الفعل والدّعم كان من القبائل الجزائرية، فكيف كانت صوره من جانب القبائل الحدودية التونسية مع القبائل الحدودية الجزائرية؟

2-1 - مظاهر تواصل القبائل الحدودية التونسية بالجزائرية سياسياً:

ساهمت التضييقات الممارسة على القبائل الجزائرية من طرف سلطة الاحتلال في طرق القبائل الحدودية الجزائرية باب القبائل الحدودية التونسية هروبا من مخالب الاستعمار الفرنسي، وكانت القبائل الجزائرية تجد الملاذ

¹ - بيار كاستيل: المصدر السابق، ص 228.

² - إبراهيم العوامر: المصدر السابق، ج 2 و 21.

³ - بيار كاستيل: المصدر السابق، ص 238-239.

والأمان عند القبائل الحدودية التونسية التي كانت لا تتوان في تقديم كافة الدعم والمساندة للقبائل الجزائرية الثائرة على الظلم الاستعماري، وهو ما لم تتقبله إدارة الاحتلال واعتبرته تجاوزا لعلاقات الود التي تجمعها بالإيالة التونسية، التي كانت لا تتردد جاهدة في الحفاظ عليها حسب زعمها، حيث جاء في رسالة الجنرال "راندون" "Randon" حاكم عنابة إلى السيد "صالح بن محمد" كاهية الكاف، والتي نقتطف منها الجزء التالي: «.. والذي نعلمكم به هو أنني كنت أظن أن الناس خدام سعادة البايك أنهم طالبين العافية مع الفرائص، وكنت أظن أيضاً أنني حين منعت أعراس الثوانسة أن يدخلوا إلى أرضنا وبهذا قصدهم أن يمنعوا أرواحهم من سيدهم أنك كنت تقابل فعلي لا كان تحافي مع سعادة البيك حين كنت بتونس أن تكون المساعدة لبعض وبخلاف حين أنني توجهت لأجل "أولاد سيدي يحيى بن طالب" على فعلهم القبيح الذي هو فعل الجبان لأنهم قتلوا مساكين المرضى الذي كنت أرسلهم لقلمة وهربوا لبلادكم وليس فقط أنكم قبلتوا بالمدنيين بل فرسانكم زادوا اتبعوا محلي ورموا بلبارود على عسكري». ويستطرد قائلاً: «إن استمرار خروقات بهذه الشكالة من طرف رعايا السلطة التونسية من شأنه أن يوقع البلدين في موجعات عنيفة». حتى كقوله: «.. لا بد منه تحصل العداوة ويكون الحرب والطراد بيننا»¹.

وضمن سياق مشاهد المؤازرة والدعم المستمر للقبائل الحدودية الجزائرية من طرف القبائل الحدودية التونسية في وقت عصيب هم في أشد الحاجة إلى تكاتف بعضهم البعض² نورد المقتطف التالي: «.. في 18 من الشهر الحاضر كتب لحضرتكم بخصوص الحراية التي وقعت بين جيشي وبين العرب الذين هربوا من الحدادة والذين هم ساندين دعوة "أولاد مومن" الذين احتموا في أرضهم، وهذه الحراية وقعت في ترابنا... وليست في عمالة تونس لأنهم أرادوا يسندوا دعوتهم بالقوة في أرضنا، فما عندي شرح أزيده على ذلك وهو غاية كلام الحق ولولا أنهم أفادوا سعادة الباي بكلام كاذب لما كان تظن أن يطيب خاطري ومن غير داعي غرت على رعياه وقتلت منهم ونهبت من أموالهم إلخ، فبالتحقيق أفعال نظير هذه هي مخالفة للمحبة والأمان الموجود بين العمالتين والتي عندي وصاية أنني لا أفسدها». ويواصل قائلاً: «وهذه النازلة ما هي إلا قصاص إلى أشخاص عاصين الحكم ألقوا بأرواحهم في هذا الخطر لداعي جهلهم وزيادة غيرتهم»³.

وكي لا تتحول هذه المساندات من رعايا التونسيين للقبائل الحدودية الجزائرية المتمردة على السلطة الفرنسية إلى تكتلات قبلية مهدد بزوال كيان الاستعمار الفرنسي، فقد شددت السلطة الفرنسية في خطابها للسلطة التونسية وطلبت منها الإسراع في أخذ التدابير للحد من هذه الظاهرة الخطيرة، حيث جاء في رسالة "رسلطان"

¹ - أ. و. ت، الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 162. ينظر الملحق رقم (03).

² - في نص الوثيقة 144 يظهر لنا مدى استعداد القبائل التونسية لبذل النفس في سبيل نصره إخوانهم من القبائل الحدودية الجزائرية، الشيء استغريه الاستعمار واعتبره ينم على جهل، ولا غرابة في ذلك إذا كانت مفاهيم تمثل هذه النبالة غائبة عن قاموسه السياسي. ينظر: أ. و. ت، الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 144.

³ - أ. و. ت، الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 144. (لم يرد ذكر تاريخ المراسلة) نص الوثيقة كامل ينظر في الفصل الثالث.

"Rastan" المكلف بأمر الدولة الفرنسية للوزير الأكبر في نصها المعرب مايلي: «...لأنه يلزم دولة المعظم الباي أن تتخذ هي أيضا الوسائل الشديدة لحفظ الراحة في الجهة المذكورة من الحدادة»¹. ومخافة من أن يتحول هذا الدعم المتزايد من القبائل التونسية للقبائل الحدودية الجزائرية كوسيلة ضغط على الطرف التونسي من السلطة الاستعمارية الفرنسية، فقد عمّد الباي التونسي إلى حثّ عماله بالجهات لمنع العروش الحدودية من إيواء القبائل الحدودية الجزائرية في مجالاتها، وخص في تحذيره هذا قبائل "الفراشيش" و"ورغة" و"الرّقة" و"أولاد بوغاتم" و"الزغامة" و"شارن"².

وبدورها شرعت إدارة الاحتلال في اتخاذ جملة من التدابير التي من شأنها أن تخدم نفوذها في المنطقة وتمكن لها من مراقبة تحركات قبائل البلدين على الشريط الحدودي، كقيامها بترحيل قبائل من مواطنها الأصلية وتوطينها على التّخوم الحدودية لاستخدامها كحاجز بشري وحارس للمجال، أفضل من مواجهة القبائل الحدودية التونسية فاستقدمت خليط متنوع من "الفراشيش" و"أولاد حمادي" و"الهمامة"، كما عمدت إلى نشر بذور الفرقة والشقاق بين القبائل الحدودية الجزائرية والتونسية من خلال تطبيق سياسة فرق تسد، ومرماها من هذا بطبيعة الحال، هو أن يخلوا لها المجال لتنفيذ مشاريعها الاستيطانية التوسعية على حساب أملاك كل القبائل الحدودية³.

إنّ قرارات المنع هذه، لم تكبح أبداً مسار التّواصل السياسي بين القبائل الحدودية في كلا البلدين، بل مدت القبائل جسور تواصلها غير أجهة بالمخاطر المحدقة بها من كل جانب، والذي تترجم هذه المرة في دعم المقاومات والانتفاضات الجزائرية وكذا التونسية، حيث تبنت القبائل الحدودية التونسية دعم القبائل الجزائرية منها: مقاومة "عمار بن قديدة"، كما دعمت القبائل الجزائرية ثورة المجاهد "علي بن غداهم".

● **مقاومة عمار بن قديدة⁴**: قاد عمار بن قديدة حركة احتجاجية لقبيلة "أولاد سيدي عبيد" سنة 1853م ضد الوجود الفرنسي، معتمداً في انتفاضة على دعم المجموعات القبلية المنتشرة حول تبسة خصوصاً أولاد يحيى بن طالب و"التمامشة" لمجاهدة الاستعمار الفرنسي، و انضم إلى صفوفه أنصار تونسيون جمعهم من الجريد، وجاء بهم إلى "الفراشيش" و"أولاد سيدي عبيد" القاطنين بتونس⁵، وعن سبب مشاركة الفرق التونسية في هذه الانتفاضة فهو ناجم عن رغبة فرقة الزغامة وبعض الفرق التونسية الأخرى للانتقام من القوات الفرنسية التي هاجمتهم في 1853/04/08م عند لجوئهم للاستقرار في تبسة اثر فرارها من دفع

¹ - أ. و. ت، الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 92.

² - إدريس رائسي: المرجع السابق، ص33.

³ - نفسه.

⁴ - **عمار بن قديدة**: هو سليل أحد فرعي قبيلة "أولاد سيدي عبيد"، قاد الانتفاضة وعمره لم يتجاوز الثلاثين سنة. ينظر: الأزهر المجري: القبيلة الولائية والاستعمار، المرجع السابق، ص302-304.

⁵ - بيار كاستيل: المصدر السابق، ص201.

الضرائب للباي التونسي، وعليه فالفرق التونسية المنظمة لهذه الانتفاضة وجدت في مقاومة "بن قديدة" متنفساً لرد الاعتبار لها، كما أرادت ردّ الصّاع للاحتلال الفرنسي الذي هاجمها بوحشيّة، أمّا فيما يتعلق بأسباب الانتفاضة فالجمع عليه أنّها جاءت كردّ فعل لاعتراض "أولاد سيدي عبيد" عن تعيين قائد عليهم من أهل بكارية وهو القايد "بن محمّد"، وقد رفضه "أولاد سيدي عبيد" لأنّه ليس من قبيلتهم، وهددوا بالعودة للتراب التونسي إن لم يعاملوا كبقية القبائل، وتأسّف التّازحون منهم في تونس على حال إخوانهم في الجزائر لخضوعهم له، علاوة عن رفض "أولاد سيدي عبيد" بجهة تبسة وهم (150) خيمة للتنظيم الإداري الذي وضعته لهم إدارة الاحتلال في منطقة بكارية، الذي بموجبه مُنع سكان بكارية من التّنقل فيما بين الجزائر وتونس بل واجبروا على الاستقرار في أراضي مُحدّدة لهم سلفاً¹؛ وعليه فهذا التّضييق المطبق من إدارة الاحتلال على "أولاد سيدي عبيد" الذين ألفوا أن يعاملوا باحترام نظير مركزهم الدّيني - لأنهم من آل محمّد ﷺ - والحظوة التي يتمتعون بها جعلتهم يقرّرون إعلان التّمرد على المحتل الفرنسي، وارتسمت خطوط الأمل لديهم بمجيء "بن قديدة".

قاد "بن قديدة" مقاومته انطلاقاً من منطقة الجريد التي كانت بمثابة مهد المقاومة للاعتبارات التّالية:

- ✓ قرب الموقع من منطقة تبسة وبعده عن العاصمة تونس.
- ✓ احتواء هذا الموقع لأعداد هائلة من "أولاد سيدي عبيد"، حيث كانت مجموعات كبيرة منهم تتمركز في هذا المكان.

✓ استعداد القبائل الحدودية التونسية التي تضرّرت من الاحتلال الفرنسي لدعم الانتفاضة ومساندتها، فما كان من "أولاد سيدي عبيد" القاطنين بالجزائر إلّا استغلال فرصة ظهور أحد أذعياء النّسب الشّريف وروجوا له في تبسة أكتوبر 1853م، وانطلقت مقاومة "بن قديدة" في قوة محاربة مكوّنة من بعض المئات من الفرسان والخيالة، وحوالي 300 من المشاة، بالإضافة إلى قوات القبائل المنظمة للانتفاضة، أمّا الأسلحة فهي من البنادق القديمة والسّلاح الأبيض، وعمل "ابن قديدة" على استنفار قبائل "العلاونة" و"البرارشة" و"أولاد الرّشايش" من أجل تعزيز صفوف مقاتليه².

أمّا العدو فلم يتوان في الاستعداد لهذه المواجهة عبر اتخاذ كافة الإجراءات والتّدابير الملائمة، فعمد لتسخير الملائم "جابي" للقضاء على الانتفاضة، الذي لم يدخر جهداً في سبيل القضاء على هذه الانتفاضة حيث حاصرها في منطقة "بكارية" لمنع توغلها نحو الدّاخل، لعدم منح "بن قديدة" وقتاً كافياً للقيام بتجنيد القبائل لانتفاضته، يضاف إليها اعتماده على العنصر المحلي للاستفادة من خبرتها واستثمارها في القضاء على الانتفاضة كاعتماده على القايد "أحمد الشّاوش" قائد عرش "البرارشة"، وسعت الإدارة في الآن ذاته للاستعانة

¹ - عبد الوهاب شلاي: المرجع السّابق، ص 45.

² - الأزهر الماجري: القبيلة الولائيّة والاستعمار، المرجع السّابق، ص 302-307.

بالأعيان المحليين والتحاليف معهم لمحاربة هذه الانتفاضة كعائلة "بن عريبة" أو "الحفصي" و"غابة"¹، وكان لأحمد الشاوش الدور الفعال للقضاء على هاته المقاومة²، وحول مشاهد المواجهة فيصفها كاستيل قائلاً: «عندما اقترب الجيش الفرنسي وجد جيش العدو على استعداد للحرب فالرؤماة منهم في حوار هضبة والفرسان مصطفون أمام خيام قائدهم، فبادر قائد تبسة مُحَمَّد الشاوش بالتوجه إلى الشريف طالباً منه الاستسلام، فرد عليه بالشتيم والإهانة، وليس سوى الحرب، ونشبت المعركة وهاجم "جايي" ومعه نائبه كوهندي (cohendet) يتقدمهم "برو" رقيب الخيالة (Maréchal des logis :Brois) وهو الذي قتل بسيفه قائد المتمردين وشقَّ وجهه نصفين، ولما شاهد المتمردون مقتل زعيمهم انهزموا فارين في كل اتجاه محتمين بالتضاريس الجبلية»، وبهذا انتهت المواجهة التي قتل فيها "بن قديدة" واثنان عشرة مقاتلاً آخرًا نُكِّلَ بجثثهم، وقاموا بالاستيلاء على البنادق وبعض الخوذ النحاسية، في حين صفوف العدو لم تعرف خسائر تذكر³، أمَّا "بنو عبيد" الذين بدورهم مستهم هذه الهزيمة التكرار، فإنهم رفضوا الخضوع للمحتل واختاروا اللجوء إلى تونس⁴.

● **ثورة علي بن غداهم⁵**: ارتبطت هذه الثورة باسم "علي بن غداهم" رغم أنه لم يكن القائد الوحيد فيها، لأنَّ جلَّ القبائل اتخذت قيادات محلية لتنظيم التحركات، وتنسيق العمل مع المجموعات والقبائل الأخرى، ومن هاته القيادات نجد: "فرج بن منصور" عن قبيلة "رياح"، و"السبوعي بن محمد سبوعي" من قبيلة "جلاص"، ومع ذلك يعتبر "علي بن غداهم" العنصر الفاعل فيها، وذلك بالرجوع لموقع القبيلة التي ينتمي إليها وهي قبيلة "ماجر" وعروش "الفراشيش" المجاورين لهم بين الوسط والشمال الغربي من الإيالة التونسية، فموقعهم هذا سمح لهم بالتحكم في مجريات ومسار هذه الانتفاضة⁶.

¹ - هذه العائلات بالإضافة إلى عائلة شاوش هم من العائلات المتنفذة خلال الحكم التركي، وحافظت على هذه الامتيازات خلال الفترة الاستعمارية أيضاً. ينظر: الأزهر الماجري: المرجع نفسه، ص 314.

² - نفسه، ص 311-319.

³ - بيار كاستيل: المصدر السابق، ص 201.

⁴ - عبد الوهاب شلاي: المرجع السابق، ص 47.

⁵ - علي بن غداهم: هو علي بن مُحَمَّد غداهم المساهلي، ولد سنة 1815م بمنطقة الجوف بالبواجر قرب تالة وبذلك فهو ينتمي "للأولاد مساهل" الظاهرة، وهو أحد أحفاد "مُحَمَّد بن عمار" المساهلي قائد تمرّد 1812م، كان أبوه قاضياً بين عرش "ماجر" واشتغل هو بحطة الكتابة لدى القايد "العربي السهيلي"، ينتمي "بن غداهم" للطريقة التجانية حيث كان هو ذاته مُقدِّمٌ بمذه الطريقة في جهته. ينظر: الأزهر الماجري: قبائل ماجر والفراشيش، ص 415-419.

⁶ - الأزهر الماجري: المرجع نفسه، ص 415.

وعن أسباب هذه الثورة فيرجع لرفع الباي التونسي¹ ضريبة المحبي إلى الضعف أين وصلت إلى 72 ريالاً تونسياً بعدما كانت 36 ريالاً وهذا من أجل تدارك الأزمة الاقتصادية التي عصفت بالإيالة التونسية، ويبدو أن القبائل تأثرت هي الأخرى بالمتغيرات وتضررت أكثر بتبعاتها لأن على كاهلها يقع كل ثقل، الشيء الذي دفعها للانضمام لهذه الانتفاضة كرد فعل على التعسف والجور الممارس ضدها من قبل السلطة².

انطلقت هذه الثورة من الأعراض وامتدت للحريد ومنطقة القيروان وانتشرت في غربي الكاف وامتدت لتشمل ضفاف وادي مجردة، وسرعة امتداد هذه الانتفاضة كانت كبيرة وسريعة جداً، ففي أقل من شهر كادت أن تعم كافة أطراف البلاد وكان لدعم الطريقة التيجانية دور في إلتفاف الناس حول "بن غداهم" الذي لقب بـ"باي الشعب"، لتضمن له المساعدات التي تلقاها من بعض الأطراف الجزائرية صموده مقاومته لمدة طويلة، أين وقف إلى جانبه شيخ الطريقة التيجانية "محمد العيد التيجاني" المتوطن بتماسين في الجنوب الجزائري. ونفس الشيء التزم به قبيلة "أولاد عبد النور" المتواجدة في ناحية قسنطينة التي آوته بعد أن فرضت عليه الإقامة الجبرية إثر هزيمته أمام الجنرال "رستم" رفقة أخيه "عبد النبي" وعائلتهم وأتباعهم وعددهم آنذاك حوالي 3000 فرد، ولبثوا فيها إلى غاية سنة 1866م، وهذا طبعاً بإذن من المارشال ماكماهون³.

ولكن جراء اكتشاف السلطات الفرنسية النشاط السري لـ"ابن غداهم" بالبلاد وخاصة مراسلاته لتونس والمشرفة بشكل ألباز وتحوّله مقصداً للزوار وكسبه لعطف قبائل "عبد النور"، قرّرت وضعه تحت الرقابة المباشرة في الضيافة بقسنطينة في انتظار نقله إلى وهران لكي يأمن شرق الجزائر من انتفاضة جديدة على الحدود بين البلدين، وبعجز "ابن غداهم" على القيام بأي عمل له في الجزائر قرّر الهروب من قصر الضيافة والعودة للوطن، ويبدو أنه قد تدارس هذا القرار مع "سي معمر" شقيق الشيخ "محمد العيد التيجاني"، هذا الأخير الذي تعاون مع السلطة التونسية، وقام بتسليم زعيم الانتفاضة للسلطة التونسية⁴.

وبهذه الشاكلة انتهت انتفاضة "علي بن غداهم" التي تشابكت في إخفاقها أسباب عديدة لعل أبرزها:

- الملل الذي اعتري المقاتلين.
- عدم تنظيم الانتفاضة بإحكام.

1 - الباي هنا هو: "الصّادق باي" الذي تولى حكم "تونس" خلال الفترة الممتدة من 22 سبتمبر 1859م إلى غاية 28 أكتوبر 1881م، وفي عهده فرضت الحماية على تونس بموجب معاهدة قصر السعيد المبرمة في 12 ماي 1881م. ينظر: حمادي السّاحلي: فصول في التاريخ والحضارة، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992م، ص43.

2 - حسن حسني عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، ط3، دار الكتب العربية الشرقية، تونس، 2004م، ص175.

3 - جان غانباي: ثورة علي بن غداهم 1846، تر: لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية، الدار التونسية للنشر، تونس، 1965م، ص57. وينظر أيضاً: عبد الجليل التميمي: بحوث ووثائق في التاريخ المغربي 1816-1871م، تق: روبرت منتران، ط1، الدار التونسية للنشر، تونس، 1972م، ص21-22.

4 - عبد الجليل التميمي: المرجع السابق، ص26-27.

- كثرت المنافسات الفرعية اغارات القبائل عن بعضها البعض.
- خبو قواهم جراء المعارك التي خاضوها.
- إقدام القبائل على تقديم السلاح كقبيلة "جلاص" و"الممامة" و"قسم من قبيلة "دريد"¹.

من خلال ما قُدم يتضح لنا التّواصل السياسي الذي كان قائماً بين القبائل التّونسيّة والجزائريّة وتكاتفها في المحن التي مرت بهما، من خلال مدّ يدي المساعدة ومحاوله إيجاد الحلول لبعضها البعض.

2/- المساعي الفرنسيّة لحصر حركة القبائل الحدودية:

لقد شكّلت تنقلات وتحركات القبائل الحدودية هاجسا أمنيا للاحتلال الفرنسي المعترض عنها وبشدة ، واعتبرها أحد بواعث اللأمن في المنطقة الحدودية، يضاف إليها تلك الإغارات المتكررة والتي رأى فيها مظهراً من مظاهر الفوضى والانفلات الأمني، و لا سبيل للقضاء عليه إلا عن طريق ترسيم حدود دقيقة تفصل بين مجالي الإيالتين².

والملاحظ أنّ فرنسا هنا لم تأهبه لذلك الامتزاج القائم بين المجموعات الحدودية والذي تفاعلت في نسج معطياته عديد العوامل التاريخية والدينية والاقتصادية وكذا الاجتماعية، فالقبائل الحدودية كانت تربط بينها علاقات نسب تجسّدت في الانتماء لنفس المجموعة القبلية، ورغم هذا التداخل والانصهار والانسجام الذي يصعب الفصل فيه إلا أنّ فرنسا بقيت عازمة على تنفيذ مخطّطها الحدودي وخلق وضع رقابي يعمل على كسر كافة التّقاليد السائدة سابقاً في المجموعات القبلية الحدودية³.

فالتّحديد بين القبائل الحدودية لم يكن له وجود في ذهنية القبائل وإن كانت بعض القبائل تعمل على حماية المجال الحدودي كقبيلة "خمير" مثلاً، فذلك مقابل إعفائها من الضرائب، ومنه فالمجال الحدودي كان حراً ولم تظهر قبل الاحتلال أيّ محاولات من طرف السلطات لمنع تحرك القبائل في الحدود، من منطلق أنّ الأرض كانت أساس ارتباط هذه القبائل، وأهم ما يربطها بها هو الماء والمرعى فكثيراً ما كانت تحتمي بالمجال المجاور كلما اشتدت عليها الظروف الطبيعية والسياسية (الأداء الضريبي)، ومن هنا فالقبائل الحدودية كانت تنتقل بين المجال الحدودي بكل سلاسة ويسر دون وجود أي مُنعصات سياسية أو قانونية تمنع أو تقف عائقاً أمام تحركاتها وتنقلاتها، حتى في تلك الفترات التي توترت فيها العلاقات بين القبائل بسبب الإغارة أو التّعديات المُشنّة بين القبائل فيما بينها، مع ذلك فلم تكن مؤشراً صريحاً من أجل حصر المجال، لأنّ الواقع الاقتصادي

¹ - جان غانبايخ: المصدر السابق، ص56.

² - فاطمة بن سليمان: المرجع السابق، ص272-273.

³ - فاطمة بن سليمان: نفس المرجع ، ص311

كما سبق وذكرنا والمرتبطة أساسا بعمليات الانتجاع التي تستدعي تنقلا موسمياً، كان يفرض نفسه كعامل ودعامة أساسية تمنع أي محاولة لتحديد و تمييز المجال الحدودي بين القبائل الحدودية¹.

مع ذلك ففرنسا شرعت في طرح مسألة الحدود منذ أن وضعت أقدامها في قسنطينة عام 1837م، وأضحت كل مراسلاتها بالطرف التونسي تتناول هذا الأمر بشدة، بل تُلح وتؤكد على مسألة رسم الحدود بين البلدين وتعمل على الفصل في هذه الضبابية والتداخل الحدودي الذي يكتنف علاقات وتحركات القبائل الحدودية، ويراقب وينظم حركة العبور، ويعمل بذلك على تحقيق الأمن والاستقرار داخل المنطقة الحدودية.

وقد جُنِد "راندون" للقيام برسم الحدود بالرجوع للروايات الشفوية المستقاة من أفواه العروش الحدودية، فقد انطلق في مساره من تبسة متتبعا الحدود الفاصلة ومستعينا بأسمائها وتاريخها ومنتبها بأماكن استقرارها بالنظر إلى الأراضي التي يرجع إليها في الحرث كمرجع لرسم الحدود، وأسفرت العملية عن رسم أول خط حدودي يستند إلى مواقع جغرافية - عيون، آبار، جبال، أودية - تفصل بين المنتمين للإيالتين. ونتج عن هذا ظهور خريطة جديدة من نوعها بالنسبة لأعوان الدولة وللمجموعات الحدودية، ومنه فالحد انتقل من المفهوم الشفوي إلى الميدان العملي المكتوب والمؤثق².

ومن هنا فالجنرال "راندون" قام بتحديد المجال الذي على أساسه رُسمت خريطة تونس سنة 1857م³، أين تم وضع علامات متواصلة من كاب رو "CAP ROUX" حتى بعض الكيلومترات جنوب "خنقة الموحد" شرق تبسة، ثم بعد فترة تم وضع علامات جديدة حول "الماء الأبيض" وسلسلة "فريانة"، ويلاحظ أن هذا الترسيم لم يشمل مناطق "السباسب" حتى الصحراء⁴.

وعلى كل حال ففرنسا شرعت في مباركة العمل الذي قام به "راندون" والمتمثل في رسم الخط الحدودي عام 1845م⁵، حيث اعتبرته خطوة إيجابية للقضاء على المشكل الحدودي، فالحدود هنا ستؤدي دوراً فاصلاً بين تحركات القبائل الحدودية وتنقلاتها العشوائية، كما أن هذا الخط سيمكّنها من إحكام رقابتها على حركة مرور القوافل والبضائع بين البلدين وحمايتها من الإغارات وقطاع الطرق⁶.

1 - إدريس رائسي: المرجع السابق، ص36.

2- فاطمة بن سليمان: المرجع السابق، ص ص293 - 294.

3 - أبرمت فرنسا معاهدات عديدة في سنوات 1883م-1884م-1888م وذلك بفعل ظهور مناطق جيو إستراتيجية هامة رغبت "فرنسا" في ضمها باقتراح على السلطة التونسية بقبول ترسيم حدود جديدة. ينظر: احميده عميراي: المرجع السابق، ص89.

4 - إدريس رائسي: المرجع السابق، ص42.

5- ينظر الملحق رقم(04).

6 - فاطمة بن سليمان: المرجع السابق، ص ص293 - 297.

وسعيًا منها دائما من أجل حصر حركة القبائل وإخضاعها للرقابة، فقد عمدت إدارة الاحتلال إلى اتخاذ جملة من التدابير والإجراءات في هذا الشأن والتي كانت تصبُّ كلها لمراقبة الحدود وإجبار القبائل الحدودية على القبول بهذا المتغير الجديد ومن هذه الإجراءات نذكر:

● تشييد أبراج عسكرية¹، والتي كانت بمثابة نقاط مراقبة دائمة وثابتة، على طول الخط الحدودي، كبرج "قرباطة" في الطريق بين قفصة والمتلوي و"القويغلة" قرب "نوزر" والطرفاوي، وباركت السلطة التونسية هذا العمل لما فيه من منفعة ستعود على الجميع، لكنّها في المقابل اعترضت عن الأبراج التي تمتد لمجالات الإيالة واعتبرت هذا العمل تعدياً ومساساً بحقوقها، حيث جاء في الوثيقة 184 ما يلي: «وبعد فإنّه بلغنا أنّه وقع من ناحية عمالة الجزائر تجاوزاً لما هو داخل في حدود المملكة التونسية وإنّه وقع العزم على إحداث بناء بجهة الحدود والمعتقد في مودة دولتكم الفخيمة وانصافها أن لا يصدر فمن نضرها ما يمس حقوق حدودها أو حقوق هذه المملكة ولأجل ذلك كاتبنا لكم بهذا راغبا منكم الاعتناء بخطاب دولتكم الفخيمة في منع هذا التّجاوز وفي أحداث البناء لأنّه إنّ وقع منها فإنّه يُعدُّ تعدياً على حدود هذه المملكة يلزمنا أن نحافظ على ما ذكر من كل ما يقتضي التّفريط في مودة دولتكم الفخيمة»².

وكان رد فرنسا بأنّ بناء البرج في الحدود الجزائرية ولم يصدر أيّ تعدي من قبلها لحدود المملكة، لأنّها ببساطة لا تستطيع التّفريط في وُدّ علاقاتها مع طرف بحجم المملكة التونسية³.

وإلى جانب الأبراج استخدمت السلطة الاستعمارية "النّاظور" في المراقبة، وعبّدت الطُّرق، وبنّت الجسور على امتداد الشّريط الحدودي بغية تسهيل حركة تنقل الأشخاص والعربات التابعة للوحدات العسكرية الفرنسية⁴.

● تجنيد المحلّة المتنقلة: وذلك بتنصيب جندي ليرصد حركة القبائل أثناء عبورهم الحدود، وأوكلت إليه مهمة التّفطيش، وغير مستبعد من أن تصدر منه أوامر لمنع بعض القبائل من العبور في حال عدم امتلاكها لرخص التّنقل هذا من جهة، من جهة أخرى استعانت إدارة الاحتلال بالمحلّة التونسية لمراقبة الحدود من عساكر زواوة و الصّباحية والقومية وغيرهم من التّشكيلات الأهلية⁵، كما دعمت الخطوط الدّفاعية عن طريق

¹ - ينظر الملحق رقم (05).

² - أ. و. ت : الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 184.

³ - أ. و. ت : الوثيقة 184. المصدر السابق، وان كان نص الوثيقة فيه العديد من الخريشات التي تمنع فهم النص والطرف المرسل له بشكل واضح.

⁴ - فاطمة بن سليمان: المرجع السابق، ص312.

⁵ - نور الدّين صحراوي: «المراقبة الفرنسية للحدود الشّرقية وتأثيرها على التّواصل بين الجنوب الشّريقي الجزائري وتونس 1881 - 1954 م من خلال الوثائق الأرشيفية»، أعمال الملتقى الدّولي حول: التّواصل الحضاري بين الجنوب الشّريقي الجزائري وتونس 1881 - 1954 م، المنعقد يومي: 11/10 نوفمبر 2013 م، بقسم العلوم الإنسانية، كلبية العلوم الاجتماعية والإنسانية، بجامعة الوادي - الجزائر، 2014 م، ص11.

وضع فرقة زمالة مكونة من مئة وخمسون (150) خيمة في "فج تنوكلة" تتكون من "العلاونة" و"البرارشة" تحت قيادة "إبراهيم بن بلقاسم" شقيق قايد "أولاد سيدي يحيى بن طالب"، وزمالة أخرى في شمال "بكارية" تتكون من خمسين (50) خيمة من "أولاد سيدي عبيد" لتكوين خط بشري وقائي من تعديت القبائل الحدودية التونسية¹، لكن على العكس من ذلك فالقبائل الجزائرية بمنطقة تبسة تعاونت مع القبائل الحدودية التونسية عن طريق استقبال خيامها والقبول بإيوائها أثناء فرارها من دفع الضرائب في تونس أو تنصلاً من قصاص أو لسبب آخر غير معلن، فوضعهم الجديد هذا قد سمح لهم بأداء دور الوسيط لتأمين الطريق للقبائل التونسية أثناء دخولها وخروجها من المناطق الحدودية؛ ولما أخفقت السلطات الاستعمارية في تجنيد القبائل الجزائرية بمنطقة تبسة لأداء هذا الدور على أكمل وجه، استخدمت فرقا أخرى من خارج إقليم تبسة²، كتوطين "أولاد خيار" من سوق أهراس، وقد جيء بهم وهم ستة وخمسين (56) عائلة، استقرت في "بحيرة الأرنب" وفي جنوب "فج تنوكلة"، وكانت كل المنافذ المؤدية إلى تبسة تحت حراستها³.

لتبادر في إجراء آخر وهو تحميل سكان المناطق الحدودية نفقات بناء الأبراج والشكنات وفق نظام الخلاس⁴ فقد قام القياد ومشايخ العروش بحساب كامل المصاريف و وزعوها على مجموع نخيل المنطقة لتحديد قيمة الضرائب، وبلغ مجموع المصاريف تسع وعشرين ألف ومائة وأربعة ريالات ونصف الريال (29.104.5 ريال)⁵.

وسعى منها دائما في مراقبة المجال الحدودي استصدرت تراخيص عبور، وأجبرت القبائل الحدودية على طلب تراخيص عبور ليتمكن لها التنقل في المجال الحدودي، وكان كل من لا يملك رخصة عبور يعتبر فارا من السلطة الاستعمارية ولا بد من إيقافه، وأخضعت الجميع للرقابة ولم تستثن منهم أحدا، حتى الذين يملكون تراخيص عبور وهذا بهدف:

- التحكم في تنقلات السكان وتجارهم.
- تضيق الخناق على الثوار وذلك بعدم منحهم هذه التراخيص.

كما قامت باستخدام الجواسيس وذلك بتجنيد بعض سكان المناطق الحدودية لمراقبة الطرق والمناطق النائية، وهي من الطرق القديمة المعتمدة من طرف الاحتلال⁶.

ولأن العوامل الاقتصادية كما سبق وذكرنا كانت أحد دوافع التحرك القبلي من وإلى المجال المجاور إماما للانتجاع أو للزراعة والحصاد، ولأن هذا العامل كان متجذرا في تقاليد التحرك القبلي وكانت تفرضه عليهم

¹ - بيار كاستيل: المصدر السابق، ص 221.

² - عبد الوهاب شلاي: المرجع السابق، ص 99-100.

³ - بيار كاستيل: المصدر السابق، ص 222.

⁴ - نظام لخلاس: العمل دون مقابل وهي كلمة متداولة في العامية السوفية بمعنى السخرة. ينظر: نور الدين صحراوي: المرجع السابق، ص 17.

⁵ - نور الدين صحراوي: المرجع نفسه، ص 11.

⁶ - نور الدين صحراوي: المرجع السابق، ص 12.

مُعطيات طبيعية واقتصادية، فإنَّ سلطات الاحتلال قبلت بهذا الأمر على مضض شريطة أن تدفع القبائل الحدودية التونسية ضريبة مقابل سماحها بحصاد مزروعاتها، وتحسّد هذا الإجراء في سماحها للفراشيش عام 1859م بحصاد مزروعاتهم في إقليم حوز تبسة مقابل دفع ضريبة الحكر والعشور على 150محرث مع المليمات الإضافية¹، وقد وافقوا على هذه الشُّروط مخافة أن تضيع عليهم محاصيل عظيمة وذلك لإدراكهم المسبق بأنَّ إدارة الاحتلال لن تتوانى ولو للحظة في استخدام القوة ضدّها من أجل ردعها عن عمليات الحصاد لاعتبار أنّ هذه العملية ما هي إلَّا تعدياً منها على الحدود وعلى الأراضي الفرنسية فقبلت بهذا الأمر تحت وطأة الضَّغط والإكراه².

ولأنَّ فرنسا لا يروقها صُور تعاون القبائل واستمرار علاقات التَّواصل بينهم، كي لا يشكلوا تكتلاً وتحالفاً من شأنه أن يُهدّد وجودها ويُخفق كلّ مشاريعها في المنطقة، عمدت إلى تبني سياسة فرق تسد تجاه القبائل الحدودية مما تسبّب في اشتعال نيران التَّزاعات بينهم على المناطق الحدودية، وعليه فقد تجدد الصِّراع بينها وأصبح كل طرف منهم يدعي ملكيته لبعض الأقاليم الممتدة في المجال المجاور ويتحجج في سبيل إثبات ملكيته بعدد الأدلة والشُّواهد التَّاريخية التي تثبت أحقيته بتلك المنطقة³.

لقد عادت المناوشات بينهم حول مناطق النُّفوذ فالفراشيش مثلاً عادوا للاستقرار في أراضي يدعون ملكيتها في حوز تبسة، وكذلك الشَّان مع "أولاد وزاس" الذين استقروا بالمنطقة الممتدة بين "طاقة" و"جبل بودرياس" إلى "فجتنوكلة" و"بكارية"، ودخل "أولاد بوغانم" من جهة الشَّمال وتسلَّل "أولاد سيدي حمادي" و"أولاد عبد الملك" جنوباً، مما تسبّب في حدوث اصطدام بينهم، حيث عزم "أولاد بوغانم" على طرد "أولاد سيدي يحيى بن طالب" وعزم "الفراشيش" بدورهم على تنحية "أولاد وزّة" من ملكيتهم لقرية "بكارية" وحتى لبساتين تبسة، ونفس الشَّيء الذي راح إليه "أولاد عبد الملك" و"أولاد سيدي الحمادي" على استعمال القوة لمنع التَّمامشة من الانتجاع في جبل العنق الذي أعلنوا ملكيتهم له⁴.

بهذا الفعل تمكنت فرنسا من إيقاظ الشَّحناء وبثّ بذور الخلاف والشُّقاق بين القبائل الحدودية مُحدداً وهذا لكي تتمكن من بسط نفوذها نحو الأقاليم الحدودية التونسية من أجل تحقيق أغراضها التَّوسعية والاستيطانية⁵.

وفي هذا المقام لنا أن نتساءل حول موقف السُّلطة المركزية التونسية من هذه الإجراءات والتي مست مجالها الحدودي هي الأخرى. فما موقف بايات تونس من هذه الإجراءات الفرنسية؟

1 - بيار كاستيل: المصدر السَّابق، ص 220.

2 - إدريس رائسي: المرجع السَّابق، ص 45-46.

3 - إدريس رائسي: المرجع نفسه، ص 50.

4 - بيار كاستيل: المصدر السَّابق، ص 221.

5 - إدريس رائسي: المرجع السَّابق، ص 36.

3- موقف بايات تونس من الإجراءات الفرنسية:

إنَّ المتمعن في حقيقة موقف الباي التونسي يلحظ بأنَّه لم يعارض الإجراءات الفرنسية وأبداً قبوله بها من خلال صمته الذي اعتبر كعلامة رضا، وباستثناء مسألة ضم "نهد" التي أدخلته في مفاوضات عديدة مع الطرف الفرنسي من أجل ضمها إلى سلطانه وإثبات أحقيته في تملكهما انطلاقاً من عديد الأدلة والشواهد التي تثبت ذلك¹، لكنه في الأخير فشل أمام المفاوضات الفرنسية واعترف في عام 1853م بضمها للتراب الجزائري. أمَّا فيما يتعلق بالتخطيط الحدودي فإنَّه وافق عنه واعتبره خطوة هامة من أجل تأمين الحدود بالنظر لأهميتها الاقتصادية والأمنية لكلا السلطتين، كما أعرب عن رغبته في تحصين المجال الترابي التونسي لمنع أيّ توسع فرنسي على حساب مجاله وتفادياً منه لتوتر العلاقات بين البلدين، وانطلاقاً من هذه الاعتبارات بادر هو الآخر باتخاذ جملة من التدابير للحفاظ على مجاله الحدودي ونذكر منها:

● اتخاذه العمل بالأساليب الحديثة لإثبات ملكية بعض المناطق الحدودية لسلطانه، وهي إجراءات تصبُّ جميعها ضمن الأساليب الحديثة التي جاء بها الاستعمار الفرنسي، كتتحققه من تبعية التراب لمملكته انطلاقاً من مزاوله رعاياه له في القديم، وأحياناً أخرى استدلاله بالقبور المنسوبة إلى التونسيين، بالإضافة إلى اعتماد بعض الرسومات القديمة التي تدلُّ على ثبوت الملكية، كتقدير المسافة بين هذا المكان والحدِّ الفاصل بين المملكتين، وإذا أمكن وجود صور أو رسومات لهذا المكان والحدِّ الفاصل، وتم الاستدلال أيضاً باستخدام الرسومات والخرائط المعرَّبة².

وقد جاء في الوثيقة 181 شيئاً من هذه النقاط والتفصيلات والتي نورد مقتطف منها: «... واعلم بأنَّه من المعلوم أنَّ وجود المقابر بالمحلِّ المذكور من أعظم الحجج والأدلة وأنَّ ذلك المحلِّ من مشمولات مملكة تونس وطلب منه مكاتبه حاكم عموم الجزائر بذلك ليمنع رعايا تلك المملكة من أن يتجاوزوا حدودها وحيث كان عامل الجريد عرف أنَّه كاتب من يثق به فاشحبه عن حقيقة النازلة،...»³. وفي ذات الوثيقة جاء أيضاً: «... وإنَّه وجه عبد الله بن حميدة وعبد الله بن علي وصحبتهم عدلان وكاتب خليفة تامغزة بالتوجه معهم فتوجهوا إلى أن وصلوا إلى الحدِّ الفاصل بين المملكتين ووجد بيوت "أولاد حمادي" ومن تبعهم بداخل المملكة التونسية نازلين قرب مقابر أربع عتيقة وإبلهم فنزل الفريق منهم للحدِّ يبعد عنه تقريبا بأربعة أميال والبعيد بنحو 13 أميال وأن هاته المقابر بها مزارات لسيدي الحمادي قديمة معروفة عند النَّاس، وهناك أرض محترت وأبار وأودية

1 - استند الباي الحسيني لإثبات تبعية منطقة "نهد" إلى مجاله بتقديم عديد الأدلة التاريخية والسياسية والقضائية للمفوض الفرنسي، الذي بدوره هو الآخر قدَّم عديد الحجج لإثبات أحقيته بتبعية هذا المنطقة للمجال الجزائري. ينظر: فاطمة بن سليمان: المرجع السابق، ص 281 - 303. وينظر أيضاً: الملحق رقم (06).

2 - فاطمة بن سليمان: المرجع نفسه، ص 307.

3 - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 181.

ووجه صحبة مكتوبه صورة تحتوي على مثال نزل المذكورين والمقابر والمزارات والأودية والأبار...»¹.

● مراسلاته لعماله في الأقاليم الحدودية لاتخاذ الحيطه والحذر، وتنبههم بعدم قبول دخول أي فرد وأي عرش من العروش الحدودية الجزائرية أو إيوائهم داخل المجال التونسي، وهدد سكان و أعراش المناطق الحدودية التونسية بالفتك والقتل في حال عدم التزامهم بتعليماته الصارمة في هذا الشأن².

● شروعه في إقامة نقاط للتفتيش وبناء أبراج عسكرية للمراقبة مدعمة بآليات حديثة كالتأطور، وإقامة ثكنات عسكرية متقدمة في كامل الشريط الحدودي ومن كافة الجهات ودعمها بنصب أربعة قطع مدفعية بمدينة "الكاف" لتثديد المراقبة على المجال والقبائل، وكان هذا في عهد الباي "أحمد"، ليواصل خلفه الباي "محمد الصادق" العمل على تشييد الأبراج والثكنات العسكرية في كل من منطقة "ماطر" و"برج الحميمة" و"برج حيدرة" و"برج النفيضة" و"الأعراس"؛ ويعتبر هذا الإجراء أخطر الإجراءات التونسية على الإطلاق لكونه أترّ بشكل كبير على القبائل الحدودية، ولعل مرد تصرف المملكة التونسية في تشييد مثل هذه النقاط لأسباب أهمها:

● للحراسة الموجهة بدرجة أساسية لرصد حركة القبائل الحدودية ويرجع إلى³:

- رغبتهم في مراقبة حركة المجموعات الحدودية المتجهة للجزائر.
- كرد فعل لمشاركة القبائل الحدودية في ثورة 1864م ودورها في تهريب "علي بن غدهم" للجزائر.
- مشاركة القبائل الحدودية التونسية ك"أولادبوغانم" و"الفراشيش" و"أولاد عبيد" بجانب القبائل الحدودية الجزائرية في مقاومة الاستعمار الفرنسي.
- سعيا منها لتحقيق مراقبة دائمة لنقاط العبور⁴.

أمام هذا الضغوطات والإجراءات والمتغيرات الموجهة بشكل كبير لتضييق الخناق على حركة القبائل الحدودية فيما بين البلدين، نتساءل ما موقف القبائل الحدودية من التّحديد؟ وما آثاره عليها؟

ثالثا- أثر الإجراءات الفرنسية على التّواصل القبلي وموقف القبائل الحدودية منه:

إن كانت كلتا السلطتين قد أقدمتا على قرار التّحديد لأغراض تخدم مصلحتهما بشكل خاص، بصرف النظر عن انعكاسات هذه الإجراءات على القبائل الحدودية، فإنّ الطّرف المتضرر وبشكل كبير كان القبائل الحدودية ذاتها، وذلك لكون هذه القرارات قد مسّت سيرورة حياتهم اليومية، فالقبائل الحدودية قبل مجيء الاحتلال الفرنسي كانت تعيش نوعاً من التّواصل المستمر والدائم الذي فرضته عليهم المعطيات الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية والحضارية، فالقبائل الحدودية لم تعتد على رؤية الجندي الفرنسي يترصدهم في قارعة

¹ - نفسه. ينظر الملحق رقم (07).

² - فاطمة بن سليمان: المرجع السابق، ص305.

³ - نور الدّين صحراوي: المرجع السابق، ص10.

⁴ - نفسه، ص10.

الطريق بالتفتيش والنهي والمنع، فحقيقة أنّها ألفت رؤية محلّة الباي و الأغا إلا أنّها كانت من جنسهم وتكلم لغتهم ولباسها مألوف بالنسبة لهم¹، على العكس من محلة الفرنسي الغربية عنهم، مما تسبّب في إحداث شرح بالغ الأثر على مسار تحركهم، وكان من الصعّب عليهم تقبله والرّضوخ له، لأن الأمر غير اعتيادي، فسلطتي البلدين قبل مجيء الاحتلال كانتا تكتفیان بإعلان تلك القبائل ولائها لها وتكتفیان بالأداء الضّرّي، أمّا نمط تحرك القبائل فلم يكن من المواضيع المطروحة بشكل بالغ بالنسبة للسلطتين لأنهما كانتا مُدركتين جيدا إلى أنّ هذا التّواصل ما هو إلا ظاهرة طبيعيّة وتاريخيّة ولا يمكن لهما الفصل فيه بأي شكل من الأشكال أو إيقافه، لأن ذلك سيوقعهما في مطبات هما في غنأ عنها، وعليه فكلا البلدين لم يحاولا أبدا إيقاف عجلة هذا التّحرك والتّقل، فحتى أوامر المنع الصّادرة من "حمودة باشا" كانت تصبّ في نمط عيش القبائل الحدوديّة وليس لها أيّ تأثيرٍ على علاقات التّواصل التاريخيّة التي ربطتهما ببعضهما البعض².

لكن هذه الرّقابة والحدود الفاصلة وأوامر النّفي والإبعاد قد أحدثت نوعا من الاضطراب وعدم التّوازن في نمط عيش القبائل الحدوديّة، وذلك لما لها من تأثيرات بعيدة المدى كانت قد مسّت مختلف أنماط معيشتهم الاقتصاديّة والاجتماعيّة، فهذا التّضييق السياسي والرّقابي الصّارم من النّاحية السياسيّة على مجال الحدود قد أضّرّ بحركة تنقل سكان الحدود وامتدّ أثرها إلى التّأثير على حركة القوافل التجاريّة وبالتالي تضرّر النشاط التجاري بدوره هو الآخر مما تسبّب في عدم تزود السّكان بمستلزماتهم الضّروريّة وبالتالي ارتفعت أسعار السّلع ونمت بدل ذلك تجارة التّهريب، لذلك شيّدت فرنسا مراكز للحراسة الدائمة وأبراج للمراقبة المستمرة لمكافحتها³.

غير أنّ الباحث في أسبابها الحقيقيّة التي كانت وراء بروز هذه الظّاهرة الاقتصاديّة يرى بأنّ المحتل هو المسؤول عن ظهورها وذلك بفعل تفعيله لقرارات رسم الحدود بين البلدين، لأنّه بهذا الإجراء قد مارس التّضييق على المنحى الطّبيعي لتجارة القوافل السّائدة في تلك الأقاليم، وبالتالي لم يكن هناك مناص وبد من ظهور تجارة التّهريب التي كانت السّبيل الوحيد لتوفير مختلف المستلزمات خاصة بعد استصدار الاحتلال لرخص العبور والتّنقلات، ليمتد تأثير رسم الحدود على القبائل إلى الجانب الاجتماعي أين مورست ضغوطات على تنقلات السّكان ومنعوا من اللجوء أو الفرار إلى تونس وشدّدت على إدارة الباي في إغلاق أبوابها أمام الوافدين من المستعمرة الجزائريّة، بدورها سلطة الباي هنا كانت قد أقدمت على إصدار أوامر المنع بوفود الجزائريين، بل وتوعدت بمعاينة كل من يتعاون معم ويفتح المجال التّونسي لهم⁴.

¹ - فاطمة بن سليمان: المرجع السّابق، ص 308.

² - نفسه.

³ - نور الدّين صحراوي: المرجع السّابق، ص 10.

⁴ - فاطمة بن سليمان: المرجع السّابق، ص 305-306.

ولعل من أخطر الإجراءات بالإضافة إلى كل ما تقدّم ذكره، تمثل في سعي فرنسا لافتكاك "أراضي العروش" من أيدي أصحابها وضمها إلى سلطتها بدعوى أنّ القبائل قد شاركت في مقاومة الأمير عبد القادر، و عليه فقد أصدر "بيجو" أمرية¹ في 31 أكتوبر 1844م تقضي بالاستيلاء على أراضي القبائل التي تعادي فرنسا وتؤيد الأمير عبد القادر، وأفضى هذا القرار إلى افتكاك نحو نصف مليون هكتار في جهات عديدة من الوطن، وفي السنة الموالية قام بالاستيلاء على أراضي القبائل المشاعة وحوّل ملاكها إلى عمال وأجراء فيها، ليواصل "راندون" (1852-1858م) سياسة خلفه بيجو في افتكاك أراضي الأعراس المشاعة وتحصل على نحو: واحد وستون ألف وثلاثمائة وثلاثة وستون (61363) هكتار في الفترة الممتدة فيما بين 1851 و1861م²، لتمتد يد السُلطة الاستعمارية أكثر على الأراضي القبليّة مدعيّة هذه المرة بأن أراضي القبائل تابعة للباي والباي منح القبائل حقّ الانتفاع بها جماعياً، وبسقوط سلطة الباي فإنّ هذه الأراضي تتحول آلياً للدولة الفرنسية باعتبار أنّها الوريث الشرعي للبايات، كما طبقت سياسة الحصر على الأراضي القبليّة بموجب قانون جوان 1851م، لأنّ أراضي القبائل تزيد عن حاجيات أفرادها، وعليه فقد حصرت السُكان في جزء من أراضي العرش تماشياً مع حاجياتهم، أمّا الجزء المتبقي فهو يذهب للدولة باعتبارها مالكة حقّ الرّقبة على هذه الأرض، ولم تستثن سياسة الحصر هذه حتى الأراضي الرّعوية التي طالها هي الأخرى هذا القانون وتسبّب في احدث حالة من الاحتناق في حقّ مزاولي هذا النشاط، لحاجتهم المستمرة للحركة بين التّل والصّحراء والجبال والغابات على امتداد فصول السنة³.

لم تتوقف الأمرات الفرنسية عند هذا الحدّ بل استمرت في الصُّدور حتى في سنوات لاحقة، فقانون "سيناتوس كونسيلت" (**Sénatus-consulte**) الصادر بتاريخ 22 أبريل 1863م هدف إلى تفتيت الملكيّة الجماعيّة وإحلال الملكيّة الفرديّة بدلاً منها⁴، لتقوم بإخضاع كل المعاملات العقاريّة في الجزائر للقانون الفرنسي عبر قانون "فارني" 1873م والمتّمم بقانون 1887م المهادين إلى

¹ - بيجو: ولد في باريس، ملع نجمه وهو ضابط شاب في حروب الإمبراطورية الأولى، انحاز عام 1814 إلى الملكيين من آل بوربون وكلف بحراسة دوقة بري Berry والقضاء على اضطرابات نيسان 1834)، وهو ما أفقده شعبيته، أوفد عام 1836 على رأس حملة إلى الجزائر وحقق بعض الانتصارات بصعوبة، وحذّر من التوغل في احتلال الجزائر، لأنه مكلف جداً للجيش الفرنسي، ووقع في 30 أيار 1837 مع "الأمير عبد القادر" معاهدة "تافنة"، وفيها قدم "بيجو" للأمير عبد القادر تنازلات واعترف بسيادته على ثلثي الجزائر، ولكن سرعان ما نقضت هذه المعاهدة واستؤنفت المعارك، وسمّي بوجو عام 1840 حاكماً عاماً على الجزائر، واتبع سياسة الشدة لقمع المقاومة الجزائرية واستكمال احتلال البلاد وارتكزت سياسته في الجزائر على المبادئ التالية: توطيد الاستعمار الفرنسي في الجزائر، وترسيخ الاندماج من خلال القضاء على مقومات المجتمع الجزائري بإحلال المقومات الفرنسية. ينظر: <https://www.marefa.org> اطلعت عليه يوم 2018/02/04 على الساعة 18:14

² - يحي بوعزيز: سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية (1830-1945م)، ط1، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 1995م، ص 10 - 15.

³ - صالح حيمر: السياسة العقارية الفرنسية في الجزائر (1830-1930م)، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم (غ.م)، تخ: التّاريخ الحديث والمعاصر، قسم التّاريخ وعلم الآثار، كليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، جامعة الحاج لخضر - باتنة، الجزائر، 2014م، ص 105.

⁴ - صالح حيمر: المرجع السّابق، ص 119.

القضاء على الملكية الجماعية للقبائل التي كانت تخضع سابقاً للشريعة الإسلامية والأعراف القبلية¹، لتمتد الأطماع الفرنسية في التوسع أيضاً على حساب المجال التونسي الشيء الذي أدى إلى تكثُر أحوال التونسيين وتغيّرت أحوالهم منذ أن جوارهم الفرنسيين بمنطقة الحدود واقتربوا من بلادهم، إذ صاروا يعملون على الاستيلاء على أراضيهم ويذلون الأموال الكثيرة في سبيل ذلك بقصد مدّ النفوذ في البلاد التونسية والسيطرة عليها²: «...لما تكاثر جولان اجناب طوايف الفرنسيين بالعمل³ صار مجلهم يرغب ممن له أراضي ملكا على أن يملكها بالبيع لهم ويخوفونهم عند الامتناع من البيع بقولهم أن بعد مدة يسيرة قابلة يأخذ الفرنسيين جميع أراضي العمل من غير ثمن ويستولون عليها استلاء القهر والغلبة كما يرغب بعضهم من بعض انفار من أهل العمل احصاء أعداد كل عرش من عروش العمل ويوعدوا ببذل الدرهم لمن يحصي لهم ذلك وكثير ما يُعْرُونَ من يطلبها بحق معين لأهل من أهل أو جبايه المرتبة للدولة التونسية على الدخول في الحماية الفرنسية...»⁴.

وترفع ذات الوثيقة انشغال وشكاوي أهل "باجة" للمسؤولين التونسيين للعمل من أجل إيقاف تجاوزات وخروقات وكيل عنابة "يوسف التيقرو" الذي كان يرغب ويهرب السكان لبيع أراضيهم، الشيء الذي من شأنه أن يُوقع مصادمات عنيفة من الطرف أثناء محاولة أهالي "باجة" الدفاع على أراضيهم ورفض قبول المساومة فيها⁵.

مع كل هذه المستجدات الجديدة والإجراءات الصّارمة من طرف إدارة الاحتلال والسُّلطة المركزية التونسية، إلا أن القبائل لم تلق بالأبى بهذه التّهديدات وواصلت في مقابل ذلك نمط عيشها القديم معلنة عن تشبُّثها بأواصرها الصّاربية في أعماق الماضي، بل وقاومت سياسية الاستعمار الرّامية إلى تضيق الخناق على تنقلاتها وتحركاتها، عن طريق الرّفْض الذي تترجم في العديد من الصّور كالمقاومة العسكرية مثلاً، ففي عام 1844م اندلعت حركة مناهضة للاستعمار الفرنسي قادها كل من عرشى "الحنانشة" و"ورغة"، أو عن طريق المقاومة السّلمية كمراسلة القبائل الحدودية التونسية للبايات⁶، أو عبر مواصلة النّشاط التجاري كرد فعل لإقامة سلطة الاحتلال لأبراج المراقبة ونقاط

1 - عبد الثور بن سليمان: امتلاك الأراضي الفلاحية والرّعيّة في العرف الجزائري منطقة تارا أنموذجا، دراسة أنثروبولوجية ريفية، كتيبة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان، الجزائر، 2012م، ص39.

2 - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 94، نقلا عن: خليفة ماش: كشف وثائق تاريخ الجزائر في الأرشيف التونسي، ج1، ط2، منشورات كلية الآداب والحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة، الجزائر، 2016م، ص175.

3 - المقصود بما هنا وطن باجة.

4 - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 189. ينظر الملحق رقم (08).

5 - نفسه.

6 - فاطمة بن سليمان: المرجع السابق، ص313.

التفتيش ومراكز الحراسة، وواصلت ظاهرة قطع الطريق على القوافل التجارية كرد فعل من نوع آخر على سياسية الاستعمار الفرنسي¹.

فالقبائل الحدودية لم يكن بوسعها الرضوخ لسياسة الأمر الواقع وإنما أخذت تتحيز الفرص الموازية لمواجهة المستعمر أيًا كانت الطريقة للدفاع عن مجالها، ولكن بالنظر للاختلاف الواضح في موازين القوى تريت أكثر للبحث عن التوقيت المناسب لإعلان عصيانها وتمردتها من أجل إثبات أحقيتها بتملك مجالها وإدارته واستغلالها له².

رابعاً- القبائل الحدودية بين الإغارة والتآزر لمقاومة المحتل الفرنسي:

1- الإغارات بين القبائل الحدودية:

تعريف الإغارة لغة: اسم مصدر "أغار"، "أغار" فعل، "أغار على" يُعير، أغر، إغارة، فهو مُعير والمفعول مُغار للمتعدي، ومن نماذج الشعر العربي عن الفعل "أغار":

فَلَيْتَ لِي بِهِمْ قَوْمًا إِذَا رَكِبُوا شُنُوا الإِغَارَةَ رُكْبَانًا وَفُرْسَانًا

أما اصطلاحاً: فهي تلك الهجومات التي تقوم بها القبائل على قبائل أخرى بغرض السلب والنهب كما تتم الإغارة بين قبائل الوطن الواحد، ومنه تأخذ الإغارة نوعين إغارة داخلية إذا كانت داخل البلد الواحد، وأخرى خارجية إذا كانت بين بلدين أو أكثر.

و إبان المرحلة الاستعمارية شهدت القبائل الجزائرية الحدودية هجمات متتالية من طرف القبائل الحدودية التونسية والتي تراوحت أسبابها ما بين السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ومن جملة الإغارات نذكر: تعرض "أولاد رشاش" للنهب أربعة مرات سنة 1860م، سلب منهم خلالها ثلاثمائة (300) رأس من الإبل وثمانمائة ألف (800.000) رأس غنم، ونفس الشيء تعرض له "أولاد سيدي يحي بن طالب" إذ تعرضوا بدورهم للنهب ثلاث مرات، نهب لهم فيها أربعة آلاف (4000) رأس غنم ومائة من الإبل، ليتم تسجيل اعتداءات أخرى من "أولاد عبد الملك" و"أولاد سيدي الحمادي" على عشائر حوز تبسة، كما دخل "أولاد بوغانم" في صراع مع "أولاد يحي بن طالب" و"الفراشيش" و"زاس" ضد التمامشة في سنة 1861م، وفي السنة الموالية 1862م قامت فرق من "أولاد زاس" من قبيلة "الفراشيش" بتوجيه عديد العمليات من النهب في "تنوكلة" وفي الصحراء، وحتى أثناء "ثورة ابن غداهم" قامت القبائل التونسية "المرازقة" بنهب "الفراشيش الحمايلية"، مما اضطر فرنسا للتدخل عن طريق إرسال سرية من الفيلق الثالث لقناصة إفريقيا وفيلق من المشاة وكتيبة مدفعية³.

¹ - نور الدين صحراوي: المرجع السابق، ص13

² - إدريس رايسي: المرجع السابق، ص63.

³ - بيار كاستيل: المصدر السابق، ص 222- 224.

وفي خمسينيات القرن التاسع عشر كثفت القبائل التونسية هجماتها على الفرق التبسيّة الخاضعة، متعدّية بذلك سلطة المحتل، وكان الصّراع سجّالاً بين الطرفين حول السّيطرة على الأراضي الجزائريّة في تلك الجهة من الوطن¹، لينتقل بعدها الصّراع من منحى قبلي وعروشي إلى صراع الأشخاص المتمين لأعراس القبائل الحدوديّة، حيث هاجم أشخاص من عرش "ورغة" التونسي سارحين من رعايا الدّولة التّونسيّة². وفي 16 فبراير من عام 1881م دخلت فرقة من "الخمير" مركبة من 300 شخص بسلاحهم لبرّ الفرنسيين وقتلوا عرش "الحواشة" الجزائري، هذا التّعدي جاء بعد أيام قليلة من سرقات عديدة صدرت من العرش المذكور، مما يعطي صورة عن حالة الاضطراب الشّديد التي كانت تشهدا الحدود، و يُجتم على الطّرف الفرنسي العمل من التّقليل منها³.

كذلك نجد ازدياد وتيرة هجومات "الهمامة" على عروش القبائل الحدوديّة الجزائريّة، والذي دفع بالقنصل الفرنسي في تونس بإيفاد رسالة إلى الوزير الأكبر "مصطفى خزندار" مؤرخة في 3 جانفي 1881م يخبره فيها: «... أمّا بعد فإنّ حاكم عموم الجزائر قد دعاني للتنسيق فيما هو واقع الآن من الحالة المكرّرة بالحدود التّونسية القبلية... هاته المرة جيش من الهمامة بخيول الصّحراء بين سوف والجريد وقتلوا زوج انفار مسافرين بشك كحيله والحاصل أنّ الرّاحة يتلك الجهة مفقودة وفي هاته المدّة الأخير عدة 14 انفار من "أولاد رشايش" قد ذهبوا لشراء التّم من الجريد وعند سفرهم تعطلوا خمسة أيام حتى يسبروا مع قافلة سوف ومدّة سيرهم يرون في خيل توانسة تتبع أمرهم قصدهم الفساد ولم تحيلوا عنهم إلا بقرب الحدادة الجزائرية ورجائي أنّ جنابكم يعلم فقرار مصلحة دولة الحضرة العليّة في انقطاع هاته الحالة المؤدية لوقوع الخطر المستمر ببعض عروشنا... الخ»⁴. كما أعربت إدارة الاحتلال عن قلقها المستمر في جلّ مراسلاتها للطرف التّونسي من جراء حالات التّشويش السّائدة على الحدود والتي للقبائل التّونسيّة ضلع فيها، ونبّهت عليه بضرورة معالجة الأزمة المتفاقمة قبل أن تزداد ضرّاتها وتجبر الطّرف الفرنسي على اتخاذ أفعال من شأنها أن لا تُعجب الدّولة التّونسيّة، والتي نستشفها من الوثيقة 92 وأهم ما جاء فيها: «... أنّ حاكم عموم الجزائر يلزمني أن اتخذ الوسائل اللازمة لوقاية برنا لأنّه يلزم أنّ دولة المعظم الباي تتخذ هي الوسائل الشّديدة لحفظ الرّاحة في الجهة المذكورة من الحدادة...»⁵.

بدورها تعرّضت المجموعات الحدوديّة المتوطنة قرب الشّريط الحدودي في الفترة المتراوحة بين 1851-1881م لاعتداءات القوات العسكريّة الفرنسيّة المدعومة من القبائل الحدوديّة الجزائريّة كـ"الحنانشة" و

1 - عبد الوهاب شلاي: المرجع السّابق، ص74.

2 - أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 236، الوثيقة 3. وهو تلغراف من "النّيكرو" وكيل الحضرة العلية إلى الوزير الأكبر التّونسي.

3 - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 92.

4 - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 81.

5 - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245. ينظر الملحق رقم (09).

"النمامشة"، بالإضافة إلى محاولات افتتاح أراضيها واتسع مجال الإغارة والنهب من طرف القوات الفرنسية المدعومة بالقبائل الحدودية الجزائرية ولامست تقريبا جميع أماكن الحدود الغربية لمجال "الفراشيش" من الرميلا لبلاد الحواظ إلى بحيرة "تاجموت" إلى "عين عنان" من عمل قلعة سنان من بلاد "أولاد بوغانم" إلى "الطباقة" و"القوسة جوفي" بلد "حيدرة" إلى "البريكة" ببخيرة "أفران" من بلاد "الفراشيش" إلى "الحاجزة" (الحازة) إلى "بودرياس" من عمل بخيرة "فوسانة" إلى "الحمار" أحد أماكن بخيرة "فسانه" (فوسانة) وصولا إلى "درناية" و"المحامة" أمام قرية "فريانة"، وقرية "فريانة" و"بوحية" و"بوحسين" و"خنقة الصّفصاف" أحد أماكن عمالة تونس، و"قارة النّعام" و"فيض عمر" من بلاد "الفراشيش"... وصل إلى حدّ تدخل السّلطة المركزيّة التّونسيّة والسّلطات الفرنسيّة وحكام تبسة وبكارية والقضاة والعدول من الجانبين لتحرير ما نُهب وسرق بحجج ممضاة جماعيا، ولم تفتأ أن تجددت الغارات، فها هو ذا حاكم تبسة يشنّ غارة بمعية "أولاد يحيى بن طالب" و"النمامشة" عام 1859م على "الفراشيش" وسلب منهم رابية وخمسة آلاف (5000) سعيًا رقيقًا وما يقارب ثلاثمائة (300) ناقة، كما خلّفت أربعة قتلى وجريح واحد، وفي نفس السنّة تمّ تسجيل هجوم آخر على دواوير "الوزاي" من "الرّعابة الفراشيش" من طرف حاكم تبسة وجنوده وزمالة "النمامشة" و"الحراكتة" وأولاد "يحيى بن طالب"¹، وتوالت الإغارات على القبائل الحدودية التونسية من طرف القبائل الحدودية الجزائرية وحتى الفرق الفرنسية المرفقة بفرق القوم مخلّفة لا أمن واستقرار لمستوطني الحدود، هذه الإغارات التي لم يمنعها الليل من الخروج لتزعزع صفو القبائل الحدودية، جاءت في بيان أحد التّوازل حيث تقول: «...على الإغارة ما وراء الليل في منتصف الشّتة الفارطة من غير الوقت المعتاد إليه خروجه وقدم القايد يوسف الليقرو ومعه أربعة نصارى واتاهم في الوقت المذكور القايد أحمد الشّريف ومعه قدر مائة فارس (100) واتوهم بخيل معهم وركبوا جميعا من هناك صباحا وتوجهوا للناحية الغربية يركضون ويطلقون في البارود وقد تم تشويش إن ذاك لأهل العمل»².

ووقع تعدي آخر على التّونسيين بناحية الجريد، ولاذت هذه القبائل بالفرار إلى الصحراء فور ملاحقة القوات التّونسيّة لها، وقد سعى قايد الجريد بإرسال مراسلات لقياد تبسة وسوف وتوقرت لملاحقة الجناة ومعاقتهم على صنيعهم، لكن مراسلاته هذه لم تلق صدًى من طرف هؤلاء فقرر أن يتبعهم بنفسه، وفعلا تمكّن من القبض عليهم وافتك منهم ما نُهبوه³.

إذن فالغارات بين القبائل الحدودية كانت موجودة ولا مجال لنكرانها، لكن ما يهمننا هنا هو البحث في أسباب نشوبها.

1 - إدريس رائسي: المرجع السّابق، ص 94 - 99.

2 - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 140.

3 - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 155.

يذهب البعض في اعتبار تلك الإغارات التي تشن من طرف القبائل الحدودية التونسية على القبائل الحدودية الجزائرية بأنها جاءت كرد فعل على الاحتلال الفرنسي الذي مد نفوذه على المناطق الحدودية الشرقية الجزائرية ولم يكن القصد منها القبائل الجزائرية، وعليه فقد تم إدراجها ضمن المقاومات التونسية الجزائرية على الاحتلال الفرنسي، واعتبار أن القبائل الجزائرية طرفاً مشاركاً فيها إلى جانب القبائل التونسية لأن أرضها - أي القبائل الجزائرية - كانت مسرحاً لهذه الأحداث والوقائع¹، كما أن المتمعن لهذه المقاومات يجدها موجهة ضد القبائل الخاضعة وليست كل القبائل، ولكن حسب رأينا فإن هذا الرأي يحتمل الصواب كما يحتمل جزء منه العكس تماماً، فبغض النظر حتى وإن كانت تلك الإغارات موجهة ضد القبائل الخاضعة للسلطة الفرنسية، فإن الطرف الجزائري هو المتضرر منها بشكل كبير وليس الاحتلال الفرنسي، أمّا فيما يتعلق بكون القبائل الحدودية الجزائرية طرفاً فاعلاً فيها باعتبار أن أرضها كانت مسرحاً لها، فهو لأن القبائل الجزائرية وقع عليها فعل الإغارة ولم تكن فاعلة فيها بالقدر الذي يُحمّلها مسؤولية الإغارات. وقد لخصنا بحثنا في هذا الموضوع أن الإغارات التونسية على الحدودية الجزائرية قد جاءت:

✓ كرد فعل على الاحتلال الفرنسي الذي مد نفوذه على الحدود الشرقية وتعدديه وتوسعه على حساب المناطق التابعة للقبائل الحدودية التونسية في تلك الجهات من المجال الحدودي، وكمثال على هذا عشيرة "أولاد وزاس" التي لا تنفك تطالب بأرضها التي تقول: «أثما تمتد إلى فج تنوكلة وتشمل كل القسم الشرقي من الحوز ما بين الحدود شرقاً إلى بكارية غرباً وجبل طاقة جنوباً»².

✓ تقييد وعرقلة الاحتلال الفرنسي لحركة القبائل الحدودية، فالحدود لم تكن قبل ذلك لها أدنى اعتبار، حيث كانت القبائل تنتقل بكل حرية ودون أي رقابة لأن مجال الحركة فيها كان مفتوحاً ويتسم بالمرونة وغير مرتبط بحدود وهمية.

✓ جاءت كرد فعل على القبائل الخاضعة والتي دخلت في طاعة الاستعمار، ونلمس هذا في قول المحارب "علي بن غذاهم" أثناء تحذيره بعدم التعرض لقبائل الحوز، ويذكر "كاستيل" ذلك فيقول: «عادت من جديد غارات القبائل التونسية على قبائل حوز تبسة رغم النصح الموجه إلى باي البايات بعدم التعرض للقبائل الجزائرية، ولكنه هدّد بإبادة قبائل الحوز والاستيلاء على ممتلكاتها لأنها قبلت الخضوع للسيطرة الفرنسية وهي بذلك تعتبر نصرانية يجوز فيها كل شيء»³.

✓ ارتباطها بالاختلافات والمنازعات المستمرة القائمة بين القبائل الحدودية حول بعض المناطق في المجال الحدودي، التي لم يفصل في تبعيتها لأبي المجالين تخضع، لأن معالم الحدود كانت مبهمة بينهما حسب ما جاء في رسالة عامل الجريد للباي التونسي والتي يقول فيها: «ويكون معلومكم أن الصّحراء الذي بين رسم سوف

1 - ذهب إلى هذا الرأي كل من الدكتورين "عبد الوهاب شلاي" و"العربي العقون". ينظر: عبد الوهاب شلاي: المرجع السابق، ص 74-75، وينظر أيضاً: بيار كاستيل: المصدر السابق، ص 224. التّعقيب رقم 206.

2 - بيار كاستيل: المصدر السابق، ص 226

3 - المصدر نفسه، ص 226.

ودولتنا ليس فيها حدٌ ولا نهاية وهي جبال رمال متصلة لكلّ جميع المفسدين»¹، وهو ظرف طالما استغلته القبائل الحدودية سواء منها الجزائرية أو التونسية من أجل تملك بعض الأراضي، لتشكّل بذلك محوراً للنزاعات بين قبائل الطرفين في ظلّ افتقارهما لسندات الملكية²، وهو ما ادخلهما في نزاعات عديدة وعنيفة استمرت لفترة طويلة، ففيما بين سنتي 1870-1881م سجّلت السلطة الفرنسية ما لا يقل عن ألفين وثلاثمائة وثمانين (2380) حادثة، أي بمعدل مائتين (200) حادثة في السنة³، إلى حدّ جعل "كاستيل" يصور هذا المشهد بقوله: «... وكانت الحدود إلى سنة 1860م غير محدّدة بدقّة وهي خط فضفاض وهناك أماكن يطالب بها التونسيون، بينما تصرح قبائل الحوز بأنّها ملك لها وكثيراً ما كان هذا الوضع سبباً في نزاعات مؤسفة بين الطرفين مراراً عديدة، وتكوّنت الأحقاد والنزعة إلى الثأر، وعض أن يسود السّلم بين البلدين المتجاورين سادت الكراهية التي تغذي الرّوح العدوانيّة لدى الطرفين وتحوّلت إلى أعمال سطو ونهب واقتتال»⁴.

فصحيح أنّ هذه الغارات قد أثّرت بشكل أو بآخر على حياة سكاني المنطقة الحدودية في كلاً البلدين إلّا أنّها لم تصل لدرجة الكراهية وانتشار الأحقاد، فتصوير الكاتب فيه كثير من المبالغة، وإلّا كيف نُفسّر علاقات التعاون بين القبائل الحدودية في مختلف الجوانب والتي سنأتي على تفصيلات أكثر في الفصول اللاحقة.

✓ ارتباطها بعمليات النهب والسّرقة جراء تدهور الأوضاع الاقتصادية التي مسّت وبشكل كبير القبائل التونسية في النّصف الثاني من القرن التاسع عشر لتضاعف المجي، بالإضافة إلى تضيق الخناق على تنقلات القبائل على الحدود بفعل تشديد الرّقابة على الحدود من طرف الإدارة الاستعمارية، بالإضافة إلى سنوات الشدّة والقحط التي ضربت المنطقة الحدودية، فضلاً عن تفشي الأوبئة والأمراض؛ وعليه فهذا التّراجع في الجانب الاجتماعي أحدث نوعاً من الارتجاج وعدم التّوازن الذي لم يوجد له متنفساً إلّا بظاهرة الإغارة والسّرقة والنهب، وهذه الظاهرة مسّت القبائل الحدودية الجزائرية هي الأخرى⁵.

أمّا فيما يتعلق بالأسباب التي دفعت القبائل الحدودية الجزائرية لشنّ غارتها على القبائل التونسية، فنلخصها في النّقاط التالية:

✓ غرضها تأديبي وكرّد فعل ضدّ هجمات القبائل التونسية، ففي 24 ماي 1862م تمّ شنّ هجوم مضاد من طرف الإدارة وفرق القوم و"التمامشة" على "فراشيش وزاس" الذين قاموا باجتياز الحدود ودخلوا إقليم

1 - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 155.

2 - إدريس رائسي: المرجع السابق، ص 96.

3 - علي المحجوبي: انتصاب الحماية الفرنسية بتونس، ط 1، دار سراس للنشر، تونس، 1986م، ص 40.

4 - بيار كاستيل: المصدر السابق، ص 214.

5 - إدريس رائسي: المرجع السابق، ص 118-119.

الفصل الأول حركة القبائل الحدودية الجزائرية التونسية وبعدها السياسي

الحوز، فاقتمت دواويرهم قرب "جبل الشبيكة" وسلبوا لهم عشرة آلاف (10.000) رأس غنم وخمسائة (500) من الإبل وقتل حوالي اثنا عشر (12) رجلاً¹.

✓ الصّراع حول ملكية الأرض لأنّ الحدود بينهما كانت مُبهمة وغير واضحة فكلا الطرفين تنازعا في سبيل ضمّ بعضاً من المناطق الخصبة لنفوذهما، كما اشتعلت مخاصمات بين الطرفين القبليين حول المراعي المنتشرة على المجال الحدودي لكليهما، وهي نزاعات عنيفة وصلت إلى درجة إطلاق الرصاص في حال منعهم من الانتجاع في بعض هذه المراعي، كالتّزاع الذي نشب بين "التّمامشة" و"أولاد سيدي الحمادي"².

✓ للتزود بالضروريات خاصة في سنوات القحط، كما كانت الإغارة تُشنُّ بغرض التّهب والسلب أيضاً.
✓ لتهجير بعض القبائل الحدودية التونسية كـ"الفراشيش" مثلاً وإجلائهم عن الأراضي المتنازع عليها، وهذا لكي يسهل لسلطة الاحتلال ضمّها فيما بعد، وتعرّض "الهمايشية" أيضاً لملاحقات من هذا القبيل من طرف العروش الجزائرية على نحو المشهد الذي صورته الوثيقة 140 والتي جاء فيها: «.. كما أنّ دواوير من رعايا الجزائر نزلوا بتراب "الهمايشية" داخل الحدود التونسية وادعوا أنّ ذلك تابع للناحية الغربية والحال أنّ الأرض التي نزلوا بها أرض "الهمايشية" وليس بعيدة على الحد الفاصل بين الجهتين»³.

✓ عملاً بالأوامر الفرنسية، فالعروش والقبائل الحدودية الجزائرية تحركت بناءً على الأوامر الفرنسية، ومثاله قيام عرش "التّمامشة" و"أولاد يحيى" بالانتجاع عنوة في أرض "وزاس" لحرمانها من استغلال أراضيهم سواء بالرعي أو الحرث⁴.

✓ بثُّ الخوف والرعب في صفوف العروش الحدودية التونسية إلى درجة التّكئيل بهم لكي يتسنى للإدارة الفرنسية السيطرة على الأراضي الخصبة، فـ"أولاد وزاس" القاطنين قرب "جبل بورمان" الذي كان محلّ نزاع بين "الفراشيش" والسلطات الفرنسية، تعرضوا لغارة بهدف تهجيرهم من تلك المناطق وإجلائهم منها⁵.

ونلاحظ على إغارات قبائل الحدود الجزائرية حضور الطرف الفرنسي كطرف فاعل وبقوة فيها، فهو من كان على رأس القيام بهذا الفعل⁶، وذلك لتحقيق مكاسب توسعية له على حساب المجال الحدودي التونسي، ورغم أنّه مع بدايات وجوده في الجزائر استغرب من هذه الظاهرة واعتبرها من البدائية والتخلف وغياب الرقابة الحدودية للسلطات، وكانت من أبرز المحاور للضغط على السلطات التونسية لقبول بمخطط ترسيم الحدود في سبيل القضاء على هذه الصّوضاء التي تهدد أمن وسلامة المنطقة الحدودية، لكننا نتساءل هنا

¹ - بيار كاستيل: المصدر السابق، ص 224.

² - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 182.

³ - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة نفسها.

⁴ - إدريس رائسي: المرجع السابق، ص 58.

⁵ - المرجع نفسه، ص 103.

⁶ - كحملته على "أولاد بوغانم" عام 1853م وحملته على "الفراشيش" عامي 1857 و 1858م وغيرها من الحملات وهي كثيرة بهدف إجلاء هذه الأخيرة إلى ما وراء الحدود. ينظر: بيار كاستيل: المصدر السابق، ص 220.

عن سبب ممارسته لها إن كانت من قبل مُستهجنة ومُحتقرة لديه وأرجع فاعليها إلى مراحل البدائية والمهجيّة؟!!!، إن لم يكن له دوافع من ورائها والمتمثلة أساساً في رغبته الملحة في التوسع على حساب المجال الحدودي التونسي باستخدام القبائل الجزائرية، وضمّ المناطق الهامة إلى نفوذه.

وعلى هذا يمكننا طرح سؤال، ما هو موقف الطرف التونسي من هذه الإغارات؟

كان موقف الطرف التونسي رمزي وبسيط للغاية لا يتعد تقديم وعود لرعاياه كي لا تحصل مثل هذه الإغارات مجدداً، ولعل مرزاً موقفه البسيط راجع لتخوفه من الطرف الفرنسي حتى لا تكون هذه المخاصمات ذريعة له لبسط نفوذه أكثر داخل التراب التونسي، أو نظراً لاحتلال موازين القوى، مما كان له انعكاسه في تحديد موقفه والذي اتسم بالبساطة¹، أمّا الطرف الفرنسي فقد عمد بالتعاون مع الطرف التونسي إلى تكوين لجان مشتركة للبحث في النزاعات الحدودية، فاقترحت السلطات الفرنسية على الوزير "خير الدين" تكوين لجان مشتركة للنظر في المنازعات العالقة بين القبائل، فكان مؤتمر "سيدي يوسف" المنعقد في 10 جوان 1875م، الذي بحث خلاله الطرفان المشاكل المتعلقة بالإدارة والعنف في المنطقة الحدودية، وقدم الطرف الفرنسي تقريراً مفصلاً عن مختلف الغارات التي تعرض لها الجزائريون، بينما ظلّ الموقف التونسي ضعيفاً، إذ لم يتقدم برفع شكاوي إلا بعد شهر من ابتداء أعمال اللجنة وذلك لاعتبارها أن تلك الإغارات مجرد مشاكل هامشية لا ترق إلا أن تكون مجرد خلافات بين القبائل، في المقابل من ذلك وعلى العكس تماماً كان الطرف الفرنسي حاضراً وبقوة إذ ظلّ يوثق باستمرار تلك الإغارات وظلّ يرفع الشكاوي المتعلقة بتجاوزات القبائل التونسية للحدود الجزائرية للسلطة التونسية²، مع ذلك فمؤسف أن تتحول مخاوفه هذه لذريعة لفرنسا لتبرير تدخلها في تونس بدعوى تعرض الحدود الجزائرية باستمرار لهجمات من طرف القبائل التونسية وخاصة قبائل "بني خمير"، وبعد تلك المناوشات التي نشبت بين قبيلتي "ناهد" و"خمير" والتي أفضت إلى تدخل الطرف الفرنسي بحجة الحفاظ على الحدود لتؤول إلى مواجهة مباشرة بين الجيوش الفرنسية والقبائل التونسية في يومي 30 و31 ماي 1881م، ليستغل "جول فيري" هذا الوضع ويقوم بتبسيط المسألة أمام البرلمان وطلب منه اعتمادات قيمتها خمسة ملايين (5000.000) فرنك لتنظيم حملة عسكرية لمعاينة القبائل التونسية القاطنة على الحدود وردعها، وفعلاً صادق أعضاء البرلمان على هذا المشروع في 17 أفريل 1881م دون أيّ اعتراض رغم أن المناوشات كانت قائمة بين القبائل الحدودية منذ زمن طويل كما تم عرضها سابقاً، ولم تكن وليدة شهر مارس 1881م، لكنّها كانت فرصة سانحة أحسن المحتل استغلالها لتحقيق أهداف سياسية أسمى، وتعلن انتصاب حمايتها على تونس في ماي 1881م³.

2- / المقاومة الجزائرية على الحدود ودور القبائل التونسية فيها:

1 - إدريس رايسي: المرجع السابق، ص 105.

2 - نفسه، ص 68 - 69.

3 - على المحجوبي: المرجع السابق، ص 40.

● **مقاومة بن ناصر بن شهرة¹**: يعتبر هذا المجاهد من أبرز الشخصيات التي قاومت الاحتلال الفرنسي في الجنوب الجزائري، وكان للبيئة التي نشأ فيها دوراً فعالاً في رسم خطوط مساره النضالي الرافض للاحتلال منذ بداياته، لذلك عمل كل ما بوسعه من أجل دحر الاحتلال وتوقيف عجلة تقدمه نحو الصحراء الجزائرية، وبدأ تحركه بدعوة القبائل للتمرد والعصيان عن طريق الرسائل والخطب، ولقيت دعوته قبولاً، الأمر الذي دفع بإدارة الاحتلال لتغيير موظفيها في المنطقة واستبدالهم بآخرين يكونون أكثر ولاء وإخلاصاً لها²، وبعد دخول الاحتلال الفرنسي للأغواط عام 1844م وإثر خضوع سلطانها "أحمد بن سالم" للسلطات الفرنسية، رفض الأمر بشدة وأعلن تمرد على الاحتلال الفرنسي هذا الأخير الذي قبض عليه ووضع في الإقامة الجبرية قرب بوغار بمعسكر، لكنه استطاع مغادرتها في 5 سبتمبر 1851م وأعلن عن نضاله الثوري الذي تزامن ونزول الشريف "محمد بن عبد الله"³ بورقلة نهاية 1849م، فاتصل به وأعلن له تأييده في مشروعه النضالي ضد المحتل الفرنسي واتفقا على تنسيق وتوحيد العمل الثوري، وشرع "بن شهرة" في تمهيد الطريق للشريف باتجاه الأغواط فقاد حملة نحو "قصر الحيران" واستولى عليه في 31 جويلية 1852م وحصنه ليكون مركزاً له للاتصال بالسكان ودعوتهم لنصرة الشريف "ابن عبد الله"، وهو ما كان بالفعل، فقد توافد عليه المناصرون من أعيان المنطقة وحتى السكان الذين ابدوا استعدادهم للتعاون، الأمر الذي مكّن الشريف بفضل عمل "ابن شهرة" من السيطرة على الأغواط وتوسيع نفوذ الشريف شمالاً على حساب "أولاد سيدي الشيخ"، ولم يتوقف دعم "ابن شهرة" للشريف على رص صفوف موطني الأغواط فحسب، بل كانت له العديد من الإسهامات العسكرية التي أجبرت إدارة الاحتلال لتعزيز قواتها في مختلف الجهات⁴، وقد اشتبك "الشريف" و"ابن شهرة" في معركة طاحنه جمعتهما بالمحتل تمكنت إثرها قوات المحتل من الظفر مجدداً بالأغواط عام 1852م، فأعلنا انسحابهما باتجاه "القرارة" جنوباً من أجل التموين والتسليح والعمل على تحضير المقاومة من جديد، عبر اتخاذ الجنوب التونسي قاعدة لتجديد العمل الثوري، وسيّرت قوات الاحتلال حملة أخرى على "الشريف" بقيادة "حمزة بن

¹ ناصر بن شهرة: ولد عام 1804م بقرية المخرق قرب الأغواط وينحدر في أصله من عائلة شريفة من الساقية الحمراء، استقرت بالجزائر منذ أواخر القرن 15م، وعرف زعمائها بالمعامرة والحجاج من أولاد حرز الله، اشتهرت عائلته بالمكانة والنفوذ القوي بين القبائل، حيث توارث عناصرها مشيخة الأرياع، نشأ "ابن ناصر" وترى تربية صحيحة فحفظ القرآن الكريم وتعلم مبادئ الفقه على يد مشايخ من الطريقة القادرية منهم الشيخ أحمد الشاوي، تحل بالأخلاق الكريمة التي مكنته إلى جانب تعلمه فنون الفروسية والقتال داخل مدرسة الأمير عبد القادر الحربية ان يكون فارساً تميز بأسلوبه الحربي في مجال الكرّ والفرّ والإقدام على المواجهة والحرب دون تردد، فقد كان خبيراً في الرماية ويضرب بالرصاص فيصيب المرمى بدون خطأ أو تردد متميزاً بنفوذه العسكري والسياسي الذي ورثه عن أسلافه مضافاً إليهما النفوذ الديني فهم كانوا من أتباع الطريقة القادرية بقيادة شيخها "أحمد الشاوي". ينظر: فاطمة حباش: «بن ناصر بن شهرة زعيم الوحدة الوطنية جنوباً (1851-1875م)»، مجلة عصور الجديدة، ع20/19، الجزائر، 2015م، ص299.

² حسين تواتي: «بن ناصر بن شهرة والشريف بشوشة أممودجان بارزان لوحدة القضية الجزائرية والروح الوطنية»، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع4، جامعة الشهيد حمّ لخضر - الوادي، الجزائر، 2014م، ص39.

³ محمد بن عبد الله: هو أبو الطيب إبراهيم بن أحمد، يعود أصله إلى أسرة عريقة يصل نسبها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق فاطمة الزهراء رضي الله عنها، وينحدر ليصل إلى جد أبيه الشيخ العلامة "محمد بن عيسى" دفين تلمسان. ينظر: حسين تواتي: المرجع السابق، ص43.

⁴ فاطمة بن حباش: المرجع السابق، ص300-302.

بوبركر" وانتهت المواجهة بهزيمة "الشريف" بعد استسلام أتباعه من "الشعانية" و "المخادمة" و "سعيد عتبة"، ومع ذلك فد "ابن شهر" واصل دعمه للشريف واعتكفا معاً بمنطقة الجريد التونسي بـ "نقطة" و "توزر"¹.

اتصل "ابن شهرة" بباي تونس عن طريق أخيه "سي النعمي" يطلب منه تقديم العون والمساعدة له ولللاجئين، وسمح له بتواجده في تونس من تكوين علاقات مع سكان الجنوب التونسي وتمتين علاقته باللاجئين، وشرع في تنسيق نشاطه معهم، وهناك شرع في شن غارات على سلطة الاحتلال وأعوانها بالمنطقة الحدودية، الأمر الذي أثار حفيظة السلطات التونسية التي أطلقت العنان لـ "بني يزيد" لضرب "ابن شهرة" والثائر "محمد بن علاق اليعقوبي" وكل المنظمين إليهم لما لنشاطهم من ضرر للبلاد التونسية².

فبهذا التضييق شهد نشاط "ابن شهرة" تراجعاً عقب تمكن "حمزة بوبركر" من "أولاد سيدي الشيخ" من التغلب على الشريف "محمد بن عبد الله" في أكتوبر 1861م في "نقوسة"، حيث أحيل "الشريف" للسجن مدة سنتين ثم أطلق سراحه وبقي تحت الإقامة الجبرية³، ورغم تأثير هذه الهزيمة على "ابن شهرة" إلا أنها لم تثبط أبداً من عزمته المتطلعة دائماً للاستمرار في النضال والمترقبة لاقتناص الفرص الملائمة للانبعاث من جديد، وكان له ذلك مع اندلاع مقاومة "أولاد سيدي الشيخ" الشراقة، فبارك "ابن شهرة" هذا التحرك الثوري متناسياً ومتجاهلاً بذلك الأحقاد السابقة، بل كان من أوائل المنظمين للثورة بعد عودته من تونس ووضع يده في يد "سي الأعلى بن بوبركر"، وكان لـ "ابن شهرة" دوراً هاماً وكبيراً في تجنيد المقاتلين من "توات" و "الشعانية" و "الثوارق"⁴، وقاما الزعيمان بتوحيد عملهما وشرعا في تنفيذ عمليات عسكرية منذ سنة 1864م، وساهما في توسيع نطاق ثورتهم شمالاً وجنوباً، ومن أجل توسيع نطاق المقاومة أكثر انتقل "ابن شهرة" رفقة أتباعه من "أولاد سيدي الشيخ" و "الأرباع" إلى ناحية "واد النساء" في 21 أكتوبر 1864م، متجهاً إلى "سيدي الحاج الدين" في صحراء السّاورَة عبر "واد زرقون" و "تاجورة" و "الماية"، مما دفع بسلطات الاحتلال إلى حجز كل قوافل الميزابين التجارية وقطع اتصالهما، الأمر الذي أوقعهم في ضيق مادي وتسبب في حدوث مجاعة، وقد تسببت في إرهاب كاهل القبائل وإنهاكهم بحكم تردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها الجزائر خلال هذه المرحلة، والتي عرفت أيضاً بالإضافة إلى ما سبق انتشار لموجات جفاف وزحف جراد وانتشار للأوبئة، مما كان له تأثيره على مقاومة "أولاد سيدي الشيخ" التي شهدت تراجعاً بحكم الظروف السابقة فضلاً

¹ - فاطمة بن حباش: المرجع نفسه، ص302.

² - نفسه، ص302 .

³ - حسين تواتي: المرجع السابق، ص39.

⁴ - حسين تواتي: المرجع السابق، ص39.

عن محاصرة القوات الاستعمارية لأتباع الثورة من كل الجهات¹.

مع ذلك بقيت مقاومة "بن ناصر بن شهرة" مستمرة، وانظم إلى بقية المقاومات الأخرى كمقاومة الشريف "بشوشة" و"الأمير محي الدين"، ثم مقاومة "المقراني" و"أولاد حداد".

● مقاومة الشريف بشوشة² (1869-1875م): تنسب هذه الثورة لزعيمها "محمد بن تومي" المشهور ببشوشة، الذي أعلن الجهاد³ على الفرنسيين في نواحي الصحراء⁴، وظلّ هذا الأخير يقاتل في صفوف "أولاد سيدي الشيخ" حتى سنة 1870م، لبدأ حركته عقب تراجع ثورة "أولاد سيدي الشيخ"، فتحفز "ابن شهرة" لهذه الثورة وانظم لها وشرعا معا في تنسيق الجهود، واستطاعا أن يظفرا في الفترة الممتدة من (1870-1871م) بعدد المناطق الصحراوية عقب هزيمة الحكام المحليين⁵ الموالين للاستعمار، وعين بدلاً منهم قياد من الثوار أنفسهم⁶، وكان بشوشة يؤمن سلاحه من مدن قفصة والكاف وقرب الحدود الجزائرية وكذلك في الواحات الشرقية خاصة واد سوف⁷، ليصبح بشوشة بداية من يوم 13 جويلية 1871م المتحكم في الصحراء الجنوبية من نفطة إلى توقرت بمؤازرة القوى الشعبية المختلفة⁸، وشهدت سنة 1872م تغييراً في مجرى الأحداث بالنسبة لمقاومة بشوشة بفعل مجيء الجنرال "دولاكروا-Delacroix" إلى ورقلة، والذي نكّل بأهلها شرّاً تنكيل فأعدم الكثير منهم وغرّمهم لمساندتهم لبشوشة، ثم طلب العقيد "قوم - GUAME" بملاحقة الثوار، فالتقى معهم في معركة قرب "تامزيقدة" في 9 جانفي 1872م، التي انتهت بانحزام الثوار وانسحاب الشريف بشوشة نحو أقصى الجنوب مخلّفاً وراءه كما هائلا من الغنائم⁹.

1- فاطمة حباش: المرجع السابق، ص303.

2- الشريف بوشوشة: هو محمد بن تومي بن إبراهيم الملقب بـ"بشوشة" ولد بمنطقة الغيشة بالقرب من مدينة آفلو، اختلف في تاريخ ميلاده (1826 - 1827م)، لقب بوشوشة لكثافة شعر رأسه أو لخصلة بارزة فيه، أصله من الزيبان التي قضى بها فترة من شبابه، اشتهر بالفروسية منذ شبابه، عرف عنه أنه يعالج بالرقية والقرآن. حكم عليه بالسجن لمدة سنة بتهمة أثارته الشغب ضد فرنسا، وسجن ببوخنفيس ما بين سيدي بلعباس ووهران في 1862م، غير انه تمكن من الفرار، وخلال هذه الفترة بدأ صيته يذيع وأصبح يجمع الأنصار والمؤيدين حوله. ينظر: لخضر عواريب: «بعض الحقائق عن مقاومة الشريف بشوشة من خلال بعض المصادر المحلية ومنها الشهادة التي أملاها بوشوشة على سجنائه»، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع17، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قاصدي مرباح - ورقلة، 2017م، ص296. وينظر أيضاً: حسين تواتي: المرجع السابق، ص40. وينظر أيضاً: - Histoire de L'insurrection de 1871 en Algérie, imprimeur: Luis Rinn libraire-éditeur, 4, place de gouvernement; 4, Alger, 1891, p.79.

3- لخضر عواريب: المرجع السابق، ص296-297.

4- عبد الجليل التميمي: المرجع السابق، ص114.

5- كالقائد جعفر قايد المنيعه واخضر بن محمد قايد مخزن الأغواط. ينظر: لخضر عواريب: المرجع السابق، ص298.

6- علي غنابرية: «المقاومة الشعبية بوادي سوف وأثرها على العلاقات مع الجنوب التونسي 1854-1882م»، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع4، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الشهيد حمّو لخضر - الوادي، الجزائر، 2014م، ص11.

7- يحي بوعزيز: «أضواء على كفاح الشريف بشوشة»، مجلة الثقافة، ع34، مجلة تصدر عن وزارة الإعلام والثقافة بالجزائر، 1976م، ص93.

8- عبد الجليل التميمي: المرجع السابق، ص114. وينظر أيضاً: حسين تواتي: المرجع السابق، ص41.

9- حسن تواتي: المرجع السابق، ص41.

كثّف الشّريف "بشوشة" جهوده لمواصلة النّضال ومحاولة استعادة ورقلة لكنه مُني بفشل أمام قوات "السّعيد بن إدريس" آغا ورقلة، ليعاود نشاطه من جديد انطلاقاً من عين صالح في سنة 1874م، لكنه انهزم مجدّداً في معركة "ملوك" من طرف القائد "معراج بن قدور"، وتمّ نقله إلى قسنطينة وأحيل على المجلس العسكري وحوكم كمجرم حرب، وتُنفذ فيه حكم الإعدام في 29 جوان 1876م بمعسكر الزّيتون¹.

● مقاومة محيي الدّين بن الأمير عبد القادر²: ظهر في تونس بعد قدومه من زيارة لمصر عام 1870م، وعن سبب المقاومة خلال هذه الفترة بالذّات فيرجع إلى للحرب الفرنسيّة البروسيّة التي اندلعت بين فرنسا وألمانيا وكانت وطأتها شديدة على كلا الطّرفين، وخاصة فرنسا، وخلال فترة أربعة أشهر كانت الكفة راجحة لألمانيا، فاعتقد الأمير "محيي الدّين" أنّ الحرب ستطول فأحسن استغلال هذا الطّرف من أجل تخليص الجزائر من هذا الاحتلال اللعين، ورغم أنّ الأمير لم يعلن أحداً بنيته هذه، غير أنّ تواجده على الأراضي التّونسيّة خلق حالة من التّوتر لدى السّلطات التّونسيّة وإن كانت قد أحسنت استقباله بحفاوة، لكنّها حاولت عدم السّماح له بالدخول للجزائر، وذلك حفاظاً على علاقاتها بالسّلطة الفرنسيّة، مع ذلك فقد بعث الأمير "محيي الدين" بمائتي رسالة وجهها إلى أعيان الجزائر مع الرّسل الخفيّة لتهيئتهم لمحاربة الاحتلال الفرنسي عند قدومه إليهم³، وقد فرح أهل النواحي الغربيّة (أي سكان الحدود الشرقيّة الجزائريين) ببلوغ مكاتيبه⁴، الشيء الذي زاد من عزيمتهم للانضمام لحركة الجهاد وقمع الفساد، وهنا تحرك الحكام الفرنسيين في تلك المناطق الحدودية نحو تشديد الحراسة في جل الأماكن والطرق⁵ وفيما يلي مقطع من أحد الرّسائل التي تليت على مسمع القبائل الجزائريّة من طرف شيوخ الطّرق الصّوفيّة يُثبت ذلك، حيث جاء فيه: «...لقد قدمنا لإنقاذ الإسلام الذي هو في خطر، إنّ الله سيهلك الفرنسيين، إذ لم يبق لهم أراضي ولا جيش إنّ ساعة انطلاقكم قريبة جدّاً وخلصنا مؤكّداً...خذوا حذرکم»⁶، ثم شرع في رسم خطة للدخول للجزائر خُفياً دون أن يلفت الأنظار إليه، فظاهر بأنّه مسافر مالطا قصد الرّجوع للديار الدّمشقيّة، وحين وصل مالطا تنكر واتجه نحو طرابلس الغرب، التي منها انطلق عائداً إلى الجنوب الجزائري، فاتصل بالمقاومين ومنهم: "بن ناصر بن شهرة"

1- نفسه.

2- هو الأمير محيي الدّين باشا بن عبد القادر بن محيي الدّين الجزائري الحسني المتصل نسبه لسيددي عبد القادر جلال الحسني رضي الله، ولد في 3 ربيع الثاني 1259هـ/2 ماي 1843م بالجزائر، حفظ القرآن الكريم وعمره ثمانية سنين وشهور، وأقبل على حفظ المتون في أنواع العلوم، حفظ فقه المالكيّة على يد الشّيخ أبي عبد الله الخالدي المغربي وعلى غيره من العلماء الأخيار، وحفظ من والدة الحديث والتوحيد، وأجازته السلطان العثماني عبد العزيز خان بأن منحة في 1281هـ/1864م رتبة أزمير مع النيشان العثماني من الرتبة الثالثة. ينظر: عبد الرّزاق البيطار: حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر 1253-1335هـ/1837-1916م، تع و تع: مُحمّد بهجة البيطار، ج3، ط2، دار صادر، بيروت، 1993م، صص 1423-1425.

3- عبد الرّزاق البيطار: حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، المصدر السّابق، ص1426.

4- أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 132. ينظر الملحق رقم (10)

5- أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 154.

6- عبد الجليل التّميمي: المرجع السّابق، ص113.

و"إبراهيم بن عبد الله" واتجهوا جميعاً إلى "واد سوف"، وشرع "الأمير محيي الدين" في تنظيم كفاحه، وقد انظم إليه عدداً من اللاجئين والمنفيين الذين كانوا متمركزين بالزاوية الرحمانية بـ"نقطة" كـ"محمد بوعلاق" التونسي وأولاد البطل الشّعائبي السّوفي "بوطيب بن عمران" في "نقطة" التي كانت مركزاً ومأوى للشوار وملجأ لكل الذين قد هاجروا إليها¹، لتشرع سلطات الاحتلال في الضغط على نجل الأمير عبد القادر مما اضطره للالتجاء إلى جنوب الجزائر والدخول في صراع مع أعوان فرنسا كحاكم توقرت "علي باي" بداية من 1871م، لتشهد ذات السنة ميلاد ثورة "المقراني" التي حاول الأمير "محيي الدين" التعاون معها ولكنه لم يتمكن من ذلك جراء صعوبة التّوغل نحو الدّاخل، فانطلق صوب الجهة الشرقيّة ونزل بنقرين غير انه فشل في الاستيلاء على تبسة²، وبنهاية الحرب البروسية ركّزت سلطات الاحتلال جهودها للقضاء على مقاومته، والتّمسّت فرنسا من حضرة والده إرسال أمر ونصيحة لهجاء فيها: «... فالمرجو من جنابكم والمؤكّد به عليكم أن تخبرونا عنه وإن طالت يدكم إلى ردّه فلا تقصروا، وبذلك تصير لكم مزينة عظيمة علينا، ودمتم كما رمتهم»³. حينها أدرك الأمير باستحالة مقاومته فغادر البلاد متجهاً إلى سوريا في جويلية 1871م⁴.

ورغم فشل مقاومة الأمير "محيي الدين" بن الأمير "عبد القادر" في توحيد صفوف المقاومة بتونس إلا أنّ حركته أكّدت مدى الدّعم التونسي للمقاومة الجزائرية، أمّا "بن شهرة" استمر نضاله وهذه المرة وحّد جهوده مع المقرانيين لموصلة المقاومة انطلاقاً من تونس.

● **ثورة المقرانيين بتونس 1871م:** اندلعت هذه الثورة عام 1871م وتزامن مع هزيمة فرنسا في الحرب البروسية، وتعود أسباب هاته المقاومة إلى:

- قيام الإمبراطورية الفرنسية بحملة تهجير واسعة للمستوطنين الأوربيين والفرنسيين إلى الجزائر.
- الأزمة الفلاحية التي مسّت الجزائريين بفعل الضّرائب الباهظة المفروضة عنهم من الاحتلال.
- سياسية فرنسا القاضية بتحطيم العائلات الكبيرة الجزائرية المتنفّذة⁵، كـ"أولاد سيدي الشّيخ"، وأسرة "المقراني" في مجانة، وأسرة "بن قانة" في بسكرة الرّبيان، وأسرة "بوعكاز بن عاشور" والزّواغة بالبابور، وأسرة "أوقاسي" في تيزي وزو، وأسرة "أولاد محيي الدين" بدلس، وأسرة "أولاد مختار بالتّيّطري، و"ابن صيام" بمليانة⁶.

¹- أحمد بوزيد قصيبة «ابن ناصر بن شهرة أحد أبطال ثورة 1871»، مجلة الأصالة، مج2، ع6، تصدر عن وزارة التّعليم الأصلي والشؤون الدينيّة، الجزائر، ذوالحجة 1391هـ/جانفي 1972م، ص61.

²- أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 132. وأيضاً: علي غنابزية: المرجع السّابق، ص12.

³- عبد الرّزاق البيطار: المصدر السّابق، ص1428.

⁴- عبد الجليل التّميمي: المرجع السّابق، ص130.

⁵- فارس العيد: علاقات الجزائريين بالمغرب الأقصى وتونس، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم (غ.م)، تخ: التّاريخ الحديث والمعاصر، قسم التّاريخ وعلم الآثار، كليّة العلوم الإنسانيّة والعلوم الإسلاميّة، جامعة أحمد بن بلة - وهران، الجزائر، 2017م، ص139-140.

⁶- Luis Renn: op .cit, pp.37-38.

وتعود الأسباب المباشرة لهذه المقاومة، إلى سياسة فرنسا تجاه هذه الأسرة بإقدامها على تقليص نفوذهم، فقد جرد "محمد بن أحمد المقراني" من عديد الصلاحيات، مثل:

- تقليل أجره إلى درجة الموظفين العاديين فخصّص له أجر قدر بحوالي (10.000 فرنك فرنسي).
 - إجباره على دفع الزكاة بعدما كان معفى منها.
 - وضعه تحت رقابة ضباط فرنسيين.
 - اتهمه عام 1864م بالتواطؤ مع "أولاد ماضي" الذين دخلوا الحرب مع "أولاد سيدي الشيخ"¹.
- وبناء على هذا اتصل "محمد المقراني" بأقاربه وأعلن الجهاد ضد الفرنسيين وانتشرت الثورة من القبائل إلى الأوراس، وكرست قوات الاحتلال جهودها لقمع المقاومة ووضع حد نهائي لها، وقد ضعفت المقاومة بمقتل "المقراني" في معركة ماي 1871م ليخلفه في القيادة أخاه "بومرزاق" و"سي عزوز" ابن الشيخ "الحداد" غير أنّهما فشلا واقتيدا أسيرين؛ ويرجع أبو القاسم سعد الله فشل مقاومتهما إلى:
- مدّ المقاومة إلى الصحراء وهو خطأ استراتيجي لنقص السكان والعتاد والماء.
 - اعتماد أسلوب الهجوم المباشر ضد قوات الاحتلال وهو خطأ نتج عنه ترجيح الكفة لصالح الاحتلال لعدم تكافئ القوى بين الطرفين². ومع ذلك فالمقرانيين حاولوا بعث مقاومتهم من تونس التي استقروا بها بعد أن قادهم إليها "بن ناصر بن شهرة" وكان عددهم آنذاك حوالي خمسمائة وأربع (504) شخص من رؤساء العائلات³.

وقد تمّ استقبالهم من طرف السلطة التونسية لكنها كانت متخوفة من ضغط السلطات الفرنسية بالجزائر، وهنا تحرك وفد منهم للأستانة وآخر للأمير للطلب منهم التدخل لدى السلطات التونسية لصالحهم كي تأذن لهم بالاستقرار وتقدم لهم العون المادي والحماية، وقد راسل الأمير أعيان تونس ولاسيما الوزراء، منهم: "مصطفى خزندار" و"محمد بكوش" و"رستم باشا" بشأن أهالي الجزائر في تونس، وبالأخص عائلة "المقراني"، واستجابت السلطة التونسية لهذه التدخلات وقامت بتوزيع المقرانيين في جهات عدّة من البلاد، وبالرغم ما عرفته مقاومة المقراني من تضييقات من طرف السلطات التونسية وكذا السلطات الفرنسية إلا أنّها ترجمت مدى التعاون التونسي مع الجزائريين وأثبتت مدى متانة العلاقات بين شعبي البلدين⁴.

● مقاومة صبايحية الحدود والكلبوتي في تونس: كان الصبايحية⁵ عبارة عن متطوعين جزائريين، قام

¹ - فارس العيد: المرجع السابق، ص 141 - 142.

² - أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930، ج 2، ط4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992م، ص 54.

³ - يحي بوعزيز: مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، (ط. خ)، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص 534.

⁴ - فارس العيد: المرجع السابق، ص 144.

⁵ - يعرفون أيضا باسم الحركة أو الأورطة أو الصبايحية وقد استخدمهم الفرنسيون ليساعدوهم على فرض السيطرة على البلاد، ويبدو أنّهم قلدوا في ذلك نظام الشواش المعمول به في عهد الأتراك، واهتم الفرنسيون بتطويرها وتنظيمها خلال عهد الإمبراطورية الثانية. ينظر: يحي بوعزيز: «مواقفة

الفرنسيون باستحداثهم في القرن التاسع عشر لمساعدتها في فرض سيطرتهم على البلاد، بالإضافة إلى أعمال أخرى كحراسة المناطق التي يقطنونها ومراقبة السكان، وكانوا يتقاضون أجوراً على أعمالهم، وإبان اندلاع الحرب البروسية عام 1871م قامت إدارة الاحتلال بإصدار أمرية¹ تقضي بتجنيدهم في صفوفها، الأمر الذي رفضه الصبائحية بشدة فثاروا ضده انطلافاً من أماكن تواجدهم في منطقة مجبر بعمالة التيطري إلى الطارف بالشرق الجزائري وبوحجار، وحقيقة هناك أسباب أخرى كانت وراء إعلان الصبائحية مقاومة الاحتلال، وهو سوء معاملة ضباط المكاتب العربية لهم، وهو ما دفع الصبائحية في سوق أهراس للثورة على ضباط فرنسيين وقتلهم في فيفري 1871م، وقد تزايدت أحداث الصبائحية وتزامنت مع ثورة "المقراني"، وقد وفرّ منهم 135 مجاهداً بأسلحتهم وأمتعتهم إلى مزرعة "عمي موسى" على بعد 4 كلم من زمامتهم² في 22 و23/01/1871م وتبعهم في اليوم الموالي 102 آخرون، وتوالى تجمعهم بعد ذلك حتى وصلوا إلى حوالي ألفي رجل، وقد انظم إليهم في مزرعة "عمي موسى" أهاليهم وكل الغاضبين من المحتل الفرنسي، وعدد من أهالي "الحنانشة" بزعامة "أحمد الصالح بن رزقي" و"الفضيل بن الفضيل بن رزق"، كما التحق بهم "محمد الكبلوتي بن طاهر رزقي" من تونس، وتصاعدت على أثر ذلك الأحداث في المنطقة، فتمكّن الصبائحية من قتل المعمرين وجنود وضباط من جيش الاحتلال، حيث قُتل 15 جندياً من الاحتلال في معركة "عين السنور" في 30 جانفي 1871م³.

وبناء على هذا الفعل الجهادي القوي، اضطر المحتل الفرنسي إلى الزيادة في عديد قواته ضد الصبائحية فاضطروا إلى الانسحاب مع الكبلوتي وأتباعه إلى داخل الحدود التونسية بعد أن راسل الكبلوتي باي تونس المشير "مصطفى باشا" ورئيس وزرائه "مصطفى خزندار" لطلب الحماية له وللصبائحية الذين دخلوا معه إلى هناك، وبالكاف استقبلهم الشيخ "الميزوني" بحفاوة⁴. أمّا الوزير التونسي فقد أمر بإبعادهم عن منطقة الحدود وإمدادهم بالحبوب وتمّ توزيعهم على أربعة مناطق من عرش "الدريد"، كما ألحّ الوزير التونسي على مراقبتهم حتى لا يتسببوا في مشاكل لدولته مع فرنسا، لكن الكبلوتي لم يلق بالاً للتعليمات الرسمية للحكومة التونسية، وأخذ يقوم بنشاطه الثوري من منطقة الحدود، وشارك في العديد من المعارك، منها على سبيل المثال: المعركة التي وقعت في 24 جوان و30 أوت 1871م والتي قُتل فيها أخوه "الفضيل بن رزقي" وبقي يتردّد بين تونس

الرسميين التونسيين من ثورة الصبائحية والكبلوتي في منطقة الحدود الشرقية عام 1871م»، مجلة الأصالة، مج 19، ع 61/60، تصدر عن وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، شوال 1398هـ/سبتمبر 1978م، ص 157.

¹ - في 18/01/1871م أصدر وزير الحربية الفرنسي قراراً يقضي بنقل عدد كبير من قوات الصبائحية التي كانت مجنّدة في صفوف الجيش الفرنسي إلى أوروبا للمشاركة في حربها ضدّ بروسيا مع بداية عام 1871م. ينظر: عبد الغاني: ثورة رجال من الحنانشة ضد المستعمر العاشم، الموقع الإلكتروني: www.khbarbladi.com. تاريخ وساعة الاطلاع: 2019/10/25 على الساعة 11:07

² - Luis Renn:Op .cit, pp.121-122.

³ - يحي بوعزيز: «مواقف الرسميين التونسيين»، المرجع السابق، ص 162.

⁴ - فارس العيد، المرجع السابق، ص 144 - 147. وينظر أيضاً: Luis Renn:Op .cit, p.127.

و"الجزائر" إلى أن طرد هو و"ابن شهرة" بصفة نهائية من تونس عام 1875م¹.

● مقاومة الأوراس الغربية في سنة 1879م: ظهرت هذه الانتفاضة في منطقة جبال الأوراس الغربية بزعامة الشيخ "محمد أمزيان"²، وكذا سكان "أولاد داود" في باتنة، و"بني سليمان" في بسكرة، وقد تضافرت العديد من الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية لقيامها، فمن الناحية السياسية: نجد سوء معاملة السكان وقهرهم وإذلالهم من طرف ضباط المكاتب العربية بشتى الوسائل، ومن الناحية الاجتماعية: بفعل الخصومات العائلية والصراع القبلي بين عائلي "بن قانة" و"بن شنوف" المنحدرة من "عائلة بوعكاز" حول السيطرة والتفوذ السياسي والقبلي، وذلك بتحريض جماعة من "بن شنوف" السكان ضد "أولاد بن قانة" لكي تثبت للسلطة الاستعمارية عجز وقصور عائلة "بن قانة" على أداء وظائفها ومهامها، وبالتالي يُفسح لها المجال للتوسع والتفوذ على حسابهم، أمّا من الناحية الاقتصادية: فتمثلت في معاناة السكان من تردي الأوضاع المعيشية بفعل القحط والجفاف وما نجم عنه من تراجع في الإنتاج الزراعي والحيواني، فضلاً عن ازدياد الضرائب مما تسبب في ازدياد معاناتهم، وعليه فالأجواء بفعل هذه المعاناة المتعددة الجوانب أصبحت مكهربة تنذر باقتراب وقوع أعمال عنف وتمردات ما إن يحصل أيّ ضغط على السكان، وهو ما كان بالفعل في خريف 1879م، ومنذ شهر جانفي أخذ الشيخ "محمد أمزيان" يقوم بزيارات متعددة لزواية "سي الصادق" القديمة بقرية تيمرماسين للاتصال بأصدقاء "سي الصادق" ورفاقه، ليوثق الصلات بهم ومن أجل تدارس الأوضاع السائدة، ولربما لوضع الخطط لما يتوجب القيام به ألا وهو الثورة ضدّ الاحتلال³.

اندلعت الثورة بالأوراس ونظراً لخطورتها قام الجنرال "فورجيمول دو بوسكينار" بتجهيز ثلاث فرق عسكرية في أماكن مختلفة، وتوجه إلى قرية "مدينة" الواقعة في مركز وسط بين باتنة وخنشلة والقنطرة لمحاصرة الثوار والتضييق عليهم، وأعطى أوامر للمسؤولين في كل من عنابة وسكيكدة وقسنطينة وسطيف والجزائر العاصمة، لإعداد قوات أخرى والتعجيل بإرسالها، وهي دليل قاطع على خطورة الثورة واتساع مداها، وتوالت الاستعدادات والتعزيزات الفرنسية ضد هذه الثورة من أجل اغتيلها في مهدها⁴؛ وهنا توجه زعيم الثورة ورفاقه إلى عمق غابة "كيمل" المنيعة إلى زاوية سيدي "فتح الله" في قرية الحمام⁵ لدارسة الأوضاع في ضلّ التعزيزات الفرنسية المشددة، لكن الفرنسيين هاجموا في 19

¹ - يحي بوعزيز: «مواقف الرّسميين التّونسيين»، ص 162.

² - هو الشيخ "محمد أمزيان بن عبد الرحمن" ويعرف باسم "محمد بنجار الله" ويلقبه الناس ببورمة. ينظر: يحي بوعزيز: «انتفاضة سكان الأوراس 1879م»، مجلة الأصالة، مج 19، ع 61/60، تصدر عن وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، شوال 1398هـ/سبتمبر 1978م، ص 227.

³ - يحي بوعزيز: «انتفاضة سكان الأوراس 1879م»، المرجع السابق، ص 230-231.

⁴ - ن يحي بوعزيز: «انتفاضة سكان الأوراس 1879م»، المرجع السابق، ص 230-231.

⁵ - محمد العيد مطمر: «الغزو والاحتلال الفرنسي للأوراس وأثره على الحالة الاجتماعية للسكان»، مجلة العلوم الإنسانية، ع 10، كتيبة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر - بسكرة، الجزائر نوفمبر/ 2006م، ص 95.

جوان وقتلوا أعداداً منهم، وفي ضلّ اشتداد ضغط القوات الفرنسية وكثرة تخريباتها انسحب "محمد أمزيان" وأنصاره إلى الجنوب الشرقي ومروا بقرية "زريعة الوادي" ووصلوا إلى "نقرين" يوم 29 جوان ومن هناك عبروا الحدود إلى منطقة "الجريد" بالبلاد التونسية صحبة نسائهم وأطفالهم وأهاليهم واستقروا بها، غير أنّ ضغوطات السلطة الاستعمارية دفعت السلطات التونسية إلى تسليم زعيم المقاومة رفقة 300 شخص من أتباعه لتحاكمهم السلطات الاستعمارية الفرنسية عام 1880م¹.

● **المقاومة الشعبية بوادي سوف:** ساهم الاحتلال الفرنسي لإمارة "بني جلاب" بتوقرت في تسهيل مهمة الاستعمار الفرنسي للتوغل في عمق "وادي سوف" من أجل احتلالها، فاتجه العقيد "ديفو" نحو وادي سوف في 10/12/1854م واصطدم فور وصوله لها بمقاومة عنيفة من سكّانها الذين بذلوا كل ما بوسعهم للذود عن حماتهم، فالتقى الطرفان في مقاومة عنيفة استمرت لسبعة أيام متتالية، انتهت بانتصار قوات الاحتلال للفارق الملحوظ في العدد والعتاد، وواصلت القوات الفرنسية تقدّمها نحو مركز الإقليم "مدينة الوادي" ودخلتها في حدود 14/12/1854م، ثم رجعت لتوقرت لتنظيم وضبط شؤون الإقليم من هناك، فعيّنت "علي باي بن فرحات بن سعيد" قايد على توقرت وسوف باسم فرنسا منذ 26/12/1854².

ونتيجة لعدم إبقاء القوات الفرنسية لقوات عسكرية لها في منطقة الوادي لحفظ الأمن والإبقاء على سيطرتها لها، أصبحت المنطقة محلّ صراع مرير ومقاومة مستمرة لفترة زمنية طويلة استمرت قرابة الثلاثين سنة، ليسمح موقعها الجغرافي وامتدادها الرّملي الشاسع ومناخها القاسي الذي تميّزت به في تحويل هذه المنطقة لملاذ آمن يأوي إليه المقاومين الشعبين بعد انتهاء معاركهم لاعتبارات عديدة ك:

- الرغبة في الاستقرار المؤقت لاسترجاع الأنفاس وتجديد الحماس والمقاومة.
- الإعداد للمعارك الجديدة.
- قُربها الشديد من الحدود التونسية وارتباطها الوثيق ببلاد الجريد التونسية.

وهي الخصائص التي جعلت منها مقصد العديد من المقاومين ك"ابن ناصر بن شهرة" والشريف "محمد بن عبد الله" و"الأمير محيي الدين بن عبد القادر"، وذلك لطلب الدعم المادي والبشري وبحثاً عن الأمان، وللتوغل في جنوب التراب التونسي أحياناً أخرى³، ومنه فوادي سوف كانت بمثابة معبر للتنسيق والاتصال والإمداد

¹ - يحي بوعزيز: «انتفاضة سكان الأوراس 1879م»، المرجع السابق، ص 230-232.

² - علي غنابزية: «المقاومة الشعبية بوادي سوف وأثرها على العلاقات مع الجنوب التونسي»، المرجع السابق، ص 10-11.

³ - علي غنابزية: المرجع نفسه، ص 13.

بالسلاح¹ مع منطقة الجريد التونسي ليستمر نشاطها بهذه الصورة إلى غاية 1881م وهو تاريخ وقوع تونس تحت وطأة الحماية الفرنسية.

ومما سبق ذكره نلاحظ هذا الدور الهام والفعال الذي أدته منطقة الحدود التونسية ومنطقة الجريد و نفطة والكاف والجنوب التونسي عموماً في مساندة المقاومة الشعبية، فهامي ذي تاوي إليها الفارين من ظلم الإدارة الاستعمارية وفتح لهم مجالها للانطلاق وبعث النضال من جديد وظلت تونس مقصد زعماء المقاومة إلى غاية وقوعها تحت الحماية الفرنسية، فقد أوت عبر تاريخ المقاومة الشعبية في الشرق الجزائري عديد الشخصيات النضالية كـ"ابن ناصر بن شهرة" و"المقرانيين" و"الصبايحية" و"الكبلوتي" و"الطيب بن عمران الشعبي" الذي تمكن من جمع 264 من المجاهدين من "طرود" سوف و"شعانة" الوادي الذين التحوا بهم نحو تونس عام 1868م وارتبط بالشوار في زاوية نفطة العزوزية، كما كانت هذه الزاوية مركزاً لمقاومين آخرين الذين التحوا إليها كـ"سي سليمان بن جلاب" سلطان توقرت سابقاً و"إبراهيم بن عبد الله" مقدم الطريقة القادرية بورقلة، و"محمد العشابي البسكري" و"محمد بن أحمد الصعير" الخليفة السابق للأمير بالزيبان و"محمد بوعلاق" رئيس "أولاد يعقوب" الثائرين التونسيين والشيخ "الميزوني" مقدم زاوية الكاف؛ فهذا الاتصال الوثيق بين الجنوب الجزائري بالأخص منطقة وادي سوف وتونس قد دفع بالقوات الفرنسية للتواجد في الجنوب وسيما في الوادي من أجل القضاء على المقاومة الشعبية، وتجسد ذلك في سعيهم لضبط الحدود الشرقية للمنطقة، فتم إنجاز خريطة سنة 1857م، لكن الحدود النهائية للعرق الشرقي الكبير ضلّت تخضع للتغير المستمر خاصة في الفترة الممتدة بين (1867-1870م)، أين بقيت الحدود غير ثابتة بين سوف وجنوب شط الجريد².

¹ - عثر على قوافل من أهل سوف متوجهين إلى نواحي الغرب حاملين معهم جانبا من البارود وزنه بصرفة (كذا) ثلاثة وستون رطلا وقد وضعنا البارود المذكور تحت يد محبنا الباتباش بتوزر. ينظر: عبد الجليل التميمي: المرجع السابق، ص 117.

² - علي غنايزية: المرجع السابق، ص 13.

الفصل الثاني

مظاهر التفاعل الاقتصادي بين القبائل

الحدودية ونتائجه.

- أولاً- مشاركة القبائل الحُدُودِيَّة في نشاطي الزراعة والرعي.
- ثانياً- الصِّراع حول الأرض بين القبائل الحُدُودِيَّة.
- ثالثاً- تجارة القوافل بين القبائل الحُدُودِيَّة.
- رابعاً- الإغارات وأعمال النهب والسُّطو على القوافل التِّجاريَّة.

وَحَدّت القبائل الحدوديّة في كلا البلدين عديد النشاطات الاقتصاديّة التي كانت تتمُّ بصورة دائمة ومستمرّة ونشطة عبر كامل المنطقة الحدوديّة في ظلّ غياب الحواجز المانعة في أذهان السّكان، هذا المفهوم الذي أوجده الاستعمار الفرنسي للتّغصيص على حياة هؤلاء، كان له تأثيره على الحياة الاقتصاديّة للقبائل الحدوديّة بفعل خضوع نشاطهم الاقتصادي لعديد الظّرفيات المتغيرة من حقبة تاريخيّة إلى أخرى، خاصة في مرحلة السّيّطرة الاستعماريّة الفرنسيّة على الجزائر، هذه الأخيرة حدثت فيها تغييرات جوهريّة أسهمت في ترسيب العديد من التّبعات والمُخلّفات على الموارد الاقتصاديّة للقبائل الحدوديّة في كلا البلدين، وهو ما سنحاول التّطرق إليه ومعالجته أكثر في هذا الفصل من خلال البحث في آليات الاتّصال والتّفاعّل الاقتصادي بين البلدين، وصوره وتجليّاته، وأبرز التّغيرات التي طرأت عليه في ظلّ السّيّطرة الاستعماريّة والبحث في آثارها الاقتصاديّة على القبائل الحدوديّة؟

لقد اتخذت سمات التّواصل الاقتصادي بين القبائل الحدوديّة صوراً عديدة تجلّت في ممارسة أنشطة اقتصاديّة مشتركة، بيّنت لنا مدى الانصهار القائم بينهما، وبحكم أنّ الحدود بينهما كانت عبارة عن مجالات مفتوحة وغير محدّدة بمعالم معينة من شأنها أن تجعل من كيان القبائل التّونسيّة والجزائريّة كيانين جغرافيين متباينين ولا يمت أحدهما بصلة للآخر، لكن هذا الأمر لم يحدث بل دفع بقبائل حدوديّة تونسيّة لمزاولة نشاطاتها الاقتصاديّة في أراضي جزائريّة والعكس صحيح أيضاً.

أولاً- مشاركة القبائل الحدوديّة في نشاطي الزّراعة والرّعي:

1/- الزّراعة:

بحكم انفتاح المجال الحدودي بين القبائل الحدوديّة وتمتعهم بالحرّيّة التّامة في ممارسة نشاطاتهم الاقتصاديّة دونما عراقيل تذكر قبل فترة الاستعمار الفرنسي بالجزائر، فقد كانت القبائل الحدوديّة تتشارك مع بعضها البعض في النّشاطات الفلاحيّة كالزّراعة والحراث والحصاد، فالفراشيش مثلاً كانوا يحرثون الأرض بالمشاركة مع "النّمامشة" بيكارية وبئر العاتر جنوب تبسة¹، وتدفعهم في السّنة حركتان للتنقل إلى مجال الغرابية، الأولى: في موسم الحراث، والثّانية: في موسم الحصاد في فصل الصّيف، وكانت هذه الرّحلة تسمى بالصّيافة أو الهطاية، حيث تنصب المجموعات خيامها بشكل دائري وتنطلق في عملية الحصاد باكراً إلى غاية فترة الضّحى، وتتم أحياناً ليلاً تجنّباً للحرارة وفور الانتهاء من الحصاد يقوم صاحب العمل أو نائبه بإحصاء الحلال لكل عامل عشار، ويعين له الحلال التي يحصل عليها، لقد كانت عملية الحصاد عملية شاقة لأنّ العشار يظلّ منحني الظّهر طيلة فترة عملية الحصاد. وإقبال القبائل التّونسيّة على ممارسة هذا النّشاط يرجع لضعف النّشاط الرّاعي في مناطقهم ومحدوديته، حيث أنّ مجمل موارد القبيلة من المساحات المزروعة قمح أو شعير لا يبلغ سوى 2-

¹ - الماجري: قبائل ماجر والفراشيش، المرجع السّابق، ص35.

5% عند قبائل "ماجرا" و"الفراشيش"، زيادة على أن المحصول عندهم ضعيف ولا يكون متوسط إلاّ كل أربع أو خمس سنوات¹، وهذا ما يفسر اشتغالها بمزارع القبائل الحدوديّة الجزائريّة، وبدورهم كان "أولاد سيدي عبّيد" يزرعون بعين الطّاقة وطالبت الباي، وهم ملزمون في إطار ذلك بدفع الأداء للباي التّونسي².

ولأنّ بعض القبائل التّونسية خاصة منها تلك التي تقطن في المناطق الجبلية في الجزء الشّمالي الغربي تعاني من ضيق المساحات الزراعيّة كقبائل "خمير" و"ورغة"، فلحاجتها إذن الماسة للمساحات الخصبة لمزاولة الزراعة وحتى الرّعي تلجأ إلى اكتراء الأراضي في فضاءات القبائل الجزائريّة³.

2/- الرّعي:

تشاركت القبائل الحدوديّة إلى جانب النّشاط الرّاعي، النّشاط الرّعوي، الذي فرضته معطيات اقتصاديّة واجتماعيّة متعلقة بنمط عيش القبائل الحدوديّة وأدت إلى ترسيخ هذا النّشاط الاقتصادي المتبادل، دون أن تغفل ما للطبيعة من دور هام وهام جداً في فرض حتمية هذا التّنقل من وإلى المجال الآخر، بحكم تغير الغطاء النباتي بفعل زخات المطر من فصل إلى آخر بين مجالات القبائل الحدوديّة.

وبحثاً منها عن قوت أنعامها جراء تباين الغطاء النباتي بين البلدين من فصل لآخر، كانت القبائل الحدوديّة في حركة دوّوبة بين المجالين، إذ كانت هناك قبائل حدوديّة جزائريّة كالنّمامشة ترعى بأغنامها في مراعي تونسيّة، لأن الامتزاج والتّداخل كان على أشده بين القبائل الحدوديّة، ففكرة الحدود بمفهوم الحواجز العازلة لم تكن مطروحة لدى ساكني هذه المجالات بحكم أنّ الحد الفاصل بين مجال "النّمامشة" ومجال "الفراشيش" ظلّ دون تحديد رسمي طيلة القرنين الثّامن عشر والتّاسع عشر، فحتى اتفاقية الحدود المبرمة بين البلدين عام 1628م، والتي تقف عند وادي الصّراط جنوب "الكاف" أغفلت هذه الفضاءات الواقعة جنوب هذا الخط، وخصوصاً بلاد قبائل "ماجرا" و"الفراشيش"⁴.

وعليه كانت أعداداً غفيرة من "الفراشيش" تدفعها حركتان جماعيتان خارج مجاهلهما خاصة في سنوات القحط والمجاعة، وهي العشابة والقائمة على الانتقال بحثاً عن المرعى لما تلعبه الماشية من مورد رزق جدّ هام لدى قبائل الوسط الغربي بتونس، ومنه فهذا الأمر دفع بها للتّنقل والتّحرك بحثاً عن المرعى حتى إنّ تطلب الأمر البحث خارج مجالات حدودها في مجالات القبائل الحدوديّة الجزائريّة المجاورة لها، وكان هذا التّحرك من العادات الأساسيّة لدى قبائل "الفراشيش" والذي تشرع في الانتقال فيه في حركة دوريّة وفصلية من المناطق الباردة نحو المناطق الجنوبيّة الصّحراوية المجاورة لها، وتبدأ هذه الحركة أو عملية الانتجاع كما تسمى بالتّشتية من

1 - عبد الحميد هنية: تونس العثمانيّة بناء الدّولة والمجال، ط1، منشورات تبر الزمان، تونس، 2012م، ص39.

2 - إدريس رائسي: المرجع السّابق، ص142-143.

3 - فاطمة بن سليمان: المرجع السّابق، ص309-310.

4 - الأزهر الماجري: قبائل ماجرا والفراشيش، المرجع السّابق، ص73.

بداية فصل الخريف أو بعد انتهاء موسم الحصاد قبل دخول فصل الشّتاء، وهذا لتبحث لقطعانها عن الكأّ والدّفء الذي يتوفر في الحدود الجنوبيّة الجزائريّة كناحية "نقرين" مثلاً، وهذا ما نجم عنه وقوع مشاجرات ومشاحنات عنيفة حول المراعي خاصة في تلك الفترات التي تندر فيها الأمطار وتقل فيها المراعي ويتحتم فيه على مختلف الرّحالة الالتقاء في منطقة معيّنة فتحدث تبعاً لها مصادمات عنيفة بين مختلف القبائل الحدوديّة¹. وما يقال على القبائل التّونسيّة ينطبق على القبائل الحدوديّة الجزائريّة التي كانت بدورها تبحث عن مراعي لها في أراضي القبائل الحدوديّة التّونسيّة، وهو ما خلّف نشوب خلافات مستمرة حول المراعي بين القبائل الحدوديّة عبر ادعاء كل طرف بأحقية ملكية تلك الأرض أو المرعى له، ولقد جاء في نص الوثيقة 182 ما نصه: «... أولاد سيدي حمادي من أولاد سيدي عبيد منعوا التّمامشة من رعي الكأّ بدعوى أنّ الأرض المذكورة منازلهم والأّن ذكروا التّمامشة بأنّهم إذا منعوا من ذلك يضرّون الذي يمنعهم بالرّصاص...»².

هكذا كانت الخلافات حول المراعي على أشدها بين القبائل الحدوديّة، ولم تتردد هذه القبائل في الدّفاع عن مراعيها والدّدود عنها بشتّى الطّرق والوسائل كالعزم الذي أولاه "أولاد سيدي الحمادي" و"أولاد عبد الملك" لاستعمال القوة لمنع "التّمامشة" من الانتجاع في جهة جبل العنق التي أعلنوا ملكيتهم لها³.

وعلى الرّغم من كل هذه المناوشات والنزاعات القائمة حول المراعي إلّا أنّ حاجة الأنعام الملحّة للمراعي قد دفع بالقبائل في الاستمرار للبحث عن المراعي وتتبع مسارها للحتميّة التي يفرضها هذا المورد الاقتصاديّ الذي تعيش صنف من القبائل الحدوديّة عليه، فالمراعي الجيدة للأغنام دفع بالتّمامشة لتتبعها أينما كانت حتى وإنّ تطلّب الأمر أنّ تنصب خيامها في فضاءات تابعة للقبائل التّونسيّة بمثل ما هو مبين في المراسلة التّالية:

«الحمد لله. بيان من سيذكر من فرق "التّمامشة" الجزائريين النّازلين الآن بجيامهم وانعامهم بالأماكن الاتي ذكرها من المملكة التّونسيّة بتحرير الأجل المرعي "أحمد بن مسعود" خليفة "تامغزة" و"الشّبيكة" و"ميداس".

- أولهم دوار من "أولاد العيساوي" أخوة "علي بن معمر" نازلون بمكان من المملكة يعرف بوادي الدّرياس، مسافة ما بينه وبين الحدود من جهة الجرف مسيرة يوم ومن جهة الغرب مسيرة نصف يوم.

- دوار من الفريق المذكور بالفصل قبله أخوة "محمّد بن الشّيخ محمد بن منصر" نازلون بمكان يعرف بكاف الكسكسي، مسافة ما بينه وبين الحدود من جهة الجرف أقل من يوم ومن جهة الغرب نصف يوم.

- دوار من فريق "الرّادمة" أخوة "رابح بن محمّد الشّخمار" نازلون بمكان منها يعرف بالاحسايس، مسافة ما بينه وبين الحدّ من جهة الجرف مسيرة يوم ومن جهة الغرب مسيرة نصف يوم.

- دوار من الفريق المذكور أخوة "عبد الله بن علي الرّردومي" نازلون بمكان يعرف بوادي الجردة، مسافة ما

¹ - إدريس رايسي: المرجع السّابق، ص 140-141.

² - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245. ينظر الملحق رقم (11)

³ - بيار كاستيل: المصدر السّابق، ص 221.

الفصل الثَّانِي مظاهر التَّفَاعُلِ الاِقْتِصَادِيِّ بَيْنَ الْقَبَائِلِ الْحُدُودِيَّةِ وَنَتَائِجِهِ

بينه وبين الحدود من جهة الجرف مسيرة يوم وربع يوم من جهة الغرب مسيرة يوم إلا ربع يوم¹.

-دوار من الفريق المذكور أخوة "إبراهيم بن سلطان" نازلون بمكان يعرف بالمتيق ومعهم دوار من فريق "أولاد مسعود" أخوة "السَّعيد بن علي"، مسافة ما بينه وبين الحد من جهة الجرف مسيرة يوم ومن جهة الغرب كذلك.

-دوار من الفريق المذكور أخوة "يوسف بن لخضر" نازلون بمكان منها يعرف بالمقسم، مسافة ما بينه وبين الحد من الجهتين مثل المسافة المذكورة بالفصل قبله.

-دوار من الفريق المذكور أخوة "إبراهيم بنجدو" نازلون بمكان منها يعرف ببتيته، مسافة ما بينه وبين الحد من جهة الجرف مسيرة يوم ومن جهة الغرب مسيرة نصف يوم .

-دوار من الفريق المذكور أخوة "صالح بن مُحَمَّد" نازلون بمكان منها يعرف فيكفان الرَّحْم، مسافة ما بينه وبين الحد من الجهتين مثل المسافة المذكورة بالفصل قبله.

- دوار من الفريق المذكور أخوة "مُحَمَّد بن الاعجال" نازلون بمكان يعرف بالغريد، مسافة ما بينه وبين الحد من جهة الجوف وغرب مسيرة نصف يوم.

-دوار من فرق "الجلامدة" أخوة الشَّيْخ "مساعي بن بلقاسم" ودوار من فريق "الطكاكة" نازلون بمكان منها عرف بالفريش، مسافة ما بينه وبين الحد مثل ما ذكر بالفصل قبله.

- دوار من فريق "الزَّرادمة" وفريق "أولاد مسعود" وفريق "أولاد محبوب" وفريق "أولاد شكرة" وفريق "أولاد إبراهيم" نازلون جميعا بمكان يعرف بالقضيلات، مسافة ما بينه وبين الحد من جهة الجوف مسيرة نصف يوم ومن جهة الغرب كذلك»².

لكن هذه التَّوازانات انخرمت في ظلِّ وقوع الجزائر تحت السَّيطرة الاستعماريَّة الفرنسيَّة، حيث سعت الإدارة الاستعماريَّة لمقاومة هذا النَّمط التَّرحالي في كلا البلدين ومارست في حقه العديد من التَّضييقات و التَّشديدات، كإخضاعه للمراقبة وفرض أداء الحكر أو اللزمة على القبائل الحدوديَّة التُّونسيَّة الحارثة في أرض الجزائر فقد جاء في الوثيقة 121³ والتي هي بمثابة رسالة من مشايخ "أولاد مازن" و"بوغانم" إلى "سي يوسف" قايد الرُّقبة وكاهية"زاوة" يخبره بأنَّ فرنسا طلبت منهم الحكر، بل أنَّها تتوعد المتخلفين من القبائل الحدوديَّة من أداء هذه الالتزامات بإنزال أشد العقوبات عليها، وما إطلاق الحيوانات لتعيث في الأرض المزروعة فساداً إلاَّ خير شاهد على ذلك، وتجنباً لخسارة المحاصيل أفنوا وقتنا وجهداً كبيرين ومعامانة أكبر في سبيل الحصول عليها

1 - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 187.

2- نفسه ينظر الملحق رقم (12)

3- أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245.

الفصل الثّاني مظاهر التّفاعّل الاقتصادي بين القبائل الحدوديّة ونتائج

يضطر هؤلاء للقبول بالمطالب الفرنسية، بدلا من خسارة محاصيل بمحملها¹، وهذه الضّريبة أي ضريبة الحكر والعشور تفرض على 150 محراث مع المليمات الإضافية، مقابل سماح سلطة الاحتلال بحصاد مزروعاتهم في إقليم حوز تبسة، واضطروا لقبول هذه الشّروط وعادوا للفلاحة ولم يقبلوا التّخلي عنها².

وكي لا تخرج المسألة عن نطاق التّسق التّنظيمي لإدارة الاحتلال ضمن إطار السّيّطرة على مجالاتها فلقد ألزمت قيادها في الجهات الحدوديّة بضرورة تقييد كل من يدخل الثّراب الجزائري من القبائل الحدوديّة التّونسيّة بقصد الحرّثة، فما كان من القياد إلّا الانصياع للأوامر العليا والتّقييد بالتّعليمات المطلوبة منهم، ولعل هذا ما دفع قايد "أولاد سيدي عبيد" السّيّد "التّلمساني بن أحمد الشّاوش" للطلب من قايد "الفراشيش" السّيّد "إبراهيم بن أحمد بورقعة" بضرورة إيفائه بأسماء الحراث من "الفراشيش" في أراضي حوز تبسة، وهذا نص المراسلة: « إلى الأكرم الأجل الزّكي أحمينا السّيّد "إبراهيم بن أحمد بورقعة" أمّا بعد: السّلام التّام والرّضوان العام بأن سألت عنا فإننا نحمد الله ونشكره ولا يخصنا من نعمة إلا سوى الملاقية معا كما في بركة السّعية، وبعد فإنّه اتانا جواب من سعادة السّيّد الكماندة وأخبرني فيه فنخبرو كأنّ تعطيني أسماء النّاس في جريدة الحارثين في رسمنا أما أنت وإلّا سي "علي الصّغير" فلا بد منك أن ترسل لي جريدة في هذا الشّيء المذكور وأنك تردلي صدى الجواب والجريدة بهذا نراقب فيك. والسّلام من كتب عبره السّيّد "التّلمساني بن أحمد الشّاوش" قايد "أولاد سيدي عبيد" 15 ماي 1881»³.

إنّ هذه الممارسات الصّارمة من طرف إدارة الاحتلال قد أدت إلى حصر الحركة الاقتصاديّة للقبائل الحدوديّة القائمة على التّنقل من وإلى المجال الآخر بكل سلاسة وأريحيّة من خلال ترسيمها للحدود الفاصلة بين البلدين، والتي أثّرت سلباً على الواقع الاقتصادي لهذه القبائل والذي عرف تراجعاً بفعل تأثيرات هذا المتغير الجديد على النّمط الاقتصادي للقبائل المبني على هذا التّحرك والتّواصل عبر الجسر الحدودي بين البلدين، لتسهم بدورها تلك الأزمات كموجات الجفاف واحتياح الجراد في ازدياد أوضاع البلاد سوءاً أكثر مما كانت عليه، فانخفض إنتاجها الغذائي وزادت بالمقابل له أسعار الطّعام كالحالة التي آلت إليها منطقة تالة في سنة 1866م والتي عرفت ارتفاعاً كبيراً في أسعار الطّعام بفعل التّجار الاحتكاريين والمزيدين الذين استغلوا هذا الظّرف لتحقيق أرباحٍ سريعة وكبيرة لهم على حساب هذه الفئات الضّعيفة والمعدمة⁴.

إنّ هذا الظّلم المستشري من طرف الاحتلال قد دفع بالقبائل الحدوديّة بالجهة التّونسيّة إلى الثّوران ضدّ المحتل بسلوك تصرفات عدوانيّة تجاهه، وبهذا السّلك تسببت في إلحاق ضررٍ كبيرٍ بينيتها ومواردها، لأنّ إدارة الاحتلال لن تبقي مكتوفة الأيدي حيال ما يجري، وستطالب بتعويضات كافة الخسائر عن تلك التّصرفات،

¹ - إدريس رائسي: المرجع السّابق، ص 46.

² - بيار كاستيل: المصدر السّابق، ص 220.

³ - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 99.

⁴ - إدريس رائسي: المرجع السّابق، ص 92 - 93.

ونعني به إقدام "وشتاتة"¹ على إضرار حرائق في المزارع التي ينتهون من حصادها في أرض الجزائر، وهذا طبعاً حسب نصّ الادعاء الفرنسي الذي يذكر: « بأنّ أولاد وشتاتة لمّا أتموا حصاده صابتهم فإنهم سارعوا بإعطاء النّار بعمالة جزاير وحرقوا احسن الغيوب من دايرة سوق اهراس، فلذلك يلزمني نطلب من الدّولة الحكم في الفاعلين واعادة الخسائر الواقعة، كما أني نلاحظ جنابكم الرّفيع أنّ هذه المصيبة لا كانت تقع لو كان جنابكم أخذ دبارتي ولا كان يأخذ بإخطار علالة الجويني وكان يبقى هنا كبار وشتاتة الذين كنت عينتهم للسياسة الخ»².

ويبدو أنّ أعداد الحرائق قد ارتفع أكثر بمرور الرّمن، الشّيء الذي دفع بحاكم "سوق اهراس" الكماندة "فيفانص" بإرسال بيان للحاضرة التّونسيّة يوضح فيه قيمة مطالب الحرائق التي أفسدت مزارع "سوق اهراس" من طرف عرش "وشتاتة"، وفيما يلي مقتطف من نص البيان وجاء فيه:

وهذا الادعاء من طرف سلطة الاحتلال في اتهامها وتحميلها لعرش "وشتاتة" تركت تلك الحرائق الثّلاث التي فشت بمزارع "سوق اهراس" دون وجود أدلة قاطعة تثبت بها إدانتها للمذنبين من وجهة نظرها، قد دفع بالسلطة التّونسيّة للتّحرك والدّفاع عن رعاياها في ظلّ غياب حُجج من الطّرف الفرنسي تثبت العكس، حيث جاء في نص الوثيقة 386³ والتي نقتطف منه الجزء التّالي:

الحمد لله. تلخيص نوازل يأتي بيانها على الخط والنّسيان. كتب في ربيع الأنوار 1298هـ⁴

فشات حريقة بمكان يقال له جبل "بوقوس" من عمل الجزائر وخمدت نارها بمكان يسمى "واد ماكسة" من عمل ما ذكر، وبين "وادي ماكسة" التي خمدت بها النّار والحد الفاصل بين النّاحية الغربيّة وعمل تونس مسافة بعيدة جداً من مسير نصف يوم بشيء يسير بين الحد الفاصل و المكان التي خمدت به، والمشاهدة في ذلك أقوى دليل وأدعى الكماندة "فيفانص" أنّ المتسبب في ذلك أحد رعايا تونس وجعل قيمتها 166.585 فرنكات، والحال أنّ النّار فشات ببلاد الجزائر وخمدت هناك وليس للكماندة حجّة في دعواه، بل بذكر فقط فشات حريقة بمكان يقال له "سليانة" من نزل "أحمد بوتوتة" من عمل النّاحية الغربيّة إلى أنّ بلغت بوادي "أولاد صياد" من رعايا الجزائر المذكورة ودخلت جبل "وشتاتة" من رعايا تونس أفسدت غاباتهم وادعى الكماندة المذكور أنّ المتسبب فيها رعايا تونس وجعل قيمتها 115000 فرنكات، والحل أنّ لرعايا تونس حجّة بالعدالة كونها فشات داخل حدود عمل الجزائر ودعوى الكماندة لا حجّة في دعواه بل بذكر فقط.

¹ - وشتاتة: هي أحد عروش الرّتبة التي استوطنت على ضفتي واد مجردة. ينظر: علي الحياشي: المرجع السّابق، ص 13.

² - مراسلة من القنصل جنرال ومكلف بأمور دولة فرنسا إلى الوزير الأكبر بالحضارة التّونسيّة "سي مصطفى" مؤرخة في 30 أوت من سنة 1880م. من.أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 236، الوثيقة 63.

³ - أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 236، الوثيقة 86. ينظر الملحق رقم (13)

⁴ - يصادف هذا التّاريخ، شهر فيفري 1881م.

الفصل الثَّانِي مظاهر التَّفَاعُل الاقتصادي بين القِبَائِل الحدودية ونتائج

فشات أيضاً حريقة حصيد عرش "أولاد ضيا" من رعايا الجزائر وتوجهت من هناك تشتعل إلى أن وصلت مكان يسمى "حمام خنقة وشتاتة" من رعايا تونس ودخلت من هناك تشتعل إلى أن دخلت "جبل وشتاتة" المذكورين أفسدت غباتهم ولرعايا تونس في ذلك حجة بالعدالة بكونها فشات داخل حدود عمل الجزائر وادعى الكماندة المذكور أن المتسبب فيها رعايا تونس وجعل قيمتها 5000 فرنكات¹.

والواضح أن الموضوع قد بلغ من الأهمية مكانة كبيرة لدى السُّلطة التُّونسيَّة لتتطرق لذات الموضوع في نسخ مكررة من الأرشيف التُّونسي، حيث تكرر هذا الموضوع فضلا عن الوثيقة أعلاه، في وثائق متتالية وصولا للوثيقة²⁹⁰. والجدول التالي يلخص الحرائق وقيمة خسائرها بالفرنكات:

الحوادث	قيمتها بالفرنكات
الأول	166585
الثاني	5000
الثالث	115000
المجموع	286585

وفي ظلّ هذا التَّبَين في الآراء نتساءل نحن عن دوافع إدارة الاحتلال من تعزيم أحد العروش التُّونسيَّة بمخلفات هاته الحرائق خاصة وأنَّها لا تمتلك أدلَّة وحجج دامغة تثبت إدانتها للمتهمين. والسُّؤال: هل كان هذا مجرد محاولة منها لابتزاز الأموال من طرف المتهمين؟ أم محاولة للتكتم عن أطراف تعرفها وتحاول إصاق التُّهم بأطراف بديلة عنها؟

من خلال التتبع لمسار الأحداث يبدو لنا أنَّ السُّؤال الثَّانِي هو المرَّجح، لأنَّ فرنسا كانت تهيئ في مسرح الأحداث التُّونسيَّة كي تعلن الحماية عن تونس.

وعلى كلِّ حال يبدو أنَّ الطَّرْف التُّونسي لن يُقدم على هكذا تصرف من شأنه أنَّ يُلحق أضرارا بالغة به، وهذا من ناحيتان الأولى: كون غاباته مجاورة للمناطق التي اشتعل فيها الحريق مما يعني وجود احتمالية امتداد هذه الحرائق لأراضيها، وهذا ما لاحظناه في نص الوثيقة 86 أين وضَّحت فيه أنَّ هذه الحرائق امتدت لجبل "وشتاتة" هذا من جهة³، ومن جهة ثانية: هم على إدراك تام بقوة سلطة الاحتلال ومعرفة جيدة بمدى شراستها في معالجتها لمختلف المواضيع، وبالأخص في مواضيع تمسُّ بالممتلكات الخاصة أو العامة لدولة الاحتلال، ومن وجهة ثالثة: ما الذي سيجنيه هؤلاء أيُّ الرعايا التُّونسيون من افتعال حرائق بهذا الشَّكل، خاصة وأنَّهم بهذا تصرف لن يجنوا أيَّ غنائم تذكر منه!، هذا الأمر ليس تبرئة للطرف التُّونسي وإنما هي

¹ - أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 236، الوثيقة 86.

² - أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 236، الوثائق 88، 87، 89، 90.

³ - أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 236، الوثيقة 86.

محاولة لفهم ملاسبات القضية، وعلى كلِّ فالطَّرْف التونسي يمتلك من الحجج العدليَّة ما تثبت تبرئته من التُّهم الملصقة به.

ومهما يكن فمجيء الاحتلال الفرنسي قد غَيَّر من التَّوازنات الاقتصادية القائمة بين القبائل الحدودية بفعل جملة الإجراءات التي ادخلها المحتل على المحيط الاقتصادي بين البلدين، والذي شهد نزوحاً بفعل المتغيرات الجديدة التي لم ترع الآليات والأنساق التي كانت يتم بها هذا النِّشاط سابقاً والذي شهد تحوُّلاً بمجيء الاحتلال الفرنسي.

3/- افتكاك الاحتلال للأراضي القبائل الحدودية بالجزائر وتونس وأثره على الوضع الاقتصادي لها:

عرفت القبائل الحدودية الجزائرية قولبة جديدة في تركيبها الاجتماعية والتي أثَّرت على نشاطها ووضعها الاقتصادي من خلال إقدام الاحتلال على تفكيك البنى القبليَّة وإعادة تركيبها وفق أنماط تخدم مصالحه بدرجة أولى، إنَّ تفكيك القبائل الجزائرية¹ خاصة منها الحدودية ووضعها في كونتونات محدودة الحجم والعدد، أحدث خلخلة إنَّ لم نقل سقوطاً في توازن اقتصاد المجتمع الجزائري القائم على التَّوازن بين ما يتم إنتاجه وما يتم استهلاكه، فقد كان الوضع السَّابق مبني على تحقيق هذا التَّوازن، لكن القطيعة مع هذا التَّوازن بفعل الاحتلال تسببت في خلق عجز في تأمين الحاجات الأساسية، من هنا نقصت التَّغذية وتفشَّت الجاعة لأن القوانين العقارية القائمة على مصادرة الأراضي العروشيَّة وحجز الأراضي القبليَّة أثَّرت الانتفاضات، هذه الأراضي التي كانت بمثابة القاعدة الماديَّة واللبنة الأساسية التي يقوم عليها الاقتصاد القبلي في الجزائر²، لأنَّ النِّظام القبلي كان المسؤول الوحيد على عملية الإنتاج والمحافظة على مقوِّمات المجموعة القبليَّة وتواصلها، وإزالة هذا النِّظام من دون شكَّ يؤدي إلى نفي ظاهرة القبيلة في حدِّ ذاتها³، وعليه انتقل المجتمع الجزائري بما فيها المجتمع القبلي على وجه الخصوص من جرَّاء هذا المخطط التَّفكيكي، من اقتصاد يحفظ مبدأ جماعيَّة الأرض، إلى اقتصاد الجوع، وهو ما خلَّف أضراراً اقتصادية واجتماعية كبيرة بفعل انتقاله من توازن سابق يكفل مختلف شرائح المجتمع، إلى اقتصاد لا يغن ولا يضمن من جوع، لأنَّ الاقتصاد الجماعي السَّابق كان يسمح بمواجهة مختلف التَّقلُّبات بما فيها المناخية التي كان يعدُّ لها العدة ويتأهب لمواجهتها جماعياً لتجنب أخطارها بأقلِّ أضرار ممكنة في ظلِّ ذلك التَّلاحم والتَّكافل الاجتماعي⁴ الذي كان قائماً بين أفراد القبيلة الواحدة، ولكن عندما جُزئت هذه اللحمة الاجتماعية إلى معطيات عددية صغيرة جداً أصبحت غير قادرة على مجابهة مختلف العوارض التي تعصف بها،

¹ - سنتطرق لإعطاء نماذج عن المخطط التَّفكيكي الذي طال القبائل الحدودية في الفصل الموالي وسيختصر البحث هنا على آثار هذا المخطط من الناحية الاقتصادية على حياة القبائل.

² - الهواري عدي: الاستعمار الفرنسي في الجزائر سياسة التَّفكيك الاقتصادي والاجتماعي (1830-1960م)، تر: عبد الله جوزيف، ط1، دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت، 1983م، ص75.

³ - عبد الحميد هنية: تونس العثمانية، المرجع السَّابق، ص39.

⁴ - نفسه، ص78.

خاصة في ظلِّ وجودٍ محتلٍّ يتفَنَّنُ في أساليب وطُرق وكيفيات إفناء العنصر الأصلي في الجزائر، فمن افتكاك الأراضي ومنحها للمعمرين وإسكان القبائل في دوواير تفتقد لأدنى شروط العيش الكريم، واستغلال المحتل لها كخزانٍ احتياطي يوفّر له يد عاملة رخيصة السَّعر يستغلها لفترة محددة من الزَّمن ثم يتركها لتعمل في قطعها الصَّغيرة القريبة من الدُّوار عساها تؤمّن كفاف من تعوُّمهم، وهذا أيضاً يتمُّ وفق مُخطَّط كان الهدف منه إبقاء هذه الفئات مرتبطة بالدُّوار تجنباً ومنعاً من طرف الإدارة الاستعمارية للهجرة الرِّيفيّة التي تُهدِّد السَّلم الاجتماعي في المدن¹.

ليمتد مسار التَّغيير من الأراضي إلى أعداد الماشية التي عرفت هي الأخرى تراجعاً بفعل تقليص المساحات الشَّاسعة التي كانت ترعى فيها الأغنام، ومنحها للمستوطنين، وأصبحت الخرفان لا تظهر إلا بعد موسم الحصاد لترعى عن السَّنابل المتبقية، وتلا هذا الإجراء قانون الغابات ليمنع الرِّعي فاختنق بذلك الرُّعاة وتضرَّروا بشكل كبير سكان المرتفعات الذين كانوا يعيشون على هذا النِّشاط، وعلى أية حال فانحطاط الرُّعاة وتراجع تربية الماشية يعتبر قطيعة شاملة وكاملة للتوازن الاقتصادي الذي كان يعيش عليه المجتمع الجزائري، ليعقب هذا التَّراجع تدني في المستوى المعيشي الذي شهد تراجعاً رهيباً هو الآخر بفعل الأزمات الاقتصادية التي حدثت بفعل سلب القبائل لموارد رزقها وطردها من أماكنها وانتشار القحط وموجات الجفاف، فأصبح بذلك هذا البناء الاجتماعي عرضة للأزمات، مثل ما حدث في أزمة (1845-1850م)، وأزمة (1867م) التي اجتاحت فيها القبائل الجزائرية بشكل عام والقبائل الحدودية على وجه الخصوص بجهتي قسنطينة وتبسة ثلاث مصائب عظام فالأول منها ضياع الزرع، والثانية موت المواشي التي غالباً معيشة الناس منها، والثالثة كثرة الموت، أما الشر الرابع والمطابق لعام 1868 فتمثل في اجتياح الجراد وما عقبه من غلاء لأسعار الطعام وضعف عمليات البيع والشراء، الشيء الذي آل بهم للسببية والفناء وربما أكل بعض الناس بعضاً².

وعموماً تعتبر أزمة (1867-1868م) الأكثر حدَّةً وتجلياً للقطعية في توازن ما قبل الغزو، وكانت سبباً في انتفاضة 1871م بفعل شيوخ الفقر والبؤس والعوز والأوبئة سيما الكوليرا التي أتت على قبائل بكاملها، هذه الأزمة التي أتت بفعل توسع أراضي المعمرين وظهور الملكية الفردية بشكل عنيف، وبانتقال المجتمع الجزائري من مجتمع يكفل فيها حاجته إلى مجتمع يصبح فيه عاجزاً على تلبية وتأمين ذلك³.

هذا التَّحول الذي مسَّ المجتمع الجزائري ككلِّ بما فيها القبائل الحدودية التي كابدت الولايات في هذه الأزمة التي اجتاحت كافة أصناف المخلوقات من بشر وحيوان وشجر، إنَّه عام الشَّرِّ كما قيل عنه⁴. وحول هذه الأزمة يتحدث "كاستيل" عن قبائل حوز تبسة فيقول: «وعندما حلَّ فصل البذر وجدوا مخزونها من الزُّروع

¹ - الهواري عدي: المرجع السَّابق، ص 73.

² - مُحَمَّد صالح العنزي: مجاعات قسنطينة، تق وتغ: رابع بونار، ط1، الشَّرْكة الوطنيَّة للنشر والتَّوزيع، الجزائر، 1974م، ص 56-57.

³ - الهواري عدي: المرجع السَّابق، ص 75-78.

⁴ - بيار كاستيل: المصدر السَّابق، ص 230.

قليلاً كان الموسم الفلاحي سيئاً وظهر الجراد وساد الجفاف وأجدبت المراعي ولم تنبت الأرض زرعاً ولا عشباً إنّه الموسم الذي سُمّي عام الشّر، ضربت الجائحة الحيوانيّة قطعان الحوز، فهلك الكثير بسبب القحط وتدهورت الأوضاع أكثر بانتشار وباء قاتل في أوساط السّكان الذين ليست لهم معرفة بأعراضه ولا بعلاجه، فهلك عدد معتبر منهم بهذا الدّاء وبلغت الخسائر في القطعان الثّلثين، ولم يبق شيء من الحبوب المخزّنة وحلّت المجاعة منذ أفريل 1867م فلم يبق بين أيدي السّكان شيء من الغذاء سوى التّباتات والأشجار البرية نبتة "تلغودة" و"البلوط"، ومات البعض لتناوله نباتات سامة والكثير مات جوعاً، وانتشر وباء في القطعان اسمه "غدة" (Gheda) هلك منه عدد كبير، وكان استمرار الجفاف إلى الخريف سبباً في هلاك الكثير من الخيل التي قاومت إلى ذلك الحين، ولم يبق منها في كل الحوز أكثر من خمسمائة، وقد كان عددها قبل ذلك يتراوح ما بين أربعة إلى خمسة آلاف رأس، كما واجهت البغال قساوة القحط ولكن الإبل كانت أكثر تحملاً، كانت الكارثة في الحوز و الأحواز المجاورة¹.

هذا ما حصل للقبائل الجزائريّة، فهل لاقت وعاشت قبائل الحدود التّونسيّة نفس المصير أم أنّ مأساتها كانت أقلّ بفعل اختلاف شكل الاستعمار الذي اتخذ شكل الحماية على تونس؟

إنّ الاختلاف في شكل الاستعمار لم يخلق فارقاً بالنّسبة للقبائل الحدوديّة التّونسيّة بحكم أنّ المستعمر واحد ألا وهو فرنسا، فلقد تجرّعت القبائل الحدوديّة التّونسيّة العُصص وشربت من نفس كأس الألم والمهانة والمرارة التي ذاقتها القبائل الحدوديّة الجزائريّة، فالأراضي الخصبة أثارت شهية رجال السّياسة الفرنسيين وأسالت لعابهم في سبيل الاستحواذ على هكتارات أكثر؛ ولتسهيل هذه العملية عمدت سلطة الحماية بالشّروع في عدّة تدابير من أجل إدماج أكبر قسم من الأراضي العروشيّة في أملاك الدّولة حتى يتسنى لها التّصرف فيها بسهولة²، ولم تمنع تلك الأراضي التي تستند لحجج ملكيّة من مخالف الاحتلال الذي أوجد لنفسه مُصوغات لتبرير قبضته عليها، كالذي حدث لأراضي "سيالة" التي استولى عليها السّيّد "موجو - Mougeot"³، واستولى أيضاً على "هنشير"⁴ شاسع عُرف بوادي اللبن الذي يمسح حوالي 5000 هكتار وتقطن عليه أحد القبائل التّونسيّة الكبرويهي قبيلة "سيالة" التي يعود وجودها إلى ما يزيد عن 800 سنة وتمتلك هذه المجموعات

¹ - بيار كاستيل: المصدر السّابق، ص 230-231.

² - أحمد القصاب: تاريخ تونس المعاصر (1881-1956م)، تعر: حمادي السّاحلي، ط1، الشّركة التّونسية للتوزيع، تونس، 1986م، صص 77-76

³ - موجو - Mougeot: هو أحد رجال السّياسة الفرنسيّة، شغل بمنصب الوزارة ومجلس الشّيوخ، ويعتبر أحد الغلاة المندابين بضرورة اعتماد سياسة العنف اتجاه الأهالي بعد تجريدهم من أراضيهم. ينظر: بول فييناويروكتون: عرق البرنوس. جرائم الاستعمار الفرنسي في عهد الجمهوريّة الثّالثة، تعر: الأزهر الماجري، ط2، نقوش عربيّة، تونس، 2019م، ص86.

⁴ - الهشير: جمعها هناشير، وهو الاسم الذي كان يطلق على الخرائب الرّومانية في إفريقيا، وهو إمّا إقطاعيّة فلاحيّة، أو حقل، أو مزرعة، أو أرض مستأجرة للزراعة. ينظر: الموقع الإلكتروني: <http://islamport.com/k/mjm/5262/4065.htm>. تاريخ الاطلاع: 2020/03/18م.

حجج ملكية تامة الشروط تثبت ملكيتها وليس للدولة أي علاقة بها، ومع ذلك فالسيد "موجو" عقد العزم على ترحيل المجموعات المستقرة بكل الوسائل والطرق، وطلب من السلطة الاستعمارية إدراج "الهنشير" المذكور ضمن أراضي الدولة مُدْعَمًا طلبه بالموافقة التي تحصل عليها من قبل لجنة تسجيل الأراضي، ورغم احتجاج القبيلة المعنية لدى الدوائر المختصة، إلا أن احتجاجها لم يأت بجدواه أمام التهديد والوعيد الذي مارسه "موجو" على مسؤولي أملاك الدولة، وتمكّن من عقد تسوية للهنشير لفترة مفتوحة، مقابل أداء سنوي يقدر بـ: 1000 فرنك، وبمجرد استكمال إجراءات عقد التسوية شرع السيد "موجو" في تهجير المجموعات القبليّة من أراضيهم إلى الأراضي الفقيرة المجاورة للهنشير¹.

كما طالت عملية النهب الأراضي الموات بموجب الأمر العلي المؤرخ في 15/01/1896م، الذي أمر بتحويل الأراضي الموات والتي لم يتم إحيائها إلى أملاك الدولة، لتمتدّ الابتزازات إلى الأراضي الرعوية حيث سمح ذات القانون بإدراج الأراضي المُسَخَّرَة منذ مدة طويلة لتربية الماشية لأراضي دولية ومنحها للمعمرين².

ويستمر مسلسل النهب ليشمل أراضي المجموعات العروشيّة التي تفتقر لسندات ملكية ولتلك الأراضي التي يغادرها أصحابها موسميًا لرعي المواشي، ففي سنة 1858م استولت السلطة الفرنسية على أرض "الجوابلية" من "خمير" وأقامت عليها طريق يؤدي إلى منجم "كاف الطبول"، وحثتها في ذلك أن هذه الأرض تفتقر لوثيقة مكتوبة بأيدي أصحابها، وهنا تحرك كاهية الكاف للنظر في الأمر ولفصل في النزاع القائم بين الطرفين، وبين أن هذه الأرض المدعى عليها من طرف الفرنسيين اشتراها "الجوابلية" من "نهد"، ولها مدايد مديدة وسنين عديدة، وعلى عادة أهل الجبل إذا اشترى أحد منهم حاجة يستريحون ويأكلون الطعام ويقرؤون الفاتحة هذا المعمول به عندهم³، فحتى الأراضي المجذبة التي تفتقر للحد الأدنى من المغريات و المحفزات الطبيعيّة لم تسلم من مضاربات رجال المال الفرنسيين، مثل ما حدث في هنشير القصرين الذي كان يمسح حوالي 6000 هكتار من الأراضي الفقيرة، التي لا تكاد للمجموعات القبليّة القاطنة عليه تؤمن حاجياتها الغذائيّة الأساسيّة، ناهيك عن تعرض تلك المجموعات للأمراض والأوبئة بفعل حمى المستنقعات التي تتميز بها هذه المنطقة، والتي تؤدي باستمرار لهلاك أعداد كبيرة من الأهالي فضلًا عن معاناتهم من أمراض وأوبئة أخرى، ولوهلة اعتقد سكان الهنشير بأن منطقتهم لن تصلها يد الاستعمار لأن أرضهم جدداء والاستعمار تستشير المناطق الخصبة والممتازة، لكن هذا الاعتقاد ضرب عرض الحائط، فبالنسبة لمستعمر تسيطر عليه عقلية الربح والنهب والثراء التي تقود رجال المال الذين شرعوا في تنزيل هنشير بكل محتوياته المنفرة، ونعني بذلك المستنقعات ضمن دائرة المضاربة والصّفقات، وقدّموا في سبيل ذلك مشروع مصادرة "هنشير القصرين"، كما كان لدعم عديد

¹ - بول فييناويوكتون: المصدر السابق، ص 89.

² - أحمد القصاب: المرجع السابق، ص 76.

³ - فاطمة بن سليمان: المرجع السابق، ص 313.

الشّخصيات السّياسيّة الأثر البالغ في حدوث إمكانيّة قبوله والموافقة عليه، لأنّ ضخامة الأرباح التي سيوفرها ويُحقّقها هذا المشروع¹ لفئة المضاربين والسّماسرة، سيزيد في إصرارهم على المضيّ قدماً لبلوغ أهدافهم².

ولم تكتف إدارة الاستعمار بهذا وإنما أخذت تضغط على سكان الحدود التّونسيّة في سبيل بيع أراضيهم لها، بل ويرغبوهم بذلك، تارة بالإغراء وتارة بالإكراه، ودعواهم في ذلك أنّ هذه الأراضي بعد مدّة قريبة ستصبح ملكاً لهم بموجب فرض الحماية الفرنسيّة على تونس، بل وتوعّدت المعارضين لها بإذقتهم شتى ألوان العقاب التي وصلت لدرجة الاقتتال بين الطّرفين أثناء دفاع الطّرف المتضرر على أراضيها، وهذه وثيقة تشرح ما سلف ذكره، وهي مرفوعة من ساكني "باجة"، ومما جاء فيها: «... لما تكاثرت جولان أجناب طوايف الفرنسيين بالعمل³ صار جلهم يرغب ممن له أراض ملكا على أنّ يملكها بالبيع لهم ويخوفونهم عند الامتناع من البيع بقولهم بعد مدة يسيرة قليلة يأخذ الفرنسيين جميع الأراضي العمل من غير ثمن ويستولون عليها استيلاء القهر والغلبة، كما يرغب بعضهم من بعض انفار من أهل العمل إحصاء أعداد كل عرش من عروش العمل ويوعدوا ببذل الدّراهم لمن يحصي لهم ذلك، وكثير ما يغرون من يطلبها بحق معين لأهل من أهل أو جباياه المرتبة للدولة التّونسية على الدّخول للحماية الفرنسيّة، وبما قد تهاجر بعض أهل العمل ووقع منهم العصيان وكثير ما يقع بين الجماعتين بسبب ذلك القتال، وعند خطاب من يخاطبهم ملاطفا لهم يغلبوا الأعراس عن مثل ما ذكر ويتعمدون شتم ذلك الشّخص ولربما يلعن له ولو كان معه اللّيف، ومهما اشتدت غيرة أحد أهل العمل ويسكنونها عنه خشية تفاقهم واقعة الخرق معها تحذير عمال الأوطان فيمن لنظر من تعاطيها وبموجبها تكاثر التّشكي من جلّ النّاس لدى الوكيل بعناية يوسف النّيقرو»⁴.

إنّ شراسة هذا الإفتكاك الذي طال الأراضي الخصبة والجذباء قد أدى إلى تفشي ظاهرة التّسكّع بفعل افتكاك أحد أهم دعائم الاقتصاد والمتمثلة في الأرض، وهنا استنكرت الإدارة هذه الظّاهرة وهي التي قادتهم إليها، فماذا تنتظر هذه الإدارة من مُعدمين سلبتهم أرضهم وحشدتهم في مناطق فقيرة وجافة عرفت بـ: "أراضي العطش" ثم تقوم بملاحقة هؤلاء لمقاومة التّسكّع الذي أحالته عليهم قصراً، ليتجرع التّونسيون نفس المظالم التي تكبّدها الجزائريون خاصة في جهات: "قابس"، "تطاوين"، "مدنين"، "نفطة"، و"توزر"، زيادة عن أثمان كاهلهم بالضّرائب الثّقيلة⁵.

ومن الانعكاسات الأخرى التي تكبّدتها بعض شرائح المجتمع التّونسي في الشّغل والعمل بفعل مجيء الاستعمار، وما أحدثته سياساته من تغييرات على نمط نشاطها الاقتصادي، والمتمثل في شيوع ظاهرة عُرفت

1 - بول فيينايروكتون: المصدر السّابق، ص 102-103.

2 - نفسه، ص 103.

3 - يعني أهل باجة.

4 - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 189. ينظر الملحق رقم (08)

5 - بول فيينايروكتون: المصدر السّابق، ص 159.

بظاهرة الحمّاسة¹، هذا النّشاط الذي انخرط فيه الفلاح على مضض وهو مكروه من وضعية اقتصادية شائكة لا مخرج له منها إلاّ بممارسة هذا النّشاط، وعادة لا ينتمي الحمّاس للمنطقة التي يعمل فيها، بل ينتسب غالباً لمناطق مجاورة لها وأحياناً أخرى إلى مناطق بعيدة، حيث حوت دفاتر العدول بمناطق الشّمال التّونسي في أواخر القرن التّاسع عشر ألقاب مثل: فراشيشي أو همامي أو ماجري في إشارة واضحة للجهات التي ينتمي إليها الحمّاس، ومهما يكن فالبؤس المرعب والعوز المدقع قد أدّيا دورهما في دفع هذا الإنسان المعدم إلى الانخراط في هذه المهنة باعتبارها توفّر حداً أدنى من القوت الضّروري له ولعائلته² اثر انتزاع أراضه منه، فبعض السّكان قرروا الاندماج في هذا النّشاط الذي يشبه نظام "القنّانة"³ في فرنسا في عصور الإقطاع المظلمة، يقول "بول فيينايروكتون": «ثم إنّ الشّريحة الارستقراطية المتعاونة مع الاستعمار التي أمكن لها المحافظة على ملكياتها الكبرى بفعل تحالفها وتعاونها مع الاستعمار قامت باستغلال هذا النّظام الذي سنّهُ البايات وحافظت عليه الأمّ الحامية، والذي يتمّ فيه تقسيم العقارات الكبرى إلى قطع صغيرة تسمح الواحدة 10 هكتارات وتعرف محلياً بالماشية، وتسند الماشية الواحدة إلى الحمّاس الذي ما هو إلاّ عبارة عن عبد للأرض التي لم يكن سوى فلاح صودرت أرضه وطحنته الجباية ووقع دفعه عن طليق الفقر والتّسكّع، و ما يزيد الطّينة بله هو لجوء الحمّاس للسّلفة من صاحب الأرض خلال السنّة وذلك على حساب منتوج لم يحن وقته بعد، ليتحول بذلك الحمّاس إلى سجين وضعيته ويلجئ هنا أرباب العمل لإتباع حيل لمنع "الحمّاس" من تسديد دَيْنِهِ أو التّفكير في تسديده، هذا فضلاً عن الأجر الرّهيد الذي يتقاضاه الحمّاس⁴ المتحدّد نصيبه بخمس الإنتاج والتي يتم تقسيمها كالتّالي: حصة مقابل الأرض، وحصة مقابل الزّريعة (البذور)، وحصة مقابل الحيوانات العمل وأدوات العمل، وحصة مقابل الضّررائب ونفقات الحصاد، والحصّة المتبقية للحمّاس مقابل عمله، ولكن الحمّاس لا يحصل على خمس الإنتاج إلاّ نادراً، ولا ينال عقب جمع الصّابة إلاّ الرّديء من الحبوب أي حبوب السنابل غير الممتلئة أو العجفاء، كما يشترط الفلاح على الحمّاس في الصّيف عندما تميل أثمان الحبوب للانخفاض إلى تسديد التّسبيقات الحبوبية وذلك نقداً وبحساب نفقات الشّتاء أو الرّبيع المرتفعة، ويتعرض الحمّاس لضروب

1 - الحمّاسة: هو عقد شغل فلاحي يكاد يقتصر وجوده على بلدان المغرب العربي عرفت الحمّاسة قبل مجيء العرب إليها في القرن السابع بعد الميلاد وعقد الحمّاسة عقد يمتد إلى سنة ويربط بين فلاح كبير أو متوسط أو حتى صغير من جهة ومزارع فقير لا يملك سوى قوة عمله أو يملك أرضاً صغيرة ليست لديه المقدرة على فلحها يتكون العقد من اركان هي: التّسبيقة، الضّامن، التّعوت، مهام الحمّاس، توصيل الحمّاس، نصيب الحمّاس. ينظر: الهادي التّيمومي: مهنة الحمّاسة في تونس بين التشريع والواقع (1861 - 1875م) من كتاب: المغبون من تاريخ تونس الاجتماعي، ط1، المجمع التّونسي للعلوم والآداب والفنون، تونس، 1999م، ص 90-99.

2 - الهادي التّيمومي: المرجع السّابق، ص 91-99.

3 - القنّانة: هو نظام شهدته أوروبا في العصور الوسطى يدخل ضمن النّظام الإقطاعي الأوروبي، والقرن أحد أفراد طبقة الفلاحين، الذي يرتبط بسيده مالك الأرض، ولا يُسمح له بمغادرتها دون إذنه، مع دفعه مبالغ معينة وخدمات مُعيّنة، وبناء عليه فالقن ليس حرّاً. ينظر: الموسوعة العربية العالمية، ج. 18، ط. 2، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتّوزيع، الرياض، 1999م، ص. 340 - 341.

4 - بول فيينايروكتون: المصدر السّابق، ص 110 - 111.

شتى من التّعنيف كالتّجويع والتّعرية والإذلال والمس بالشّرف، كالاعتداء على شرف ابنته أو زوجته، أو إجباره للقيام بأعمال لا علاقة لها بالحمّاسة، كتتنظيف منزل صاحب الأرض أو قضاء شؤونه الخاصّة¹.

ورغم الإصلاحات التي قام بها الوزير خير الدّين والمتأثرة بالفكر الليبرالي الأوربي وتطابقها في مجملها مع مصالح العامّة من سكان البلاد آنذاك، إلّا ما يتعلق منها بالحمّاسة فلقد كانت وبالأعلى هذه الشّريحة الاجتماعيّة المهمشة والبائسة، وقام "بول فيينايروكتون" بإدراج بعض من بنود قانون الحمّاسة الذي سنّه الوزير خير الدّين بتاريخ: 1874/04/13م والتّعليق عليه، واعتبره انتهاكاً صارخاً لحقوق الإنسان المقدّسة. وهذه نماذج من فصول هذا القانون:

ففي الفصل 32 جاء فيه: «لا يحق للحمّاس مغادرة الضّيعة إلّا في صورة تحوُّله إلى صفة فلاح وفي صورة استحالة ذلك، فإذا خطر له مغادرة الضّيعة للعمل بمكان جديد أو لعدم العمل تماماً فإنّ القايد يفرض عليه العودة وإعادة تجديد عقد الحمّاسة مع مُشغِّله الأصلي»، إنّها العبودية المؤبّدة التي يفرضها هذا القرار الجائر على هؤلاء المعدمين².

وفي الفصل 55 من قانون الحمّاسة جاء: «في صورة احتجاج الحمّاس في خصوص أجره فإنّ شهادته تعتبر باطلة وتأخذ السُّلطات بأقوال المالك أو من ينوبه "الوقاف" إذا بدا لها المقدار المالي المصرح به معقولاً».

أمّا في الفصل 56 وهو الأكثر فضاة، قال: «ففي صورة احتياج الحمّاس أثناء السّنة الفلاحيّة إلى الكساء أو الغذاء أو بعض الحاجيات الضّروريّة التي يوفّرها له صاحب الأرض أو وكيله، فإنّ الحسابات التي يُقدّمها هذان الرّجلان كافية لتصديقها، مع ضرورة أداء اليمين ومعقوليّة المقدار المالي المصرح به»³.

ثانياً- الصّراع حول الأرض بين القبائل الحدوديّة:

ارتبط هذا المظهر من النّزاع الاقتصادي بين القبائل الحدوديّة أثناء الاحتلال، بفعل سعي هذا الأخير الفصل بين كياني القبائل عن بعضهما البعض دون النّظر لخصوصيات التّفاعّل الاقتصادي الذي كان قائماً بينهما من خلال انفتاح المجالين عن بعضهما البعض، فهو لم يكن يلي اهتماماً لهذا العامل وإنّما كان اهتمامه ينصب في محاولة السّيطرة على أخصب الأراضي وضّمّها إلى سلطانه والسّعي إلى توسيع نفوذه ولو على حساب قبائل الحدود التّونسيّة، لذلك عمد إلى إبعاد قبائل الفراشيش عن الأراضي التي يريد ضمّها للتّراب الجزائري خاصة منها تلك الأراضي الخصبة، وهنا دفع بالقياد والعروش الجزائريّة للإغارة على "الفراشيش" من أجل بثّ الخوف والهلع في نفوس ساكني تلك المناطق لدفعهم للتّخلي عنها في ظلّ انعدام الأمن⁴، ومنه يتاح

1 - الهادي التيمومي: المرجع السّابق، ص 99.

2 - بول فيينايروكتون: المصدر السّابق، ص 112-114.

3 - نفسه.

4 - بيار كاستيل: المصدر السّابق، ص 220.

المجال للسلطة الاستعماريّة ضمّها، كالذي حصل "الأولاد وزاس" من قبيلة الفراشيش القاطنين حول "جبل بورمان" الحدّ الفاصل بينهم وبين التّماشية، وظلّت ذات العشيرة تطالب بأراضيها الممتدة إلى "فج تنوكلة" وتشمل كل القسم الشّرقي من الحوز ما بين الحدود شرقاً إلى تنوكلة غرباً وجبل طاقة جنوباً، وهو الفضاء الذي أصبح مهجوراً منذ نزوح أولاد سيدي عبيد إلى تونس، ويتكون من أراضي خصبة يسمح لها استغلالها بالإفلات من ضريبة الباي¹.

وتجسّد الأمر ذاته مع "الهمايسية" الذين أخذوا يطلبون من السّلطة التّونسية السّماح لهم بالمغادرة في ظلّ استمرار الضّغط الفرنسي عليهم بضمّ تلك الأراضي للطرف الجزائري، وهم الذين أفنوا وقتاً كبيراً في زراعة أشجارها ويحسبون الدّقائق لحصاد ثمارها، كما يبيّنه هذا المقطع من الوثيقة التّالية: «... أخبرنا انفار من الهمايسة من "أولاد سديرة" من رعايا تونس أنّ انفار من "أولاد مومن" من الجزائر أتو بلادهم وجعلوا يفصون غاباتهم فأتوهم وقالوا لهم لماذا تفعلون هذا فقالوا لهم نريدوا الرّحول ببيوتنا والتّزول بهذا المكان فأجابوهم بأن لا تنزلوا في أرضنا وأبعدوا عن زرعنا فقال لهم "أولاد مومن" المذكورين أنّ الكماندة حاكمهم أخبرهم بأنّه عما قريب يصير هذا المكان لهم وهم الذين يأكلون زرعه الذي زرعه الهمايسة المذكورين»².

وفي موضع من نفس الوثيقة جاء: «... وأنّ بيوت من "أولاد مومن" من رعية الجزائر تجاوزوا الحدّ الفاصل وبنوا بيوتاً بتراب الهمايسة من "أولاد سديرة" من عمل الرّقبة بحكم تونس»³. والشّأن ذاته ذهبت إليه وثيقة أخرى حيث جاء فيها: «... إنّ دواوير من رعايا الجزائر نزلوا بتراب الهمايسة داخل الحدود التّونسيّة وادعوا أنّ ذلك تابع النّاحية الغربيّة والحال أنّ الأرض التي نزلوا بها أرض الهمايسة وليس بعيدة عن الحدّ الفاصل بين الجهتين»⁴. وتواصل سرد الواقعة فتقول: «... ومعلوم جنابكم السّامي أنّ أبناء الشّيخ "علي الهميسي" يستأذنون الرّحول من مكاتهم بإذن الشّيخ المذكور ويتركون زرعهم لما لحقهم من النّفر من "أولاد مومن" المجاورين لهم من رعايا الجزائر على أنّهم يحملون سعيهم ودواجمهم على أراضيهم ويقولون لهم هذا التّراب للنّاحية الغربيّة، ويقولون أنّ الكماندة قال لنا سيكون لكم وتنتفعون أنتم به وبقوا متحيرين ومتشوشين من هذا القول ولذا يستأذنون الرّحول وقالوا نتركوا الزّرع ونتوكلوا على الله والنّظر الأعلى لكم في ذلك»⁵.

والحال نفسه تعرضت له قبائل الشّرق الجزائري من طرف قبائل الحدود التّونسيّة الرّغبة في التّوسع في أراضيها، ليقوم بعض القياد المتواطئين حسب شهادة "كاستيل" بتقديم هذه العروض التّحفيزيّة من الأراضي للقبائل الحدوديّة التّونسيّة على حساب أصحاب الأرض الشّرعيين، وفتحوا لهم المجال لنصب خيامهم فيها

¹ - بيار كاستيل: المصدر السّابق، ص 220.

² - أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 236، الوثيقة 86.

³ - نفسه. ينظر الملحق رقم (13)

⁴ - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 140.

⁵ - أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 236، الوثيقة 115. ينظر الملحق رقم (14)

ويعتبر "الحاج أحمد لخضر" عينه من هؤلاء الذين قاموا بتجريد عدد من العشائر لأراضيها ومنحها لأقاربه ومحسوبه، وكان لأقاربه علاقة ودّيّة مع أشخاص نافذين في أوساط القبائل التّونسيّة المجاورة مما شكّل خطراً على الانسجام والأمن يقول "كاستيل": «...وقد سمح هؤلاء بدخول 400 خيمة تونسيّة في سنة واحدة (1860-1861م) استقرت في أراضي الحوز وقامت السّلطة الفرنسيّة بعزله وعوضته بالقايد "علي بن محمّد"، ولقد حاولت القبائل التّونسية المجاورة الرّد باستعمال القوة احتجاجاً على عزل القايد "أحمد لخضر" وكانت في الواقع تريد الحصول على ما لم تتمكن منه بوسائل أخرى، لكن الإدارة الفرنسية ردّت هؤلاء إلى أعقابهم وعمّ الهدوء في قبيلة "أولاد يحيى" من جديد»¹.

وعلى كلّ الفخلافات مع القبائل الحدوديّة التّونسيّة على الأراضي قد ازدادت ضراوة خلال سنة 1861م، الأمر الذي اضطر إدارة الاحتلال على استعمال القوة والصّرامة لمنع هؤلاء من تخطي الحدود، واستجابت بعض القبائل تحت وطأة التّهديد وغادر بعضهم تراب الإقليم، غير أنّ البعض الآخر استمر في التّمسك بالأراضي التي استولوا عليها كما فعل "أولاد وزّة" من قبيلة الفراشيش الذين رحلوا من تنوكله ولكن ظلوا متشبّثين بأراضي جهة "طاقة" و"بودرياس" مستفدين من تساهل السّلطة، لتصمّم عشائر "أولاد عبد الملك" و"أولاد سيدي حمادي" على المقاومة، بل وقامت بشنّ عديد الاعتداءات على عشائر حوز تبسة، ليدخل "أولاد وزاس" في صراع مع النّمامشة، ووقع صراع حاد بين "أولاد بوغانم"² و"أولاد سيدي يحيى بن طالب"، وجاء "أولاد عبد الملك" و"أولاد سيدي حمادي" للاستقرار في "جبل العنق" على تسعة فراسخ شمال شرقي فركان، وهنا تحركت السّلطة الفرنسيّة للرّد على تجاوزات هؤلاء بتسيير فرقة من البسايس على رأسها القائد الأعلى للحوز "دولتر - Delètre" والرّائد "فلاتير - Flatters"³.

وبهذا الشّكل كان المجال الحدودي تتجاذبه قوى عديدة استعماريّة منها وقبلية، والكل يريد التّمسك والنّفوذ، لذا كانت الأرض باستمرار أحد بؤر الصّراع بين القبائل الحدوديّة، والذي ازدادت شدّته في ظلّ السّيطة الاستعماريّة التي حاولت إشعال فتيل الشّقاق والفرقة أكثر لكي يمكن لها السّيادة وتنفادي من ورائها قيام اتحادات قبليّة من شأنها أن تتحول لقوى صديّ عنيقة تهدّد وجودها.

¹ - بيار كاستيل: المصدر السّابق، ص 238 - 239.

² - أولاد بوغانم: يعتقد أنّ جدّهم "سيدي بوغانم" من السّلالة الشّريفة، قدم من السّاقية الحمراء قبل انتصاب الدّولة الحفصية، واستقر في البداية في مرتفع جبلي مطل على "فوسانة"، ويقال أنّه كان يتغذى من حليب ناقة أحد إقطاعي المنطقة اسمه "يعقوب"، ولما أدرك هذا الأخير كرامات سيدي "علي بوغانم" وهبه أراضي شاسعة من باب التّبرك، وهذه الأراضي أصبحت فيما بعد المجال التّرابي لأحفاد "سيدي بوغانم" وأتباعه. ينظر: علي الحباشي: المرجع السّابق، ص 17.

³ - بيار كاستيل: المصدر السّابق، ص 238 - 239.

ثالثاً- تجارة القوافل بين القبائل الحدودية:

تعتبر تجارة القوافل¹ من الأنشطة الاقتصادية الهامة الممارسة لدى القبائل الحدودية سواءً منها الجزائرية أو التونسية، والتي تدرُّ على القبائل أرباحاً عديدة، فهي تعتبر شريان اقتصاد القبائل الحدودية، خاصة قبائل الجنوب الجزائري²، نظراً لما توفره هذه التجارة من موارد مختلفة لمختلف القبائل، والتي كانت تتم عن طريق البرِّ مروراً بمراكز محدَّدة ومتوقفةً في محطات معيَّنة، لتشرع في عملية التَّبادل التجاري، وقد حظيت هذه التجارة بمكانة هامة بالنسبة لقبائل البلدين، حيث فاق بحمل ما تستعمله تجارة القوافل ستة ملايين بمعنى أوضح أنَّها كانت أنشط من تجارة الموانئ التي تسيطر عليها الشركات الأجنبية، فرأس المال المستعمل فيها يبلغ ثلاثة ملايين، وكانت القوافل تسير بصفة شهرية بين عاصمة الشرق الجزائري وتونس، وهي مركبة من ثلاثمائة (300) بغل³، مما يدلُّ على كثافة حجم التَّواصل الاقتصادي بينها إبان هذه الفترة.

تنطلق القافلة في مسيرها وهي مكونة في الغالب من ألف إلى ثلاثة آلاف جمل مُحمَّلة بمختلف البضائع والسِّلَع، مارةً بمختلف الأسواق والمراكز العمرانية، وتبدأ غالباً مسيرها في مطلع الشتاء لأنَّ الحرارة والطقس ملائمين في هذه الفترة في الصَّحراء، مع ذلك هناك قوافل تنطلق صيفاً، وقد يعترض القوافل أثناء مسيرها عراقيل عديدة كهجومات اللصوص وقطاع الطُّرق من البدو والرُّحل⁴، عن طريق الإغارة والسَّلب، كما تتعرض القافلة لخطر ندرة المياه وخطر التَّيه في الصَّحراء، نظراً لشاسعتها الشَّيِّء الذي قد يتسبب في هلاك القافلة كلها أو بعض أفرادها، وهناك أيضاً الرُّزابع الرَّملية التي ربما غطت القافلة وجعلتها في حالة إقبال شديد⁵، فضلاً عن إجبارية دفع ضرائب المرور والزيادة المستمرة فيها، خاصة بعد بروز المزاخمة الإنجليزية⁶.

1 - القافلة: جمعها قوافل، ويعرفها أبو الحسن أحمد بقوله: قفل يدل على الأوبة والرُّجوع من السَّفَر، والتَّعريف نفسه يشير إليه ابن منظور إذ يقول: القفول الرُّجوع من السَّفَر، وقيل: القفول رجوع الجند بعد الغزو. وعلى العموم فالقافلة: هي ذلك التَّنظيم البشري والمادي والحيواني الذي لجأ إليه التَّاجر منذ فترة ما قبل الإسلام لبيع بضاعته داخل محيط بيئته أو خارجها، وعن بدايات هذه التجارة في تاريخ العرب فالرَّاجح بين الباحثين أنَّها كانت في مطلع الألف الأولى قبل الميلاد. ينظر: أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكرياء: معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السَّلام محمد هارون، ج 5، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 1984م، ص112. وينظر أيضاً: جمال الدَّين ابن منظور: لسان العرب، ج 13، (د. ط)، المؤسسة المصرية للتأليف والنَّشر، القاهرة، 1971م، ص 294. وينظر أيضاً: محمد فريد وجدي: دائرة المعارف القرن العشرين، مج 7، ط3، دار الفكر، بيروت، 1971م، ص902. وينظر أيضاً: رضا جواد الهاشمي: «تجارة القوافل في التَّاريخ العربي القديم»، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التَّاسع عشر، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدَّراسات العربية، بغداد، 1984م، ص 10 - 11.

2- مُحمَّد العربي الرُّبيري: المرجع السَّابق، ص 112-113.

3- المرجع نفسه، صص 152-153.

4- الطَّوارق: أصلهم صنهاجيون نزحوا من الجزيرة العربية ويسمون بالملثمين نسبة للثام الذي يضعونه على وجوههم. ينظر: مُحمَّد السَّويدي: بدو الطَّوارق بين الثَّبات والتَّغير - دراسة سويو أنثروبولوجية في التَّغير الاجتماعي، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص73.

5- مُحمَّد زبير: «تجارة القوافل في المغرب»، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التَّاسع عشر، المرجع السَّابق، ص182.

6- يحي بوعزيز: تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السَّادس عشر إلى مطلع القرن العشرين، ط1، دار هومة للطباعة والنَّشر، الجزائر، 2001م، ص 49-50.

ولهذا كان من الضَّروري تزود القافلة بالمستلزمات¹ التي تضمن سيرها بصورة سليمة بالإضافة إلى قيامها بفرض ضرائب متنوعة على العريان، مثل: ضريبة العشر، وضريبة المرور، وإلزامهم بتقديم الرِّجال لخدمة القافلة، وتنظيم شرطة صحراويَّة على طول طريق القافلة خلال الدَّهَاب والإِيَاب، والقيام باستعلامات سريعة ومسبقة تتكفل بإبلاغ القافلة بكلِّ تحركات العصابات البدويَّة حتى تحتاط وتنظم الدِّفاع عن نفسها².

وهناك طرق تحظى بعناية فعَّالة من بعض القبائل التي يهملها استمرار التَّبَادُلِ التِّجَارِيِّ الذي يمدُّها بما تحتاج إليه من مُنتجات الخارج، وكبار التُّجَّار يحصلون على ضمانات للأمن بعدما يدفعون إتاوة مهمَّة للقبائل الرُّحَلِ وهذه الحماية قد تتخذ شكل اتفافية يقوم بتحريرها طالب³ المنطقة، ويصبح شيخ القبيلة الحامي بموجبها مسؤول عن كلِّ ضرر تُلحقه رعيته بمصالح التَّاجر المحمي، فهو يتعهد بأن يعيد إليه كلِّ ما قد يسرق من البضائع والأموال، وعملية التَّعاقد كثيرا ما تحتّم بحفلة يقيمها التَّاجر المحمي، حيث يذبح حروف على باب الحامي الذي هو عادة شيخ القبيلة على مشهد من أبناء قبيلته؛ وكانت الحماية أحيانا تتمُّ بالاتفاق بين التَّاجر ومرابط كبير أو شيخ طريقة يتمتع بنفوذ كبير عند القبيلة⁴. بدورها إدارة الاحتلال تحرَّكت لمضاعفة تعزيزاتها أكثر عبر الطُّرق التي كانت تمرُّ بها القوافل وتشهد ضغطا من عصابات النُّهب التُّونسيَّة كالهمامة مثلا، الذين كانوا يتحكمون في الطُّرق الممتدة ما بين تبسة والجريد، وعليه قامت سلطة الاحتلال بإرساء فرق مكوَّنة من: فرقة السَّبايس، وكتيبة المدفعية، وفرق القوم كالحراكتة من "حوز عين البيضاء"، وفرقة من قناصة فرنسا، تركزت جميعها في "الماء الأبيض" طيلة فصل الشِّتاء لتحقيق الأمن الضَّروري في منطقة الحدود⁵.

1- مراكز ومحطات التَّبَادُلِ التِّجَارِيِّ بَيْنَ الْقَبَائِلِ الْحُدُودِيَّةِ:

توفرت الجزائر على مراكز أساسية تنطلق منها القوافل وتعود إليها، وأهمها: "قسنطينة" و"الوادي" و"توقرت" و"ورقلة"، وكانت المواصلات بين هذه الأسواق الرِّئيسة والأسواق المقابلة لها في "تونس" مُنظَّمة تنظيمًا دقيقًا بحيث أنَّ التَّاجر يجد يوميا قافلة يسافر معها ذهابا وإيابا، أمَّا الطُّرقات الرِّئيسيَّة المتبعة فهي:

1 - 1 - طريق قفصة ونفطة⁶: الذي يبدأ من مدينة الوادي ثم يسير شمالاً نحو محطة قمار، حيث ينقسم فرع يتجه مباشرة إلى مدينة نفطة ويواصل الآخر سيره نحو الشَّمال الشَّرقي إلى قرية فركان، حيث ينظمُ تجار الرِّبيان إلى القافلة وبعده يميل أكثر إلى الشَّرق ليقف في مدينة قفصة، وإذا كانت المسافة ما بين الوادي ونفطة لا تتطلب سير أكثر من ثلاثة أيام عاديَّة، فإنَّ الدَّهَاب إلى قفصة يستلزم أكثر من خمسة أيام، وعلى العموم

1 - كوثر العايب: المرجع السَّابق، ص 57.

2- يحي بوعزيز: تاريخ إفريقيا الغربيَّة، المرجع السَّابق، ص 50.

3- الطالب: هو من تمكَّن من حفظ كتاب الله، يسمح له بتأدية الصَّلوات الخمس بالمصلين، وتحفيظ القرآن الكريم للصبيَّة الصَّغار.

4- إسماعيل العربي: الصَّحراء الكبرى وشواطئها، ط1، المؤسسة الوطنيَّة للكتاب، الجزائر، 1983م، ص ص 49-50.

5- بيار كاستيل: المصدر السَّابق، ص 236.

6- ينظر الملحق رقم (15).

فإنّ الطّريق سهل فيه كثير من المياه لا تتعرض فيه القوافل إلّا لبعض الكمائن التي ينصبها من حين لآخر سكان واحة غدامس لنهبها، تنكيلا بأبناء سوف الذين كانوا كثيرا ما يغيرون عليهم لنفس الغرض، وتعتبر مدينة الوادي من أبرز الأسواق التي يقصدها التّجار من مختلف الواحات وتشتمل على أكثر من ثلاثمائة حانوت، أهم مواردها التّمور الذي تنتج منه التّوعيات الجيدة بكميات هائلة، والتّبغ بنوعية الرّطب والقوي، والمضلات المصنوعة من سعف النّخيل والأقمشة الصّوفية العادية، أمّا سكّانها فقد اشتهروا بالمهارة في التّجارة وفي تسيير القوافل عبر كتبان الرّمل المتنقّلة، وكان الشّوافة يفضلون الدّهاب إلى تونس لأنّها الأقرب إليهم ولكونها توفر لهم جميع المواد وبأسعار تنافسيّة، لقد كانت القوافل الرّابطة بين جنوبي الإيالتين يومية¹.

1 - 2 - طريق نفطة غدامس: الذي ينطلق من توقرت ثم يتجه نحو الشّمال ليمر بمحطة الفيض أين ينظّم تجار بسكرة للقافلة وبعدها يعود نحو الجنوب الشرقي ليصل إلى كوينين، ومنها يأخذ اتجاهين أساسين أحدهما: شرقا نحو مدينة نفطة مباشرة، وثانيها: نحو الجنوب إلى سوق غدامس مروراً بمحطة بئر الجديد، وكانت القافلة إلى نفطة تصل في أقل من خمسة أيام لانتشار الآبار والعمران، وخلافاً لذلك فإن الطّبيعة تعرقل من سير القافلة من توقرت إلى غدامس بفعل تأثير الرّمال في طمس معالم الآبار، وكانت وادي ريف تنتج التّمور بكثرة وتختصّ بصناعة الأقمشة الصّوفية العادية، لذا كان تجارهم يحملون إلى الجنوب التّونسي بعضاً من هذه المنتوجات والمصنوعات، ويجلبون منها الأقمشة القطنية والعطريات المستوردة من أوروبا، ويقومون بتوزيعها في الأسواق المحليّة، وكانت القوافل بين توقرت ومدن الجنوب التّونسيّة تتم بصورة يومية هي الأخرى².

بدوره كان مجال الفراشيش ممراً للقوافل القادمة من الشّمال الغربي (تونس) والتّخوم الغربيّة المجاورة لمجالهم أي قبائل الغرابة القادمين من المدن الجزائريّة كسوق أهراس وقسنطينة وونزة وبكارية³، وتعدّدت المسالك والطّرق التي تخترق منطقة السّباسب العليا التّونسيّة في صورة توضح لنا مدى التّطور الاقتصادي وكثافة المبادلات التّجاريّة في منطقة الوسط الغربي التّونسي اثر انفتاح مجال الفراشيش على بقية الجهات الأخرى، ومبادلة جميع ما عندهم من سلع عبر أربع محطات رئيسيّة تمتد من السّاحل إلى الصّحراء وهذه النّقاط هي:

عنابة والكاف وتبسة وواحة وادي سوف الجزائريّة، ولقد كانت عنابة بوابة الشّمال وادي سوف بوابة الجنوب؛ وحسب التّقديرات فإنّ قيمة ما يدخل سنويا إلى الجزائر من بضائع تونسيّة عن طريق مدينتي الكاف وتبسة هو: 153.000 فرنك، وعن طريق عنابة وقسنطينة 1.400.000 فرنك، وعن طريق وادي سوف

¹ - محمّد العربي الزّيري: المرجع السّابق، ص 155 .

² - نفسه، ص 153-154 .

³ - إدريس رئاسي: المرجع السّابق، ص 119 .

1.125.000 فرنك، وبالإجمال يصل المبلغ إلى 2.678.000 فرنك، أمَّا قيمة الصَّادرات الجزائرية فتقدر بنحو: 8.000.000 فرنك كل عام¹.

وكانت القبائل الحدودية تنتهز فرصة مرور القوافل للإغارة عليها لأخذ فدية من التُّجار الذين يجتازون الحدود في وضح النَّهار بحيث يدفعون مبلغ 25 فرنك رسم دخول عن كل بغل، ولكي يفلت التُّجار من هذه الجزية فإنَّهم يقومون باجتياز الحدود ليلاً بسرعة كبيرة ليلتعدوا عن الأنظار، وبيزوغ الفجر يكونون قد اجتازوا الخطر²، ثم يعودون إلى مقاصدهم لتصريف منتوجاتهم عبر أهم الأسواق.

2/- الأسواق التجاريَّة:

2 - 1 - سوق قسنطينة: يعتبر أكبر أسواق المنطقة في ذلك الحين، يأتي إليه التُّجار من كل النَّواحي جالين معهم المنتوجات الضرورية لسكانه، وفي المقابل يحملون معهم مصنوعاتهم لبيعها في مدتهم وقراهم وحتى تصديرها إلى بلدان مجاورة كتونس، ليستوردوا مكانها صناعات أخرى تدرُّ عليهم أرباحاً أوفر، وأدت قسنطينة دوراً أساسياً في تنشيط التَّبادل التجاري الذي تحوَّلت المدينة على إثره إلى ملتقى القوافل التجاريَّة القادمة من مختلف النَّواحي سواء من تونس وطرابلس وغدامس والمغرب الأقصى وبسكرة والجزائر، وهذه القوافل كانت تضمُّ أحيانا أكثر من مائتي (200) جمل تُشحن ببضائع مختلفة، منها: الزراعيَّة والحيوانيَّة وكذا الصَّناعيَّة، ليتم تحويلها إلى مختلف الجهات الإفريقيَّة وكذلك المشرق العربي أيضاً³.

2 - 2 - وادي سوف: تعتبر الوادي من أكبر الأسواق التجاريَّة بعد قسنطينة، وكانت بدورها قبلة التُّجار من مختلف الجهات والواحات، وكان أهل سوف على قدر كاف من الحيويَّة والدِّكاء في الميدانين العلمي والاقتصادي⁴، وهي تشتمل على الكثير من الحوانيت، أهم مواردها الثُّمور والتَّبغ، كما اشتهرت بصناعة المظلات من سعف النَّخيل والأقمشة الصُّوفية العاديَّة، وكان لاشتهار أهل الوادي بالمهارة في تسيير القوافل فيالزَّمال المتقلبة أن جعل من بلدهم همزة وصل بين الشَّمال والجنوب⁵.

2 - 3 - ورقلة: تعتبر ورقلة البداية الشَّرقيَّة لواحات الجزائر، اكتسبت شهرتها انطلاقاً من نشاطها التجاري الكبير طيلة العهد العثماني كما كانت في الفترة الإسلاميَّة السابقة، فهي ملتقى التُّجار وعقدة المواصلات ومحطة للقوافل التي تَعْبُر الصَّحراء وترتبط أقاليم المغرب بوادي النَّيل والمشرق، كما تربط جهات التَّل

¹ -Rozet et Carette: **L'Algérie** ,Par: MM Les Capitaines du Génie ,Paris ,1850,pp. 306 – 307.
تاريخ الاطلاع: 2014/02/12 http:// www algérie -ancienne . com

²-Rozet et Carette: Op. cit ,p 306.

³- مُحَمَّد صالح العنزي: تاريخ قسنطينة، المصدر السابق، ص81

⁴- إبراهيم مياسي: الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية، ط1، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2005م، ص167.

⁵- مُحَمَّد العربي الزُّبيري: المرجع السابق، ص155.

بأقطار السودان¹، «... ويتوافد إليها تجار قسنطينة وتونس وغيرها، يعرضون البضائع التي يأتون بها من بلاد البربر ويستبدلوها ببضائع واردة من السودان»².

2 - 4 - توقرت: هي ثالث الأسواق الهامة في الواحات بعد كل من "الوادي" و"ورقلة"، وقد ساعدها

في نشاطها التجاري توفرها على شبكة هامة من المواصلات والطرق التي أدت دوراً هاماً في تنشيط المجال الاقتصادي والتجاري فيها، وبما أن "وادي ريغ"³ ينتج التمر بكثرة ويصنع الأقمشة الصوفية العادية، فإن تجار "توقرت" يحملون إلى الجنوب التونسي بعضاً من هذه المنتجات والمصنوعات ويجلبون منها كثيراً من الأقمشة القطنية والعطور المستوردة من البلدان الأوربية، ثم يباشرون توزيعها في الأسواق المحلية. وقد كانت القوافل التجارية بين "توقرت" والجنوب التونسي تسير وفق نسق يومي⁴.

2-5 - سوق الكاف: كان أحد المراكز التجارية النشطة، حيث ينتصب فيه كل يوم خميس سوق

أسبوعية يؤمها إلى جانب الأهالي الغرابة "الحنانسة"، و بسوق "الكاف" تلتقي خمس طرق قادمة من "الجزائر"، أهمها: التي تمر عبر "تبسة" و"القالا" و"قسنطينة"، لتتصل "تبسة" نفس الدور، حيث كانت مقصد سكان "تونس" من "القصرين" و"الجريد" و"الفراشيش" و"الهمامة"، وكان لأهل الجريد عدّة محلات تجارية في "تبسة"⁵، بل أن سكان الحدود التونسية كانوا يتوافدون بشكل أسبوعي للأسواق الأسبوعية المنتشرة في "تبسة"، كسوق "المريج"، الذي كان مقصداً لقبائل الجهة ك"أولاد بوغانم" و"الفراشيش" من "تونس"؛ وأهم معروضاته الحبوب والمواشي⁶، لترتاد أعراش "خمير" و"الرقيبة" أسواق "القالا" و"سوق أهراس" القريبة منهم⁷.

وعلى أيه حال فالتبادل التجاري كان نشطاً وفعالاً بين قبائل البلدين بالنظر للقيمة المادية التي تحملها تلك القوافل التجارية، ويُذكر أن بضائع قافلة تونس عام 1806م كان بها ما لا يقل عن مائة ألف (100.000) ريال قرش قوي، أو ما يعادل خمسمائة وخمسة وثلاثون (535.000) فرنك ذهبي⁸.

وقد توفرت المبادلات التجارية بينهما على السلع التالية:

1- ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص46. وينظر أيضاً: محمد العربي الزبيدي: المرجع السابق، ص161.

2- مرمول كرنجال: إفريقيا، تر: محمد حجي وآخرون، ج3، ط1، دار المعرفة، الرياض، 1989م، ص166.

3- وادي ريغ: إقليم يقع غربي وادي سوف على بعد 95 كلم، ويشتمل من الشمال إلى الجنوب على عدّة مدن وقرى وواحات ك: مغير -جامعة - تقرت - تماسين. ينظر: أحمد توفيق المدني: جغرافية القطر الجزائري، د ط، دار البصائر، دار الثقافة، الجزائر 2009، ص142.

4- محمد العربي الزبيدي: المرجع السابق، ص156-157.

5- فاطمة بن سليمان: المرجع السابق، ص349.

6- بيار كاستيل: المصدر السابق، ص241.

7- فاطمة بن سليمان: المرجع السابق، ص349.

8- ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعدلي: المرجع السابق، ص72.

3- /الصادرات والواردات بين القبائل الحدوديّة:

3- 1 -الصادرات الجزائريّة إلى تونس: من أهمّها:

✓ التمور: وكانت مدينة الوادي تنتج من أنواعها الجيدة كميات هائلة، لكونها تتوفر على أعداد هائلة من النّخيل التي تصل إلى 150.000 نخلة¹.

✓ التّبغ بنوعيه الرّطب والقوي: ويعتبر من أطيب الأنواع وأهم المحاصيل الجزائريّة التي كانت تصدر بشكل كبير إلى تونس وحتى ليبيا².

✓ المنتوجات الصّوفيّة: من برانيس وجبب صوفية، حيث كان لها سوق رائجة بتونس، وتعتبر من الحرف المنزليّة التي مارسنها النّساء الجزائريّات من أجل إعانة أرباب بيوتهن³.

✓ الجلود المدبوغة: حيث كانت تدفع لها سنويا حوالي اثنين وثمانين ألف (82.000) جلد مدبوغ .

✓ الشّواشي الجزائريّة: كانت تحظى بطلب كبير للاستعمال اليومي، لكونها كانت أرخص سعراً من الشّواشي التّونسيّة ذات الجودة العالية⁴.

✓ الذهب: خاصة أثناء احتياج العملة التّونسيّة إليه في بدايات القرن السّابع عشر، كما استوردت تونس من الجزائر الحديد الصلب والسّمّن والجوز⁵.

3- 2 -الواردات الجزائريّة من تونس: من أهمّها:

المواد العطريّة - العقاقير والأدوية - الأسلحة والأقمشة الحريريّة - الكبريت⁶ - الخيوط المذهبة - مستلزمات الأعراس والتّجهيز المنزلي⁷ - الأقمشة والزّراي⁸ - الجلود المدبوغة والبلاغي (جمع بلغة حذاء جلدي)⁹.

¹-Féraud Charles: «Notes historiques sur la province de Constantine le ben Djellab ,Sultan de Touggourt», R. A ,VOL26, Alger , 1882, p.43.

²- محمّد الطمار: الرّوابط التّقافيّة بين الجزائر والخارج، ط1، الشّركة الوطنيّة للنشر والتّوزيع، الجزائر، 1983م، ص49.

³- أحمد بن الطّاهر منصوري: الدّر المرصوف في تاريخ سوف، دار الهدى للطباعة والنّشر والتّوزيع، عين مليلة - الجزائر، 2000م، ص52 .

⁴- محمّد العربي الرّبيري: المرجع السّابق، ص153.

⁵ - أحمد قاسم: إيالة تونس العثمانيّة على ضوء فتاوى ابن عظوم (1574 -1600م)، ط1، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، 2004م، ص314.

⁶- محمّد العربي الرّبيري: المرجع السّابق، ص153.

⁷- أحمد بن الطّاهر منصوري: المرجع السّابق، ص53.

⁸- نقولا زيادة: إفريقيا، دراسات في المغرب العربي والسّودان الغربي، ط1، الأهلية للنشر، بيروت، 2002م، ص59.

⁹- كريم بن يدر: الحرف والحرفيون بمدينة تونس خلال القرنين الثّامن عشر والتّاسع عشر، ط1، مركز النشر الجامعي، تونس، 2007م، ص255.

ولا نطوي صفحة تجارة القوافل بين القبائل الحدودية دون الإشارة لتجارة "الكنترة" التي شهدت رواجاً كبيراً جداً لدى متساكني الحدود، بفعل الحاجة الماسة للسلاح الذي يوفر لها الحماية في ميادين عديدة، كالغلال، والأفراد، والتُّجار، وللدفاع عن أحوازهم، وللتصدي للأعداء، وترى المؤرخة التُّونسيّة "فاطمة بن سليمان" بأنّ هذا اللون من التُّجارة يعتبر تحدياً صريحاً لقبائل الحدود لقرارات ترسيم الحدود من طرف المستعمر الفرنسي، حيث تقول: «..وهذا النّشاط المعبر بالكنترة هو تعبير عن عدم اعتراف بوجود حدود». من منطلق أنّ قرارات التّحديد لم تمنع القبائل الحدودية من التّكثيف مع إجراءات المراقبة وقرارات المنع المفروضة عنها، وذلك وفق نموذج يخدم مصالحها بدرجة أولى¹، وتتمثل السِّلَع المهربة في السِّلَاح، البارود²، التّبغ، موارد غايية كالخفاف، والدّبَاغ، والحبوب، والدّواب³.

وتكتنفت هذه التّجارة بصورة أشدّ بعد إقرار السُّلطات التُّونسيّة حرّية تجارة الكيف والسِّلَاح في الإيالة، التي كانت تتم على كامل الشّريط الحدودي من منطقة الجريد عبر مجال الفراشيش حتى منطقة خمير⁴.

رابعاً- الإغارات وأعمال النهب والسّطو على القوافل التجارية:

1- إغارات القبائل الحدودية على القوافل التجارية بين البلدين:

بالرّغم من فاعليّة وحيويّة التّبادل التجاري بين البلدين بشكل عام، وبين القبائل الحدودية بشكل خاص، إلّا أنّ الأعمال الإغارية التي كانت تشنّها قبائل الحدود على القوافل بغرض نهب حمولاتها أو من أجل الحصول على عوائد مالية كفديات للسلع المختلصة من طرفها، تعتبر من أهم المنغصات التي أثّرت بشدّة على علاقات التّبادل التجاري القائمة بين البلدين ككل، وتحوّلت المنطقة الحدودية على إثره إلى ما يشبه مسرح العمليات الإرهابية بفعل الهول الذي تُلحقه هذه الإغارات بالقوافل، ويصف العوامر⁵ هذا الرُّعب بقوله: «وكانت بينهم أيام يشيب منها الوليد»⁶، في حديثه عن أيام قوافل سوف التي تعرّضت للإغارة من طرف النّمامشة والهمامة على حدّ السّواء، لقد كانت مرحلة عصيبة من تاريخ سوف بفعل الملح الذي كان ينتاب أفراد القافلة وذويهم

1 - فاطمة بن سليمان: المرجع السّابق، ص317.

2 - إدريس رائسي: المرجع السّابق، ص153.

3 - فاطمة بن سليمان: المرجع السّابق، ص317.

4 - إدريس رائسي: المرجع السّابق، ص155.

5- إبراهيم العوامر: هو الشّيخ "إبراهيم بن مُحَمّد السّاسي بن إبراهيم بن مُحَمّد بن عامر" الملقب بـ"العوامر" ولد بالوادي 1295هـ/1881م، تلقى الدُّروس الابتدائية على بعض المعلمين القماريين ثمّ رحل إلى الجريد لأخذ العلوم من علمائها ليسجل بعدها التحاقها بصفوف الرُّبّونيين وهناك أخذ العلم على يد أبرز علمائها أمثال: الشّيخ "التّحيلي" والشّيخ "الأخضر بن الحسن"، تقلد عديد المناصب الهامة في سوف حيث عمل مفتياً بالمحكمة الشّرعيّة، للشّيخ عديد المؤلفات الهامة من أبرزها: "المسائل العامرية على مختصر الرّجّية في الميراث" وكتاب "مواهب الكافي على التبر الصّافي" وكتاب "الصُّروف في تاريخ الصّحراء وسوف". ينظر: سعد بن البشير العمارة: أعلام من سوف في الفقه والتّقاليد والأدب، جمعية الجماعة السّوفية، ط1، شركة مزوار للطباعة والنّشر والإشهار والتّوزيع-الوادي، الجزائر، 2009م، ص ص30-32.

6- إبراهيم العوامر: المصدر السّابق، ج2، و16.

وحتى سكان سوف اثر ذهاب قافلتهم لتونس، ويصور العوامر تحليلات هذا المشهد بقوله: «.. وامتنعت أهل سوف من الدّهاب إلى تونس خوفاً من قيام الهمامة على القوافل، وصار العير الذي تذهب إلى محل يحضرها جمع غفير من النّاس ينتحب، ومات الامر في ذلك الحين، ومع هذا فقلت أنّ تسلم في جميع الطّوارق الاختلاسيّة أو الجهريّة الهجوميّة فترى النّاس في الليل ينامون بعضاً ببعض من حين يفارقون العمران الشّوفاً وإذا رجعوا سالمين يصرخون البارود بقرب منازلهم لتلقاهم النّاس ويهنوهم بالسلامة من الأوبة...»¹.

هذا المشهد يصور لنا مقدار تأثير الرّعب الذي تخلّفه الإغارات في نفوس أفراد القافلة وذويهم، لدرجة إطلاق البارود تعبيرا عن البهجة والشّور لعودة أفراد القافلة سالمين، لأنّه كان ينتابهم شكٌّ في عدم رجوعهم أصلاً بفعل شدّة وهول تلك الإغارات، وما يقال عن قوافل سوف يقال عن بقية القوافل في كلا البلدين، بحكم أنّ هناك قبائل حدوديّة جزائريّة وتونسيّة كانت تقف من هذا النّشاط الإغاري الذي تحصد من ورائه غنائم جمّة، لذلك لم يشنّ التّهديد والوعيد الذي تسنّه السّلطتين الرّمّيتين عليها آنذاك من عزمها في مواصلة هذا النّشاط، بل استمرت فيه متحدية بذلك كافة محاولات المنع، باعتبار أنّه أحد الأنشطة الاقتصاديّة التي تعيش عليها هذه القبائل، وإذا توقّفت لمرات بفعل ازدياد الضّغط من طرف السّلطة عليها، فإنّها سرعان ما تعود لمزاولته من جديد².

لقد أصبح النّشاط الإغاري سجية وعادة متأصلة فيها كان الهدف من ورائه تحصيل الرّيح السّريع عن طريق افنكاك سلع وحمولات تلك القوافل خاصة أثناء فترة الصّنك التي تحتاحها، في فترة ندرة المحاصيل وتراجع أعداد الأغنام بفعل الجوائح³، فقبائل الحدود التونسيّة على غرار القبائل الحدود الجزائريّة عانت الأمرين في منتصف القرن التّاسع عشر نظراً للازمة الاقتصاديّة التي عصفت بتراب الإيالة التونسيّة، والتي أثّرت سلباً على مردوديتها في مختلف النّواحي، هذه الأزمة التي جاءت بفعل ازدياد الهجمة الأوروبيّة من النّاحيتين الاقتصاديّة والعسكريّة للقضاء على القرصنة وبهدف الحصول على امتيازات تجاريّة أفضل لرعيها الأوروبيين⁴.

هذا الأمر نتج عنه انخفاضاً في أسعار المنتوجات التّصديريّة كالزيت والحبوب والشّاشيّة وغيرها، الشّيء الذي تسبّب في إحداث خلل في الميزان التّجاري بفعل ارتفاع قيمة الواردات على حساب الصّادات، ولتعويض هذا العجز توجه حكام الإيالة إلى إثقال كاهل السّكان بالضّرائب المثقلة، لتسهم الكوارث الطّبيعيّة التي اجتاحت حياة هؤلاء وتأثيرها عليهم من الوجهتين الاقتصاديّة والاجتماعيّة، وتلك الاضطرابات التّقديّة والاضطرابات السّياسية في الدّفع بهم للتصدي للباي، فاندلعت عديد الانتفاضات الشّعبية التي عمّت البلاد

¹ -المصدر نفسه، ج2، و17.

² - إبراهيم العوامر: المصدر السّابق، ج2، و17.

³ - إدريس رائسي: المرجع السّابق، ص ص129 - 130.

⁴ - عبد الحميد هنية: تونس العثمانيّة، المرجع السّابق، ص ص208 - 210.

بكاملها ضد الباي، ومما ليكه، وسياسته الجبائية وإصلاحاته¹، ولكن مع فشل هذه المقاومات وما أعقبها من قمع، يضاف إليها تتالي المواسم الفلاحية السيئة، ثم انتشار الكوليرا سنة (1849-1850م)، والجماعة سنة 1867م، التي تسببت في ازدياد معاناة المجتمع التونسي برمته بما فيه قبائل الحدود التي لم ترى مخرجاً من هذا المأزق الذي تتخبط فيه، إلا عن طريق الإغارة على القوافل من باب تعويض العجز الاقتصادي الذي ضرب كيانها²، وهو الوضع ذاته تقريباً كانت تتخبط فيه القبائل الحدودية الجزائرية إثر تحويل نمط اقتصادها من اقتصادي جماعي إلى اقتصاد الملكية الفردية، بعد إقدام المستعمر الفرنسي على تفكيك البنى القبلية وتعويضها بوحدات إدارية غير متجانسة اجتماعياً، ما أثر على عيشهم، أين انتقل بهم من اقتصاد كان يكفل حاجتهم، إلى اقتصاد جوع يقتصر عمله على تسويق المنتجات للبلد المستعمر، بعد شروعه في تنفيذ مخطّطه الاستعماري الذي تمكّن بواسطته من الانقضاء على أرزاق هؤلاء، عبر افتكاك أراضيهم التي كانت مصدر قوتهم، ثم تقليص المساحات الرعوية المخصّصة لرعي أغنامهم، الأمر الذي سهّل من سقوطهم لقمة سائقة في شرك الجوائح والكوارث الطبيعية في ظلّ انخراط التوازنات الاقتصادية السابقة لوجود الاستعمار الفرنسي هذا من جانب³، ومن جانب آخر جاءت الإغارات كرد فعل انتقامي للإغارة المشنة من الطرف المقابل، دون أن نغفل دور المستعمر في افتعال أو التحريض على مثل هذه المناوشات، التي يسعى من خلالها إلى إبعاد أيّ احتمالية قيام تكتّل أو تحالف جزائري وتونسي يُهدّد وجوده في الجزائر هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجد أنّ افتعاله للمناوشات كان الهدف من ورائها هو إيجاد مسوغات لتوسعه في التراب التونسي، ولعلّ هذا ما يفسر الموقف السلبي للسلطة التونسية في سكوتها عن شكاوي رعيها من القبائل الحدودية، كي لا تجده فرنسا ذريعة لمُدّ يدها على التراب التونسي⁴، ومنه الإغارات بين قبائل البلدين التي كانت بين حركتي مد وجزر لا تنتهيان إلا لفترة مؤقتة ثم تستأنف من جديد، هذا الصّراع الذي كان موجوداً حتى إبان الحقبة العثمانية كغارة أحد عشائر التمامشة على حجيج "فاس" عام 1164هـ/1750-1751م بعد امتناعهم من أداء ما عليهم من رسوم للسلطة التونسية لتردداتهم المستمرة على أسواق الجريد، الشّيء الذي دفع بحاكم تونس "علي التركي"⁵ لتسيير حملة انتقامية على هؤلاء نزولاً عند طلب الحجاج، ولكي يسترجع لهم ما سلبه التمامشة من خيل وابل وأحمال وأموال⁶، يروي "حمودة باشا" صاحب كتاب (الباشي) حيثيات هذه الغارة بقوله: «وأنّه أيدّه الله لم يزل مقيماً

1 - مُحمّد الهادي الشّريف: تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تع: مُحمّد الشّاوش و مُحمّد عجينة، ط3، دار سراس للنشر، تونس، 1993م، ص98.

2 - إدريس رائسي: المرجع السّابق، صص 135-137.

3 - الهواري عدي: المرجع السّابق، ص78.

4 - إدريس رائسي: المرجع السّابق، ص104.

5 - علي باشا التركي: هو ابن أخ "حسين باي"، نشأ في تربية عمّه وكفالاته وتخرجه، إلى أن أبقى أمر المملكة إليه، ولم يكن له من الولد ما يشدّ عضده، فأراد الاستكتار ببن أخيه، فخلع عليه وأولاه سفر الأحمال وسّمّاه "باباً" وزوجه بابنة كاهيته "علي بن مامي" التي انجبت له أولاده يونس ومُحمّد وسليمان وأختهم زينب. ينظر: حمودة عبد العزيز: تاريخ حمودة عبد العزيز (مخ)، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، و 155-156.

6 - ناصر الدين سعيدوني: المرجع السّابق، ص473.

معهم بمساكنهم من الرّاب إلى ضاحية قسنطينة فكان "علي باشا" لذلك شديد البغضاء لهم والحقد عليهم وكانت عليهم إتاوة من غنم يؤدونها لصاحب تونس لأجل تسويقهم بالجريد وغيرها من عمله فمنعوا عليه سنين، ثم لما كانت سنة أربع وستين تعرضوا لركب الحجاج الفاسي في حال تشريفه وعاثوا فيه واخذوا منه خيلاً وإبلًا وأحمالاً بضروب الأمتعة جملة، ومن جملة ما أخذوا سجادة داخلها إدانات كثيرة من التبر والدنانير والجواهر لجماعة من التُّجار، فامتألت أيديهم من أموال الحاج وتوزعوه بينهم، وأقبل الأخير موت من الحاج إلى تونس ورفعوا أمرهم إلى "علي باشا" فوعدهم باسترداد أموالهم من أيدي اللمامشة، واستدعى "شئوف الصُّولي" و"مُحمَّد بن الحاج" أحد مشايخ "الخنقة"، والشَّيخ الفقيه "أحمد التليلي" صاحب "فريانة"، وأرسلهم اليهم ليستردوا أموال الحجاج وامتنعوا وغلظوا في الفرّ فكتبوا بذلك إلى "أحمد علي باشا" فامتعض لذلك وعزم على غزوهم وازاح علل عساكره وجنوده وخرج في محلّة عظيمة وواكب جميع "المزراقية" من "دريد" و"أولاد سعيد" و"السَّواسي" وسائر "المزراقية" ...»¹.

ومن خلال هذا النص يتبيّن لنا أنّ الأعمال الإغاريّة كانت موجودة حتى أثناء فترة الحكم العثماني، أمّا المميز في الفترة الاستعماريّة هو ازدياد وتيرتها بفعل ولوج القبائل لمرحلة جديدة قائمة على ترسيم الحدود الترابية بين مجالي قبائل البلدين، ومدى تأثير هذا المتغير على صيرورة النشاط أو حركيّة التّواصل بين القبائل الحدودية في شتى المجالات بما فيها المجال الاقتصادي على وجه الخصوص، عبر إرساء المستعمر لمبدأ الحدود الحاجزة (*barrière*) الفاصلة بين كيانين، لكل منهما هويته وذلك من خلال إحلال مبدأ التّجاور (*contiguïté*) بدل مبدأ التّواصل (*continuité*) الذي كان سائداً في المجال الحدودي، وبهذا تمكن من إخضاع جلّ الشبكات التبادلية للمراقبة، مما تسبب في الإحلال بالتّوازنات القبليّة التي كان قائمة وبنمط العيش الذي كان سائداً، وهو ما دفع بالقبائل الحدودية لمقاومة هذا الوضع بأشكال مختلفة، وما السطو على القوافل التّجاريّة وتواصل الأعمال الإغاريّة إلّا أحد صوره².

وعلى كلّ فعلاقات القبائل الحدودية الجزائرية عرفت توتراً بجيرانهم ازدادت حدّته مع مجيء الاستعمار الفرنسي الذي حاول ترسيم الحدود بين البلدين خاصة مع النّصف الثّاني من القرن التاسع عشر، واتسعت فجوة الخلاف والشّقاق أكثر بفعل محاولات القبائل الجزائريّة والتّونسيّة فرض سيطرتها على مجالاتها وسعيهم لإجلاء الطّرف الآخر خارج مجال حدودهم، الأمر الذي جعل المجال الحدودي عرضة للفضي و اللأمن بفعل تعدّد العمليات الإغاريّة التي تتعرض لها القوافل التّجاريّة للقبائل الحدودية الجزائريّة والتّونسيّة على حدّ السّواء³.

¹ - محمود عبد العزيز: المصدر السّابق، و 309-310.

² - ومن صور المقاومة أيضاً الهجوم على مراكز المراقبة كهجوم "خمير" عام 1862م، والتفاف العروش حول المتمردين على الجيش الفرنسي كالحسنوي قائد الحاناشة. ينظر: فاطمة بن سليمان: المرجع السّابق، ص 312-313.

³ - إدريس رئاسي: المرجع السّابق، ص 121.

1 - 1 - نماذج من إغارات القبائل الحدودية الجزائرية على القوافل التجارية للقبائل التونسية:

لقد تحولت المناطق البعيدة عن مراكز السلطة ونفوذها ك: "فرکان" و"نقرين" لمراكز لجماعات النهب وقطاع الطُّرق، الذين تمركزوا هناك في مجموعات كبيرة للانقضاض على كلِّ عابرٍ سبيل، ولأنَّه لم يكن هناك أيُّ أثرٍ للسلطة الفرنسيَّة في هاتين الواحيتين التَّابعتين لقيادة "البراشة"، تحولت هذه المنطقة ملجأً لكافة العناصر المتمرِّدة، مما اضطر التمامشة في رحلتهم كل شتاء باتجاه الصَّحراء إلى التَّزود بالحيطه والحذر الكبيرين، وكانوا في حالة تآهب عسكري تام لصعوبة مرور القوافل المتقلِّلة عبر تلك الجهة بسلام، إذ لم تكن مصحوبة بفرق القوم، ولأنَّ إدارة الاحتلال مازالت على جهل بتلك المنطقة إلى غاية سنة 1862م، فقد كانت ترغب بشدَّة في ضمِّها لأنَّه من خلالها ستتمكن من مدِّ نفوذها نحو الصَّحراء، غير أنَّ السُّلطات العليا كانت تتخوَّف من خطر المجازفة في الدَّهَاب لتلك المنطقة، حيث يقول "كاستيل": «ولا تزال الأوامر الصَّادرة من الجهات العليا تمنع على الضُّباط المجازفة بالتَّنقل إليها في ذلك الحين... لا توجد قوة عسكرية تجرؤ إلى الدَّهَاب إليهم»¹.

وعلى هذه الشَّاکلة كانت القوافل التُّونسيَّة عُرضة هي الأخرى للغارات من طرف القبائل المارة بحدودها، حيث تعرضت قافلة "أولاد علي" المارة على الطُّرق القريبة من الحدود في اتجاه بلاد الجريد للإغارة من طرف قايد التمامشة سنة 1278هـ، وتعرَّض بدورهم عرش "أولاد وزاز" من قبيلة الفراشيش لإغارة من "سليمان بن عبيد" من عمالة الجزائر، ونهبوا لهم فيها نحو سبعة جمال مع ثور محمَّلٍ بالطَّعام، أمَّا في الغارة الأولى المشار إليها سلفاً فتَمَّ نهب اثنين وأربعين 42 بعيراً محمَّلين بالطَّعام من قمح وشعير، وقتلوا لهم إحدى عشر 11 رجلاً، لأن الإغارة تحوَّلت إلى مواجهة قتاليَّة بين الطُّرفين الجزائري والتُّونسي².

وعليه يتبيَّن أنَّ النِّشاط الإغاري كان متواتراً بين القبائل الحدودية فتارة تغير القبائل الجزائرية على القوافل التُّونسيَّة وتارة أخرى يكون العكس، أين تغير القبائل الحدودية التُّونسيَّة على القوافل الجزائرية المارة بمجالات تلك القبائل، وهو ما تسبب في إحداث فوضى ولا استقرار على طول الشَّريط الحدودي، وأضحت القوافل فيه مُهدَّدة بانتهاك حمولاتها، وأحياناً أخرى بانتهاك أرواح أفرادها الذين كثيراً ما كانوا يدخلون في مجاهات قتاليَّة مع المغيرين للدِّفاع والدُّود عن ممتلكاتهم وأرزاقهم، ولعل هذا ما يفسر القلق الذي كانت تبديه السُّلطتين الاستعماريَّة والتُّونسيَّة حيال تفشي هذه الظَّاهرة التي صعب عليهم وضع حدِّ نهائي لها، فيظل استمرار القبائل الحدودية بالرَّغم من كلِّ التَّهديدات بحكم طبيعة القبائل المحاربة المجبولة على هذا النِّشاط الحربي الذي تُحقِّق من ورائه أغراضاً شتَّى، تتراوح بين السَّيطرة على المسالك التَّجاريَّة وحماية القطيع أثناء التَّرحال واسترجاع ما

¹ - بيار كاستيل: المصدر السَّابق، ص 231-232.

² - إدريس رائسي: المرجع السَّابق، ص 122.

اغتصب منها من قبائل أخرى، وللإغارة ضد قبيلة معادية لها وغيرها من الأنشطة الحربيّة التي تكفل الحماية لها¹؛ لذلك لا غرابة أن لا يثنّ التّهديد والوعيد من عزم القبائل في مواصلة هذا النّشاط الحربي.

1 - 2 - نماذج من إغارات القبائل الحدوديّة التّونسيّة على القوافل التّجاريّة للقبائل الجزائريّة:

تعرضت القوافل التّجاريّة للقبائل الحدوديّة الجزائريّة المارة بالحدود التّونسيّة للإغارة من طرف القبائل الحدوديّة التّونسيّة، خاصة من طرف قبائل الفراشيش إبان مرورهم بمجالهم الأمر أدى إلى نشوب خلافات بين القبائل الحدوديّة، ورغم تدخل سلطة البايك في فرض عقوبات زجرية وماليّة قاسية على القبائل المغيرة بهدف تأمين الطّرق التّجاريّة، بالإضافة إلى حرصها على تعزيز الأمن أكثر، عبر تشييد أبراج مراقبة² داخل مجال الفراشيش، ك: "برج حيدرة" و"الطبّاقة" بأرض "الحواظ"، و"برج بودرياس" بأولاد ناجي، إلّا أنّ ذلك لم يجد نفعاً بحكم محدوديّة نفوذ السّلطة في المجموعات القبليّة، خصوصاً وأنّ القياد كانوا متواطئين أيضاً فيما يحدث من عمليات إغاريّة³.

بدورها قوافل وادي سوف تعرّضت للنهب مجدّداً من طرف "الهمامة" خلال مرورهم في الصّحراء الممتدة بين سوف والجريد، والتي أسفرت على سقوط قتلى من أفراد القافلة السّوفية حسب ما هو مبين في نص مراسلة القنصل للوزير الأكبر التّونسي والتي جاء فيها:

«الحمد لله. تعريب مكتوب من قنصل فرانسنا لجناب الوزير الأكبر، مؤرخ في 3 يناير 1881م.

أمّا بعد فإنّ حاكم عموم الجزائر قد دعاني للتنسيق فيما هو واقع الآن من الحالة المذكورة بالحدود التّونسيّة القبليّة...هاته المدّة جيوش من الهمامة بخيول، دخلوا الصّحراء بين سوف والجريد وقتلوا زوج انفار مسافرين بشك كميّة والحاصل أنّ الرّاحة تلك الجهة مفقودة وفي هاته المدّة الأخيرة 14 عدة أنفار من "أولاد رشاش" قد ذهبوا لشراء التّمر من الجريد وعند سفرهم تعطلوا خمسة أيام حتى يسيروا مع قافلة سوف ومدّة سيرهم في خيل توانسة تتبع أمرهم وكان قصدهم الفساد ولم يخلوا عنهم إلّا بقرب الحدادة الجزائرية ورجائي من جنابكم يعلم في قرار محلّة الدّولة الحضارة العليّة في انقطاع هاته الحالة المودية لوقوع الخطر المستمر لبعض عروشنا إلخ معهم رستان يكتب لعامل الجريد أعمال الهمامة. جناب القنصل»⁴.

¹ - عبد الحميد هنية: تونس العثمانيّة المرجع السّابق، ص 39.

² - تشييد الدّولة لأبراج مراقبة يدخل ضمن الإستراتيجية الأمنيّة التي اتخذتها الدّولة في عهد "محمّد الصّادق باي" إثر الاضطرابات التي عرفتها البلاد التّونسيّة خلال ثورة 1864م والأدوار الفعّالة التي أدتها المجموعات القبليّة في احتضان وتدعيم هكذا ثورات، وكذا مقاومات، يضاف إليها تصاعد الخطر الفرنسي انطلاقاً من الجزائر والذي بات يهدّد الحدود الغربيّة لتونس، خاصة بعد تأمين فرنسا للشريط الشّرقى لاحتلالها كلاً من قسنطينة عام 1837م، وتبسة سنة 1843م، وإحضاع قبيلتي "الحنانشة" و"التماشة" المتاخمتين لمجال "الفراشيش" لنفوذها وسلطانها. ينظر: الأزهر الماجري: قبائل ماجر والفراشيش، المرجع السّابق، ص 465.

³ - إدريس رائي: المرجع السّابق، ص 123 - 124.

⁴ - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 81. ينظر الملحق رقم (16)

2- أعمال النَّهْبِ والسُّطُو بين القبائل الحدودية:

تترجم تراجع الوضع الاقتصادي الذي آلت إليه حالة البلدين والذي أضحى يشكل خطراً على علاقات القبائل الحدودية، من خلال تلك الأعمال الإغارية الضَّارِبَة في عمق القبائل، والمستمرَّة عبر الزَّمن، رغم كلِّ محاولات السُّلْطَتَيْنِ لكفِّ القبائل عنها، مما يعطي دلالة واضحة على حالة التَّصَدُّع العام الذي ضرب عمق الاقتصاد والمجتمع الجزائري والتُّونسي آنذاك، فراحَت القبائل تغيّر عن بعضها البعض، بل وتنهَب بعضها البعض في سبيل تحصيل موارد اقتصادية في ظلِّ فقدان التَّوازن الاقتصادي الذي تراجعت أسسه بفعل السَّيطرة الاستعمارية، وأصبحت الحدود منتهكة وعصابات النَّهْب لا تكف عن غاراتها المستمرة والدَّائمة¹، والمسروقات من القبائل من جراء هذه الأعمال الإغارية توضح لنا حجم الانحطاط الاقتصادي الذي وصلت إليه حالة القبائل الحدودية، فأتناء استقراءنا لبعض الوثائق تبين أنَّ جلَّ المسروقات المثبتة هي عبارة عن محاصيل زراعية كالقمح والشَّعير والتَّمْر، وكذا الحيوانات بمختلف أصنافها، كالأغنام والأبقار والبغال والخيول والجياد، وأدوات منزلية، وخيام وأثاث وحلي وملابس ونقود؛ فالقبائل كانت تفتكُ كلما تفتقره وما هي في حاجة ماسة إليه².

2 - 1 - أعمال النَّهْبِ والسُّطُو التي طالت القبائل الحدودية الجزائرية:

وفي ظلِّ تراجع الوضع الاقتصادي لجأت القبائل الحدودية لممارسة نشاط السُّطُو والنَّهْب لتحصيل موارد اقتصادية بديلة عن طريقه، ف"أولاد رشاش" مثلاً تعرضوا إلى النَّهْب أربع مرات، سُلِب لهم خلالها 300 رأس من الإبل و8000 رأس من الغنم، ومثلهم تعرض "أولاد سيدي يحيى بن طالب" للنَّهْب ثلاث مرَّات، سُلِب لهم فيها 4000 رأس من الغنم و 100 رأس من الإبل، وتعرَّضت جهات "تنوكلة" والصَّحراء للعديد من أعمال النَّهْب خلال سنة 1862م من طرف "أولاد وزاس" من قبيلة الفراشيش³.

وحول المنهوبات التي طالت "أولاد يحيى" من طرف "الزَّغامة"⁴ أرسل الجنرال "راندون" حاكم عنابة وسائر عمالتها بياناً لـ"صالح بن مُحمَّد" كاهية"الكاف"، يطالبه فيها بسداد منهوبات رعاياه والتي تتكون من 11 بعير و2 بغال وحمار، افتكَّها "الزَّغامة" للشيخ "بوقرة"، وهي تخصُّ "أولاد يحيى بن طالب". وهذا نص الوثيقة التي جاء فيها:

¹ - إدريس رائسي: المرجع السابق، ص 126.

² - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 201. والحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 203 - 204. ينظر الملحق رقم (17)

³ - بيار كاستيل: المصدر السابق، ص 222 - 223.

⁴ - الزَّغامة: يحتل أن يكونوا من أصل بربري ومن أقدم من أستوطن في الرُّبوع، وقد يكون جدُّهم الأول الزَّغالمي - من الأتباع المقربين للولي "حليفة المحمدي" الذي قد يكون استقر بالمنطقة منذ القرن السَّادس عشر قادمًا من المغرب، وهو مؤسس عرش "أولاد مُحمَّد بن حليفة" وقد اندمج في عرش "الزَّغامة" الذي يضم أيضاً فروعاً من "ماجر" و"أولاد عون" من "الخمامسة". وكان تاريخ "الزَّغامة" شديد الارتباط بسائر عروش "ونيفة" وخاصة "أولاد بوغانم". ينظر: علي الحباشي: المرجع السابق، ص 18.

«.. وبهذا الموجب نطلب الجزء التَّالِي: نطلب منك ترسي الحق إلى رعيتي أحد عشرة بعير وزوج بغال وإهيم خنبوهم" الرِّغَالمة" من عند الشَّيخ "بوقرة" امتاع "أولاد يحيى بن طالب"، وراه "مُحمَّد بن علي بن سميذ" الذي ارسلته لي عند العلم في هذه القضية والسَّلام»¹.

و أعمال النَّهب لم تقتصر على القبائل الحدودية، بل طالت حتى أملاك المعمرين² المارة بجهة "القاله"، فقدم الاعتداء عليهم من طرف عصابات من "خمير" بتاريخ: 26 جانفي 1881م وهذا نص الوثيقة:

«الحمد لله. تعريب مكتوب لجناب المولى الوزير الأكبر سيدي مصطفى وزير الأمور الخارجية دام عزه ويقاه من القنصل جنرال ومكلف بأمر دولة فرنسا في 14 فبراير سنة 1881م.

أمَّا بعد فإن عامل عموم الجزائر أخبرني بعامة وقوع تعدي بالحدود من أنفار توانسة، وحصل ضرر غير معتاد على من وقع عليه التَّعدي وهو أنه في السَّادس والعشرين من شهر يناير الماضي عند مرور صناديق الأمير بلاي الثالث بعسكر التريبور هجم عليه أربعة أنفار من "خمير" قطاع الطَّرِيق، وذلك عندما وصلوا لطريق أحمار الموصول لرحل السُّوق بمسافة ثلاثة كيلومتر ونصف عن "برج القالاه" فوجد خرج وصندوق وشكارة جلد مكسرة اقلها بعد أن فرغوهم من الأثاث وأن الأنفار المذكورين أخذوا ماكان فيها من الأثاث واخذوا معهم نفرين وزوج بغال، ثم أتهم اطلقوا نفر من النَّفرين المذكورين بالحدود، وكلما يلزمني أن الحَّ على جنابكم الرِّفيع في التَّعريف بأهمية هاته النَّازلة التي أخبروني بها، ولا شك في كون جنابكم يبادر بصدور الإذن إلى الموظف التُّونسي الموجود الآن في الجمعيَّة المكلفة بنوزال الحدود حتى يعمل غاية البحث في هاته النَّازلة الصَّادرة في قطاع الطَّرِيق الح³».

من خلال الوثيقة السَّابقة يتضح أنَّ الهدف الأساس من العمليات الإغارية هو النَّهب وجني مردود المنهوبات من ورائه، بحيث لم يُفرَّق المعمرين بينما هو ملك خاص بالقبائل، وبين ما هي أملاك خاصة بالمعمرين هذا من جهة، ومن جهة أخرى تبين لنا أهمية هذا النشاط لكونه أحد بؤر الضَّغط على السُّلطات وأحد بؤر توتر وتصدع العلاقات بينهما، فخصَّصت له خلية خاصة مكلفة بتدوين مراسلات نوازل الحدود في الإيالة التُّونسية حسبما ما هو مبين في نص الوثيقة أعلاه والتي جاء ذكرها بـ: "الجمعيَّة المكلفة بنوازل الحدود"، مما يعطي لنا دلالة واضحة بكثرة هذه النوازل وبضخامة هذه المراسلات التي تطرقت لهذا الشَّأن، ومن الغريب في الأمر أن تُؤدي الرُّوايا دوراً هاماً في مثل هكذا أنشطة عبر حمايتها وإيوائها للمتمردين والسُّراق، كالذَّور الذي قامت به زاوية نفطة في إيواء الجناة، لأنَّ كل من يختمى بجرم الرُّوايا يمنع من ملاحقة السُّلطات بسبب احتمائه بها⁴، وعن دور الرُّوايا يذكر "كاستيل" في هذا الشَّأن قصة أولاد "سيدي عبيد" واحتمائهم بضريح

1 - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 236، الوثيقة 161. المقطع كتب على اليسرى من جنب الوثيقة.

2 - إدريس رائسي: المرجع السَّابق، ص 126.

3 - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 89.

4 - إدريس رائسي: المرجع السَّابق، ص 88.

الفصل الثَّانِي مظاهر التَّفَاعُلِ الاقتصاديِّ بين القبائل الحدودية ونتائجها

الولي الصَّالح "سيدي عبيد" الذي كفل لهم الحماية الكاملة من الغارات المتكررة للناماشة والهمامة في قوله: «وعلى ضفاف "واد قنتيس" وقد احتفى الجميع بالطبيعة وبضريح الولي الصالح "سيدي عبيد" من غارات الفراشيش والناماشة والهمامة وعاشت قرية "سيدي عبيد" في سلم دائم مما يجسد لنا مدى تعلق القبائل بالأزرحة واعتقادهم في دفعها الضرر عنهم حتى وان كانت غارات شديدة الوطأة بحجم غارات الهمامة»¹.

وضمن سياق الإغارات نسوق عينات من الوثائق التي تحوي مطالب عروش جزائرية من العروش التونسية المجاورة لها، إعادة المنهوبات. ففي البيان التالي من الوثيقة 2141² جاء:

بيان قيمة اعتداء عروش تونسية على العروش الجزائرية المجاورين والتي احتوت جملة المسروقات حيوانات مختلفة الأجناس، ودوايا (ديبات) أموات، ومحاصيل وقدر ثمن المنهوب بخمسة وستين ألف فرنك.

من خلال محتوى الوثيقة نلاحظ أنَّ المسروقات لم تقتصر على الحيوانات فقط، بل طالت حتى المحاصيل، بالإضافة لتضمنها لقيمة دوايا الأموات الذين سقطوا دفاعاً عن أرضهم وممتلكاتهم، لتثير هذه السرقات حفيظة السلطات الفرنسية التي اعتبرت الأمر تعدياً عن سلطانها ونفوذها وحملت تبعات كافة ما يجري للسلطات التونسية التي تراخت في علاج الأزمة ورغم اقتناع السلطة الاستعمارية بأنَّ السلطة التونسية لن تستطيع منع عمليات النشاط الإغاري أو السرقة والتعديات الحاصلة بين الفراشيش وجيرانهم من القبائل الحدودية الجزائرية، مع ذلك لم تتردد مرة في مراسلتها وتحميلها كافة تبعات تغاضيها المتكرر على مثل هكذا أعمال³، وترى سلطة الاحتلال أنَّ هذا التَّراخي هو الذي أدى بهذه القبائل للتمادي في صنعها هذا؛ يمثل ما هو موضع في النَّص التالي:

«الحمد لله. تعريب مكتوب من قنصل فرانساجناب الوزير الأكبر مؤرخ في 17 يناير 1881م.

أمَّا بعد فإنَّ عرش "وشتاتة" قد تشكَّت منه مراراً فيما يفعلونه من الإغارة فلم يعد مجدياً وهو تهادى الآن بالقتل والنَّهب وغير خوف براحة تامة من عمال الدولة التونسية وحاكم عموم الجزائر قد أخبرني بأنَّ جماعة من وشتاتة نحو ثمانية أنفار قد هجموا في 21 ديسمبر الفارط على جماعة من السُّراح من دوار "القداد" بعمل القايد وهم سارحون بسعيهم بقرب الحدادة بمكان يسمى "الخيرة" وقد كان السُّراح المذكورين متسلحين فتعرضواهم بالسُّلاح المذكور ودافعوا على أنفسهم لكن قُتل منهم نفر، وفي الشَّهر المذكور ستَّة أنفار أيضاً هجموا على سعي لدوار كبير "صالح بن عبد القادر" من "أولاد ريشيام" من عمل سوق أهراس وأخذوا لهم 39 عدد رؤوس من سعيهم وكتفوا السُّراح وهم "بلقاسمي بن نوار" و"العباس بن حمودة" ورجعوهما لعين ديسها ثم هناك سرحوهما فرَّ الكتاف بعد ما سلبوهما من لباسهما فذهبت السُّراح المذكورة حالا...واعلموا حاكم

¹ - بيار كاستيل: المصدر السابق، ص 290

² - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245.

³ - إدريس رائسي: المرجع السابق، ص 127.

...وفي الحين ركب الحاكم المذكور فرساً مع بعض الصَّبَائِحِيَّةِ لِيَتِمَكَّنُوا عَلَى الْفَارِينِ فَلَمْ يَظْفَرُوا بِهِمْ وَقَاتِ السُّرَاحِ الْمَذْكُورِينَ رَسَمَ عَرَفُوا مِنَ الْفَارِينِ "أَحْمَدَ الشَّرْفِيَّ" وَ"مُحَمَّدَ سِيكَ" وَالْاِثْنَيْنِ مِنْ عَرَشِ "بَنِي صَالِحٍ" وَهَارِبِينَ عِنْدَ وَ"شَتَاتَةَ" وَ"وَلِدَ بُوَزِيَانَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ" مِنْ وَشَتَاتَةَ، وَيَقْتَضِي الْيَوْمَ أَيُّ أَطْلَبَ مِنْ جَنَابِكُمْ أَنْ يَحَدَّ الْحَكْمَ عَلَى أَصْحَابِ الْجَنَائِيَّاتِ الْمَذْكُورَةَ وَلَا نَطْلُبُ مِنْهُمْ أَكْثَرَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ بِإِعَادَةِ الْمَلَاخِظَاتِ الَّتِي كَرَّرْتَ فِيهَا مِائَةَ مَرَّةٍ عَلَى لُزُومِ رَسْمِيَا هَاتِهِ عَمُومِ طَاعَةِ تِلْكَ الْعُرُوشِ بِالْحُدُودِ وَمَكَاتِبِي السَّابِقَةِ الْغَيْرِ الْمَقِيدَةِ فِي النَّازِلَةِ الْمَذْكُورَةَ تَحْمَلْنِي عَلَى أَنْ لَا أَرْجِعَ فِي الْكَلَامِ... وَلَكِنْ نَبْغِي لِنَفْسِي السُّكُوتَ فِي الْكَيْفِيَّةِ الَّتِي تَرَاهَا دَوْلَتِي فِي هَاتِهِ الْحَالَةِ إِخ. مترجم رستان»¹.

لترتفع نبرة اللوم من طرف السلطات الفرنسية² لبعض المسؤولين في الحاضرة التُّونِسِيَّةِ إِلَى دَرَجَةِ اتِّهَامِهِمْ بِالْعِجْزِ وَالتَّقْصِيرِ فِي أَدَاءِ وَاجِبَاتِهِمْ، بَعْدَ عَمَلِيَةِ الْاِعْتِدَاءِ الَّتِي طَالَتْ رِعَايَا جَزَائِرِيِّينَ مِنْ طَرَفِ عُنَاصِرٍ مِنْ وَشَتَاتَةَ أَدَّتْ إِلَى سَلْبِ عَدَدٍ مِنْ أَعْنَامٍ وَأَبْقَارِ الرِّعَايَا الْجَزَائِرِيِّينَ مِنْ طَرَفِ عَصَابَاتِ النَّهْبِ الْوَشْتَاتِيَّةِ، كَمَا هُوَ مَبِينٌ فِي الْوَيْثِيقَةِ التَّالِيَةِ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَلَا مَعْبُودَ سِوَاهُ.

الآجَلِ الْاِبْجَلِ الْهَمَامِ الْمَوْقِرِ الْأَسْعَدِ السَّيِّدِ "حَسُونَةَ بْنَ سَلِيمَانَ" قَائِدِ "الْفَوَايِدِ"³ وَ"شَقِطْمَةَ"⁴ مِنْ "مَاجِرِ" السَّلَامِ عَلَيْكَ مَعَ دَوَامِ الرَّحْمَةِ فِي حَالَتَيْنِ السُّكُونِ وَالْحَرَكَةِ، كَيْفَ أَنْتَ وَكَيْفَ أَحْوَالِكَ الْمُرْضِيَّةِ الَّتِي اجْرَاهُ اللَّهُ عَلَى وَفْقِ مَرَادِنَا وَمَرَادِكُمْ، وَبَعْدَهَا نَعْرِفُكَ فِي جَرِيْمَتَيْنِ ارْتَكَبُوهُمَا جِيَاشَةَ مِنْ "وَشَتَاتَةَ الطَّرَايِدِ" أَنَّ لَيْلَةَ الْأَحَدِ 13 فِي الشَّهْرِ تَارِيخِ الْأَنْفَارِ الْأَتِي ذَكَرَهُمْ وَهُمْ: "بَلْحَسَنِ وَوَلِدِ السَّكُومِي" وَ"أَحْمَدَ شَلِيْبِي بْنِ عَلِيٍّ جَرِيْبِي" وَ"وَلِدِ اِرْحِيمِ بْنِ عِمَارَةَ" تَعَدُّوا الرَّسْمَ الْمَذْكُورَ وَقَصَدُوا دَوَارَ الشَّيْخِ "صَالِحِ بْنِ خَضِرٍ" وَنَهَبُوا بِقَرْتَيْنِ إِلَى الشَّيْخِ الْمَذْكُورِ وَثَلَاثَةَ ثِيْرَانٍ لِلْحَاجِّ "أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدٍ" مِنْ "أَوْلَادِ مَسْعُودٍ" وَتَوَجَّهَ أَمْسَ تَارِيخِ 13 رَجُلٍ مِنْ دَوَارِ الشَّيْخِ الْمَذْكُورِ وَجَدُوا الْخَمْسَةَ رُؤُوسَ بَقَرٍ عِنْدَ اللَّصُوصِ الْمَذْكُورِينَ، وَثَانِيًا أَنَّ أَمْسَ يَوْمِ الْأَحَدِ تَعَدَّ الرَّسْمَ بِقَرَبِ "سَرِيَانَةَ" مُحَمَّدَ وَوَلِدَ بُوَزِيَانَ بْنَ جَابِ اللَّهِ" وَ"وَلِدَ الْعِمَارِ بْنِ عَمْرِ" مِنْ "الطَّرَايِدِ" وَخَطَفَ كَبْشَيْنِ وَضَرَبَ بِوَجْهَيْنِ بَرُودِ النَّفْرِ الْمَسْمِيِّ "الرَّمَاخِي بْنِ بَلْقَاسِمِ" الَّذِي تَعَرَّضَ إِلَيْهِمَا حَتَّى إِلَى الْحَدَادَةِ، فَهَذَا كُلُّهُ مِنْ عَدَمِ الْإِذْعَانَ وَالْحَيَا وَالْجَعْرَةَ وَتَجَاوَزَتْ بِهِ الْحُدُودَ فَإِنَّ لَمْ تَكُنْ لَكَ طَاقَةٌ عَلَى النَّهْيِ وَابْتِطَالِ هَذَا التَّجْيِيشِ الْمَتَدَلِّمِ فَاعْتَرَفَ لَنَا بِهِ مِنْ غَيْرِ تَصْوِيرٍ. وَالْمَطْلُوبُ مِنْكَ أَنْ تَعْرِفْنِي مَعَ الْحَامِلِينَ بِجَوَابِ وَالسَّلَامِ مِنْ كَتَبِ عَنِ إِذْنِهِ السَّيِّدِ الْكَمَانَدَةِ "فِيْفَانَصِ" الْحَاكِمِ الْكَبِيرِ لِسُوقِ أَهْرَاسٍ وَسَائِرِ عَمَلَتِهَا فِي 13 مَارِسَ سَنَةِ 1881م/11 رَبِيعِ الثَّانِي 1298هـ»⁵.

1- أ. و. ت: الملف 245، الحافظة 213، الوثيقة 85.

2- مثلة في شخص الكماندة "فيْفَانَصِ" حاكم دائرة سوق أهراس.

3- الفوايد: هم مزيج من العنصرين البربري والعربي، ويضم هذا العرش بدوره فروعاً أخرى. ينظر: علي الحباشي: المرجع السابق، ص 18.

4- شقطة: ويكتبون أيضا "شكامة" ويغلب الظن فيهم أنهم من أصل بربري، وقد يكونون من أول من استوطن المجال الترابي الذي كان لماجر.

ينظر: علي الحباشي: المرجع نفسه، ص 18.

5- أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 236، الوثيقة 93. ينظر الملحق رقم (19)

ورغم المراسلات الفرنسيَّة المتكرِّرة بشأن أعمال النَّهب التي طالت أملاك الجزائريين، وحثَّ السُّلطات التُّونسيَّة القيام بواجبها في هذا المجال، إلَّا أنَّ العمليات الإغارية بقيت مستمرة، بل اشتدت ضراوتها بمرور الزَّمن حسب ما هو وارد في نص الوثيقة التَّالية:

«الحمد لله وحده. وإليه يرجع الأمر كلُّه إلى الفاضل الأفضل الأعز الأشمل الموقر الهمام الأسعد محبِّنا السَّيد "حسنونة بن سليمان" قائد "الفوايد وشقطة" من "ماجر" وعامل الدَّولة التُّونسيَّة أكرمه الله تعالى آمين. السَّلام عليك السَّلام التَّام الشَّامل العام، وبعدها نعرفك بتعدية وقعت هذه الأيام وهي من أعظم التَّعديات التي عرضتها عنك إلى الآن وذلك جيش كبير من "المراسن" تعدى رسمنا وتوجه إلى عرش "مرادسي" من عمالة عنابة ونهب من العرش المذكور نحوى ستين رؤوس بقر فلما وصل عند رجوعه يوم الأربعاء الماضي للمكان المسمى "ولجة محبوب" من عمالة "القالا" عاينه بعض من النَّاس من "أولاد نصر" من "القالا" وعزموا على فكِّ رؤوس البقر من اللصوص المذكورين فتكلم البارود بين الجانبين حتى انجرح نفران من أناسنا وهما "أحمد بن عمارة" و"إبراهيم بن بلقاسم" وفات الجيش بجميع البقر المنهوبة وأنَّه بلغنا أنَّ "أحمد بن عمارة" أحد المجروحين في حالة الهلاك، فالمرغوب منك والمؤكَّد به عليك أن تخبرني عزمًا عاجلاً هل لك طاقة على ردِّ رؤوس البقر المسروقة في الحين والقبض باللصوص في عجل حتى تطلب دولتي من حضرة البلدين ما يرضيها في ذلك التَّعدي وتردلي اليوم ضدَّ الجواب بالعزم مع حامل الكتاب ودمتم ودمنا في أمان الله وحفظه والسَّلام. ممن كتب عن إذنه محبُّكم السَّيد الكماندة "فيفانص" الحاكم الكبير بسوق أهراس وساير عمالتها في 14 مارس سنة 1881م/12 ربيع الثَّاني 1298هـ»¹.

وفي ظلِّ هذا الوضع المتأزم تحركت السُّلطة الفرنسيَّة لمقاومة وصدِّ هاته الأعمال التي تعرقل مشاريعها الرَّامية لإقرار الأمن وتثبيت وجودها على الشَّريط الحدودي الشَّرقي في الجزائر، خاصة في فترة كانت تمرُّ بها الجزائر بحركات تمردٍ وانتفاضات شعبية من طرف القبائل ضدَّ وجودها، وعليه ففي ظلِّ هكذا وضع من شأنه أن يُعرقل من عملية إخضاع القبائل الحدوديَّة لنفوذها وسلطانها²، ومن هنا تحركت سلطة بسرعة وكثفت من نشاطها وتدخلاتها وسخَّرت كافة الوسائل في سبيل القضاء على هذه الأعمال، ولم تتردَّد في إرسال حملات تأديبيَّة على هؤلاء كحملة الرَّائد "فلونبي - Coan Flogny" في 24 ماي 1862م، الذي قام بالهجوم رفقة فرق لموشية على "أولاد زاس" من "الفراشيش" واقتحم دواويرهم بالقرب من جبل الشَّبيكة وسلب منهم عشرة آلاف رأس من الضَّأن، وخمسمائة من الإبل، وقتل حوالي 12 من رجالهم، وهنا يذكر كاستيل: «... وفي تلك الأثناء تمَّ ترسيم الحدود مع الإيالة التُّونسيَّة ومنذ 1863م لم تبق خيمة تونسيَّة واحدة في تراب حوز تبسة وزالت عمليات السَّطو والاعتداء على قبائل الحوز وممتلكاتهم، ونقل "أولاد بوغانم" خيامهم إلى ما وراء وادي سارات،... واضطر "الفراشيش" إلى التَّخلي عن أراضي "طاقة" و"بودرياس" التي كانوا قد بكَروا في

¹ - أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 236، الوثيقة 94.

² - إدريس رائي: المرجع السَّابق، ص 127 - 131.

فلاحتها، ولأوّل مرة منذ الاحتلال يسود الهدوء والسّلم التّام على الحدود في أوساط قبائل الحوز، غير أنّ هذا الهدوء لم يدم طويلاً، فسرعان ما عادت القبائل لأعمال النّهب والسّطو الذي ألفت ممارسته¹.

وظلّ عزم إدارة الاحتلال متواصلًا لصدّ هذه الاعتداءات المتكرّرة من طرف القبائل الحدوديّة فعملت على تدعيم الخطوط الدّفاعيّة وقامت بحشد ستة وخمسون 56 عائلة من سوق أهراس من عرش "أولاد خيار" فاستقروا في "بحيرة الأرنب" وفي جنوب "فج تنوكلة" لتعمير وحماية المنطقة، كما أرسلت عشيرة "أولاد سليم" فرقة منها، وهي "أولاد عبد الله بن العمري" للاستقرار ببحيرة الأرنب إلى جانب "أولاد خيار" بـ: "ذراع بويد" قرب "عين بوية"، وقد تكفّلت هاتين العشيرتين بمراقبة كافة المنافذ المؤدية إلى تبسة، لكن التّباين القائم بين هذه العشائر بفعل عدم انتمائها إلى قبيلة واحدة قد تسبّب في عرقلة تنسيق العمل فيما بينهم، إثر الشّقاكات والخلافات القائمة بينهم، وهو ما أثر على فاعليّة نشاطهم وتسبّب في إضعافه².

غير أنّ ذلك لم يثن من عزم إدارة الاحتلال في مواصلة تدعيم خطوط الدّفاع عبر تعزيز فرق القوم الذين أوكلت لهم مهمّة طرد الطُّرُق وكل من يحاول النّفوذ في الحدود الجزائريّة، كما ألزمتهم بضرورة العمل على إقرار الأمن داخل المنطقة الحدوديّة، وشرعت في إنشاء شبكة ثكنات عسكريّة على طول حدود "الفراشيش" و"أولاد بوغانم" كثكنة تبسة التي تتوفر على حامية عسكريّة و"برج حيدرة" العسكري قرب "ونزة" وغرب "قلعة سنان" سنة 1863م³ لتباشر في سنة 1863م ببناء برج في "المريج" على الحدود التّونسيّة على بعد 52 كلم شمال شرقي تبسة لإيواء زمالة السّبايس، وشيّد هذا البرج في موقع يتوسط ما بين "بوجابر" و"واد ملاق" يراقب ويدافع في ذات الوقت عن الواديين الكبيرين اللذين كثيرا ما تسلل التّونسيون عبرهما، ومن خلالهما كانوا يتسربون إلى إقليم القبيلة، كما جاء يتوسط ما بين زمالة "عين البيضاء" وزمالة "عين قطار" ويدعم القوة المتمركزة لهذين المركزين، ليضمن هذا المركز من النّاحية الإدارية الأمن لإقليم قبيلة "أولاد سيدي يحيى بن طالب" وبات من المستحيل على "أولاد بوغانم" القيام بأعمال السّطو التي ألفوها وأصبحت الطُّريق من تبسة إلى سوق أهراس آمنة؛ وقد علق القائد "فلونبي" على هذا الأمر قائلاً: «..فقد شكّل مركز "المريج" جداراً واقياً يمكن القيام خلفه بمختلف الأنشطة الفلاحيّة في أمان تام، وزال الخوف من أعمال السّطو أو حرق المزروعات وإتلافها، وهو الخوف الذي كان يثني السّكان عن ممارسة أعمالهم الفلاحيّة العادية في السّابق، وإذا كان بعض العناصر من الإيالة لا تزال تحاول تعكير الجو فليس في مقدورها القيام بشيء كبير، كما أصبح في الإمكان قمع كل أعمال السّطو في الحين، وعاد "أولاد سيدي يحيى بن طالب" إلى استغلال أراضيهم الفلاحيّة وإلى منتجعاتهم ما بين "المريج" و"واد ملاق" التي كانت في السّابق محرّمة عليهم بسبب انعدام الأمن»⁴.

¹ - بيار كاستيل: المصدر السّابق، ص 222 - 224.

² - المصدر نفسه، ص 222 - 223.

³ - الأزهر المجري: قبائل ماجر و الفراشيش، المرجع السّابق، ص 474.

⁴ - بيار كاستيل: المصدر السّابق، ص 240.

الفصل الثَّانِي مظاهر التَّفَاعُلِ الاِقْتِصَادِيِّ بَيْنَ الْقَبَائِلِ الْحُدُودِيَّةِ وَنَتَائِجِهِ

وضمن إستراتيجية مقاومة تعديات القبائل التُّونسيَّة ومنع امتدادها إلى الحدود الجزائريَّة، قامت سلطات الاحتلال بتشكيل خط وقائي ضد تعديات القبائل، حيث وضعت زمالة من 150 خيمة في "فج تنوكلة" تتكون من "العلاونة" و"البرارشة" تحت قيادة "إبراهيم بن بلقاسم"، وزمالة أخرى تتكون من 50 خيمة من "أولاد سيدي عبيد"، و منحت إلى جانب ذلك ترخيصها للقبائل الحدوديَّة الجزائريَّة، كزمالة "التَّمامشة" و"أولاد سيدي عبيد" و"أولاد سيدي يحيى" بحق ملاحقة عصابات النَّهب للانتقام منهم في حال اعتدائهم عليهم¹، و قامت إدارة الاحتلال زيادة على ذلك بسلوك إجراءات قانونيَّة تمثلت في إيراد مراسلات في شكل موثيق وبيانات تضمُّ مطالب القبائل الحدوديَّة الجزائريَّة المنهوبة من طرف قبائل الحدود التُّونسيَّة والتي نورد منها النَّمَاذِج التَّالِيَّة: النموذج الأول قمنا بإيراده بشكل جدول لعدد من المراسلات ذات المواضيع الموحدة والتي تضمنت تصريح الكماندة "فيفانص" بقبض أداء مع على العروش التُّونسيَّة من مطالب في حق القبائل الحدوديَّة الجزائريَّة.

رقم الوثيقة	التَّاريخ	العرش الملزم بالأداء	عدد الأداء من مطالب الحيوانات والغدية والدوايا	المستلم
219	14 أفريل 1888م 4 جمادى الأولى 1297هـ	وشتاتة	116 رأس بقر	الكماندة (فيفانص) حاكم فرنسا بسوق اهراس
321	17 أفريل 1880م 7 جمادى الأولى 1297هـ		125 رأس بقر	الكماندة (فيفانص) حاكم فرنسا بسوق اهراس
424	23 أفريل 1880م 12 جمادى الأولى 1279هـ	وشتاتة	99 بقر 05 بغال	الكماندة (فيفانص) حاكم فرنسا بسوق اهراس
528	22 أفريل 1880م 12 جمادى الأولى 1279هـ	وشتاتة	105 رأس بقر	الكماندة (فيفانص) حاكم فرنسا بسوق اهراس
630	24 أفريل 1880م	وشتاتة	07 رؤوس بقر. 05 بهائم	الكماندة (فيفانص)

¹ - بيار كاستيل: المصدر السابق، ص ص 221 - 223.

² - أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 236، الوثيقة 19.

³ - أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 236، الوثيقة 21.

⁴ - أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 236، الوثيقة 24.

⁵ - أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 236، الوثيقة 28.

⁶ - أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 236، الوثيقة 30.

حاكم فرنسا بسوق اهراس	(أحمر). 01 فرس		15 جمادى الأولى 1297	
الكمائدة(فيغانص) حاكم فرنسا بسوق اهراس	148 رأس بقر	وشتانة	25 أبريل 1880م 16 جمادى الأولى 1297هـ	131
الكمائدة(فيغانص) حاكم فرنسا بسوق اهراس	01 فرس	وشتانة	25 أبريل 1880م 16 جمادى الأولى 1297هـ	232
الكمائدة(فيغانص) حاكم فرنسا بسوق اهراس	06 خيل وبنغال	وشتانة	27 أبريل 1880م 17 جمادى الأولى 1297هـ	333
الكمائدة(فيغانص) حاكم فرنسا بسوق اهراس	3865 من أصل 4135 فرنك	وشتانة	08 ماي 1880م 28 جمادى الأولى 1297هـ	438
الكمائدة(فيغانص) حاكم فرنسا بسوق اهراس	47 رأس بقر	وشتانة	08 ماي 1880م 28 جمادى الأولى 1297هـ	539
الكمائدة(فيغانص) حاكم فرنسا بسوق اهراس	01 بغلة. 01 خيل	وشتانة	08 ماي 1880م 28 جمادى الأولى 1297هـ	640
الكمائدة(فيغانص) حاكم فرنسا بسوق اهراس	16 رأس بقر 01 خيل	المراسن	08 ماي 1880م 28 جمادى الأولى 1297هـ	741
الكمائدة(فيغانص) حاكم	01 بغلة	أولاد	08 ماي 1880م	842

- 1- أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 236، الوثيقة 31.
- 2- أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 236، الوثيقة 32.
- 3- أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 245، الوثيقة 33.
- 4- أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 245، الوثيقة 38.
- 5- أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 245، الوثيقة 39.
- 6- أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 245، الوثيقة 50.
- 7- أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 245، الوثيقة 41.
- 8- أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 245، الوثيقة 42.

الفصل الثاني مظاهر التفاعل الاقتصادي بين القبائل الحدودية ونتائج

فرنسا بسوق اهراس		سديرة	28 جمادى الأولى 1297هـ	
الكمائدة(فيغانص) حاكم فرنسا بسوق اهراس	15 رأس بقر. 02 خيل. 100 ريال دورو فدية	أولاد سديرة	07 ماي 1880م 27 جمادى الأولى 1297هـ	144
الكمائدة(فيغانص) حاكم فرنسا بسوق اهراس	84 رأس بقر	أولاد سديرة	07 ماي 1880م 27 جمادى الأولى 1297هـ	245
الكمائدة(فيغانص) حاكم فرنسا بسوق اهراس	53 رأس بقر. 03 خيل 01 بغلة	وشتاتة	07 ماي 1880م 27 جمادى الأولى 1297هـ	346
الكمائدة(فيغانص) حاكم فرنسا بسوق اهراس	05 زوايل (حيوانات)	وشتاتة	11 ماي 1880م 1 جمادى الثانية 1297هـ	451
الكمائدة(فيغانص) حاكم فرنسا بسوق اهراس	تم قبض ما عليهم من مطالب الخيل	أولاد سديرة	11 ماي 1880م 1 جمادى الثانية 1297هـ	52
الكمائدة(فيغانص) حاكم فرنسا بسوق اهراس	4000 ريال سكة تونسية أي ما يعادل 500 دودو فرنساوية	وشتاتة	11 ماي 1880م 1 جمادى الثانية 1297هـ	653
الكمائدة(فيغانص) حاكم فرنسا بسوق اهراس	خلصوا المطالب كلها	أولاد سديرة	12 ماي 1880م 2 جمادى الثانية 1297هـ	754
الكمائدة(فيغانص) حاكم فرنسا بسوق اهراس	3135 فرنك 135 فدوايات ودوايا وخيل	وشتاتة	12 ماي 1880م 2 جمادى الثانية 1297هـ	855

1- أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 245، الوثيقة 44.

2- أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 245، الوثيقة 45. ينظر الملحق رقم (19)

3- أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 236، الوثيقة 46.

4- أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 236، الوثيقة 51.

5- أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 236، الوثيقة 52.

6- أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 236، الوثيقة 53.

7- أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 236، الوثيقة 54.

8- أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 236، الوثيقة 55.

156	11 ماي 1880م 1 جمادى الثانية 1297هـ	المراسن التي عليهم	القبض على جميع المطالب الكماندة (فيغانص) حاكم فرنسا بسوق اهراس
-----	--	-----------------------	--

وضمن مطالب العروش الجزائرية جاء البيان التالي من الوثيقة 217.

«الحمد لله بيان ما على عروش "وشتاتة" للعروش المجاورين لهم³.

أنواع المنهوبات	ما عليهم	ما طرح من ذلك كمسترجعات	ما تبقى عليهم
الخيل	98 رأساً	58 رأساً	40 رأساً
البغال	108 رأساً	68 رأساً	40 رأساً
البقر	2687	1887	800
فداء على رجوع سعي (نقود)	10273 فرنك	5273 فرنك	5000 فرنك
فداء رقاب	4000 فرنك	1000 فرنك	3000 فرنك

الملاحظ من هذه الوثيقة أنها ترصد كل ما نهب عرش "وشتاتة" من العروش الجزائرية المجاورة له، ومطالبات إدارة الاحتلال الفرنسي من سلطات الإيالة التونسية باسترجاع المنهوبات، ورصد قيمتها كدين على عرش "وشتاتة" يجب الالتزام بإعادته لأصحابه - القبائل الحدودية الجزائرية -.

وتواصل مراسلات المطالب الفرنسية بتأدية العروش التونسية ما عليها للعروش الجزائرية حسب الملخص الوارد من كراس الكماندة "فيغانص" في الوثيقة 464.

المنهوبات	ريالات (فرنك)	بقر	حمير	بغال	خيل
عددتها	98	274	6	3	7

هذا التلخيص ورد في كراس من حاكم سوق اهراس بتفصيل بعض مطالب أهالي تلك الجهة على أنفار من "وشتاتة"، وجملة ما دأوا به 98 رأس من أبقار "الروايسة" و"طرود"، وبآخر هذه الكراس أن "علي بن الحفصي

1- أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 236، الوثيقة 56.

2- أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 236، الوثيقة 17.

3- لقد قمت بتحويل معطيات الوثيقة في شكل جدول حتى تكون واضحة أكثر. ينظر الملحق رقم (20)

4- أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 245.

الفصل الثاني مظاهر التفاعل الاقتصادي بين القبائل الحدودية ونتائجه

الطُرودي" قتله "عمار بن شليبي الوشتاتي" و"عمر بن أحمد القليل" و"بالرحايل بن عون القليل" و"أحمد بوفارس القليل" في 10 شتبر 1880م.

وفي موضع آخر من الأرشيف التونسي تمَّ إيفاد جريدة مطالب العروش الجزائرية للمجاورين لهم من العروش الحدودية التونسية، وهذا بياها: الحمد لله. بيان ما ادعى به الكماندة "فيفانص" حاكم سوق أهراس على عروش "الرقبة" و"خمير" بذكره بمقتضى جرايد منه مُصحَّحة وكتب هنا في 16 ربيع الانوار سنة 1298هـ، ما ادعى به على عروش "وشتاتة" الجريدة المذكورة¹.

العروش المطالب	وشتاتة	المراسن ²	اولاد حفدة	أولاد سديرة	اولاد علي	بني مازن ³	عرش حكيم	عروش خمير	المجموع
البقر	1753	105	78	106	52	15	2109		
الخيل	24	04	03	01	07	01	41		
البيغال	14				04	05	23		
الأحمرة	05	04					09		
الفرنكات	6165	350	300	215		3000	10030		
غنم				65			65		
معز					30		30		
الأنفس	07			02			09		

¹ - أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 236، الوثيقة 81. ينظر الملحق رقم (21)

² - المراسن: ينتمون بدورهم إلى عروش الرقبة ويرجع أصلهم إلى الولي "سيدي عيسى بن الأكلح"، وقد يكون قدم من المغرب في طريقه للحج في وقت غير معلوم. ينظر: علي الحباشي: المرجع السابق، ص 13-14.

³ - بني مازن: يقال أنَّ أبناء هذا العرش ينحدرون من سلالة مغامر عسكري من أصل مغربي "اسمه عبد الجواد بن مازن" دخل في خدمة داي الجزائر سنة 1692م قبل أن ينظم إلى بايات تونس الذين منحوه مجالا ترابيا شاركه فيه بعض أصحابه وأتباعه، وبدورهم هم الآخرين ينحدرون من أصل مغربي ومن جميعهم انحدرت فروع العرش التي تحمل ملامح بربرية واضحة، ورغم مولاة الأوائل لسلطة البايات فقد انتفضت القبيلة في كلٍّ من سنة 1824م وسنة 1859م. ينظر: علي الحباشي: المرجع نفسه، ص 11.

الملاحظ من هذا الجدول، أنَّ المنهوبات المسروقة من القبائل الجزائرية مُتعدِّدة، وأنَّ سلطات الاحتلال الفرنسي كانت تتابع واقع الحركة في الحدود وتتهيب من انعكاساته على الدَّاخل الجزائري، فقامت بإحراج الدَّولة التُّونسيَّة لِناحية مطالبتها باسترجاع المنهوبات، وكذلك ضبط الحدود، ولومها على التَّقْصِيرِ بَيْنَ الفِينَةِ والأخرى. وهذا دليل على توخي الحذر من قبل المحتل لواقع الحدود وانعكاساته.

2-2- أعمال النَّهْبِ والسُّطُو التي طالت القبائل الحُدُودِيَّةِ التُّونسيَّة:

تعرَّضت القبائل الحُدُودِيَّةِ التُّونسيَّة لأعمال نهب وسطو من طرف القبائل الحُدُودِيَّةِ الجزائرية التي تباينت مواضيع السَّرَقَاتِ فيها على نفس شاكلة المنهوبات التُّونسيَّة، حيث تراوحت مواضيعها هي الأخرى ما بين الحبوب والحيوانات، وأضحت هذه الظَّاهرة منتشرة بشكل كبير لدرجة جعل السُّلطات تشرع في وضع الحاميات وتدشين المنشآت العسكريَّة والأبراج لردع هذه الظَّاهرة المستشرية بين القبائل الحُدُودِيَّة¹، وصفحات الأرشيف التُّونسي تعجُّ بمواضيع تتعرض لهذا النوع من القضايا الشَّائكة في تاريخ القبائل الحُدُودِيَّة وتاريخ البلدين، ولا يسع المقام بتتبعها وعرضها جميعها، وإنما اكتفينا بأخذ عيَّنات تتعرض لهذه الظَّاهرة. منها وثيقة ترصد الإغارة من طرف "الغرابة" على سُرَّاح من "أولاد علي" و"أولاد الكحلة" بغرض نهب أبقارهم، ونص الوثيقة كالآتي:

«شهبين بن عمارة". "الهامل" بن الشَّيخ عمر شيخ "أولاد كحلة". "خزير بن عبار". "بومعيرة بن عمارة".

"بلقاسم بن علي بن عويشة". "عمار بن الشَّابي".

"عبد الله بن خميس". "وناس بن علي بن مبارك"، الجميع من "أولاد الكحلة". وهم "الحسين بن بوروبة"، ثلاثة أنفار والأنفار أعلاه أخوة سي "علي بن سعد" والقائد "عمار بن بلقاسم" عرش "أولاد علي الفزوع".

و"عمر انتاغوتي"، المحاري تنزيل المذكورين الجميع من "أولاد علي الحشيشة".

...فإنَّه أخبرنا أنَّ سي "علي بن سعد" قايد وشيخ عرش "أولاد علي" والشَّيخ "عمر بن مُحَمَّد" شيخ "أولاد الكحلة" أنَّ الأنفار أعلاه بينما هم راعون ببقر بفجر أمس التَّاريخ بموضع يقال له "الفيرة" بتراب "أولاد علي الفزوع" بينه وبين الحدادة قدر خمسة أميال إذا أتاهم الأنفار أعلاه يمناه من العمالة الغربية وهجموا عليهم قاصدين أخذ البقر الرَّاعي به، فصرخ الانفار أعلاه يمناه - يمين الرِّسالة - فمات الأول من حينه، وجرح الثَّاني فتضرَّرَ بذلك وفرَّ السُّتة أنفار الباقيين، وهؤلاء الأنفار المذكورين أعلاه يمناه، هم الذين كُنَّا عرَّفنا سيادتكم عليهم، فإنَّهم يحبرون راحة السُّكَّان بالإغارة والاختلاس وغير ذلك»².

¹ - إدريس رائسي: المرجع السَّابق، ص 126.

² - أ.و. ت: الحافظة 212، الملف 236، الوثيقة 72. ينظر الملحق رقم (22)

الفصل الثَّانِي مظاهر التَّفَاعُل الاقتصادي بين القبائل الحدودية ونتائجها

لقد باتت العروش المتاخمة للحدود الجزائرية تعيش هي الأخرى حالة من الفزع والهلع الذي لا يجنبوا إلا بُرْهَةً، ثم يتحدّد مع كل فزعة أو هجمة جديدة من القبائل الحدودية الجزائرية¹، الشّيء الذي أَرَقَّ صفو استقرارهم ودفع بهم لرفع الشكاوى للسلطات لعلها وعسى تستطيع إيقاف هذا العنف، أو تتمكن على الأقل من ردّ ما سلب لها قسراً و بالقوة، فعلى سبيل المثال: نجد "أولاد علي" و "أولاد الكحلة" و "المراسن"، وبسبب تكرار عمليات النهب من القبائل الحدودية التي طالت أرزاقهم لم يجدوا حلاً لوضعهم إلا بمراسلة السلطات لعلها تستطيع دفع الضّرر الذي لحق بهم، كما هو موضح في نص المراسلة التالية:

«أحمد بن عمار - "عبد الله بن خميس" - "سعد بن رجبية" - "صالح بن بكري" ... الجميع من "بني حميد" عرش "الحشيشة" بحكم القايد "بالرمضان".

الحمد لله. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الصّدر الهمام الأوحّد أمير الأمراء المولى الوزير الأكبر سيدي "مصطفى" حرس الله كماله أمين. أمّا بعد: السّلام عليكم ورحمة الله تعالى بأنّه أخبرنا الأجل سي "علي بن سعد" خليفة عرش "أولاد علي" بشأن الأنفار أعلاه ومن معهم أغاروا أخوته فريق "أولاد كحلة" يوم 27 الاربعاء واخذوا لهم 10 رؤوس بقر، كما أنّهم في الشّهر المنصرم من شهر التّاريخ أغاروا وأخذوا أربعة رؤوس بقر لهم، وكثرت إغاراتهم عليهم قد تضجروا من ذلك وبلغنا أيضا الفريق المذكور أعلاه أغاروا على عرش "المراسن" وأخذوا لهم ثلاثين رأساً من البقر، غير أنّ عرش "المراسن" رجّعوا سعيهم بخلاف "أولاد الكحلة" من "أولاد علي"، الحاصل أنّ المجاورين لهاته العروش من العمالة الغربية كثر تحييرهم لبعض عروش "الرّغبة" فاعلمنا جنابكم العالي بذلك ليكن في شريف معلومكم. والسّلام من الفقير إلى ربّه ... "محمّد بن عمار" عامل "الرّغبة". كتب في 30 شعبان 1297 هـ القسم الأوّل»².

إنّ عمليات النهب التي جرت على يدي القبائل الحدودية الجزائرية ضدّ القبائل التونسية، والتي عانت هذه الأخيرة بدورها من أعمال السّطو، جعلها تقوم بتقديم شكاوي للسلطة العليا التونسية، والتي بدورها بعثت للسلطات الفرنسية بيانات تطالب فيها العروش الحدودية الجزائرية برّد ما نُهب لرعاياها. منها التّمودج التالي:

«بيان ما نُهب لتونسيين من طرف الجزائريين:

الأنواع	قتيل	نساء	جريح	بقر	غنم	خيل وبغال	أحمره	ريالات دوروا	درهم تونسي	أراضي بيوت شعر
العدد	16	08	01	893	305	13	2 ³	2584	3000	39

¹ - إدريس رائسي: المرجع السّابق، ص 120.

² - أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 236، الوثيقة 61.

³ - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 96.

الملاحظ من خلال هذا الجدول أنَّ أنواع السَّرقات والمنهوبات تعدَّدت وطالت حتى النَّساء، وهو أمر محير، فلعله تمَّ أخذهن كرهائن من أجل طلب الفدية، أمَّا فيما يتعلق بالقتلى فالأكيد أنَّه كان نتيجة المناوشات التي تقع بين الفريق الغائر والمغار عليه، كما لاحظنا أيضاً أنَّه في النَّصِّ الأسفل من الوثيقة جاء ذكر المسروقات بالحروف، ولكن التَّضارب يكمن في عدد القتلى، ففي الأعلى يذكر 16 قتيلاً بالأرقام، في حين أنَّه لما كُتبت بالحروف تمَّ إيراد ثلاثة عشر قتيلاً، ويذكر في ذات النَّصِّ السُّفلي أنَّ الخيام المسروقة سرقت بأثاثها، وفي جنب الوثيقة وردت أسماء لشيوخ شهود عيان على هذه الواقعة، نذكر على سبيل المثال: الشَّيخ "بوزيان بن سليمان الملوكي" ¹.

وفي وثيقة موالية تمَّ رفع مطالب قبيلة "وشتاتة" على العروش "الغرابة" المجاورة لها، وهذا نصُّها:

«الحمد لله. بيان مطالب "وشتاتة" من الفضل العميم في 28 جمادى الثَّانية 1297هـ.

"علي بن نصر الوشتاتي" له خمسة بقرات عند "عبد الحفيظ بن أحمد الضَّياوي" من رعايا الجهة الغربية، وقريبه "علي بن حمودة"، على وجه السَّرقة قايد "علي بن الصَّانع".

"صالح بن عيسى الوشتاتي" له ستة ريبالات دوروا عند "بلقاسم بن عمر الضَّياوي" من الجهة الغربية، وادعى "بلقاسم" المذكور أنَّ امرأة هربت بالقدر المذكور "علي بن الصَّانع".

"صالح بن عيسى" المذكور له أربعة بقرات عند "الطَّاهر بن الحاج بوقرة" الموشي من الجهة الغربية، على وجه السَّرقة قايد "أحمد الشَّريف"، الجميع في زمن الرِّبيع الفارط.

"علي بن عتروس الوشتاتي" له بقرتان عند "عمر بوذينة الضَّياوي" من الجهة الغربية، على وجه السَّرقة في زمن الشَّتاء الفارط، وهو في حكم "علي بن الصَّانع".

"رزق بن بالرَّحائل الوشتاتي" له فرس على وجه ال... بسرجها عند "المستور بن السَّاسي الضَّياوي" في الجهة

الغربية، في حكم "علي بن الصَّانع".

"عبيد بن عمر الوشتاتي" له بغلة عند "عمر بن مبروك" من الجهة الغربية، على وجه السَّرقة في حكم القايد "بوعراس".

"مُحمَّد بو القايد الوشتاتي" له خمس فرس عند "عمارة بن علوش الضَّياوي"، في حكم "علي بن الصَّانع" في الشَّتوه الماضية.

"رايح بن سي الوشتاتي" سُرق له ترمول عند "عمار بن التَّساوي الموضي"، قايد "أحمد الشَّريف".
 "علي بن خريف الوشتاتي" له ثور على وجه السَّرْقَة ومعه بقرة تبعه عند "أحمد بن كميل الشَّيبوني"، في حكم القايد "بوعراس"¹.

كما تكررت ذات المطالب في الوثائق: 99 - 100 - 101 - 102 - 104 - 105²، والتي تتقدم فيها الدَّولة التُّونسيَّة بجريدة مطالب لعروشها المنهوبة من قبل الجزائريين، وقد اتفقوا مع الكماندة حاكم سوق أهراس لتحديد يوم التُّلْثاء أو الاربعاء للالتقاء بضريح الولي "علي الميمسي" لمناقشة التَّوْازل وتأدية حقوق كل طرف، غير أنَّ الكماندة "فيفانص" ماطلهم باستمرار، فأحر اللقاء إلى يوم الخميس، ثمَّ إلى يوم الجمعة، ثمَّ السَّبْت، رغم أنَّه هو من تقدم في وثيقة قبلها تحوي مطالب الرِّعايا الجزائريين، وفيها يحثُّ سلطات الدَّولة التُّونسيَّة على الحرص في ردِّ حقوق رعاياه!؛

ويبدو أنَّ عمليات النَّهب ظلَّت قائمة، وهذه المرة طالت عدَّة فرق من العروش التُّونسيَّة التي لحقت بها أضرار معتبرة من طرف القبائل الحدوديَّة الجزائريَّة، والتي تبرزها الوثيقة 201، نورد مقتطف منها:

وما سبو عرش "الغرابة" لفريق "أولاد عيار"³ مائة ألف وستة عشر ألف ومائة وثمانية وستون ربالا (116168). وما سبو المذكورين لفريق "أولاد تليل"⁴ مائة ألف وخمسة وثلاثون ألف وثمانية وثلاثون ربالا (135038). وقيمة ما سبوه لفرق من الفراشيش أحد عشر مائة ألف وخمسة وأربعون ألف وثلثا مائة وستون ربالا (1145363). وقيمة ما ضاع إلى "أولاد بوغانم" تسعمائة ألف وأربعة وستون ألف وخمسمائة وخمسة وسبعون ربالا (9645475).

¹ - كل هذه المعلومات موجودة في الوجه الأوَّل من الورقة المزدوجة. ينظر: أ. و. ت. ، الحافظة 213 ، الملف 245، الوثيقة 58.

² - أ. و. ت. : الحافظة 212، الملف 236.

³ - أولاد عيار: من أصل بربري استقروا في القدم على مقربة من بجاية وقسنطينة قبل أن يتخذ من بعض الشَّمال الغربي مجالا ترابيا عند الرِّحفة الهلالية، انضمت إليهم بعض الجماعات المحلية التي فقدت أراضيها، وبدعم هؤلاء تمكن "أولاد عيار" من الوقوف في وجه القبائل الهلالية، رغم تفاوت موازين القوى لصالح الهلاليين إلَّا أنَّهم مع ذلك تمكَّنوا من المحافظة على قوتهم القبليَّة، وكانت لهم عديد الانتفاضات ضد البايات كانتفاضة 1818م، و1821م، و1851م، ثم شاركوا في انتفاضة "علي بن غداهم" التي بسببها عمدهم "محمَّد الصَّادق باي" إلى تقسيمهم إلى قسمين من أجل إضعافهم. ينظر: علي الحباشي: المرجع السَّابق، ص 15.

⁴ - أولاد تليل: هم من أحفاد الولي الصالح "سيدي تليل" أحد اصحاب "سيدي عبيد"، الذي قضى معه بعضا من أطوار حياته، و"سيدي تليل" هو حفيد الصَّحابي الجليل عثمان بن عفان. استقر "أولاد تليل" منذ القرن الخامس عشر ميلادي قرب "فريانة"، ومن بني مجد هذا العرش هو سيدي "أحمد التليلي" في القرن الثَّامن عشر ميلادي. ينظر: علي الحباشي: المرجع نفسه، ص 19.

الفصل الثَّاني مظاهر التَّفاعُل الاقتصادي بين القبائل البدويَّة ونتائجه

فكان جملة المال سبعة ملايين وستماية ألف وخمسة وأربعون ألف ومائة وتسعة عشر ريالاً (7645119). هذه الخمسة الفرق المذكورين أعلاه، لم يتم الآن بقية العروش تخليصهم من "الزغالمة" و"شارن" و"القوازير" و"ورتان" و"ورغة"، وبعد هذا نقوم لجنابكم السَّعيد ببيان قيمة الأشياء

القيمة	الأشياء
300	قيمة الحمل والنَّاقة والقعود عن بعضهم البعض
300	قيمة الخيالي ومثله البغلة إناثاً وذكوراً
75	قيمة البقري إناثاً وذكوراً صغيراً وكبيراً
50	قيمة المكحلة بجعبة وجعبتين عن بعضهم
35	قيمة القلة
15	قيمة الفردطبانجة
300	قيمة بيت الشَّعر مليح على دوبي
150	قيمة أثاث ما احتوت عنه البيت من رحي وقصاع وغيرهم
10	قيمة العديلة
200	قيمة السَّرج
18	قيمة البردعة ¹
50	قيمة الحمار
400	قيمة القطيفة
110	قيمة الخيل

¹ - البردعة: تصنع من الصُّوف والشَّعر وتملأ بالتَّين.

قيمة الزَّربية	500
قيمة الرِّحى	30
قيمة البرنوص عن مريح ودوني من عمل البادية	40
قيمة السَّفْساري ¹ عمل من ذكر	40
قيمة السَّفْساري الجريدي	100
قيمة الحولي الحمراء	40
قيمة البخنوق متاع النساء	15
قيمة كسوة الرِّجال المعبر عنها قاط	250
قيمة الكسوة الثَّانية	200
وقيمة السَّرج التي بالفضة عمل تونس	300
قيمة الرُّوج أحراص	50
قيمة الرُّوج حدايد	50
وقيمة زوج خلخال	460
وقيمة حمل التَّمر بشفعة	95
وقيمة القفيز فح باجي	200
وقيمة الشَّعير	100
وقيمة جزة صوف	3
وقيمة الماكلة عسل باجي	192

¹ - سفساري: هو عبارة عن لحاف تلتحف به النساء أثناء خروجهن من البيت، ويختلف لونه من منطقة إلى أخرى، ويكون عادة أبيض اللون ومصنوع من الحرير أو الصُّوف بينما يكون في منطقة الجريد لونه أسود وبه خطوط زرقاء. ينظر: إدريس رائسي: المرجع السابق، ص184.

192	وقيمة الماكلة سمن باجي ¹
-----	-------------------------------------

ونستشف من نص الوثيقة أعلاه أنَّ مبلغ قيمة المسروقات كبير جداً بحكم أنَّه حصيلة مسروقات خمس فرق مُثبتة في الوثيقة، وقد بلغت قيمة هذا المبلغ سبعة ملايين وستماية ألف وخمسة وأربعون ألف ومائة وتسعة عشر (7645119).

الأمر الثَّانِي: أنَّ مواضيع المسروقات لم يقتصر على الحيوانات، بل طالت ألوان الطَّعام المختلفة من: قمح وشعير وتمر وسمن وعسل وأدوات الرِّينة والحلي والملابس للجنسين على حدِّ سواء، والخيام والرِّائب والتُّقود والأسلحة والأجهزة المنزلية.

ومما سبق نستنتج أنَّ الإغارات بين القبائل اتخذت هذا المنحى وكانت بهذه الكثافة، وتعايشت السُّلطة العثمانية سابقاً معها دون إحداث تغييرات في أنماط عيش القبائل الحدودية، واكتفت بالتَّحصيل الجبائي ومعاينة العصاة والممتنعين عن الخضوع للسلطة، أمَّا عدا ذلك فلم تتدخل لتغيير أنماط التَّواصل التي كانت قائمة بين القبائل الحدودية خاصة في المجال الاقتصادي، لكن السُّلطة الاستعمارية قامت باستغلال هذه النُّقطة الحساسة، بل قامت في كثير من الأحيان بشحذها عبر إثارة القبائل الجزائرية الحدودية للإغارة على القبائل الحدودية التونسية مثلما حدث مع "أولاد مومن" ضد "الهمايسية"، وهذا حتى تتمكن من وضع يدها على الحاضرة التونسية، ورغم أنَّ الباي التونسي حاول تهدئة رعاياه واكتفائه بطمأننتهم في كلِّ مرَّة يتعرضون فيها للإهانة مخافة من أن تتحول تلك المناوشات لمسوغات من أجل احتلال تونس؛ ويبدوا أنَّ ذلك ما حدث بالفعل، الشَّيء الذي يفسِّر لنا كثافة المراسلات الفرنسية المتعلقة بشأن تعدّيات وإغارات القبائل التونسية على القبائل الحدودية الجزائرية، التي من المؤكد أنَّها لم تأت فقط لاستجلاب حقوق الجزائريين والدِّفاع عنها، بقدر ما كانت محاولات من طرف سلطة الاحتلال البحث عن مبررات وذرائع لمد يدها على الثُّراب التونسي.

وختاماً يتبيَّن أنَّ التَّواصل الاقتصادي أخذ أشكالاً وتجليات عديدة، كان منها ما هو امتداد للفترة السابقة للاحتلال الفرنسي، ومنها الجديد المتعلق بالفترة الاستعمارية بفعل تأثُّر التَّواصل الاقتصادي بالمتغيرات التي أحدثتها الاستعمار ولم يراع فيها خصوصيات التَّركيبات البشرية القاطنة على هذه المجالات الحدودية، والتي عانت كثيراً بفعل هذه المتغيرات الجديدة التي طالتها وأثَّرت على كافة أنماط تواصلها في مختلف الميادين، وهو ما سنتعرف عليه أكثر في الفصلين المواليين.

1- أ. و. ت: لحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 201.

الفصل الثالث

التواصل والتفاعل الاجتماعي

بين القبائل الحدودية.

- أولاً-الإغارة بين القبائل الحدودية كمعطي اجتماعي.
- ثانياً-الأحلاف والصُّفوف عند القبائل الحدودية وتفكُّكها.
- ثالثاً-التعاضد والتآزر وعلاقات المصاهرة بين القبائل الحدودية.
- رابعاً- الهجرة بين القبائل الحدودية.

لقد اتخذت حركة القبائل الحدودية في الجانب الاجتماعي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أبعاداً عديدة بفعل تأثير مُعطيات الحقب التاريخية في كلِّ مرحلة، وهو ما جعلها تصطبغ بعدة سمات كان البارز فيها تلك الإغارات بين القبائل الحدودية التي تعتبر أهم مظاهر حركية المجتمع القبلي، وهذا لا ينف وجود أوجه التواصل بين القبائل الحدودية كالجوار والاحتفاء والصُفوف والمصاهرة والهجرة.

أولاً- الإغارة بين القبائل الحدودية كمعطى اجتماعي:

يمثل الصِّراع مظهراً اجتماعياً لحركية المجتمع الإنساني بما في ذلك المجتمع القبلي، الذي تميّزت ظاهرة الصِّراع فيه بالحدّة والعنف مقارنة مما هي عليه في المجتمع الإنساني الأخر، هذا المقوم يسوقنا لطرح سؤال، لماذا؟

إنَّ حدّة وعنف هذه الظاهرة يرجع لطبيعة المجتمع القبلي المجهول على هذه الظاهرة التاريخية التي ترتبط بأصالة وأعراف وتقاليد القبائل عموماً، وقد أدّت الظروف المختلفة دورها في توجيه مؤشر هذا العنف الممارس، الذي يعتبر أحد أهم وسائل توفير لقمة العيش ومختلف الموارد الضرورية بما في ذلك الموارد الجبائية¹، فضلاً على أنّها وسيلة لإثبات الذات والحصول على المكانة والقيمة الاجتماعية لدى أفراد القبيلة، لأنَّ قوّة الشّخص مرتبطة عندهم بعدد المواقع والإغارات التي خاضها وشارك فيها، وما الجراح المنجّرة عن هذه الاعمال إلاّ أوسمة شرف وفخر وبطولة بالنسبة للبدوي²، لتؤدي التّشعّث الاجتماعية دورها هي الأخرى في غرس جذور هذه الظاهرة من خلال التّدريب على السّلاح وفنون الصّيد والمصارعة وكل ما يتعلق بقيم الشّجاعة البدوية، التي ماهي في نهاية المطاف إلاّ قيم وتقاليد متوارثة ومتجدّدة في التاريخ الإنساني منذ القدم³.

ثمَّ إنَّ القوّة العددية والمادية ماهي إلاّ مؤشراً على قوّة القبيلة، والتي تجلب لها المكانة والمهابة بين باقي القبائل، ففي المثل الشعبي في الجنوب التونسي القائل: «عد رجالك وأورد الماء» يتبين لنا بان القبائل اعتمدت هذه الظاهرة والتي أطرتّها ضوابط تحتكم للأعراف والتّقاليد من أجل توفير موارد حياتها الضرورية، فالإغارة في المجتمعات القبليّة أصبحت وسيلة مشروعة للحفاظ على موازين القوى وتأمين المعاش وتوفير مصدر دفع الضّرائب ووسيلة لإرضاء نزعة الرّعاية لدى بعض المجموعات، إنّها البطولة خارج القانون⁴.

1/- جذور الإغارة:

جذور هذه الظاهرة المتعدّدة الجوانب السّياسية والاقتصادية والاجتماعية قديمة جداً وممتدة في أعماق التّراث العربي القديم، والتي نجد تجسيدات لها في ظاهري الصّعلكة والفُتوة، بل إنّ الغزو مستمد من تاريخ

1 - مُحمّد نجيب بوطالب: سوسولوجيا القبيلة في المغرب العربي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2002م، ص117.

2 - مكي الجميل: البدو والقبائل الرّحالة في العراق، ط1، مطبعة الرّابطة، بغداد، 1956م، ص94.

3 - مُحمّد نجيب بوطالب: المرجع السّابق، ص117.

4 - نفس المرجع، ص118.

إسلامي محلي غني بالقواعد العرفيّة الحربيّة التي يتعارف عليها الفاعلون من خلال الرّغبة والرّزّيّة، أمّا المصادر فتشير إلى الحراة والفلاقة والحيّاشة¹.

وفي هذا الشّأن فصفحات الأرشيف التّونسي تعجّ برصيد كبير من هذه الغارات التي وقعت بين القبائل الحدوديّة في كلا البلدين، كما هو موضح في هذا الجدول الذي ضمّناه محتوى صندوقين يتناولان هذا الموضوع في عدد وثائق بلغ مجموعها 422² وثيقة.

رقم الصّندوق	رقم الملف	عدد الوثائق	عنوان الصّندوق	التّاريخ
212	236	118	مراسلات في شأن الإغارات بين عروش الرّقبة والعروش الجزائريّة المجاورة لهم.	1879 – 1881م
213	245	204	مراسلات وتقارير حول إغارات العروش وأعمال الشّغب والعنف في الحدود الغربيّة الجزائريّة التّونسيّة.	1879 – 1883م

ونظراً لهذا الكم الكبير من المراسلات الذي يتعذر إدراج كلّ محتوياتها، ارتأيتُ إيراد نماذج توضيحيّة من باب الاستشهاد خدمة للموضوع. وسأعرض أربعة نماذج عن هذه الغارات المرفقة بقائمة المنهوبات.

• **الوثيقة الأولى:** والتي تحمل رقم 200³ تتعرض لغارة أو كما جاء في نص الوثيقة غزوا على فرقة "البرارشة" من "الناماشة" وهذا نصها:

«الحمد لله. بيان مطالب التي يطلبها حاكم الحدود الجزيرة بواسطة السيّد "أحمد الشّاوش" قايد "تبسة"

يوم 24 من نوفمبر 20 جماعة من "الفراشيش زغابة" غزوا في "عين رقادة" على "البرارشة" ناماشة وأخذوا لهم 4 بعير حاملين الزّرع و 1 انفس رجل اسمه "صالح المكي"

في 12 اشتهبر (سبتمبر) عشرين أيضاً من "الفراشيش" غزو فرقة "عبادنة" عرش "أولاد يحي" 2 ثيران و 1

أبغال و 2 أنفس "الصّغير بن علي" و "بلقاسم بن محمّد"

في 13 اشتهبر (سبتمبر) غزت قطعة من "الفراشيش" على دور "السّمايريّة" عند "وادي فلة الرّبايد" 3 بعير

و 1 أبغال و 5 حمير و 1 نفس "علي بن بلقاسم"

1 - محمّد نجيب بوطالب: المرجع السّابق، ص 118.

2 - أ. و. ت: الحافظتين 212 و 213. لم يرد تاريخ المراسلة ولا ذكر سنة الوقائع.

3 - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245.

وفي 12 نوفمبر غزت عشرة أنفس من "زغابة الفراشيش" على "التمامشة" في "عين بيوش" 200 سعي و1 أنفس "بلقاسم بن أحمد" وكان انجرح في فخذه 90 اعترفوا بهذا لا غير.

السّرقَات	
أحوالها	المتهمين
لم يسمع	اتهم "أحمد القر" بسرقة حصان أحمر وحصان أزرق لسيدي "أحمد بن مصطفى"
بها	اتهمت "الرّوايح" بسرقة بغلة زرقا وزوج برانس حمل زرع وحوالي سفساري
	اتهمت جماعة جزائرية بسرقة أربعة زوايل وفرس لـ "أحمد بن محمد التّبسي"
	اتهمت أولاد عمران بسرقة ثلاثة رؤوس بقر لـ "أولاد عمران"، وبغل لسمرى سرقه الحاج "عثمان التّوزري"»

من نص الوثيقة نلاحظ كثرة هذه الإغارات التي مست قبائل نواحي "تبسة" من ذات القبيلة، وهي عرش "الفراشيش"، والتي بلغت نحو أربعة غارات، وإن لم يتم عرضها بشكل كرونولوجي، ونرجح أنّها كتبت في فترة الإغارة الأخيرة لذلك وُضعت تلك الغارة في البداية، والثلاث الأخريات من ورائها كما أوردناه أعلاه. تليها مباشرة قائمة المسروقات لبعض الأفراد والقبائل، وعلّق كاتب الوثيقة بأنّه لم يسمع بها كناية عن الطّرف التّونسي.

ولأنّ المعمول به آنذاك بعد كلّ غارة أو مجموع غارات ترسل لقياد ومسؤولي القبيلة الغائرة مطالب بحجم المسروقات وديّات القتلى للمقتولين من مسؤولي القبيلة المغار عليها، وجدنا عدّة نماذج في الأرشيف الوطني التّونسي تتوفر على عينات من الوثائق التي تناولت هذا الأمر، كالوثيقة رقم 38 ورقم 40 ورقم 42 ورقم 44 ورقم 146¹، التي تحدّثت جميعها عن أداءات عروش الحدود التّونسيّة للمطالب أو الدّيّات للقبائل الحدودية الجزائرية، منها ما وثّقته الوثيقة الثانية.

● الوثيقة الثانية: الوثيقة 238² والتي جاء فيها ما يلي:

«الحمد لله وحده.

وصلني وبلغ بيدي ثلاثة آلاف فرنك وثمانية مائة فرنك وخمسة وستين فرنك (3865) على "وشتاتة" وبقي على العرش المذكور أربعة آلاف فرنك ومائة فرنك وخمسة وثلاثين فرنك (4135) وكتب عن إذنه السيّد

الكماندة الكبير بـ "سوق أهراس" وكيل الدّولة الفرانصاوية 08 في ماي 1880م».

1 - أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 236.

2 - أ. و. ت: الحافظة 212، الملف 236.

● الوثيقة الثالثة: وهي الوثيقة 44 والتي جاء فيها ما يلي:

«الحمد لله وحده.

قبضت وتوصلت على ما اعلا "أولاد سديرة" خمسة عشر رأس بقر، وزوج من الخيل، ومائة ريال دورو من جانب الفدا، وكتب أن أذنه السيد الكماندة الحاكم الكبير وكيل الدولة الفرنسية 07 ماي 1880م/ 27 جمادي 1297هـ».

واللجوء لهذه المطالب وأداؤها من باب حفظ حقوق الطرف المتضرر، جاء من أجل إقرار الأمن والسّلام بين البلدين لأنه في حال تعطل أو ممانلة هذه الآداءات الواجب أداءها، ستستمر حالة الفوضى والمناوشات بين الطرفين المتنازعين كالذي حصل بين "أولاد علي" من تونس و"أولاد ذياب" من الجزائر، والواضح أنّ كلا الطرفين عليه ديّات للأخر، لكن عرش "أولاد ذياب" تماطلوا في الأداء لـ"أولاد علي" الأمر الذي تسبّب في وقوع تشويش بينهما، كما تبينه نص الوثيقة الرابعة رقم 198¹ والمعنونة بنص الخلاص ونقتطع منها النص الأخير والذي جاء فيه: «...السبب الذي لأجله عرقل "أولاد علي" الخلاص هو أنّ "أولاد ذياب" قتلوا من "أولاد علي" خمسة رجال ولم يخلصوا في ديتهم وأخذوا منهم ثلاثة أنفار سجنوهم تحت يدهم ورجعوا لهم أربعة ثيران وسبعون ريال دورو وواحد سعي أخذولهم بهذا هو السبب الملحي لـ"أولاد علي" أنّ يعرقلوا الخلاص حتى يخلصوا في مطالبهم المذكورة».

إذن فالغارات كانت تُشجّ باسمرار بين القبائل الحدودية، ومن نماذج غارات قبائل الحدود الجزائرية التي طالت القبائل الحدودية التونسية نورد هذه الوثيقة والتي حوت إحدى عشرة غارة لعرب "تبسة" على "الهامة"، وتحوي أيضاً بيان المطالب بالمنهوبات ورأي قايد "تبسة" حول هذه المنهوبات وهذا نص الوثيقة².

«الحمد لله. بيان المطالب التي تطلبها "الهامة" من عرب "تبسة" بواسطة قيادهم وحدد هذا بوزارة العمالة

غرة شعبان الأكرم. بيان الغارات:

الأولى: غارة جماعة من عرب تبسة على جماعة من الهامة في طريق الجريد زمن الخريف سنة 1276هـ.

الثانية: غارة جماعة من عرب تبسة على جماعة من الهامة في جمادى الثانية سنة 1276هـ.

الثالثة: غارة جماعة من عرب تبسة على جماعة من الهامة في شعبان الأكرم 1276هـ.

الرابعة: غارة جماعة من عرب تبسة على جماعة من الهامة في جمادى الثانية 1276هـ.

الخامسة: غارة جماعة من عرب تبسة على جماعة من الهامة زمن الخريف سنة 1276هـ.

1 - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245.

2 - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 18. ينظر الملحق رقم (23)

السّادسة: غارة جماعة من عرب تبسة على جماعة من الهمامة زمن الشتاء سنة 1277هـ.

السّابعة: غارة جماعة من عرب تبسة على جماعة من الهمامة زمن الخريف سنة 1275هـ.

الثّامنة: غارة جماعة من عرب تبسة على جماعة من الهمامة في طريق الجريد في قعدة سنة 1276هـ.

التّاسعة: غارة جماعة من عرب تبسة على جماعة من الهمامة في طريق الجريد في رجب سنة 1276هـ.

العاشرة: غارة جماعة من عرب تبسة على جماعة من الهمامة في طريق الجريد جمادى الثّانية 1276هـ.

الحادية عشر: غارة جماعة من عرب تبسة على جماعة من الهمامة في جمادى الثّانية سنة 1276هـ.

أما عن المنهوبات في هذه الغارات فقد قمنا بتحويل معطيات الوثيقة إلى جدول للتسهيل والتّوضيح أكثر.

رقم الغارة	الأشياء التي نُهبَت	الأصل المدعي به	ما اعترف السّيد أحمد الشّاوش
الأولى	إبل	12	10
الثّانية	إبل	37	37
الثّالثة	ماعز	537	0
الرّابعة	غنم	8	8
	أنفس	5	5
	برانس	50	50
	مكاحل	35	35
الخامسة	أنفس	1	0
	إبل	4	4
	خيل	5	0
السّادسة	إبل	13	0
	فرس	1	0
السّابعة	أنفس	1	0
الثّامنة	إبل	13	0
التّاسعة	إبل	48	48
العاشرة	أنفس	4	4
	إبل	13	13
	غنم	336	336
	ماعز	270	270

3	3	أفراس	الحادية عشر
3	3	أحمرّة	
32	32	قطع مصبوغ فضة	
19	19	أنفس	
3	3	مجاريح	
57	57	إبل	
493	493	ماعز	
11	11	خيل	
32	32	أحمرّة	
84	84	مكاحل	
28	28	سيوف	
130	130	قطع مصبوغ فضة	
5776	5776	دراهم عين	

2/- الإغارة وازدواجيّة الولاء:

تعتبر العلاقات بين القبائل الحدوديّة الجزائريّة والتّونسيّة مسألة حساسة للغاية، خصوصاً وأنّ العديد من المجموعات الجزائريّة والتّونسية المتوطنة على الحدود كانت تعيش نوعاً من التواصل والتداخل¹، نتيجة تنقلاتهم الدائمة بين المجالين وفق ما تقتضيه مصالحهم وظروف حياتهم واستغلالهم لبعض الأراضي التي لم تقع فيها المفاصلة².

إنّ تتركز القبائل ذات الأحجام الكبيرة في مواقع على الأطراف كالحدود قد أمكنها من التمتع بنوع من الحرّيّة والاستقلاليّة في التّنقل من وإلى البلد الآخر، فقبيلة "الفراشيش" على سبيل المثال كانت تتمتع بنوع من الحرّيّة في التّنقل وتغيير مواقع استقرارها بسهولة والذي كان يمتد إلى كامل شرق البلاد الجزائريّة، لأنّ اتفاقيات الحدود بين البلدين التي تعود إلى بدايات القرن السّابع عشر لم تضبط حدود "الفراشيش" مع القبائل الجزائريّة، مما جعل السّلطة التّونسيّة تقبل بتمتع هذه القبيلة على غرار بقية القبائل الحدوديّة بهامش من الحرّيّة وبنوع من التّخفيفات الجبائية فتكتفي السّلطة ببعض الصّرائب المنقوصة أو المحدودة أو المقتطعة أحياناً أخرى، في مقابل ذلك حفاظ "الفراشيش" على حداثة تراب السّيادة عبر تشكيل فرق "الحواظ" و"العسيلات" و"القمامطة" حزاماً بشرياً قوياً أمام محاولات قبائل "النمامشة" و"الحنانشة" التّوسع داخل

¹ - إدريس رائي: المرجع السّابق ، ص 14.

² - الأزهر الماجرّي: قبائل ماجر والفراشيش، المرجع السّابق، ص 242.

بمجال "الفراشيش"؛ وعلى أية حال فالقبائل الحدوديّة استفادت من إقامتها على الشّريط الحدودي في ممارسة نشاط التّرحال الذي أرقّ السّلطة باستمرار، لأنّ هذا النمط كان بمثابة نمط عيش استراتيجي سمح لها بإمكانية الإفلات من المراقبة والحصار من جهة، ومكّنها من الاستفادة من موارد المجالات الخارجيّة وعدم استنزاف مجالها الدّاخلي من جهة ثانية¹.

كانت مواضيع صراعات القبائل الحدوديّة خلال القرن الثّامن عشر تدور في فلك الصّراع حول الأرض ومجالات المرعى والماء² لتتغير مواضيعها خلال حقبة الاحتلال الفرنسي، فبفعل اضطراب الأوضاع السياسيّة في الجزائر خاصة جهة الشّرق المتاخمة للحدود التّونسيّة وما انجر عنه من توتر للأوضاع الأمنيّة داخل قبائل الحدود التّونسيّة وامتدّ أثره ليشمل حتى تلك المجموعات التّونسيّة من قبائل "ماجر" و"الفراشيش" الموجودة في "بكارية" و"عين البيضاء" و"تبسة" الأمر الذي تسبّب في تعرّضهم إلى مضايقات، ولما لا إرغامهم على الهجرة أيضاً³.

وعموماً فإنّ هذه التّوترات الموجودة بين القبائل الحدوديّة لم تكن حكراً على القبائل الخاضعة لمجالين متباينين وسلطتين مختلفتين، بل اتسع مداها ليشمل حتى قبائل الصّفّ الواحد وحتى بين عروش و فرق نفس القبيلة لارتباطها بنمط عيش هذه المجموعات، استناداً إلى أعرافها وقيمها القائمة على مبدأ الشّرف والشّجاعة والنّسب، بحكم أنّ الإغارة في المنطق القبلي تندرج ضمن مفاهيم الرّجولة والشّجاعة والدّفاع عن الشّرف وصيانتها وغسل العار⁴.

ثانياً- الأحلاف والصّفوف عند القبائل الحدوديّة وتفكّكها:

إنّ الدّراسات المتناولة تاريخ القبائل في الجزائر ودورها وعلاقتها ببعضها البعض وعلاقتها بالسّلطة قليلة إذا ما قورنت بنظيرتها التّونسيّة، والتي أوجدت لها حيزاً كبيراً من اهتمام الباحثين والدّارسين في هذا الموضوع، وهو ما سيحتم علينا إيفاد النّماذج التّونسيّة بحكم توفّرها من باب الاستشهاد، ومع وجود النّدرة فقد سعيت لإعطاء نماذج عن الطّرف الجزائري حسب ما توفر بين أيدينا من مادة علميّة.

1 - الأزهر الماحري: قبائل ماجر والفراشيش، المرجع السّابق، ص 289 - 292.

2 - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 182.

3 - الأزهر الماحري: قبائل ماجر والفراشيش، المرجع السّابق، ص 244.

4 - نفسه، ص 213.

1- الأحلاف والصُفوف:

يعتبر انقسام الأجزاء القبليّة وتحالفها أمراً استراتيجياً أكثر مما هو مواقف ثابتة أوجدتها الدوافع الاقتصادية المرتبطة أساساً بحركتي الانتجاع والظعن¹ من هذه المجموعات، والتي أسست لعلاقات اجتماعية قوية بلغت حدّ الأخوة والصّحبة، ففي مناطق الوسط والجنوب التونسي تبنت القبائل هذه الظاهرة التي هي عبارة عن عدّة موثيق والتزامات شفوئية وأدبية تجعل منها حليفة، خاصة في أوقات اشتداد الأزمات².

ومن ناحية ثانية فإنّ الصُفوف أوجدت لنفسها معايير متعدّدة لتحقيق المساعي المرجوة من هذه التّحالفات ومن هذه المعايير: شرط التّوازن في عدد الأحلاف والذي يؤدي بدوره إلى توازن المقاتلين، ففي الصّراع الذي كان يجمع "الفراشيش" بـ"الهمامة" وفرت هذه المعايير، فـ"الهمامة" تحالفوا مع قبائل "جلاص" و"أولاد عون" وأضافوا إليهم "ونيفة" لتطويق المجموعة الثّانية من الجهة الشّماليّة والمكوّنة من "ماجر" و"الفراشيش" و"أولاد عيار" الذين تحالفوا مع "أولاد زيد" في الجهة الجنوبيّة في سلوكٍ مضادٍ للتّحالف الأوّل "للهمامة"، ثم إنّ هذه الصّراعات بين "ماجر" و"الفراشيش" ضدّ "الهمامة" أفضحت فيها قبائل أخرى رعوئية فيما بينها ليسمح انضمام هذه العروش المضافة بتوفير أعدادٍ كبيرة من المقاتلين، فتحالفات "الهمامة" مع "جلاص" و"ورغمّة" و"ونيفة" وفوّرت عدداً من المقاتلين تعدى مائة ألف مقاتل، وهو لا يقلُّ عن التّوازن العسكري الدّيمغرافي لقبائل المجموعة الثّانية من "ماجر" و"الفراشيش" و"ورتان" و"بني زيد"، إذ يتجاوز هذا التّحالف مائة ألف هو الآخر³.

المعيار الثّالث الواجب توفره في الصُفوف أو التّحالفات: هو وجوب إقامة التّحالفات مع القبائل والعروش البعيدة نوعاً ما، بدل القبائل المجاورة، لأنّ في هذه الأخيرة توجد نقاط توتر وتشنج قائمة بينهم باستمرار حول نقاط المياه والمراعي، فمن باب نجاعة هذه التّحالفات يتطلب إقامتها مع قبائل وعروش الجوار لتجنب بؤر الصّراع المستدامة، وأيضاً من أجل تحقيق المعيار الرّابع الممثل في العمل على تطويق القبائل التي تعاديهما، لهذا تحالفت مع الأطراف البعيدة لتحقيق هذا المغزى، ومنه فالانخراط في تحالف مع الأنصار ضدّ الأجوار يعتبر بحثاً عن إثبات الذات وتعبيراً عن التّمايز في نفس الوقت، لقد ارتسمت الصّراعات الدّاخلية بين القبائل في شكل دوائر غير متداخلة وهو مجال يشبه رقعة الشّطرنج ذات اللونين المختلفين الذين يمثلان الصّفين المتصارعين⁴.

1- الظّعن: من "ظعن"، "يظعن"، "ظعناً"، والظّعن سبيل البادية لثّجعة، أو تحوّل من ماءٍ إلى ماءٍ، أو من بلدٍ إلى بلدٍ. ينظر: جمال الدّين بن منظور: لسان العرب، باب الطّاد، مادة: ظعن، المرجع السّابق، مع 4، ج 31، ص 2748.

2 - الأزهر الماجرّي: قبائل ماجر والفراشيش، المرجع السّابق، ص 209.

3 - المرجع نفسه، ص 209-210.

4 - محمّد نجيب بو طالب: المرجع السّابق، ص 119.

ومن نماذج هذه الصراعات بين القبائل الحدودية الجزائرية نورد نموذج صراع "التمامشة" مع "السؤافة" وتحالف "الهمامة" مع "التمامشة" ضد "السؤافة" بفعل الحقد عليهم لتحالفهم مع الشايبية سابقاً «لما اختلطت "اللمامشة" بـ"بني سليم" وتصاهروا وصاروا كالشبيء الواحد والقبيلة المتحدة أغرى بعضهم بعضاً على أهل "سوف" عموماً و"طرود" خصوصاً وترصدوا لهم من كلِّ طريق أخذوه للسفر ويهاجمونهم ليلاً فتارة يختلسون ما قدروا عليه ويقتلون من تعرض لهم، وتارة يلاقونهم كفاحاً لقلّة المسافرين مع العير فيقتلون الرجال ويأخذون الأموال، قيل أضروا بنحو العشرين عيراً في طريق "بسكرة" و"الزّاب الشرقي" و"نقرين" و"فركان" و"الجريد"، ثمّ جمعت "سوف" من كلِّ بلدة ناساً حتى صاروا جيشاً عظيماً و اغاروا على "اللمامشة" في موضع "سيدي عبيد" الآن وقتلوا منهم كثيراً وسبوا بعضاً من النساء وأخذوا ما وجدوه في ناحيتهم من الإبللّز والغنم مع ما بأيديهم من الأخبية والأثاث وغير ذلك، فلحققتهم اللمامشة في عدد كبير منهم، ومن أنصارهم الهمامة الذين امتلأت قلوبهم غيظاً على أهل "سوف" من أجل الشايبية...»¹.

مما سبق نلاحظ أنّ ظاهرة الصّف قد تعدّت القبائل التي تقع في نفس الحيز الجغرافي وتخضع لنفس السّلطة إلى التحالف مع قبائل البلد الثّانية عندما تلتقي نفس الأهداف والغايات، مما يوضح أبعاد وأفاق هذه الظّاهرة التي تتعدى الحدود الجغرافية والقوانين السّياسية وتعترف بالأعراف القبلية فقط والمنافع المادّية والاقتصادية المنجّرة من وراء هذا الاتحاد.

لقد حفظ الثّراث الشّعبي التّونسي هذه الممارسات بين القبائل التّونسيّة وحتى الحدودية في الدّكرة الشّعبية، عن طريق الأمثلة وكذا في الشّعر الشّعبي، ففي الصّراعات الدّاخلية التي كانت قائمة على سبيل المثال مع "بني زيد" وحلفائهم ضدّ "الهمامة" و"ورغمة"، تداولت منطقة "بني زيد" هذه المقولة للدلالة على أعدائهم عبارة "الهمّ والغمّ" كناية عن "الهمامة" و"ورغمة"²؛ وهذه بعض الأبيات التي تترجم الصّراع الكائن بين "التمامشة" و"أولاد العسال" والتي انتصر فيها "التمامشة" أوّلاً، لكن بفعل مؤازرة فرق "الفراشيش" كـ"الحوافظ" و"أولاد عسكر" تعيّرت مجريات المعركة لصالح "أولاد العسال" الأمر الذي انتهى بانحزام "التمامشة" واضطرارهم لمغادرة الموقع، والأبيات هي:

تلمينا على راي طالح
كي عيد يوم الدّبايح
وجا الريح ليهم مسامي
وهدفو طيور الدوامي
لاقي البلى ما تسامي

نحننا ولموش من طي
زراير في رحبة البي
غلبنا ولا عاد حيلات
ودار الفلك بعد ساعات
يتلاغظو بعلو الصوت

¹ - إبراهيم العوامر: المصدر السابق، و16.

² - محمّد نجيب أبو طالب: المرجع السابق، ص120.

والغلب على نجعهم بات

هزوه بارد وحامي¹

إنَّ هذه التّصنيفات التي تبنتها القبائل وفق منطق المصلحة جعل السُّلطة في كل البلدين تحاول الاستفادة منها لصالحها عبر تغذية هذه الصّراعات ونشر بذور التّفرقة بينهم، لأنّ اتّحادات القبائل في الغالب ينجر عنها تحالفات ضدّ السُّلطة المركزيّة، من هنا تحركت سلطة البلدين من أجل إذكاء نيران الخلاف والشّقاق بين القبائل لمنع تكوين تحالفات وحركات عصيان ضدها، فالسُّلطة التّونسيّة مثلاً حاولت الاستفادة من هذه الانقسامات داخل القبائل لتحقيق السّيطة مركزياً على المجالات والقبائل على حدّ السّواء لأنّ اتّحادات القبائل الكبرى كـ"الفراشيش" و"ماجر" و"الهمامة" سوف يؤرق أمنها ونفوذها، ولتجنب ذلك عمدت إلى اختراق هذه المجموعات من الدّاخل بعد عجزها عن تحطيمها خارجياً، فعمدت إلى تحطيم قواها العسكريّة وتغذية تناقضاتها الدّاخلية وإدامتها²، وبذلك تتمكن من ضمان طاعتها والاستحواذ على فائض إنتاجها الاقتصادي، ونفس الشّيء مارسته السُّلطة التّركيّة في الجزائر، حيث كانت تخشى من اتّحادات القبائل فسعت باستمرار من أجل منع اتّحاداتها لأن القبائل كلما اتّحدت امتنعت عن أداء فروض الطّاعة والولاء، بل قد لا تتوان على حمل السّلاح في وجه السُّلطة مثلما حصل في اتّحاد "النمامشة" و"الحراكتة" عام 1797م والذي انجرّ عنه تمرد على النّظام المركزي، وهنا تحركت السُّلطة للقضاء عليهم عبر تسيير حملة بقيادة "الوزناحي" الذي أحرز عليهم انتصارات هامة³.

2/- التّفكك والتّصدع للأحلاف والصّفوف:

ولأنّ السُّلطة المركزيّة كانت تتخوّف باستمرار من بقاء اتّحادات القبائل فإنّها شرعت على المستوى الاجتماعي بتفكيك المجموعات القبليّة القائمة على التّبدي وإجبارها على الاستقرار الجزئي، الشّيء الذي أدى إلى تجزئة الكيانات القرابيّة، فظهرت العائلات الممتدة لتحتل فضاءات رعويّة أو فلاحية خاصة بها كانت تحتلها العشائر، ثمّ تفتّت العائلات الممتدة إلى عائلات صغيرة نواتية. ورغم استمرار التّضامن الاجتماعي القائم على توفير الأمن الاقتصادي، إلّا أنّ عمليّة التّوطين التي تقوم بمعناها السّوسولوجي على أساس إدماج المجموعة القبليّة والكيانات المتفرعة عنها والمشابه لها في المجموعة الوطنيّة والسّياسيّة مما يضمن تسريب المشاعر الوطنيّة إلى الفضاء القبلي تدريجياً لصالح المجموعات الوطنيّة، فيكون الهدف القضاء على مرتكزات المجموعات القبليّة القائمة على التّضامن القرابي، والتّصرف في الملكيّة العقاريّة بشكل جماعي، والولاء المحلي - الجهوي، والصّراع مع الأجوار على الخيرات، وتحمّد هذا النّمودج بوضوح في القبائل التّونسيّة، حيث تمكّن "حمودة باشا" من الحصول على دعم القبائل له في حربه على الجزائر عام 1807 أين تمكّن من الحصول على دعم

¹ - الأزهر الماجري : قبائل ماجر والفراشيش، المرجع السّابق، ص290.

² - الأزهر الماجري: قبائل ماجر والفراشيش، المرجع السّابق، ص206.

³ - محمّد العربي الزّيري: المرجع السّابق، ص ص26-27.

مختلف القبائل التي استقطبها إلى جانبه بفعل حنكته ودهائه السياسي، حيث إنظمت له فرسان أعراس من قبائل "ونيفة"، "شارن"، "دريد" و"الأعراض"، ورغم الهزيمة التي مُني بها في البداية إلا أنّها لم تتراجع عن دعمها له، وجراء هذه المساندة الفعّالة من القبائل للسلطة تمكّن "حمودة باشا" من تحقيق نصر على الجزائر عام 1807م¹، والتحرّر أيضاً من تبعيّة الجزائر التي قارت نصف قرن، وعليه يتبين لنا نجاح مخططه في تحويل ولاء القبائل من القبيلة إلى الوطن، وقد أحرز هذا التّغيير عديد النتائج الإيجابيّة على الإيالة التّونسيّة بحفاظ القبائل على الحدود ومجالات السّلطة والدّفاع والدّود عنها، بعدما كانت بعيدة عن هذه المفاهيم كل البعد في عدم اعترافها وولائها إلا للقبيلة والقبيلة فقط².

على أنّ عملية التّوطين للقبائل التّونسيّة جاءت نتيجة تمييز السّلطة المركزيّة للمجال وسيطرتها على المبادلات الدّاخليّة، والذي تمخّض عنه اختزال التّوازنات الاقتصاديّة القديمة القائمة بين القبائل والسّلطة، فالسلطة سابقاً كانت تتخوف من تحاديات وتحالفات القبائل الكبرى التي من شأنها أن تزعزع نفوذها عبر تهديدها لطريق السيّادة وهو طريق محلّة الشتاء وجلب خيرات الجريد³، وبهذا انتهت العلاقات التّكامليّة بين المناطق الطّبيعيّة وأجبرت القبائل شبه الرّحل على الاستقرار، وتحوّل نشاطهم من تجار ورعاة إلى مزارعين يعملون على اقتناء الأراضي وإحيائها⁴.

لتشهد القبائل التّونسيّة تفكّكاً وتصدعاً كبيراً وواسعاً جراء انتفاضة سنة 1864م التي كانت وطأتها شديدة الأثر عليها بفعل سياسة التّشريد التي انتهجتها حكومة "الصّادق باي" ضدّ القبائل الحاضنة للمقاومة، فتحوّل على إثرها الفلاحون إلى "خماسة" وهلك عددٌ كبيرٌ جراء المجاعات والأوبئة، وعلية تفكّكت أوامر المجتمع القبلي ومعه عرى التّضامن التي كانت تكفلها القبيلة لكل الأفراد المنتمين إليها، وأصبح المشهد القبلي يقوم على اعتداء أفراد العرش الواحد على بعضهم البعض، ولم تعد المراعي والأراضي ملكاً مشاعاً كما كانت في سالف الزّمان، بل لم تعد القبيلة التي كانت تمثّل الوحدة الاجتماعيّة والاقتصاديّة التي تكفل الحماية الكاملة لكل الأفراد قادرة على حماية المعدومين، ومنه فأفراد العشيرة لم يصبحوا مستهدين من السّلطة فحسب وإنما من عناصر داخل العشيرة نفسها، وعليه فالأزمة التي أحلّت بالبلاد التّونسيّة كانت نتاجها وخيمة على المجتمع التّقليدي على وجه الخصوص تمثلت في تخلخل أركان القبيلة وتصدعها بشكل كبير⁵.

أمّا القبائل الجزائريّة فقد خضعت لهذه العمليّة تحت وطأة الإكراه والإكراه من طرف المستعمر الفرنسي في ظلّ إدراكه الكامل لقوتها وعرفلتها لمشاريعه الاستعماريّة والاستيطانيّة والاستعماريّة نظير الدور الذي تودّه هذه

1 - فاطمة بن سليمان: المرجع السّابق، ص 217.

2 - محمّد علي الحباشي: المرجع السّابق، ص 61.

3- الأزهر الماجري: قبائل ماجر والفراشيش، المرجع السّابق، ص 206 .

4- عبد الحميد هنية: تونس العثمانيّة، المرجع السّابق ص 67.

5 - محمّد علي الحباشي: المرجع السّابق، ص ص 76-77.

القبائل في الحفاظ على وحدة المجتمع وأصالته وحفاظها على مورده الاقتصادي والاجتماعي والثّقافي، فعمد بذلك إلى خلخلة هذا الصّرح عبر مخطط تفكيكه وإعادة تركيبه وفق نمط جديد يتلاءم مع رغباته وأهدافه الاستعماريّة في المنطقة.

لقد كابدت القبائل الجزائريّة الحدوديّة الولايات من المستعمر الفرنسي الذي قام بصبّ جام غضبه وتعسفه عليها، لإدراكه التّام بأهمية ودور القبيلة في المقاومة والذي مثّلت القبيلة روحها ونواتها الصّلبة على حسب تعبير "بيار بورديو" (Pier Bourdieu)¹، لهذا لم تدخر الإدارة الاستعماريّة جهداً ولا وقتاً في سبيل زعزعة أهمّ مُقوّمين للقبيلة، وهما: الأرض والوحدة القائمة بين عروشها وفرقها، فقامت بمصادرة أراضيها ثمّ عمدت إلى تفكيكها عبر تصغير وحداتها ونقلها من مواطنها وإسكانها في هياكل إداريّة واجتماعيّة جديدة عُرفت بالدوّار².

2 - 1 - أسباب التّفكيك:

- ✓ مقاومة القبائل للغزو الفرنسي ومشاركتها في عديد الانتفاضات ضدّ الاحتلال الفرنسي³.
- ✓ الوحدة والتّعاقد الذين ربطا بين أفرادها وتسببهما في تباطئي حركة تغلغل العنصر الأوروبي في الجزائر⁴.
- ✓ امتلاك هذه القبائل لأراضي شاسعة تفوق طاقتها الاستيعابيّة ورغبة الاستعمار الفرنسي في ضمّها لممتلكاته⁵.
- ✓ عرقلة المجتمع القبلي للمشاريع الاستعماريّة الرّامية إلى التّوسع في المناطق الدّاخلية، إذ أنّ النّظام القبلي ذو طابع التّرحال كان بمثابة حجر عثرة أمام تمكين السّيّطرة الاستعماريّة وتحقيق الاستيطان، فضلاً عن تسببه في متاعب أخرى للاحتلال⁶.

¹ - بيار بورديو "Pier Bourdieu": عالم اجتماع فرنسي، وُلِد في سنة 1930 في دينغين Denguin في البرينيه الأطلسية من والد موظف، درّس في ثانوية بوا PAU و ثانوية "لوي لوغراند LOUIS-LE-GRAND" وفي كلية الآداب بباريس والمدرسة العليا للأساتذة، وبعد تحضله على شهادة "التّبريز" AGERGATION عين أستاذاً بثانوية "مولان" في 1955م، كما درّس في كلية الآداب بجامعة الجزائر في الفترة ما بين 1958-1960م وبجامعة ليل LILLE بين 1961 و 1964م. في 1981رُسم في كرسي علم الاجتماع بالكوليج ودي فرانس، كما شغل منصب مدير في المدرسة العليا للعلوم الاجتماعية، ومدير لمركز علم الاجتماع الأوربي، وأشرف على مجلة أعمال البحث في العلوم الاجتماعيّة، من إنتاجه العلميّة: إعادة الإنتاج، التّميز وبؤس العالم، وكلها أعمال اتسمت بالثراء والخصوبة. ينظر: عبد الكريم بزاز: علم اجتماع بيار بورديو، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم (غ.م)، نخ: علم الاجتماع و الدّيمغرافيا، جامعة منتوري، قسنطينة - الجزائر، 2007م، صص 16-17.

² - عبد الوهاب شلالي: المرجع السّابق، ص 100.

³ - محمّد العربي الرّيز: تاريخ الجزائر المعاصر، ج1، ط1، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999م، صص 17-18.

⁴ - صالح حيمر: المرجع السّابق، ص 119.

⁵ - أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنيّة الجزائريّة، ج1، ط1، دار غرب الإسلامي، بيروت، 1992م، ص 231.

⁶ - عبد الوهاب شلالي: المرجع السّابق، ص 110.

2 - 2 - إستراتيجية التفكيك:

جُسدت عبر قانون "سيناتوس كونسيلت" 1863م الذي يعتبر بمثابة اللبنة الأساسية لبقية التشريعات العقارية التي تلتها، حيث سعى المستعمر بواسطته إلى تفكيك البنية القبليّة من خلال تفتيتها وتجزئتها ووضعها في وحدات إداريّة صغيرة هي الدواوير، والتي تفتقد لأدنى شروط العيش الكريم، ولم توفر فيها الإدارة إلاّ الصّوريات التي تكفل لها عدم نشوب أيّ حركة عصيان أو أيّ انتفاضة ضدها، وهذا الدّوار يجوي مجموعات سكّانيّة غير متجانسة تضمّ بقايا القبائل المفتتة، وعليه فالأهالي حوصروا في مساحة معيّنة محدودة المعالم ومعلومة المسالك لكي تتمكن الإدارة الاستعماريّة من مراقبة تحركاتهم، وبالتالي قمع أي انتفاضة يمكن أن تنشب، فهذه العمليّة تتم بتقسيم القبيلة الواحدة لمجموعة من الدواوير وأحيانا أخرى تقوم بجمع أقسام من قبائل مختلفة ودمجها في دوائر واحد، وعملت في أحيان أخرى إلى إلحاق بعض القبائل بمراكزها الاستيطانيّة مباشرة دون أن تقوم بتقسيمها إلى دواوير، فبهذا الشّكل أمكن ضرب وتفكيك هذه السّلطة الارستقراطيّة التقليديّة الموحدة والمتماسكة¹.

2 - 3 - نماذج من القبائل التي نُفدَ فيها مخطّط التفكيك:

2 - 3 - 1 - تجزئة قبيلة النمامشة: عمّد الاستعمار الفرنسي إلى الشّروع في مخطّط ضرب البنية الاجتماعيّة للمجتمع الجزائري وذلك عبر تفكيك القبائل ذات الحجم الديمغرافي الكبير، كقبيلة النمامشة التي تعتبر من كبريات القبائل التّبسيّة إلى وحدات إداريّة محدودة العدد، يتراوح عددها إلى ثلاثة أو أربعة مجموعات لكلّ قبيلة، وقد تمّت تجزئة هذه المجموعات إلى دواوير، وسعت إلى أن تتركب هذه الوحدات الإداريّة المشكّلة جديداً من مجموعات غير متجانسة بشرياً ومن أصول مختلفة، في بيانٍ صريح لقسم الوحدة القبليّة وقوتها التّعاضديّة التي من شأنها أن تُشكّل عائقاً له في مشاريعه التّوسعيّة على إقليم الحوز وعلى حساب أراضي هذه القبائل، وتسهيلاً لعملية استخلاص الصّرائب منها، ففي حالة العصيان سيتمكن بيسرٍ من معاينة العروش أو العرش الممتنع كمعركته ضدّ البرارشة² و"العلاونة" في عام 1854².

كما قامت سلطة الاستعمار بعد تفكيك هذه القبيلة وجعلها في دواوير تتكون من مجموعات غير متجانسة وذات أصول مختلفة، بفصل بعض المجموعات على القبيلة الأم، كما حصل لعرش "أولاد الرّشايش" الذي الحق بدائرة خنشلة، وعموماً قد شرع في تقسيم البنية الديمغرافيّة والجغرافيّة لقبيلة "النمامشة" النّقيب "ألغرو" (Aligrou) (1852-1855م) وفق المخطّط التّالي³.

أ) - البرارشة: تحت قيادة "علي بن محمّد بن عبد الواحد"، تُقسّم القبيلة إلى أربعة فروع هي:

¹ - صالح حيمر: المرجع السّابق، ص 277.

² - بيار كاستيل: المصدر السّابق، ص 203 - 206.

³ - الأزهر المجاري: القبيلة الولائيّة والاستعمار، المرجع السّابق ص 92 - 93.

- ✓ فرع الزرّامة: يضمُّ أربعمئة (400) خيمة ومشختين.
- ✓ فرع "أولاد محبوب": يضمُّ مائة وواحد وخمسون (151) خيمة ومشخة واحدة.
- ✓ فرع "بني أسيد": يضمُّ ثلاثمئة وستون (360) خيمة ومشختين، هما: مشخة "أولاد مسعود"، ومشخة "أولاد خليفة".

✓ فرع "أولاد حميدة": يضمُّ ثلاثمئة وعشرون (320) خيمة ومشخة واحدة.

(ب) - فرع العلاونة: تحت قيادة "محمد الحفصي بن أحمد"، وينقسم هذا الفرع بدور إلى أربعة فرق هي:

- ✓ "أولاد شامخ": يضمُّ مائة (100) خيمة ومشخة واحدة.
- ✓ الزرّامة: يضمُّ ثلاثمئة (300) خيمة و مشخة واحدة.
- ✓ "أولاد ساعد" و "أولاد العمرة": ثلاثمئة وعشرون (320) خيمة ومشخة واحدة.
- ✓ أجالمة واجدور: سبعمئة وسبعون (770) خيمة ومشختان.

(ج) - أولاد رشاش: تحت قيادة "علي بن رجب"، وتنقسم القبيلة إلى الفروع التالية:

- ✓ "أولاد زايد": تضمُّ ثمانمئة (800) خيمة ومشخة واحدة، يضاف إليهم فرع "أولاد سليم".
- ✓ "أولاد نابت": وتضمُّ خمسماية (500) خيمة ومشخة واحدة، يضاف إليهم فروع "كياتة" و "أولاد زيتون" و "أولاد عاشور".
- ✓ المقادة: يضمُّ أربعمئة وعشرون (420) خيمة ومشخة واحدة، يضاف إليهم فروع "أولاد نصر" و "أولاد أحمد بن علي" و "أولاد بوالانوار".¹

في قراءة متأنية لهذه التّقسيم يلاحظ أنّ هناك عدم تطابق ما بين عدد مشايخ العروش الثلاثة مع الأحجام الديمغرافية للفرق، حيث يُشرف على "البرارشة" ألف ومئتين و واحد وثلاثون خيمة (1231) خيمة ستّة (6) مشايخ، في حين نجد عدد خيام عرش "أولاد الرّشاش" ألف وسبعمئة وعشرون (1720) خيمة، يشرف عليها ثلاثة مشايخ، وما يقال على العروش يقال على الفرق أيضا، إذ نلاحظ أنّ هناك اختلاف ما بين الحجم الديمغرافي للخيام وعدد المشايخ له، ومثاله في فرع "أولاد زايد" من عرش "أولاد رشاش" الذي يتكون من ثمانمئة (800) خيمة تحت مشخة واحدة، في المقابل منه نجد مثلاً فرقة "أولاد شامخ" التي بها مائة (100) خيمة تحت مشخة واحدة، وهذا الأمر نرجح رجوعه إلى صعوبة اختراق البنية الداخلية للقبائل رغم نجاح المحتل في تقسيمها الإداري والبشري.²

¹ - بيار كاستيل: المصدر السابق، ص 202.

² - الأزهر المجري: القبيلة الولائية والاستعمار، المرجع السابق، ص 93 - 95.

2 - 3 - 2 - تجزئة قبيلة أولاد سيدي يحيى: وفي هذا الشأن يذكر القائد "بونفالي"¹ المكلف بإعادة تنظيم هذه القبيلة ما يلي: « فرقت بين مختلف فرق القبيلة المتداخلة فيما بينها وخصّصْتُ لكل منها أرضاً وجب عليها فلاحتها والإقامة فيها، وكلفت كبير القوم في كل فرقة بالحراسة، والحفاظ على النّظام وتنفيذ الأوامر الصّادرة عن السّلطة، بذلك يمكن مراقبة القياد جيداً»².

3 - 3 - 3 - تجزئة قبيلة أولاد سيدي عبيد: تسمح الأراضي التي اقتطعتها اللجنة الإدارية من مجال قبيلة "أولاد سيدي عبيد" وألحقتها بأملك الدولة حوالي 48259 هكتار، وتتكوّن هذه المساحات في معظمها من أراضي الفرق التي هاجرت إلى إيالة تونس زمن الاجتياح الفرنسي والتي صادرتها الإدارة الفرنسيّة، كما تشمل المرتفعات الجبلية والغابات التي تمّت مصادرتها لفائدة مصلحة الغابات بعد أن حرمت القبائل من حق الانتفاع منها، وتتركز أغلب هذه الأراضي بالمجال الشمالي من أراضي قبيلة "أولاد سيدي عبيد" لاسيما حول "تبسة" و"بكارية" و"الماء الأبيض"، هذه الأراضي الزراعيّة والغابات استفادت منها الشّركات الأوربيّة وأصحاب رؤوس الأموال الأجنبيّة³.

ورأت الإدارة الفرنسيّة أنّ ما أبقت عليه من مساحة التي تشمل الفضاء الممتد من جبال تنوكلة وقبيلة "أولاد سيدي يحيى بن طالب" كافٍ لهؤلاء السكان بحكم أنّه لم تبق منه سوى مشيخة واحدة⁴.

قسّمت اللجنة قبيلة "أولاد سيدي عبيد" ومجالهم إلى ثلاث وحدات إداريّة أو دواوير منفصلة عن بعضها البعض، أطلق عنها "داور بكارية"، "داور الماء الأبيض"، "داور سيدي عبيد"، وأسندت إلى الدواوير الثلاثة المذكورة مساحة تقدر ب: 37129 هكتار في مقابل المساحة الإجماليّة المقدّرة ب: 178500 هكتار بمعدل 21% فقط مخصّصة من المساحة الإجماليّة منحت لـ "أولاد سيدي عبيد"، أمّا 79% فقد خُصّصت لصالح المحتل الفرنسي، ومنه فهذه المحدودية في المساحة المخصّصة للدواوير الثلاثة لـ "أولاد سيدي عبيد" جعلتهم يرفضون هذا الشّكل من التّوطين⁵.

لم تكن الإدارة الاستعماريّة بهذا الإجحاف في حق "أولاد سيدي عبيد"، ففضلاً عما تقدم ذكره نجدها قد شكّلت هذه الدواوير الثلاثة من مجموعات غير متجانسة من بقايا القبائل المفكّكة و المحتثة من مواقعها الأصليّة وأطلق على هذا التّجمع البشري الجديد اسم "داور سيدي عبيد" وتعني تغيير تسمية قرية قنتيس " باسم "داور سيدي عبيد" حصر القبيلة ككل في هذا المجال الجغرافي والبشري الضيق من ناحية، واعتبار دواوير

¹- بونفالي - Bonvalet: هو القائد الأعلى لحوز "تبسة" سنة 1854م، وكان يشغل رئيس سرّيّة المدفعية. ينظر: بيار كاستيل: المصدر السابق، ص. 335.

²- عبد الوهاب شلاي: المرجع السابق، ص 101 - 102.

³- الأزهر الماجري: القبيلة الولائيّة والاستعمار، المرجع السابق، ص 105.

⁴- بيار كاستيل: المصدر السابق، ص 209.

⁵- الأزهر الماجري: القبيلة الولائيّة والاستعمار، المرجع السابق، ص 107-108.

"بكارية" و"الماء الأبيض" اللتين تحتضنان الجزء الأكبر من "أولاد سيدي عبيد" غير تابعتين للقبيلة، مما يوحي بأنّ هذين الدوّارين لا ينتميان للقبيلة باعتبار أنّهما لم يحملان اسم الجدّ المؤسس في التّسميات الإداريّة الجديدة¹.

كما نجد أنّ سلطات الاحتلال قد قامت بتجريدتها من أراضيها، فقد عادت هذه السلطات مجدداً لقضية رسم الحدود سنة 1888م والتي كان من أهم نتائجها إلحاق كامل مجالات "أولاد سيدي عبيد" الواقعة غرب "الهمامة" و"الفراشيش" بالثّراب الجزائري، وهو ما أفقد القبيلة لجلّ أراضيها "كعقلة" الحرشان و"بنتية" و"سوكياس" و"القروية" و"بئر العاتر"، وتمّ إلحاق فرق من "الفراشيش" ك"الزغابة" ومن "ونيفة" "الزغامة" بالأراضي التي ضُمَّت للمجال الجزائري، وبهذا فقرار 1888م قد فصل أجزاء كبيرة من القبيلة عن مجالاتها الزراعيّة والرّعيّة لتصبح على إثرها قبيلة "أولاد سيدي عبيد" فرع "أولاد عبد الملك" بلا أرض²، الأمر الذي دفع بهذه الأخيرة للاعتراض عن هذا التّحديد الجديد وأخذت ترسل الهيئات العليا مطالبة بإعادة ترسيم الحدود³.

استمر مسلسل التعذيب الاستعماري في حق هذه القبيلة فبعد الإجراءات التّعسفيّة السّالفة الذّكر، أقدمت فرنسا هذه المرة بعد مرور سنة على القرار السّابق بسنّ قرار جديد في حق القبيلة يقضي بإخضاع قبيلة "أولاد سيدي عبيد" للجباية، بعد أن كانت مُعفاة منه بحكم أنّها قبيلة مرابطيّة ولائيّة، وهو إجراء يبعث عن التّساؤل في كيفية أداء هذه القبيلة للضرائب وهي تفتقر للأرض ومن دون موارد ثابتة⁴.

كما نجد أنّ إدارة الاحتلال قد سعت لضرب كيان القبيلة ومقوّمات استقلاليتها وسيادتها، من خلال إلغاء قيادتها بفرعيها "الحمادي" و"أولاد عبد الملك" نهائياً، بفعل مرسوم 15 فيفري 1890م وإلحاقها بقيادات المناطق التي تستقر بها وذلك وفق المخطط التّالي :

أماكن الاستقرار	أسماء الفرق
بلاد الجريد والواحات الجبليّة (نفطة، توزر، تمغزة، ميداس الشّبيكة).	الرّكاكة - أولاد بوشقرة - أولاد سمية.
الحوض المنجمي إبراهيم، أم العرايس، المتلوي.	طبابة-خلايفيّة-سوالميّة - أولاد بوصلاح-شرايطة.
السّراقية، الصّخيرة، فريانة، سبيطلة من بلاد الفراشيش وماجر.	أولاد أحمد بن إبراهيم - أولاد ثابت.

¹ - الأزهر الماجري : القبيلة الولائيّة والاستعمار، المرجع السّابق ، ص110.

² - الأزهر الماجري: القبيلة الولائيّة والاستعمار، المرجع السّابق، ص234-235.

³ - أ. و. ت: الصّندوق 213، الملف 245، الوثيقة 181.

⁴ - الأزهر الماجري: القبيلة الولائيّة والاستعمار، المرجع السّابق، ص237-238.

أولاد محمد - أولاد عبد السلام - أولاد عمر بن عيسى.	فائلة أولاد بوغانم بجهة الكاف.
أولاد سيدي عبد السلام.	الرّقاب وسيدي بوزيد ببلاد الهمامة ¹

وقد تمّ تعميم هذا الإجراء على المجموعات المنتشرة بالجزائر، وهذا بهدف تذويب القبيلة داخل المجموعات الجديدة ووضع حدّ لوجودها ككيان مستقل ذو سيادة، الأمر الذي لم تتقبله القبيلة ورفضته بشدّة، فطالبت بحلّ بديل ألا وهو الرّجوع لأرض الوطن.

وهنا نتساءل عن سبب إقدام الاحتلال الفرنسي على هذا المخطط التدميري في حق قبيلة "أولاد سيدي عبيد"، فبحثنا عن إجابة لذلك، فوجدناها في التّصريح الذي أبداه الرّائد "بونفالي" بقوله: «...كل "أولاد سيدي عبيد" أعداء وإذ لم يكونوا محاربين فهم نقلة معلومات وأخبار من الجنوب الصّحراوي ومن الإيالة التّونسيّة وتسمح لهم خصوصيتهم الدّينيّة بالسفر بيّسر بعيداً عن أعين الإدارة الفرنسيّة وهم الذين يزودون المتمردين من "التّمامشة" بالحبوب ويتاجرون بالبارود والسّلع المهربة»². بما معناه نظير الدّور الذي يؤده هؤلاء في إيواء المقاومين وتزويدهم بالمعلومات وتوفير المؤن لهم، ولما لا السّلاح أيضاً، يضاف إليها كون قبيلة "أولاد سيدي عبيد" رافضة للخضوع للإدارة الاستعماريّة، فقد تكرّرت هذه العبارة في أكثر من موضع «...هم في حالة عصيان دائم، في واقع الحال يبدو أنّ طابعهم الدّيني عدم الخضوع لإدارتنا»³.

وفي سنة 1862م عندما بدأت أحداث تونس قام القائد "فلونبي" بتشديد الرّقابة على هذه القبيلة لأنّ أهلها كانوا دائماً على علاقة متينة بقبائل الإيالة التّونسيّة نظراً للهوية المزدوجة لهذه القبيلة فشطرت منها يستقر حول الرّواية الأم قنتيس غرب "تبسة" بالجزائر مجموعات كبرى منها على الشّريط الحدودي الغربي للبلاد التّونسيّة وقسم كبير بجهة الجريد بالإضافة إلى طابعها المرابطي الذي أكسبها الحظوة والاحترام بين قبائل الحدودية في كلا البلدين⁴، ومنه فقد كانت قبيلة أولاد سيدي عبيد وكبيراً ما تستضيف عندها أعداداً كبيرة من أفراد تلك القبائل الذين يبحثون عن ملجأ، إمّا للتخلص من دفع الضّريبة، أو للإفلات من عقوبة، أو لغرض آخر، ثمّ أنّ هذه القبيلة في ظلّ غياب الرّقابة أضحت ملتقى لكلّ الجرمين الذين يجتمعون هناك للقيام بأعمال النّهب والاعتداءات من كل نوع⁵.

¹ - الأزهر الماجري : القبيلة الولائيّة والاستعمار، المرجع السّابق، ص ص 241 - 242.

² - بيار كاستيل: المصدر السّابق، ص ص 211 - 212.

³ - المصدر نفسه، ص ص 211 - 212.

⁴ - الأزهر الماجري : القبيلة الولائيّة والاستعمار، المرجع السّابق، ص ص 12.

⁵ - بيار كاستيل: المصدر السّابق، ص ص 211 - 212.

ويضيف "فلونبي" في وصفه لقبيلة "أولاد سيدي عبيد" قائلاً: «...كانت القبيلة لا تخضع لأي سلطة وهي مركز كل المتابعين المحرمين، ولم تتمكن في الواقع من تنفيذ الأمر بها...»¹.

على أنّ علاقة القبيلة الحسنة بالإيالة التونسية التي وجدوها منها الرعاية الأمان ما بين سنة 1846 و1871م² قد سمحت لها بأداء دورها بامتياز لناحية الأمن وتنشيط التجارة، وذلك قبل أن تتمكن سلطة الاحتلال الفرنسي من التأثير على السلطة التونسية في تغيير موقفها، من أجل أن يتمكنوا من فرض سيطرتهم على القبيلة التي كانت صعبة الانصياع لهم، وهو ما ذهب إليه الرائد "بونفالي" عام 1858م بقوله: «...وهم على علاقة متينة بالإيالة التونسية تسمح لهم بالتزود بالحبوب وجميع الضروريات، ونحن ندرك أنّ القوة ليست الوسيلة الناجعة في التعامل معهم، كما أنّ قطع المؤن عنهم لا يؤدي إلى مجاعة لاعتمادهم على الإيالة، وهو ما يجعل إخضاعهم صعباً، ولعلّ الحلّ يكمن في تنصيب وحدات عسكرية على إقليم قبيلتهم والاتفاق مع باي تونس لمنع قبائل الإيالة من استقبال أيّ واحد من قبيلة "سيدي عبيد"، ولكن الإيالة متساهمة معهم، وهم متمركزون في الدخلة بجوار "جبل العنق" ويمكن لهؤلاء أن يتسببوا في متاعب كبيرة لنا تساعدنا في ذلك القبائل التونسية المجاورة، وهذا قبل خضوعهم النهائي»³.

يضاف إلى ذلك فشل إدارة المحتل في تجنيد أعوان استعلامات لها من قبيلة "أولاد سيدي عبيد" خصوصاً في المنطقة الممتدة بين منطقة "الجريد وإقليم "حوز تبسة"، لأنّها لم تجد من بينهم من يوثق في أداء هذه المهمة، وعض ذلك أدت الدور العكسي لما تشتهيه فرنسا تماماً عبر تسهيلها لحركة تنقل المقاومين، وقد عبّر "كاستيل" عن هذا بقوله: «...عض أنّ يكونوا كما أرادت الإدارة الفرنسية طوق وقاية من جماعات النهب التونسية أصبحوا أعواناً لها يُسهّلون لهم التسلل إلى مضارب "التمامشة" ويؤمنون لهم الفرار وراء الحدود»⁴.

3- /مُخَلِّفات وانعكاسات هذه الإجراءات على القبائل:

- تحرير الأفراد من الرّوابط الجماعية التي تشدّهم إلى القبيلة بفصلهم عنها وتجميعهم داخل الدّواوير⁵.
- تغيير المنظومة الاجتماعية السائدة في حياة هؤلاء، «فبالاضطرابات في حياة هؤلاء أدّت إلى انعكاسات على الصّعيد الاجتماعي إنّ تفتيت القبائل وفروعها وانفجار العائلات الموسّعة هما أوّل هذه الانعكاسات الاجتماعية، ينطوي نمط الحياة على التّنظيم الاجتماعي خاصة فكلّ تغيير في هذا النمط يؤدي إلى تغيير في التّنظيم الاجتماعي»⁶.

¹ - بيار كاستيل: المصدر السابق، ص 228.

² - الأزهر الماجري: القبيلة الولائية والاستعمار، المرجع السابق، ص 16.

³ - بيار كاستيل: المصدر السابق، ص 212.

⁴ - المصدر نفسه، ص 231.

⁵ - الأزهر الماجري: القبيلة الولائية والاستعمار، المرجع السابق، ص 98.

⁶ - الهواري عدي: المرجع السابق، ص 95.

● تغيير في نمط عيش القبائل بفعل إلغاء الخيمة وإحلالها بالدواوير وهذا الإجراء الجديد قد أضّر بشكل كبير سكان الجبال لتحويلهم من حياة البداوة إلى الحياة الحضرية منذ بدايات الاحتلال، وأخذت ظاهرة البداوة تتلاشى بمرور الوقت إلى غاية عام 1870م أين لم يبق منها إلا إرهابات ضئيلة جداً حيث «أدى الاضطراب الاقتصادي الذي كان سببه الاستعمار سلمياً أو بالعنف وانتزاع الأراضي وطرد السّكان وإسكانها كانتونات أدى ذلك إلى التّأثير بشدّة على أنماط حياة سكان الجزائر، كان لهؤلاء السّكان الذين تعرضوا للإقامة في أمكنة محصورة أن يثبتوا في مكان واحد وإن كانوا من البدو أو أنصاف البدو، وأن يضيق الخناق عنهم إن هم كانوا حضريين وكانوا مجبرين من جراء ذلك على إجراء تغيير في نمط معيشتهم أخذين بعين الاعتبار الأوضاع الجديدة، ويبدو أن نصف البدو بخلاف أبناء الجبل قد غيروا أنماط حياتهم بمعنى أنهم انتقلوا من حياة البداوة إلى حياة الحضرية وهذا غداة الاحتلال وانطلاقاً من 1870م وبهذا صارت أنماط الحياة متغيّرة تماماً بحيث بقاء بعض ممارسات النّمط الأصلي لا يعدو كونه بقايا من الماضي في طريقها للانقراض البطيء...»¹، وعلى إثر ذلك أضحت القبيلة الجزائريّة جراً السياسة التّفكيكيّة الاستعماريّة في حالة احتضار منذ العقود الأخيرة للقرن التّاسع عشر².

● تحوّل القبائل للحياة الحضرية في شروط قاسية ومكرهة لأنّ تحوّلها من الخيمة إلى الجوربي (القوربي) الذي لا يمكن إدراجه ضمن التّحول الحضري بقدر ما هو يُعبّر عن انهيار المعطيات السّابقة أيّ الحياة البدويّة، لأنّ هذا التّحول لم يتم عن رغبة أو مسايرة منهم لمقتضيات التّقدم بقدر ما كان تحت وطأة الضّغط والإكراه، ثمّ إنّ التّحضر يُقاس بحجم الخدمات ووسائل الرّاحة باعتبار أنّ الانتقال فيه يكون تحولا من الحسن إلى الأحسن، لكن ما نلاحظه عن هذا التّحول ما هو إلاّ تحوّل من السيئ إلى الأسوأ، لأنّ هذا الجوربي ذو المظهر الحضاري كان يفتقد لأدنى الشّروط الصّحيّة بخلاف الخيمة التي تلاءم طبيعتهم، فبحكم افتقارهم وعدم مقدرتهم على تجديدها تحولوا لهذا المسكن³.

وعليه يمكننا طرح سؤال: ماهي غاية المحتل الفرنسي من هذه الإجراءات التّفكيكيّة التّعسفيّة في حقّ القبيلة الحدوديّة؟

مما لا شكّ فيه أنّ كلّ مخطط استعماري تكمن فيه عديد الغايات والمرامي التي يأمل المحتل تحقيقها لبلوغ أغراضه وأهدافه، منها: سعيه لتنفيذ إلى العقارات والاستيلاء على أراضي القبائل لأنّ قانون الشّفعة كان بمثابة الحصن الذي يمنعهم من شراء الأراضي ويمنع تشتيت الملكيّة، وعبر قانون تجزئة الملكيّة تمّ فتح الباب على مصرعيه وأصبحوا المستثمرين وجهاً لوجه مع المحليين في عمليات بيع وشراء العقارات⁴.

1 - الهواري عدي: المرجع السّابق، ص 96.

2 - محمّد نجيب بوطالب: المرجع السّابق، ص 100.

3 - الهواري عدي: المرجع السّابق، ص 99.

4 - الأزهر الماجري: القبيلة الولائيّة والاستعمار، المرجع السّابق، ص 98.

وانطلاقاً من هذه التعسفات الاستعمارية المتتالية غير المسبقة في حقّ القبائل الحدودية، لجأت القبائل الحدودية للهجرة إلى بلدان مجاورة عساها تجد فيها ما تُلملم به شتاتها وتقيم به ساعدها وتكفكف به دموع ثكلاها.

ثالثاً- التعاضد والتآزر وعلاقات المصاهرة بين القبائل الحدودية:

1/- التعاضد والتآزر بين القبائل الحدودية:

لم تكن العلاقات الاجتماعية بين القبائل الحدودية محصورة فقط على التواصل العنيف وإنما وجدت أيضاً تواصلات واحتكاكات أخوية، أمدتنا بصور جميلة من صور التعاون والتآزر بين قبائل البلدين في ظلّ الأزمات المختلفة التي تعصف بهم، هذه الصور نجد لها تجسيدا في قيم الحوار والاحتماء ونصرة المظلوم، فهي قيم فاضلة وجدت منذ القدم وغدتها وثمرتها الشريعة الإسلامية أكثر، حيث أنّ مسلسل العنف المستمر عن طريق الغورة لم يكن ليمنع من ظهور هذه النماذج المشرقة والمشرّفة بين القبائل الحدودية، فبحكم أنّ القبائل الحدودية الجزائرية عانت ويلات الاستعمار الفرنسي الذي جرّعها الغصص، كانت تلجأ للتمرد عليه وعصيانه كلما سنحت لها الفرصة، وعلى ذلك تتحرك قوات الاحتلال لملاحقتها فتجد القبائل الجزائرية الملاذ من هذه الملاحقة في الاحتماء بقبائل الحدود التونسية التي كانت تفتح لها الباب عن مصرعيه ولا تغلقه في وجهها أبداً¹، بل وتجابه معها الأخطار غير أبهة بتبعات هذه النصرة التي لطالما عادت عليها بتبعات عقابية من طرف السلطة التونسية والسلطات الفرنسية التي لا تتأخر في إرسال تعزيزات ومراسلات للاقتصاص لحقها.

كمؤازرة "أولاد بوغانم" لـ "أولاد يحيى" بل قاموا بمقاتلة فلول الجند الفرنسي المتتبع لأثار "أولاد يحيى"، الأمر الذي أثار حفيظة الجنرال "راندون" وقام بمراسلة السلطات التونسية والتي نقتطف منها النص التالي: «...حين أنّي توجهت لأجل "أولاد سيدي يحيى بن طالب" على فعلهم القبيح الذي هو فعل الجبان لأنهم قتلوا المساكين المرضى الذي كنت ارسلهم لقاملة وهربوا لبلادكم وليس فقط أنكم قبلتوا بالمذنبين بل فرسانكم زادوا اتبعوا محلي ورموا بلبارود على عسكري وهذا ثابت لأنّ فارسين من "أولاد بوغانم" قتلناهم وفضلوا بخيولهم بيد صبايحي في "رأس السطحة" فلم يمكن أصدق أنّك تنظر هذا الشئ موافق لأن لا بد منه تحصل العداوة ويكون الحرب والطراد بيننا... الخ»².

هذه التصرفات من القبائل التونسية استفزت السلطات الفرنسية باستمرار وجعلتها تقوم بالضغط على السلطات التونسية من أجل طرد الفارين من القبائل الحدودية إلى أرضها والمحتمين بإخوانهم من قبائل الحدود التونسية³.

1 - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 144.

2 - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 162.

3 - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقتين 170 و171.

مع ذلك فدعم القبائل الحدوديّة التّونسيّة ظلّ مستمراً لأنّ هناك مُعطيات عديدة تفرضها، كالجوار والأخوة في الإسلام والقرابة التي تربط القبائل الحدوديّة ببعضها البعض، ومن صور دعم القبائل الحدوديّة التّونسيّة للقبائل الحدوديّة الجزائريّة هذا النموذج الذي استهجنه الاستعمار ووسمه بالتّخلف والجهل والغيرة¹، و محتمل في الحقيقة أنّهم لا يدركون مغزى هذه التّصرفات وأهميتها في حياة هؤلاء، إذ أنّها تعتبر من الطّباع والقيم والأعراف والتّقاليد المترسخة عندهم والمتأصّلة فيهم، كما هو مبين في نص الوثيقة التّالية:

«الحمد لله. تعريب من الجنرال "سيريكوه" حاكم عنابة تاريخه 24 أكتوبر برسم حضرة قنصل جنرال دولة "فرنسا" في "تونس".

إنّ في 18 من الشّهر الحاضر كتبت لحضرتكم بخصوص الحراية التي وقعت بين جيشي وبين العرب الذين هربوا من الحداة والذين هم ساندين دعوة "أولاد مومن" الذين احتما في أرضهم وهذه الحراية وقعت في ترابنا ... وليست في عمالة تونس لأنّهم ارادوا يسندوا دعوتهم بالقوة في أرضنا فما عندي شرح ازيدة على ذلك وهو غاية كلام الحق ولولا أنّهم افادوا سعادة الباي بكلام كاذب لما كان تظن أنّ يطيب خاطري ومن غير داعي غرت على رعياه وقتلت منهم ونهبت من أموالهم إلخ، فبالتحقيق أفعال نظير هذه هي مخالفة للمحبّة والأمان الموجود بين العمالتين والتي عندي وصاية أيّ لا أفسدها فأرجوكم إذن تحبوا سعادة الباي أنّ بعدما صدموا عليّ نهارين بالتّبعية قدام القيادة التّوانسة الذين هم عند اللزوم أطلب شهادتهم حتى أيّ اعتمدت أمان عن نفسي من غير اتجاوز حدود الجزائر محل القتال الذي هو بين نبع الواد رول ومجردة هو معلوم للجميع ويبين كذب التّقرير الذي أرسله إلى سعادة الباي ففي هذه المرة أيّ سلكت بكلّ هدوء واعطيت سعادة الباي برهان في محبة دولة فرنسا له ومحبي أنا الشّخصيّة وهذه النّازلة ما هي إلّا قصاص إلى أشخاص عاصين الحكم ألقوا بأرواحهم في هذا الخطر لداعي جهلهم وزيادة غيرتهم وأخيراً أقدر أقول أنّ من ذلك نتج خير من سعادة لأنّ المذكورين كانوا مقيمين في جبال عالية وعسكره لا يقدر يوصل لهم لذلك كانوا عاصيين عليه وإمّا من بعد الحراية الأشدّ فيهم نزل من محله مطاع إلى السيّد الصّادق متفكرين أنّه واقع اتفاق بين عسكر الفرنسيين وعسكر تونس في شأن ذلك كله قروا أنّهم يستاهلوا ما جرى فيهم لأنّهم هم الظّالمين ثمّ عندي بعض أسرى إذا أردتم أنّ أرسلهم من غير شرط مع أيّ كنت قاصد أطلب بمقابلتهم سبعة أحصنة مسروقين ومن الصّبايحية متوعنا ومطبوعين بطابع البايك وهم في الخلة والورغة»².

ليسهم اضطراب الأوضاع الأمنيّة في الحدود الشّرقية عقب ثورة المقراني 1870م في تدفق أعداد هائلة من قبائل الحدود الجزائرية نحو تونس أين أوت أراضي "الفراشيش" و"ماجر" عدّة فرق من "الحنانشة" و"التمامشة" و"أولاد يحي" وفي فيفري 1871م تحصّنت فرق من "أولاد يحي" بـ"الحواظ" وفرق من "الحنانشة" بجهة

¹ - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 144 .

² - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 144 ينظر الملحق رقم (24)

"الكاف"، وفي الشهر الذي يليه مارس 1871م فرّ "الكلبوتي" ومن معه إلى تراب "أولاد بوغانم" بـ"عين عنان" حول "قلعة سنان"، وبدورها كانت القبائل التونسية تلجأ إلى القبائل الحدودية الجزائرية كلما اشتدت عليها تضييقات السلطة وملاحقاتها فتلجأ هي الأخرى إلى قبائل الحدود الجزائرية التي تجد فيها الملاذ والمأوى¹، كالجوء "الهمامة" إلى "واد سوف" فراراً من ملاحقات السلطة التونسية لهم، فرغم العداوة الكائنة بين "أهل سوف" و"الهمامة" إلا أنهم لما استجاروا بهم فتحوا لهم الباب وذلك لأن "أهل سوف" قد جبّلوا على عادة نجدة من استجار بهم ولو كان قاتل أباهم²؛ وحول حيثيات هذه المؤازرة يقول صاحب كتاب (الصُروف): «...تعاضى للهمامة بعض منهم على الباي وفعّلوا أفعالاً قبيحة مع قائدهم قيل أنهم أرادوا قتله واتاه جماعة منهم فلما رأهم وعرفهم فلبس ملحفة إمراة وخرج مستترا بذلك ولم يعرفوه حتى خلص إلى منجاته فوجه لهم الباي قوماً أشداء تسلطوا عليهم فقتلوا هنالك منهم أناساً كثيرين وفرّ البايقون إلى سوف فتبعتهم المحلّة تقتل وتنهب إلى أن أوصلتهم إلى صحن الطريفراوي الشرقي وصحن الرّقم الشرقي ثم رجعت فاشتغل المنكوبون بدفن أمواتهم التي ماتت هناك وحمل الجرحى على الإبل ودخلوا قرى سوف وطردوهم ولما وصلوا إلى الوادي أراد بعض الناس طردهم فمنعهم البعض الآخر قائلاً أنتم أتيتم مستاجرين بنا ولا نخيب المستاجر فإننا إن عملناهم بفعلهم تساوينا في اللوم فنزلوا بالصّحن الغربي القبلي من ناحية "أولاد أحمد" الذي به الجبّانة الفرنسية»³.

كما أدّت قبيلة "أولاد سيدي عبيد" هذا الدور هي الأخرى عبر إيوائها لمختلف القبائل الحدودية الفارة من ملاحقات السلطة لها وهو ما جعل السلطة الاستعمارية تحقد على هذه القبيلة جراء دورها هذا، كما كانت لا تتردد في إيواء المقاومين وتزويدهم بمختلف ما يحتاجون إليه من مؤن وعتاد⁴.

2- المصاهرة بين القبائل الحدودية:

تترجم التفاعل الاجتماعي بين القبائل الحدودية في البلدين بصور مختلفة ومتعددة جسّدت لنا مدى التواصل والترابط القائم بينهما والذي تمكّن وتوطّد أكثر بفعل رابطة الدّم التي مزجتهم عن طريق المصاهرة والتي وُجدت إلى درجة القول بأولاد كذا، التي تشير إلى وطن هذه الأسرة أو تلك المنتشرة في البلدين كـ"أولاد يعقوب" و"أولاد مومن" و"أولاد رضوان" و"أولاد سيدي عبيد" و"بنو سليم" و"وشتاتة"⁵.

1 - الأزهر المجري: قبائل ماجر والفراشيش، المرجع السابق، ص244.

2 - إبراهيم العوامر: المصدر السابق، ج2، و21.

3 - إبراهيم العوامر: المصدر السابق، ج2، و 58 - 59.

4 - بيار كاستيل: المصدر السابق، ص228.

5 - احميده عميراوي: المرجع السابق، ص61.

وكثيرة هي الأسر والعائلات التي تعود أصولها إلى الاتحاد الكائن بين القبائل الحدوديّة في البلدين بفعل هذه الظّاهرة، وقد قدم الشّيخ إبراهيم العوامر شرحاً وافياً وتفصيلاً كافياً لمختلف العماثر والفصائل المكوّنة للنسيج الاجتماعي كنموذج عن ذلك بمنطقة "سوف"، من أبرزها:

❖ **فصيلة القشاشطة من قبيلة القرفين:** ينسبون إلى سيدي "أحمد بن قشوط"، الرّجل الصّالح صاحب القبة التي في وسط "جبانة الأعشاش"، وأصله من أبناء سيدي "عبيد الشّريف" في ضواحي "الجريد"، أتى إلى "الوادي" متأخراً وانضمّ بالمصاهرة للزغايبيّة ومن معهم، وتفرعت الدّريّة الموجودة إلى الآن في "الوادي"¹.

❖ **أولاد حداد:** وهم من "أولاد عبيدي"، وأصله من سيدي "عبيد" السّاكنين حوال "نفطة"، وقد انتسب "أبالقاسم الحداد" للسوفيّة إثر زواجه بمسعودة بنت سيدي "مستور".

❖ **الأميهات:** وينسبون إلى محلّ يقال له "أميهة" قرب "نفوسة" بقابس، وجدّهم "الأميهي" هو الذي أتى إلى "واد سوف" من هذا المكان، ولهذه العميرة السّوفيّة خمسة فصائل أصلية، وخمسة ملحقات، منها: "أولاد ميداني" من أشرف البهيمه (حساني عبد الكريم الآن) الذين أصلهم من "نفطة".

❖ **عميرة الشّراردة:** الذين ينسبون إلى الشّبابطة، وهم ستة عماير، وأصلهم من "توزر" بتونس².

لتعطي لنا قرية الجديدة³ بـمدينة "تبسة" أبلغ التّماذج وأوضحها عن علاقات المصاهرة الكائنة بين القبائل الحدوديّة، من خلال ضمّها لفسيفساء اجتماعيّة لقبائل ذات أصول جزائريّة وتونسيّة في الوقت ذاته، حيث تألفت هذه القرية من نسيج اجتماعي غير متجانس، فجزء كبير من سكّانها ذوو أصول تونسيّة كـ"دريد" و"الهمامة" و"الشّايبيّة"، في حين انحدرت أجزاء منها من أصول جزائريّة كـ"أولاد معاني" بـبـسكرة و"التمامشة" و"أولاد سيدي عبيد" و"السّوافة"، وقد ارتبطت هذه المجموعات بعلاقات مصاهرة بالإضافة إلى علاقات التّحالف والمصالح المشتركة⁴.

لتجسد قبيلة "أولاد سيدي عبيد" هذا التّمودج بشكل أكبر، ففي المرحلة التّأسيسيّة لهذه القبيلة والتي تبدأ من سنة 1400م حتماً قبل سنة 1830م كعائلة مرابطيّة محدودة العدد حول منطقة "قنتيس"⁵ و"جبل فوة"⁶ و"بئر العاتر"، لتتحول بمرور الزّمن عبر ظاهرتي الاندماج والمصاهرة للمجموعات الموجودة حول "جبل

¹ - إبراهيم العوامر: المصدر السّابق، ج2، و67.

² - إبراهيم العوامر: المصدر السّابق، ج2، و62 - 64.

³ - قرية الجديدة: تبعد بمسافة 7 كلم عن قرية سيدي عبيد. ينظر: الأزهر الماجري: القبيلة الولائيّة والاستعمار، المرجع السّابق، ص 132

⁴ - المرجع نفسه، ص133.

⁵ - قنتيس: تبعد 100 كلم غرب "تبسة"، ويسمىها الأهالي "سيدي عبيد"، وفي جنوب شرقي هذه القرية يوجد ضريح "سيدي عبيد" على ارتفاع 600م. ينظر: الأزهر الماجري: المرجع نفسه، ص17. وينظر أيضاً: بيار كاستيل: المصدر السّابق، ص87.

⁶ - جبل الفوة: يقع غرب مدينة "بئر العاتر" بتبسة، وهو المكان الذي اتخذ الشّيخ "سيدي عبيد" للاعتكاف. ينظر: الأزهر الماجري: القبيلة الولائيّة والاستعمار، المرجع السّابق، ص40.

قنتيس" من قبل، والعناصر الوافدة عليه من "الجزائر" و"تونس" كقبائل "الشائبة" و"الهمامة" و"السؤافة" و"طرود" و"النمامشة" إلى قبيلة مؤثرة في تاريخ البلدين¹.

وأدت هذه القبيلة المزدوجة الانتماء حيث تقطن أجزاء منها في "تونس" والأخرى في "الجزائر" أدواراً هامة في تاريخ البلدين، في سعيها لإصلاح ذات البين وتخفيف حدة الشقاق بين القبائل الحدودية سيما "النمامشة" و"الهمامة" و"الفراشيش" التي كانت تعيش حالة من السلب والنهب، هذا اجتماعياً، أما ثقافياً ودينياً فالشيخ "سيدي عبيد" سعى لنشر العلم والمعرفة بين أبناء القبائل الحدودية².

وعموماً فالاختلاط بين القبائل الحدودية ظل قائماً عبر الممارسات الاجتماعية عن طريق علاقات النسب والقرابة التي كانت تربطهم، كعلاقة "السؤافة" بأهل "الجريد"، وأحياناً حتى الانتماء لنفس المجموعة القبلية كـ"أولادبوغانم" الذين ينقسمون إلى مجموعتين، قسم منهم تابع للجزائر، وآخر لتونس، كما وجدت في "الجزائر" أيضاً قبائل ذات أصول تونسية كـ"العبادنة"³ و"الخنافسة"⁴.

هذه المجموعات ذات هذه الصلات الدموية والجغرافية من خلال وقوعها تقريباً على نفس الشريط الحدودي، كانت تتحرك من وإلى الإيالة المجاورة بكل حرية وسلاسة دون أي عائق من طرف السلطات الحاكمة قبل مجيء الاحتلال الفرنسي، كما سبق وأشرنا في الفصل الأول، لأن سلطتي البلدين كانتا تراها بأهنا عادةً متأصلة فيهم ولا يمكن ردعها، فهي سجيّة طبعت في نفوسهم وأملتها المعطيات الاقتصادية بتأثير العوامل الطبيعية، لكن الاحتلال الفرنسي عارض بشدة ظاهرة تنقلات هاته المجموعات القبلية واستهجنتها بقوة واحتجّت وعارضتها لدى السلطات الحاكمة في تونس، لدرجة دفعتها لاستصدار تراخيص سفر (permis de voyage) للرعايا التونسيين المتوجهين نحو الجزائر، وقد كانت هذه الوثائق بمثابة جوازات سفر من خلالها يتم تحديد هويات الأفراد وانتمائهم الترابية والسياسية لمنح الترخيص لهم بعبور الحدود بين البلدين، وهو ما ولد شعوراً بالانتماء لمجالات متغايرة، ثم إن إدارة الاحتلال أعقبت هذا الأمر الرقابي بإنشاء جهاز رقابي متكامل يشمل أبراج مراقبة وأماكن حراسة خاصة في المناطق الإستراتيجية بين المجموعات المتقابلة من الجهتين، وقامت بتكثيف مساعيها الرامية لضبط الحدود بهدف خلق كيانين منفصلين لكل منهما سيادته

1- الأزهري الماجري: القبيلة الولائية والاستعمار، المرجع السابق، ص 30 - 31.

2- الأزهري الماجري: القبيلة الولائية والاستعمار، المرجع السابق، ص 183.

3- العبادنة: نسبة إلى شخص تونسي اسمه "عبدون" التحق بـ"أولاد سيدي يحيى بن طالب". ينظر: بيار كاستيل: المصدر السابق، ص 293.

4- الخنافسة: قبيلة جزائرية تسكن مع "أولاد بن ناصر" بمدينة "عين صالح" وضواحيها، وتعيش في صراع مستمر مع "الطوارق" وهم ينتمون إلى قبيلة "دريد" التونسية. ينظر: محمد العربي الزبيدي: التجارة الخارجية، المرجع السابق، ص 161. وينظر أيضاً: بيار كاستيل: المصدر السابق، ص 293.

وهويته الخاصة به، وبذلك تمّ تحويل مبدأ التواصل بين القبائل الحدودية إلى مبدأ التّجاور، وأخضعت له كلّ التّبادلات للرقابة، مما أحدث اختلالاً في التّوازنات والصّلات التي كانت تربط القبائل الحدودية سابقاً¹.

ثم إنّ الرّيجات السياسيّة التي جمعت سلطة البلدين ببعض القبائل الحدودية تندرج ضمن سياق المصاهرة، فهذه الرّيجات السياسيّة جاءت من أجل توسيع دائرة التّفوذ وزيادة حجم الدّعم المادي والعسكري لتحقيق أهداف مشتركة لكلا الطّرفين المتحدين²، فالسلطة نظراً للوزن الهام الذي أدّته القبائل الحدودية في الحياة السياسيّة والاجتماعيّة في البلدين، سعت إلى إقامة مصاهرات معها من أجل الحصول على دعمها وللاستفادة من إمكاناتها لتعزيز قواتها وتدعيم سلطاتها، فنجد على سبيل المثال حكّام تونس من الحسينيين قاموا بربط علاقات مصاهرة مع كبريات القبائل الحدودية ذات التّأثير الهام في تاريخ البلدين ألاّ وهي قبيلة "الحنانشة" خاصة أثناء اشتداد الأوضاع السياسيّة في فترات الأزمات التي كانت تعصف بالسلطة، فلحاجة الحكام لدعم ومساندة حليف بحجم هذه القبيلة عمدت إلى هذا الإجراء، كزواج "علي باشا" بابنة شيخ "الحنانشة" أحمد الصّغير سنة 1735م، وهي فترة الصّراع الذي جمعت "علي باي" بعمه "حسين بن علي" على الحكم، وهذا بهدف ضمان مساندة قبيلة "الحنانشة" له في صراعه هذا³.

وضمن سياق الرّيجات السياسيّة دائماً تزوّج "محمّد الرّشيد" بابنة قايد قبيلة "النّمامشة" وهي القبيلة التي تنحدر منها زوجة "الحسين بن علي" الأولى، ومنه فخلال نفس الحرب وللهدف ذاته أيّ محاولة الحصول على دعم "النّمامشة" للحسين بن علي "وأبنائه، إلى جانب ذلك تزوج "علي باي بن الحسين بن علي" بحفيدة شيخ قبيلة "الحنانشة" وهي "العكري"، ويذكر بأنّها كانت فائقة الجمال وذلك في إطار سعي "علي باي" لتمتين تحالفاتهم في مواجهتهم لابن عمّهم "علي باشا"، حيث سعى لكسب تأييد هذه القبيلة ذات الوزن الاستراتيجي الهام في هذه المعركة، كما كانت هذه الرّيجة تلبية لرغبة شيخ "الحنانشة" الذي استغل هذه الطّروف لتحقيق طموحه بعد المصاهرة مع باي تونس بعد رفض "الحسين بن علي" لها في وقت سابق⁴.

1 - فاطمة بن سليمان: المرجع السّابق، ص 311-313.

2- القبائل الحدودية تلجأ هي الأخرى لإقامة مصاهرات مع السّلطة رغبة منها في زيادة نفوذها، فمصاهرتها للسلطة تصبح ذات مكانة ومهابة الجانب من البقية. ينظر: احميده عميراي: المرجع السّابق، ص 27.

3- سلوى هويدي: المرجع السّابق، ص 269-270.

4- نفسه.

رابعاً- الهجرة¹ بين القبائل الحدوديّة:

الهجرة ظاهرة ضاربة في أعماق الماضي ولم تكن البتّة وليدة العصور الوسطى أو الحديثة، حيث أنّه في أقدم العصور نرح السّاميون للعراق (مملكة بابل) وإلى "سورية" و"لبنان" (الفينيقيون)، كما شهدت بلاد "المغرب القديم" هجرات عديدة عبر تاريخها القديم كهجرة "الإغريق" وهجرة "الفينيقين" إلى "تونس" وتأسيسهم لحضارة "قرطاجنة" وتوسعهم فيها².

وفي التّاريخ الإسلامي كانت الهجرة الكبرى هجرة الرّسول صلى الله عليه وسلم من "مكة" إلى "المدينة المنورة"، التي اعتبرت منعرجاً تاريخياً بارزاً لدرجة اتخاذها معلماً للتقويم الهجري، ثم تتالت الهجرات الإسلاميّة في سبيل نشر وتبليغ رسالة الإسلام في شتى بقاع الأرض فجاب المسلمون أقاصي "السّودان" جنوباً إلى بلاد "البلقان" و"فرنسا" و"إسبانيا" شمالاً³، وذلك عملاً بقول عز من قائل: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافِقًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾⁴ وقوله أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾⁵.

ومنه يتبيّن أنّ الهجرة عبارة عن حركة تنقل للأفراد والجماعات ترتبط عادة بتغيير مكان الإقامة وهي فصليّة أو مؤقتة أو نهائية بلا رجعة، وتكون داخلية أو خارجية، والأهمية التي تؤديها الهجرة في حياة المجتمعات تبرز من خلال التّأثير والتّأثير المتبادل.

1 - الهجرة: لغة، الخروج من أرض إلى أرض والمهاجرون الذين ذهبوا مع النبي صلى الله عليه وسلم. والهجرة: بكسر "الهاء" وضمّ "التاء"، الخروج من أرض إلى أخرى وقد هاجر الصّحابة هجرتان: هجرة إلى الحبشة وهجرة إلى المدينة. أمّا اصطلاحاً: ففي علم السّكان "الديمغرافيا - Démographie" فتدل على الانتقال المكاني أو الجغرافي لفرد أو جماعة، وجاءت في علم الاجتماع للدلالة على تبدل الحالة الاجتماعيّة كتغيير الحرفة أو الطّبقة الاجتماعيّة أو غيرها وقد يجتمعان، أمّا التّهجير فهو الإرغام على الهجرة بالقوة والتّهديد. ولكلمة الهجرة صلة بأكثر من علم، فنجد مثلاً بأنّها لها صلة بعلم التّاريخ وعلم الاقتصاد وعلم السّكان وغير ذلك من العلوم، وهناك أيضاً: هجرة للجماد كرؤوس الأموال، وهجرة الثّبتات وهجرة = الحيوانات ولاسيما الطّيور، ولكن هجرة الإنسان هي الأعم والأهم. ينظر: جمال الدّين ابن منظور: لسان العرب، باب الهاء، مادة: هجر، المرجع السّابق، مج6، ج51، صص 4616 - 4617. وينظر أيضاً: الفيروز أبادي: المرجع السّابق، ص1675. وينظر أيضاً: عبد الوهاب الكيالي: المرجع السّابق، مج7، ص67.

2- محمّد الصّغير غانم: التّوسع الفينيقي في غربي المتوسط، ط1، المؤسسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، 1992م، ص52.

3- عبد الوهاب الكيالي: المرجع السّابق، مج7، ص67.

4 - سورة الأنفال: الآية 72.

5 - سورة النّساء: الآية 100.

1- هجرة الجزائريين نحو تونس:

عرف الفرد الجزائري المهجرة قبل دخول المحتل الفرنسي، لكنّها لم تكن بنفس الحجم والأعداد التي أضحت عليها في ظلّ وقوع "الجزائر" تحت نير الاحتلال، ومردّد هذا التّضخّم في حجم المهجرة يرجع إلى ضيم العيش في ظلّ الاستعمار الفرنسي الذي سلب من الجزائري كافة مقوّمات الحياة الكريمة عبر تجريدته من كافة ممتلكاته¹، وهنا أضحت المهجرة المتنفس الذي يلجأ إليه الجزائري في سبيل الحصول على لقيمات يسدّ بها جوعه وجوع من هم تحت وصايته وكفالتته².

وبما أنّ الحياة استحالّت لدى شريحة كبيرة من المجتمع الجزائري بسبب الاحتلال الفرنسي فقد أضحي المنفذ له للخروج من هذا الوضع الشّائك، والذّي، لا سس له في نظر البعض من الجزائريين إلاّ ع. طبة. المهجرة³، التي دفعته إليها عديد العوامل والدوافع التي تراوحت درجاتها حسب ظرفيّات عديدة متعلقة بالأفراد في حدّ ذاتهم، وأحيانا حسب الحقب التّاريخيّة بحكم أنّ لكل فترة زمنيّة معطيات سياسيّة وقانونيّة وتاريخيّة خاصة بها، بالإضافة إلى معطيات جغرافيّة وإقليميّة إذ أنّه لكلّ حيّز جغرافي دوره في تحديد وتيرة المهجرة نحو تونس. فما هي أهم دوافع هجرة الجزائريين نحو تونس؟

1 - 1 - دوافع هجرة الجزائريين إلى تونس:

1 - 1 - 1 - الدوافع الدنيّة والطبيعيّة والجغرافيّة: انطلقت أعدادا هائلة من الجزائريين الرّافضة للعيش تحت سلطة التّصاري إلى "تونس" بحكم كونها بلد إسلامي ويخلو من سيادة الكافر، وكان لقرب "تونس" جغرافيا مع الحدود الشّرقية للجزائر دور فعّال في تحديد وجهتهم إليها، ليسهم انفتاح المنطقة الحدوديّة وانسائها من سهولة الاتصال مقارنة بالمنطقة الغربيّة التي يزيد ارتفاعها عن أربعة آلاف وخمسمائة متر، في مقابل ارتفاع المنطقة الشّرقية الذي يصل إلى ألف وخمسمائة متر تقريبا⁴.

1 - 1 - 2 - الدوافع التّفسيّة والسيكولوجيّة: اعتباراً من أنّها نوع من أنواع الدّفاع عن النّفس وأحد دوافع البقاء في الحياة، ثمّ إنّ عوامل الجذب والإغراء المادي والمعنوي عوامل مكّملة فقط، حيث أنّ الطّابع العام لكلّ المهجرات إلى "تونس" وغيرها كان يميّزه الاستقرار الدّائم... لذا عزم الجزائري فور إقدامه على المهجرة على

¹ - موسى بن موسى: «هجرة الجزائريين إلى تونس بين تلبية الحاجيات الاجتماعيّة وإحداث التّكامل التّقافي في النصف الأوّل من القرن 14م/20م (وادي سوف نموذجاً)»، أعمال الملتقى الدّولي حول: التّواصل الحضاري بين الجنوب الشّرقى الجزائري وتونس 1881 - 1954م، المنعقد يومي: 10/ 11 نوفمبر 2013م، بقسم العلوم الإنسانيّة، كليّة العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة، بجامعة الوادي - الجزائر، 2014م، ص1.

² - موسى بن موسى: المرجع نفسه، ص3.

³ - موسى بن موسى، المرجع السابق، ص2.

⁴ - بشير مدني: إسهامات الجالية الجزائريّة بتونس في الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة 1830-1962م، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم (غ.م)، تخ: التّاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر 2، الجزائر، 2015م، صص 27-29.

بيع كل ما يملك بأزهد الأثمان، وكان يُقدم على توديع أرضه وعرشه وعائلته ووطنه من أجل أن يبق حياً، فالهجرة التي قام بها الجزائريون باتجاه "تونس" وغيرها من دول الشرق والغرب عُدت نوعاً من المقاومة السليبية، يضاف أن هناك من المهاجرين من كانوا ذوي أصول تونسية فضّلوا الرجوع إلى بلدهم بمجرد سقوط الحكم العثماني، وهذا كطلب منهم للأمان، لتؤدي الدعاية دورها بامتياز أياً كان نوعها من طرف المهاجرين الجزائريين الأوائل إلى "تونس"، أو حتى من الجامعة الإسلامية التي كانت لدعوتهما تأثير هام في نفسية الجزائريين، دون أن نغفل الدور الهام للطرق الصوفية التي دعت الجزائريين للهجرة إلى أرض الإسلام كالطريقة السنوسية¹.

1 - 1 - 3 - الدوافع السياسية والعسكرية: لكونها جاءت كإجراء احترازي من بطش وتكحيل الإدارة الاستعمارية، وللهروب أيضاً من كل القوانين التعسفية المطبقة عليهم من طرف الاستعمار الفرنسي².

● كذلك فشل مقاومة الأمير عبد القادر (1833-1847م)، والشّيخ أحمد باي (1830-1849م) في القضاء على الاحتلال الفرنسي كان قد سرّع من وتيرة الهجرة الجزائرية نحو المشرق وخاصة نحو "تونس"، لتسهم الظروف القاسية التي عاشها الشعب الجزائري عقب القضاء على ثورتي "لالة فاطمة نسومر" (1854-1857م) وكذا الشّيخ المقراني ومن معه سنة 1871م في إحداث هجرات جماعية كبيرة، طوعية وقسرية خارج الجزائر³.

1 - 1 - 4 - الدوافع الاقتصادية: كرد فعل على استلاب الأراضي من أصحابها الشرعيين وتسليمها إلى الأوربيين تشجيعاً منهم للاستيطان الرسمي، بفعل ما نتج عن هذه السياسة وما تمخض عنها من نقصان في ثروتهم الزراعية والحيوانية والتي أصبحت لا تكفي حاجة السكان الأصليين، كما أن المرافق التي كان يمكنها استيعاب اليد العاملة الجزائرية أضحت في خدمة الأقلية الأوروبية⁴.

● كذلك نتيجة سياسة العنف الممنهج خاصة تلك المطبقة على القبائل الثائرة التي تعرّضت عام 1871م إلى سياسة عقابية قاسية حيث بلغت الخطايا التي سلطت عليها 36 مليون فرنك، فضلاً عن مصادرة حوالي 44600 هكتار من أراضيها⁵.

¹ - خير الدين شترة: إسهامات النخبة الجزائرية في الحياة السياسية والفكرية التونسية 1900-1939م، ط1، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص 85-86.

² - عبد الحميد زوزو: الهجرة ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين 1919 - 1939م، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م، ص 46.

³ - بشير مديني: المرجع السابق، ص 27 - 28.

⁴ - خير الدين شترة: المرجع السابق، ص 87.

⁵ - الأزهر الماجري: القبيلة الولائية والاستعمار، المرجع السابق، ص 217.

● بسبب انتشار البطالة بفعل فقدان الرّكيزة الأساسيّة للاقتصاد والمتمثّلة في الأرض، الأمر الذي زاد من معاناة الشّعب الجزائري، فكان المفترّ من هذا المأزق لا يتأتّ إلاّ بالهجرة التي لجؤوا إليها بحثاً عن العمل لتوفير القوت¹.

1 - 1 - 5 - الدّوافع التّعليميّة: لطبيعة السّياسة التّعليميّة التي انتهجتها "فرنسا" رغم صدور قانون "جون فيري" بتاريخ 13 فيفري 1883م، مع ذلك فهذا الأخير لقي معارضة كبيرة من طرف المعمرين لأنّه سيرفع من مستوى الشّكّان المسلمين الجزائريين ويجعلهم يطالبون بحقوقهم، وبالتالي سيرفعون أصواتهم عالية من خلال شعار "الجزائر للعرب" إذا ما انتشر فيهم التّعليم، فكان هذا سبباً مُلحاً للهجرة إلى خارج الوطن للنهل من العلوم المختلفة، ومن ضمن الحواضر التي قصدوها نجد "تونس" بفعل توفرها على عديد المراكز العلمية كجامع الرّيتونة وغيره².

1 - 2 - أنواع هجرة الجزائريين إلى تونس:

1 - 2 - 1 - هجرة العلماء وزعماء الطّرق الصّوفيّة وأصحاب التّفوذ: واشتمل هذا النّوع على فئتين هامتين حيويتين في الحياة التّقافيّة في "الجزائر"، ألا وهما: العلماء وزعماء الطّرق الصّوفيّة، ومن نماذج المهاجرين من هذه الفئات الحيوية نجد عائلة "التّعالبي" التي ينتسب إليها زعيم الحركة الوطنيّة التّونسيّة "عبد العزيز التّعالبي"، وعائلة "قلائي" التي ينتسب إليها المناضل التّونسي "حسن قلائي" التي هاجرت إلى "تونس" سنة 1882م. أمّا من زعماء الطّرق الصّوفيّة المهاجرين لتونس فنجد "الشّيخ مصطفى بن عزوز" زعيم الطّريقة الرّحمانيّة في الجنوب الشّرقى المؤسس لزاوية طولقة الرّحمانيّة، الذي هاجر إلى "تونس" بعد الاحتلال الفرنسي لمدينة "بسكرة"³، فاستقرّ بتونس وأسس بمدينة "نفطة" الزاوية الرّحمانيّة، ومن شيوخ الطّريقة القادرية هاجر الشّيخ "إبراهيم بن عبد الله" شيخ الطّريقة القادريّة الجيلانيّة بمدينة "ورقلة"، وهاجر الشّيخ "الميزوني" شيخ زاوية "الكاف"⁴.

وهاجر إلى تونس آخر سلاطين بني جلاب في توقرت ألا وهو "سليمان بن جلاب"، وذلك سنة 1854م كما هاجر "محمّد بن يعقوب" زعيم "أولاد يعقوب" الأغواطين، وهاجر أيضاً الشّيخ سيدي "صالح البسكري"، و"ابن هلال" كاتب الأمير عبد القادر⁵.

¹ - موسى بن موسى: المرجع السّابق، ص2.

² - موسى بن موسى: المرجع السّابق ص3.

³ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر التّقافي، ج4، ط6، دار البصائر للنشر والتّوزيع، الجزائر، 2009م، ص182.

⁴ - يحي بوعزيز: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج2، ط1، دار الهدى للطباعة والنّشر والتّوزيع، عين مليلة - الجزائر، 2004م، ص204.

⁵ - يحي بوعزيز: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، المرجع السّابق، ج2، ص203.

1 - 2 - 2 - هجرة المقاومين السياسيين وأتباعهم: واشتمل هذا النوع على فئة عُرفت بآسها وشجاعتها من خلال رفعها راية النّضال ضدّ المحتل الفرنسي، ومنه فقد تحوّلت تونس لحاضنة وملجأ لهؤلاء الثّوار المقاومين وأتباعهم المطلوبين من المحاكم الفرنسيّة، ومع بدايات القرن التّاسع عشر هاجر إلى "تونس" عدداً من المقاومين أمثال: الشّيخ "الحسناوي بن بلقاسم الحناشي"، كما هاجر ثوار مقاومة الرّعاطشة إلى منطقة "نقطة" و"توزر" و"نفاوة" بإقليم الجريد التّونسي بعد تخريبها من المحتل الفرنسي، وكانت أكبر هجرة قام بها المقاومين الجزائريين إلى "تونس" تمثّلت في هجرة زمالات الحدود الشّرقيّة "المقرانيين" و"الكبلوتي" و"ابن ناصر بن شهرة" عام 1871م¹.

على أنّ هناك من يورد تصنيفات أخرى للهجرة، ويحدّدها في نوعين آخرين هما: حسب الجنس وطبيعة العمل، وحول هذين التّوعين نجد:

✓ المهاجرون الجزائريون إلى تونس حسب الجنس: فمن منطلق أنّ هجرة سكان هذه المناطق كانت في غالب الأحيان مؤقتة وليست نهائية، فإنّهم لم يرفقوا نساءهم معهم، فمن كل إحدى عشر (11) رجلاً مهاجراً نجد امرأة (1) واحدة.

✓ أمّا المهاجرون حسب نوعية النّشاط الممارس أو المهنة: فسكان الحدود بشكل عام اشتغلوا في المهن المتواضعة، فاحترف سكان "تبسة" و"خنشلة" و"التّمامشة" مثلاً: المهن كعمال يوميين وجراري عربات، وهم يُشكّلون النّسبة الأكبر من الجالية الجزائريّة المهاجرة، وقد عمل معظمهم في الفلاحة والجزارة والمناجم والسّكك الحديدية والموانئ والمقاهي، كما اشتغل بعضهم بالرّعي وهؤلاء استقروا غرب الإيالة التّونسيّة عند الحدود².

1 - 3 - أشكال الهجرة: اتخذت الهجرة إلى "تونس" شكلين اثنين، تمثّلا في الهجرة الفردية والهجرة الجماعيّة.

1 - 3 - 1 - الهجرة الفردية: وشمل هذا النوع أفراداً لهم وضعيّة خاصة، بحيث نجد فئة منهم هاجرت إلى "تونس" بفعل متابعة السّلطات الفرنسيّة لهم، وأحياناً أخرى كانوا تحت وطأة التّهديد وأحياناً أخرى هاجروا بدافع التّجارة والكسب³. كنموذج عن الهجرة الفردية نورد هذه المراسلة التي تمت بين الحاكم العسكري بالجزائر التي يطلب فيها من كاهية "الكاف" إرجاع أربعة أشخاص فرّوا إلى "تونس". والنّص كالآتي:

«الحمد لله. وصلّى الله على سيدنا محمد وسلم

1- خير الدّين شترة: المرجع السّابق، ص 81.

2- بشير مديني: المرجع السّابق، ص 35 - 36.

3- أحمد الطّويلي: دراسات ووثائق عن الحركة الإصلاحيّة بتونس، ط1، مؤسسة للطباعة والنّشر، سوسة، تونس، 1992م، ص 49.

"صالح بن علي عياد غنيسي".

"مُحمّد بن قاسم بن الحاج عياد" من قصبة الحديري.

"مُحمّد بن صالح الموح الحديدي".

"مُحمّد بن علي التّلاف مُلا".

إلى الهمام الأعزّ الأمرء سيدي "مُحمّد بن صالح"، أمّا بعد: السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد، تبقى تعيين الأربعة أنفار المذكورين أعلاه إنهم هربوا يوم... من الصّغير كلّ يد ولا بد تفتشوا عليهم من أيّ موقع والسّلام... كتب في 6 جمادي الثاني 1300هـ¹.

1 - 3 - 2 - الهجرة الجماعيّة: رسم خطوطها العائلات الجزائريّة والقبائل والأسر² التي هاجرت في شكل جماعات، وتحت هذا التّمودج تندرج هجرة نفر من "نبسة" متكون من سبعة عشر (17) شخصاً؛ وبدورهم كان سكان "سوف" و "ورقلة" يهاجرون في شكل مجموعات تتراوح ما بين عشرة (10) و اثنا عشرة (12) شخصاً، وأحياناً أخرى وصلت لهجرة أكبر أعدادٍ من ذلك، و توفر لنا الوثائق الأرشيفيّة التّونسيّة في هذا الشّأن بالذّات مادة دسمة، من خلال تغطيتها لهجرات القبائل الحدوديّة، ومما توافر لدينا نقبتس التّمادج التّالية: «..بالحمة وقع الطّلب البايك على "أولاد يحيى" رحلوا... قدر عشرين (20) بيتاً وحطوا على "أولاد بوغانم"،...»³.

أمّا الاقتباس الثّاني فنجدّه في هذا الموضوع من المراسلة الواردة من عامل "الكاف" إلى الوزير الأكبر: «.. أما بعد السّلام اللايق بالمقام فقد ورد لنا مکتوب جنابكم المؤرخ 10 في الشّهر غرة 1888م والمتضمن جانبكم حاكم عموم الجزائر أخبر بواسطة السّعادة الفرناوية أن ثلاثة وستين (63) بيتاً من الغرابة فروا من وطنهم بسبب مطالب ترتبت عليهم ودخلوا لتراب المملكة»⁴.

وتواصل هجرات سكان الحدود الجزائريّة نحو تونس فإحصاءات 1876م تمّدنا بنسب متباينة لهجرات المناطق الحدوديّة والتي بلغ مجموع المهاجرين السّوافة منها ثلاثة وسبعون (73) مهاجراً من أصل مئتين وإحدى عشرة (211) مهاجر جزائري، أي ما نسبته 34%، يعني تقريبا الثّلث من مجموع المهاجرين، وهو رقم يدلّ على ضخامة هجرة سكان "سوف" لتونس في مقابل سبعة وأربعين (47) مهاجرٍ من "عنابة" و اثنين وأربعين

1 - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 175.

2- هناك وثيقة أرشيفيّة تحوي هجرة 63 نفرًا من دائرة المسيلة. ينظر الملحق رقم (25).

3- أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 175.

4 - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 108.

(42) مهاجر من "قسنطينة"، الشّيء الذي يدفعنا للتساؤل عن سبب ارتفاع معدل الهجرة الشّوفية مقارنة بمعدل بقية هجرات المناطق الحدودية الجزائرية¹.

فمنطقة الوادي تعتبر من المناطق التي عُرفت بموجات هجرة مُتعدّدة انطلاقاً من مُراسمة الحدود التّونسية وكذا الليبية لمنطقة "وادي سوف"؛ وعن دوافع هجرة أهل سوف فمردها إلى:

- الوضع الطّبيعي لمنطقة "وادي سوف" ومحاذاتها للحدود التّونسية من خلال منطقة "الجريد"، فضلاً عن ضعف المراقبة الحدودية نتيجة الطّابع الصّحراوي الصّعب.
- الدّوافع الدّينية التي تُشجّع سكان "وادي سوف" عن الهجرة إلى بلاد المشرق انطلاقاً من "تونس" بخلاف السّكان الجزائريين في الشّمال الجزائري الذين يفضلون الهجرة إلى "فرنسا" خاصة بعد الحرب العالميّة الثانية².

- الرّغبة في تحصيل العلم لأنّ أغلبية المهاجرين كانوا من فئة الطّلبة ومنتقفي المنطقة، فسياسة التّجهيل التي اعتمدها السّلطات الاستعماريّة ساهمت بشكل كبير في انتقال مجموعة لا بأس بها من الشّوافة نحو الأراضي التّونسية، واقتصرت مُدّة الهجرة على سنوات طلب العلم والتّحصيل والانتفاع من المعاهد التّونسية وعلى وجه الخصوص جامع الزّيتونة المعمور، الذي كان على مرّ الأيام خيّر معين للجزائريين عموماً و الشّوافة خصوصاً، وتواصلت هذه الهجرة على مدى نصف قرن في شكل بعثات جماعيّة منتظمة تارة، وفردية تارة أخرى، وقد أدى ذلك إلى تأسيس العديد من التّنظيمات الطّلائية هناك³.

- الوضع الاقتصادي والاجتماعي الذي دفع بغالبية السّكان خاصة المالكين للحيوانات دون النّخيل وضعف مقدرة هذه الحيوانات على توفير بعض متطلبات الحياة خاصة الماعز الذي هو أقلّ مقدرة على إنتاج الحليب وبعض الموارد الأخرى.

- الوضع السّياسي الذي أصبح يسود المنطقة مما شجّع الكثير على الهروب من مواجهة الإدارة الاستعماريّة كي لا يُستغل أو يضطهد باتجاه "تونس"، فالكثيرين كانوا يعيشون الجزء الأكبر من حياتهم بها⁴.

ثمّ أنّ سكان "وادي سوف" تميزوا بالحركيّة الفاعلة نتيجة الوضع الاقتصادي الذي آلت إليه المنطقة مع صغر المجموعات السّكانيّة، هذا كان كافياً لتشجيع الفرد الشّوافي على الهجرة، لتؤدي الأوضاع الاقتصاديّة التي تميزت بها منطقة "وادي سوف" دورها في اضطرار الفرد الشّوافي لطلب العيش خارج حدوده، وعليه فكثير منهم اتجه إلى "تونس" خلال فترات زمنيّة مختلفة، وبهذا يتضح لنا أنّ الوضعيّة الاقتصاديّة وتأثيراتها على الوضعيّة

¹ - Germain Marty: *Les Algériens à Tunis. tome 1*, : IBLA, Tunis, 1948, pp.304-330.

² - Jean Pigoreau : *L'émigration dans l'Annexe d'El - Oued*, (manuscrit), 1955, p. 03.

³ - بشير مديني: العالمة الجزائريّة في تونس. الشّوافة نموذجاً (1876-1954م)، مذكرة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير (غ. م)، تخ: التّاريخ المعاصر، قسم التّاريخ، كليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، جامعة الجزائر، الجزائر، 2006م، ص77.

⁴ - L'administrateur (Annexe d' El-Oued), le Souf, monographie, 14 année 1953, (A.D.M.E.L), p.1.

الاجتماعية كانت من أبرز العوامل الباعثة على الهجرة في سبيل توفير متطلبات حياة أفضل من تلك التي يعيشونها تحت قهر الاستعمار¹.

لقد استمر منحى الهجرات الجماعية أو بالأحرى يرتفع مؤشرها، خاصة في ظلّ التّعسف الاستعماري الذي افتك من القبائل كافة مقومات الحياة، لا نقول الكريمة بل البسيطة، حيث تمّ رصد هجرات أخرى من دائرة "خنشلة" التي هاجرت منها 1288 خيمة من قبائل "أولاد عاشور" و"أولاد خليفة" و"أولاد ناصر" و"أولاد سالم" التي هاجر منها لوحدها 81 خيمة، وهاجر من دائرة "تبسة" 403 خيمة من قبائل مختلفة من "أولاد سيدي إبراهيم" و"أولاد سيدي عبد السلام" و"أولاد سيدي بلقاسم"، و"أولاد سيدي عبد الملك"، و"أولاد سيدي عبيد الحمادي"، فبلغ مجموع عدد المهاجرين إلى "تونس" سنة 1848م من دائرتي "تبسة" و"خنشلة" 4244 شخصا².

وبهذا يتبين لنا أنّ الجهات الشرقية كان معدل الهجرة فيها مرتفعاً إذا ما قورن ببقية جهات الوطن، وحسب السّجل المسجّل تحت رقم 3968 الصّادر سنة 1876م والذي يعدّ أوّل إحصاء رسمي للجالية الجزائرية، بلغ فيه سكان الجهات الشرقية أعلى نسبة من الجاليات الجزائرية الأخرى في "تونس"، فمن مجموع مائتان واحد عشر (211) فرداً مسجلاً خلال تلك السنة، نجد مئة واثنتان وستون (162) فرداً من الجاليات الحدودية من الجهة الشرقية، أي ما يعادل نسبته 76%³، ومردّد ذلك الوجود المكثف للجالية يعود إلى:

القرب الجغرافي بين البلدين "الجزائر" و"تونس"، لذلك كانت "تونس" أقرب المقاصد إليهم للاستقرار خاصة في ظلّ وجود علاقات تاريخية سابقة للفترة الاستعمارية، وعُدّ وحدة اللغة واللهجة بالنسبة للمهاجرين وسكان الجهة سبباً هاماً لطرقهم أبواب مدن "تونس"، فضلاً عن أهمية التشابه من حيث العامل الطبيعي وعدم رفض السلطات التونسية لهؤلاء المهاجرين خاصة في الفترة السابقة للاستعمار الفرنسي لتونس باعتبارهم مسلمين دخلوا بلداً مسلماً، ومع وجود طرق دينية بالجهة الحدودية تستمد جذورها من أصل جزائري كالتّريقة الرّحمانية، وعليه فهذه الأسباب والعوامل متضافرة وفّرت الإطار الملائم لضمان عيش المهاجرين واستقطابهم، خاصة وأنّ الرّعاية ركيزة الاقتصاد بالجهة الحدودية لا تزال تعتمد على المجهود البشري⁴.

1 - أبو القاسم سعد الله: أفكار جامعة، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988م، ص172.

2 - أحمد بن جابو: المهاجرون ونشاطهم في تونس 1830 - 1954م، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه (غ.م)، تخ: التّاريخ الحديث والمعاصر، قسم التّاريخ والآثار، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان، الجزائر، 2011م، ص148.

3 - بشير مديني: إسهامات الجالية الجزائرية بتونس في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، المرجع السابق، ص7.

4 - يوسف الجفالي: الجالية الجزائرية بجهة الكاف من (1881 - 1921م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الكفاءة في البحث، (غ.م)، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى، تونس، 1993م، صص32-33.

1 - 3 - 3 - نماذج لهجرة القبائل الحدودية الجزائرية مع بيان سبب هجرتها ومناطق استقرارها:

أ- القبائل الحدودية المهاجرة لأسباب سياسية: تباينت هجرت القبائل كل حسب الظروف التي عصفت وألّمت بها وجعلت من الهجرة مآلاً للخروج من المأزق الذي تتخبط فيه، فنجد على سبيل المثال أنه من دائرة "عنابة" هاجرت قبيلة "بني صالح" بمعدل خيمتين واستقروا في مدينة "تونس" بفعل المتابعة القضائية التي تعرضت لها القبيلة منذ سنة 1840م، ومن دائرة "سوق أهراس" هاجرت أعداد كبيرة من الخيم من قبائل مختلفة، حيث هاجر من قبيلة "أولاد تليل" حوالي مئتي (200) خيمة استقرت بناحية "شارن" بتونس، وهجرتهم هذه جاءت هروباً من المتابعة القضائية والاضطهاد الذي تعرّضت له، ومن نفس الدائرة أيضاً فرّت قبيلة "ثمانة" بكاملها بحوالي سبعين (70) خيمة استقرت بناحية "شارن"، وهذا بسبب تشديد الخناق عليها من جراء مقاومتها¹.

والهروب من الملاحقة الفرنسية يندرج هو الآخر ضمن الأسباب السياسية للهجرة التي دفعت بقبيلة "أولاد يحيى" للهجرة إلى "تونس"، هذه الأخيرة لجأت إلى "تونس" فراراً من تبعات ملاحقة القوات الفرنسية لها لمعاقبها عن أفعال ارتكبتها اثر فتكها بمتضررين تابعين للسلطة الفرنسية كانوا متوجهين لقائمة لتلقي العلاج، وعليه وبعد فتك "أولاد يحيى" بمؤلاء فروا إلى "تونس" واحتموا بـ"أولاد بوغانم" الذين قدّموا لهم كافة السند والمؤازرة في صدّهم لهجمات القوات الفرنسية المتكوّنة من فرق الصّبايحية، مما يعطي لنا انطباعاً جميلاً عن صور المؤاخاة والتآزر الموجودة بين القبائل الحدودية في وقت الشدة والحاجة، الأمر الذي أثار حفيظة الجنرال "راندون" الذي استهجن هذا الصّنيع بشدة، خاصة وأنه وقف في وجه القبائل التونسية الممتنعة عن السّلمة وصدّها عن دخول "الجزائر" ورأى أن يكافئ الطّرف التونسي هذا الموقف الشّجاع منه بموقف مماثل له، ولكنّه فوجئ بخلاف ذلك تماماً، مما خلّف له صدمة دفعت به لمراسلتهم في هذا الشأن باحثاً له من وراء ذلك عن تفسير واضح لهذا الموقف السّلي في حقّه وحقّ السّلمة الفرنسية، وهذا نص المراسلة:

«الحمد لله وحده. ولا شبيه له في ملكه سبحانه، من سعادة الجنرال "راندون" حاكم "عنابة" وسائر عمالاتنا نصره الله آمين إلى محبنا العزيز المحترم السيّد "صالح بن محمد" كاهية "الكاف" أمنه الله، بعد السّلام عليكم ورحمته وبركاته وتحياته ورضوانه والذي نعلمكم به هو أنني كنت أظنّ أنّ النّاس خُدام سعادة البايك أنّهم طالبين العافية مع الفرانصيص وكنت أظنّ أيضاً أنّي حين منعت أعراش التّوانسة أن يدخلوا إلى أرضنا وبهذا قصدهم أن يمنعوا أرواحهم من سيدهم أنّك كنت تقابل فعلي لا كان تجاني مع سعادة البيك حين كنت بتونس أن تكن المساعدة لبعض وبخلاف حين أي توجهت لأجل "أولاد سيدي يحيى بن طالب" على فعلهم القبيح الذي هو فعل الجبان لأنهم قتلوا لمساكين المرضى الذي كنت أرسلهم لقائمة وهربوا لبلادكم وليس فقط أنّكم قبلتوا بالمذبذب بل فرسانكم زادوا اتبعوا محلي ورموا بلبارود على عسكري وهذا ثابت لأنّ فارين من

1 - أحمد بن جابو: المرجع السابق، ص 145 - 146.

"أولاد بوغانم" قتلناهم وفضلوا¹ بخيولهم بيد صبايحي في "رأس السطحة" فلم يمكن أصدق أنك تنظر هذا الشئ موافق لأن لا بد منه تحصل العداوة ويكون الحرب والطراد بيننا وها أنا أعلمت سيدك سعادة البيك بهذا الشئ الذي حصل وأنت ضمن² بما يحصل منه، وأن كان سيدك سعادة البيك مشتت في الحرب فلازم يظهر لنا ذلك ولا يجعل طريق مثل ما فعلوا "أولاد بوغانم" و"الزغامنة" و"الفراشيش" الذي يتميزوا بها فاعليتها ولا تقول هذا الشئ حصل ضد أوامرك لأن عندك قوة كافية لأجل بها تطيع من خالفك فأعلمك إذا راجع أكمل أخذ ثأري من "أولاد سيدي يحي بن طالب" بأن أهل "القلعة" يقبلونهم بأرضهم مثل المرة الماضية فيكون عندك ماكد أي لا بد أعلم سيدك سعادة البيك على حقيقة ممسك مع الفرنسيس مثل جار مليح وأن خدامك مرة أخرى يقدموا ويجمعوا مع أعداي فلازم أني أتبعهم إلى كل الذي يتوجهوا إليه والله ... يحكم ويعرف من أي جهة يكون الحق والسلام³.

الأفكار المستوحاة من هذه الوثيقة الأرشيفية:

- في البداية يذكر "راندون" صده للعروش التونسية المهاجرة للجزائر والماربة من مطاردة السلطة التونسية لها، وهو جميل أراد منه أن يقابل بصنيع مثله من طرف رجال السلطة في تونس.
- دخول "أولاد يحي" أرض "تونس" فارين من قوات الصبايحية لمعاقبتهم على اعتدائهم على المتضررين.
- احتماء "أولاد يحي" بـ"أولاد بوغانم" ومساندة "أولاد بوغانم" لـ"أولاد يحي" في التصدي للأعداء.
- يذكر كاهية "الكاف" بمغبة هذه الأفعال التي من شأنها أن توتر العلاقات بين البلدين إلى درجة قد ينتج عنها اشتعال نيران المعارك والحروب بينهما.
- يطلب "راندون" من كاهية "الكاف" ملاحقة فلول "أولاد يحي" وأن يثار له منهم، وهذا العمل منه سوف يؤكد مدى صدق تعاون الكاهية مع الفرنسيين.
- يتهدد ويتوعد "راندون" بمعاقة العروش التونسية في حال استمرارها في دعم العروش الحدودية الجزائرية.

(ب) - القبائل المهاجرة لأسباب اقتصادية: تعدد الأسباب الاقتصادية من أبرز الأسباب التي دفعت بالقبائل الحدودية للهجرة بحكم أن الاستعمار الفرنسي تفنن في سلب الموارد الاقتصادية التي يقوم عليها اقتصاد القبائل فضلاً عن إيقاله لكاهلها بالضرائب المجحفة التي زادت من حجم معاناتهم في ظلّ نزوب

1 - بما معناه بقيت.

2 - معناه فُكّر.

3 - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 162. ينظر الملحق رقم (03)

الموارد الاقتصادية لهذه القبائل، وهو ما دفعها للهجرة على أمل أن تجد في "تونس" ما يُبقي على استمرار نبضها في هذه الحياة، وتجد ما تعول به أسرها وتتوحد وتتكامل به مع إخوانها التونسيين¹.

أسهمت الأوضاع الاقتصادية القاهرة التي كان يعيشها سكان الجهات الشرقية "تبسة" و"خنشلة" في هجرتهم إلى "تونس" التي كانوا يأتونها بما شيتهم ويسكنون في أحواز مدينة "تونس" دون الدخول إليها، وقد استقروا في أحياء "لالة السيدة منويّة" و"الملاسين" غرب العاصمة، و"بحمام الأنف" جنوب العاصمة، وقد استقرّ الكثير منهم بعائلاتهم في الفنادق، أمّا العزاب فذهبوا للوكالات²، وكان هؤلاء المهاجرون كثيراً ما يرجعون إلى موطنهم الأصلي لأنّ بقائهم في "تونس" كانت تفرضه الظروف الطبيعية والاقتصادية، وفور سماعهم بمقدم فصل حصاد جيد يعودون بأدراجهم إلى أوطانهم³.

لقد هاجرت القبائل الحدودية زرافات إلى "تونس"، فقد أحصت الإدارة الاستعمارية فرار 63 عائلة من الغرابة والمقصود بهم سكان الحدود الجزائرية بحكم أنّهم يتموقعون على غرب الحدود التونسية فنعتو بالغرابة، والمجسدة في تلك المراسلة المرسله من عامل "الكاف" إلى الوزير الأكبر في السلطنة التونسية آنذاك، والتي نقتبس منها هذا المقطع: «... والمتضمّن من جناب حاكم عموم "الجزائر" أخبر بواسطة السعادة الفرناساوية أنّ ثلاثة وستين بيتاً من الغرابة فروا من وطنهم بسبب مطالب ترتبت عليهم ودخلوا تراب المملكة ونزلوا في مكان يسمى "وزان" قرب "الكاف" ولا زالوا ليرجعوا لوطنهم الأصلي فإنّ لم يمتثلوا للرحيل تبعناهم مع ريس العسكر الفرنسي بالمكان في كيفية ترحيلهم... وقد بادرنا بالتعريف الفارين "الكاف لعمل" تنصحه الآن وأجاب السّايف بأنّه أحضر خليفة الغرابة واعلمه بذلك فأجابه بأنّ البيوت لم يقدموا لوطن "الكاف" وأنّ هذا المكان ليس له وجود بعمل "الكاف" أصلاً وذلك بعد التّحري التّام في البحث على ما ذكر، ليكن في شريف علم جنابكم والله يحرس علينا... ويدعم العز وارتقاءكم والسّلام. من الفقير لربه آمنه الله سي "يونس الجزيري" عامل "الكاف" وعروش ضحقة. في 25 رجب 1299هـ»⁴.

فهذه المراسلة التي ماهي إلا عبارة عن ردّ لانشغال حاكم "الجزائر" بضرورة ردّ الثلاثة والستين (63) بيتاً الفارين إلى أرض "تونس"، فيرد العامل بأنّه تباحث في المشكل المطروح من خليفة المهاجرين الجزائريين بـ"الكاف"، ولم يجد هؤلاء البيوت ولا المكان الموسوم باسم "وزان" الذي بيّن فيه بأنّه ليس له وجود في الخارطة

¹ - Berbrougger. (A): «Des Frontières de L'Algérie», R.A, N° 4, Année 1859 - 1860, Alger, 1860, p.412.

² - الوكالة: هي ذلك المكان الذي يلجأ إليه الجالية الجزائرية في "تونس العاصمة" خاصة منهم المعدومين الذين يمثلون أغلبية الجالية في "تونس"، وهي تشمل العزاب في غالب الأحيان والمهاجرين الجزائريين الذين وصلوا حديثاً، وتميزت هذه الوكالات بوضعية مزريّة حيث كانت كلّ غرفة تشتمل على خمسة أو ستة أشخاص. ينظر: بشير مدني: إسهامات الجالية الجزائرية بتونس في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، المرجع السابق، ص 48-50.

³ - بشير مدني: المرجع نفسه، ص 50.

⁴ - أ. و. ت: المحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 108.

الجغرافيّة لمدينة "الكاف"، ورغم أنّه لم يُعثر على هؤلاء ولا ندري سبب ذلك! فقد يكون هؤلاء المهاجرين قد قصدوا وطننا آخر غير "الكاف"، أو أنّ عامل "الكاف" قد تسرّر على وجودهم بعمالته، لكنها مع ذلك تؤكد هذه المراسلة بلسان مسؤولي "فرنسا" بأنّ هناك ثلاثة وستين بيتا قد هاجروا بفعل التّهرب من الضّرائب، وهو ما يؤكد على ثقل هاته الضّرائب التي لا تتوافق مع محدوديّة دخل هؤلاء، وأنّ الأوضاع الاقتصاديّة التي آلت إليها حياة هؤلاء قد دفعتهم للهجرة نحو تونس¹.

التّقطة الثّانية التي نستخلصها من هذه الوثيقة، هو مدى صرامة الموقف الفرنسي وضغطه على الطّرف التّونسي من أجل ردع هؤلاء وردهم بالقوّة إلى "الجزائر"، حتى وإنّ اضطر الأمر إلى استعمال قوة العسكر الفرنسي لتتبع آثار هؤلاء المهاجرين.

والتّقطة الثّالثة المستخلصة من هذه الوثيقة، توضح لنا موقف السّلطة الفرنسيّة من الهجرة، والذي يتجلى في الصّد والمنع وتتبع الفارين.

وضمن سياق هجرة القبائل بفعل البواعث الاقتصاديّة كانت أيضا هجرة قبيلة "أولاد سيدي عبيد" بفعل تردّي أحوالهم الاقتصاديّة والاجتماعيّة لذا هاجرت أعداد هائلة من فرقههم إلى البلاد التّونسيّة المتاخمة لمجالاتها، على أمل البقاء لتوفر البلاد التّونسية على الأرض والمرعى، ما يعني عودة عصب الحياة الاقتصاديّة لهؤلاء والذي سيكون له دور في تحطّي الوضعيّة التي أجبروا على العيش فيها تحت وطأة الاستعمار الفرنسي، يضاف إليها خلو تونس من الحكّام المسحّين².

هذا وكان للطرق الصّوفيّة التي نفّدت من "الجزائر" إلى "تونس" ونعني الرّحمانية، دوراً فعّالاً في دعم تنقل "أولاد سيدي عبيد" إلى "تونس" علماً أنّ "أولاد سيدي عبيد" هاجروا إلى "تونس" منذ بداية سنة 1846م بفعل احتلال مدينة "تبسة"، لكن الهجرة الأولى كان يحدوهم فيها أمل العودة، بدليل أنّهم استقروا في الشّريط الحدودي، كما أبدى بايات "تونس" احتراماً خاصاً للمجموعات المرابطيّة التي طلبت اللجوء إلى "تونس" مثل "أولاد سيدي عبيد" التي منحوها عديد الامتيازات (الأمان - العقارات - الإعفاء الجبائي)، كما وفروا لها الحماية من تعديات القبائل التّونسيّة عبر مضاعفة ديّة قتلاهم وخطايا الأضرار التي تنجم عن الاعتداءات التي تستهدفهم، وهذه الامتيازات المقدمّة من طرف السّلطة التّونسيّة كانت في مقابل ما ستقدمه هذه القبيلة للسّلطة من أمن داخل المجالات الطّرفيّة، وقيامها بفض النزاعات المحليّة، فضلاً عن المساعدات في استخلاص الضّرائب من المجموعات الخاضعة لزاوية "سيدي عبيد"³.

¹ - Roger ,Leonard (Gouverneur Général de l'Algérie), **territoire du sud l'Algérie, compte rendu de l'oeuvre accompli de (1947 - 1952)** , imprimerie officiel, Alger, 1954, p.97.

² - عبد الوهاب شلاي: المرجع السّابق ، ص 86-87.

³ - الأزهر المجري: القبيلة الولائيّة والاستعمار، المرجع السّابق، ص 217.

وعموماً كانت هجرة "أولاد سيدي عبيد" للإيالة التونسية تحت معطيات أهمها:

✓ **العامل التاريخي:** لأنَّ الفرع الحمادي الذي يعود لقبيلة "أولاد سيدي عبيد" مستقرٌّ في الجريد التونسي منذ أمد بعيد.

✓ **العامل الثقافي:** والمتمثل في دور الطُّرق الصُّوفيَّة كالرَّحمانِيَّة والقادرِيَّة، اللتين شجعتا على الهجرة لـ"تونس" فور تعرُّض "الجزائر" للاحتلال الفرنسي، وهذه الهجرة تندرج ضمن معطيات دينيَّة جهاديَّة ترفض العيش تحت سلطة كافرة.

✓ **العامل الجغرافي:** ذلك أنَّ مجال انتشار هذه القبيلة يمتد على كلِّ من المجالين الجزائري والتونسي وتشكيله لوحدة طبيعيَّة متكاملة.

أمَّا عن مواطن استقرار قبيلة "أولاد سيدي عبيد" فيتبين أنَّ فرقها قد توزعت في كامل التُّراب التونسي، أين استقروا بالجنوب الغربي "السَّباسب العليا" و"الحوض الأعلى لمجردة"، كما استقروا بمدن "الحوض المنجمي" لاكتشاف الفوسفاط في جبال "قفصة"¹.

وكان للكوارث الطَّبيعيَّة والجوائح التي أتت على اقتصاد القبائل الحدوديَّة كالجفاف الذي ضرب "تبسة" عقب مجاعة عام 1876م، الوطأة الشَّديدة على "أولاد يحيى" بحكم أنَّ زراعتهم كانت منتشرة على نطاق واسع لذا اعتبروا من أكثر القبائل تضرُّراً، فلم يكن السَّبيل لديهم للخروج من هذا المأزق الذي ألمَّ بهم سوى بالهجرة نحو "تونس"².

(ج) - القبائل الحدوديَّة المهاجرة لأسباب اجتماعيَّة: أوجدت الأوضاع الاجتماعيَّة حيزاً لها ضمن الأسباب التي دفعت بالقبائل الحدوديَّة للهجرة نحو "تونس"، مما يؤكد على أهمية ودور الحالة الاجتماعيَّة في تثبيت دعائم الاستقرار أو زعزعته بالنَّسبة للقبائل الحدوديَّة.

فمن دائرة "سوق أهراس" هاجرت قبيلة "أولاد مؤمن" بعدد خيام بلغ حوالي مئة وخمسة (105) خيمة استقروا بناحية "ورغة" عقب الاضطرابات الاجتماعيَّة التي أعقبت مقتل شيخ القبيلة سنة 1852³.

ليسهم انتشار الفقر والمجاعات التي عصفت بالمجتمع الجزائري في هجرة العديد من الأسر والقبائل، كمنطقة

1 - الأزهر المجري: القبيلة الولائيَّة والاستعمار، المرجع السَّابق، 221 - 225.

2 - عبد الوهاب شلاي: المرجع السَّابق، ص 120.

3 - بشير مديني: إسهامات الجالية الجزائريَّة بتونس في الحياة الاجتماعيَّة والسَّياسية والاقتصاديَّة، المرجع السَّابق، ص 146.

"وادي سوف" و"بسكرة" و"تبسة" و"ورقلة" إلى الأراضي التونسية¹، بالإضافة إلى قبيلة "أولاد عبيد" التي رحلت وفود منها إلى "تونس" وهي خالية الوفاض بفعل افتقارهم المادي ومعاناتهم النفسية والاجتماعية².

وإحصاءات سجل الجالية بتونس كان سنة 1876م الذي تمّ العثور عليه في أحد الدفاتر التي تحمل قائمة اسمية تعدادها 1725 مسجلا عليها 937 مسلما جزائريا، وهذه الأرقام التي تعكس بدقة العدد الحقيقي للجالية الجزائرية الموجودة والتي قدّرها الوزير الأول "خير الدين باشا" عام 1876م بحوالي 15000 جزائري، بينما تقديرات القنصل الفرنسي "روستون" حوالي 16600 مهاجر حسب الرسالة التي أرسلها إلى المقيم العام في الجزائر بتاريخ 14 أوت 1876م والتي تتوزع كالتالي: 2000 "سوافة" و"النمامشة" و"توقرت" ووحدات أخرى، "ورقلة" 800، و"المزابية" 1200³.

(د) - مناطق الاستقرار:

النمامشة: استقروا بالعاصمة وضواحيها مثل: "لالة منوبة" و"حمام الأنف"، أمّا القسنطينيون فسكنوا بـ"المراغة" و"المناطق القبلية" و"عين غلال" و"الشقاقة" و"الجديدة".

السوافة: استقروا في "رأس الدرب" و"رحبة الغنم"، و"شارع الزاوية البكرية" بالقرب من الحلفاويين، و"بابا السويقة" و"جبل الجلود" و"الملاسين"، أمّا القماريون فكان منهم من يختار "الزاوية البكرية" و"العلوية"، أمّا الكوينيين فاستقروا في جهات "حمام الرميحي"، والقادمون من "ورماس" استقروا في "شارع السحاب" و"الطباة".

الورقليون: استقروا في مناطق مختلفة من الأحياء التونسية في "سيدي السوردو بن أحمد"، "سوق النسيج"، شارع "الكرغلية"، و"الشلي" مع بقية الجزائريين والتونسيين⁴.

ورغم أنّ ظاهرة الهجرة كانت سابقة للاستعمار الفرنسي أين وجدت هجرات للقبائل والأسر حتى في فترة الحكم العثماني في "الجزائر"، فقد كانت تعتبر نوعاً من أنواع التواصل الاجتماعي بين سكان الإيالتين، إلا أنّ حُكّام الإيالتين "الجزائر" و"تونس" قد وضعوا في موضع محرج نتج عنه تأزم وتصدع العلاقات بسبب هذه الهجرات التي كانت بفعل التملص والهروب من دفع الضرائب، فبحكم أنّ المناطق الحدودية كانت مفتوحة،

¹ - جمعة بن زروال: «هجرة زعماء الطرق الصوفية التونسية نحو الجزائر ونشاطهم السياسي والديني الشيخ سيدي علي التفتي والحاج محمد لخضر السهيلي أنموذجاً»، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، ع.23، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر - بسكرة، الجزائر، 2017م، ص418.

² - الأزهر الماجري: القبيلة الولائية والاستعمار، المرجع السابق، ص208.

³ - عبد الكريم الماجري: هجرة الجزائريين والطرابلسية والمغاربة الجواننة إلى تونس (1831-1937م)، دراسة تاريخية لإشكالية الاستعمار والهجرة المغربية بتونس وخصوصياتها الاجتماعية والقانونية، ط1، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم، تونس، 2010م، ص129.

⁴ - Germain Marty: Les Algériens à Tunis, op .cit, p.320.

كانت الهجرة بما دائمة للأشخاص والقبائل والقوافل، ففي سنة 1781م دخلت بعض القبائل التونسية حدود "الجزائر" من جهة "تبسة" فارةً من قوات "علي باي"، فاختارت "الجزائر" مستقراً لها ووافق "صالح باي" (1771-1792م) على مطلبها في التوطن في أرض "الجزائر"، بل وطالب الباي "علي باي" بدفع التعويضات للأضرار التي خلفها قائده "حسن الكبير" إثر ملاحقته لهذه القبائل وحدد قيمة التعويضات بأربعين ألف (40.000) سكة، ورغم امتناع "حمودة باشا" (1782-1814م) واحتجاجه لدى الداي "محمد عثمان"¹، وقاد في المقابل من ذلك قواته إلى "الجزائر" كي يفاجئ هذه القبائل ويعاقبها، إلا أن "صالح باي" وقف له بالمرصاد، الشيء الذي دفع "حمودة باي" بالقبول دفع التعويضات المترتبة عليه لأن "تونس" آنذاك كانت تعيش في وضع محرج لخلافها مع البندقية، وبالتالي دفع خمس وعشرون ألف (25.000) سكة لصالح هذه القبيلة².

وفي موضع معاكس للسابق فرّت عام 1787م قبائل من الشرق الجزائري خاصة "قسنطينة" نحو "تونس" تلمصاً من دفع الضرائب لعمال "صالح باي"، وهنا وجه "صالح باي" أصابع الاتهام لحمودة باي، بل اعتبره وراء تحريض هذه القبائل للتمرد على السلطة ودفعها نحو الهجرة إلى إيالته، فما كان منه إلا أن جهّز جيشاً قوامه ستة آلاف (6000) مقاتل لمحاربتة، ليستعد له في المقابل "حمودة باي" بجيش هو الآخر تعداده خمسة آلاف (5000) مقاتل بالإضافة إلى عدد من الفرسان، ولكن وضع "تونس" المضطرب أجبره على الانصياع والقبول بدفع التعويضات بدل الدخول في حرب من شأنها أن تزيد أوضاع البلاد سوء أكثر مما هي عليه³.

2/- هجرة التونسيين نحو الجزائر:

عرفنا سابقاً أن الهجرة كانت ظاهرة اجتماعية متبادلة بين شعبي الإيالتين في الفترة العثمانية ولاحظنا أن السلطتين لم تُقيّد هذه الهجرة بالنحو الذي ألت إليه أثناء فترة الاستعمار الفرنسي في "الجزائر" أين أضحت مُقيّدة من وإلى القطرين، وقد أوردنا سابقاً نموذجاً عن هجرة القبائل التي كانت تنهرب من السلطة في بلدها إلى القطر المجاور وقد جاءت هجرتها هذه تلمصاً من دفع الضرائب؛ كما وجدنا أيضاً هجرات أخرى لقبائل تونسية خلال القرن الثامن عشر عبر دخول مجموعات تونسية مختلفة إلى التراب الجزائري عقب انتهاء الوقائع الحربية، كهجرة بعض من القبائل التونسية عقب هزيمة قوات الباي "إبراهيم الشريف" في محرم 1117هـ/25أفريل1705م، ويصف صاحب "الصُروف في تاريخ الصحراء وسوف" هذا المشهد بقوله: «وفي ولاية "إبراهيم الشريف" الذي أسره الجزائريون بعد أن أوقعوا بمعسكره وتبعهم كثير من أقوامه ودخل في وقته

¹ - الداي محمد عثمان باشا: حكم طيلة الفترة الممتدة ما بين 1766-1791م، ويعتبر عهده من أطول العهود، خاض حروب ضد الإسبان و الدانمارك، وكان له العديد من الانجازات. ينظر: أحمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766 - 1791م. سيرته، حروبه، أعماله، نظام الدولة والحياة العامة في عهده، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص71.

² - محمد صالح العنزي: تاريخ قسنطينة، المصدر السابق، ص80.

³ - ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، صص244-245.

جمع غفير من تلك الأعراب إلى العمالة الجزائرية واستوطنوها إلى الآن». وعن أهم هذه القبائل التي استوطنت "الجزائر" يذكر في نفس الموضوع قائلاً: «...وحين تراءى الجمعان فرّت عنه -أي إبراهيم الشريف- أولاد سعيد" وكثير من الأعراب للجزائريين، ثمّ لحق بهم وزيره "ابن فطيمة" وجمع "دريد" فحفّ من معه»¹.

أمّا فيما يتعلق بهجرة التونسيين أثناء فترة الاحتلال، فحركة هجرتهم نحو "الجزائر" كانت قليلة خلال هذه الفترة بحكم أنّ "الجزائر" أصبحت تحت السّلطة الاستعمارية، ثمّ إنّ الدّراسات التي تطرقت لهذه النوع من الهجرة، قليلة هي الأخرى، إذا ما قارناها بحجم الدّراسات التي تطرقت لهجرة الجزائريين وحجم الجزائريين المهاجرين خلال هذه الفترة بالخصوص، وعموماً يمكن لنا تسجيل بعض العيّنات، فعلى سبيل المثال عقب ثورة "علي بن غداهم" عام 1867م لجأت عدد من القبائل التونسية المساندة له للهجرة للمناطق الحدودية في "الجزائر" بحوز "تبسة" على وجه على الخصوص، حيث تمّ إحصاء 96 رجلاً و 21 امرأة و 95 طفلاً، لكن مصيرهم كان فضيع بحكم تردي الأوضاع الاقتصادية والصّحية التي ضربت إقليم حوز "تبسة" مما تسبب في هلاك هؤلاء ما بين شهري أكتوبر وديسمبر، كما نزع للجزائر عدد من الثّائرين في مقاومة "ابن غداهم" إلى جهة "تبسة"².

وقد تعاملت الإدارة الفرنسيّة معهم بعنف وألقت القبض عليهم وسيقوا إلى مدينة "عين البيضاء"، ولما صدر قرار بالعفو الشّامل على الثّائرين من طرف "الباي" لم يبال النّازحون بذلك، وواصلوا مسيرهم لعين البيضاء إلى غاية تأكدهم بقرار العفو الشّامل، عندها قرروا العودة للديار، وبانتهاء ثورة "بن غداهم" كان وضع النّازحين صعب جداً وكانت صورة ترحيلهم أصعب بكثير، بفعل الاضطرابات الجوية جراء تساقط الأمطار وتهاطل الثلوج في جبل "حلوفة" مما تسبب في هلاك عدد منهم، مع ذلك واصلوا مسيرهم إلى الدّيار وهناك لم يجدوا الفرقة التونسية الموكلة بانتظارهم، بل تعرضوا في المقابل من ذلك للعدوان من قبل التونسيين وتمّ تجريدهم من كلّ شيء، على حدّ تعبير كاستيل³.

وخلال تنقيبنا في الأرشيف التونسي عثرنا على وثيقة يطلب فيها جماعة من عرش أولاد علي الرّجوع لأرض الوطن، وتم فيه هذه المراسلة التّعرض لبعض أسباب الهجرة التي تراوحت ما بين الأسباب الاقتصادية والاجتماعية.

«الحمد لله. سيدي أعزكم الله أمين. ... إنّ فريق أهل خشيشة أصلهم "أولاد علي" أحد رعايا الدّولة التونسية... فمنذ الرّومان يودون ما هو مرتب عليهم... لبلدنا المعمورة غير أنّ هاته المدة ليست ببعيد منهم من حملة الجهل ومنهم من حملة مصلحة أكل العشب لحيواناته ومنهم من حملة بالتّبعية لهم واستوطنوا في تلك

¹ - إبراهيم العوامر: المرجع السابق، ج 2 و 19.

² - بيار كاستيل: المصدر السابق، ص 231.

³ - المصدر نفسه، ص 227.

الناحية، والآن أتاني بعضهم وطلب مني أن أقبله ليرجع لوطنه ومنبت أباؤه وأجداده فلم أساعفه لذلك وقلت لهم لا تسمع مني نغيا ولا اثبات ولا يعد أعلى من الدولة العلية فها نحن سيدي أعلمناكم بذلك وما تشير به علينا من أحد الوجهين إمّا امنعهم عن دخول العمالة أو بالأذن لهم في ذلك ونظركم اوسع»¹.

فمن خلال هذه المراسلة تبين لنا أنّ هناك فئات من المجتمع التونسي قد توجهت للجزائر لأسباب وبواعث مختلفة، تأتي في مقدمتها سوء الأحوال الاجتماعية بفعل تردّي الأوضاع الاقتصادية يضاف إلى ذلك إجحاف السلطة إزاء بعض منهم وتعسفها في حقهم، كالذي تعرض له زعماء الطُرق الصُوفيّة بتونس والذين طرّقوا أبواب الجزائر فراراً من التعسف والظلم المسلط عليهم، ومن أولئك المهاجرين نجد: نجد الحاج "محمّد السّهيلي" الذي انتقل إلى "الجزائر" من خلال رحلة لزيارة شيوخ الطريقة التّجانيّة في الجنوب الشرقي بـ"توقرت" و"تماسين" طالبا المعونة والمساعدة المادية أو لطلب الهجرة والاستقرار في الجزائر قرب مقرّ الزاوية التّجانيّة بـ"عين ماضي"، وتذكر التّقارير في مراسلاتها مع حاكم عام "الجزائر" في بداية شهر فيفري 1898م دخل الأراضي الجزائرية شخصين أجنيين من أصول تونسية يحمّلان جواز سفر صدر من بيروت، الأوّل يدعى "مصطفى بن محمّد"، والثّاني يدعى "محمّد الأخضر السّهيلي"².

وقد تمّ القبض عليهما في شهر أفريل 1898م بمنطقة "المسيلة" عند القائد "مول الحدبة" الذي وشي بهما لدى القائد العسكري الفرنسي إذ وجد أثناء إلقاء القبض عليهما مجموعة معتبرة من المخطوطات الدّينية والأدكار والأدعية، ووضع الشّيخ السّهيلي في السّجن³ لمدة سنة كاملة بعد صدور الحكم العسكري ضده، وتخوف "فرنسا" يرجع إلى تلك التّنقلات المكثّفة التي كان يقوم بها الشّيخ، فضلا عن اتصالاته بشيوخ الطريقة السنوسية بطرابلس، ورغم أنّ الشّيخ ظلّ طيلة فترة سجنه يبعث برسائل عدّة للحاكم العسكري الفرنسي يطلب فيها إطلاق سراحه ويوضّح لهم فيها بأنّه لم يأت للجزائر لأغراض سياسيّة، وإمّا جاء لزيارة شيخ طريقته الطريقة التّجانيّة ثم يرجع لتونس، لكن رسائله تلك وتدخّلات شيوخ الطريقة التّجانيّة لم تلق بالآل لدى الاحتلال الذي لم يطلق سراحه إلاّ في سنة 1899م، ثم عاد إلى موطنه "تونس" وازدادت أوضاع زاويته سوءاً

¹ - أ. و. ت: المحافظة 213 الملف 245، الوثيقة 119. ينظر الملحق رقم (26)

² - جمعة بن زروال: المرجع السّابق، ص 422.

³ - سجن الشّيخ في سجن تعظمت التي تقع بين الجلفة والأغواط، ومعتقل تعظمت هذا أسس في منتصف القرن التاسع عشر وكان في البداية عبارة عن خيم محاطة بأسلاك شائكة، وضّمّ سجناء مقاومة الشّيخ "بوعمامة" و"لالة فاطمة نسومر". كما ضمّ معتقلين من مناضلي الحركة الوطنيّة كما هو الشّأن مع باعلي المزايي عضو حزب الدّستور التونسي الذي سجن فيه سنة 1898م، وقضى فيه سنة واحدة. كما سجن فيه أحد شيوخ الطريقة التّجانيّة بتونس ألاّ وهو "الشّيخ لخضر بن السّهيلي التّجاني". ينظر: جمعة بن زروال: المرجع نفسه، ص 423. وينظر أيضاً: الموقع الإلكتروني: <https://www.djelfa.info/ar/sites/10811.html>. تاريخ الولوج: 2020/03/15م.

وفقرًا بسبب تضيق ومراقبة فرنسا لنشاطه الدّيني مما أجبره في سنة 1901م التّوجه نحو السّلطة الفرنسيّة طالباً الإعانة والمساعدة¹.

كما عثرنا على وثيقة أرشيفية من الأرشيف التونسي أمدتنا بمعلومات وجيزة حول هجرة بعض القبائل الحدودية التونسية للجزائر كهجرة عرشي "الهمامة" و"أولاد تليل"، كما يتبين من نص المراسلة أن هؤلاء أرادوا الرجوع لتونس من جديد ولم يتم رفضهم من السلطة التونسية بحكم أنهم رعايا المملكة التونسية في الأصل، يمثل ما هو موضح في هذه المراسلة والتي نقتطف منها هذا الجزء «عرش الهمامة وأولاد تليل يرون الدخول للملكة ولما كان الأصل أنهم من رعايا المملكة وانتقلوا للناحية الغربية فلا حرج في خروجهم²».

وحول موقف سلطة الاحتلال الفرنسي من الهجرة التّونسيّة للجزائر فالواضح أنّه اتسم بالصّرامة تجاهها أيضاً، من خلال رفضها وردّها لبعض الهجرات كالذي حصل في تلك المراسلة ما بين الجنرال "راندون" والسّلطات التّونسيّة³.

3-/ وضعية المهاجرين الاجتماعيّة والقانونيّة وموقف الإدارتين الاستعماريّة والتّونسيّة منها:

وحول الوضعية الاجتماعيّة والقانونيّة التي كان يعيشها الجزائريون في تونس، فالملاحظ أنّ الجاليّة الجزائريّة ظلّت محافظة على تنظيمها الاجتماعي الإداري الذي كان مُعتمداً في بلادهم على غرار كافة الجاليات الإسلاميّة، والتمثل في البقاء على نظام المشيخة الذي ظلّ سائداً قبل فرض الحماية الفرنسيّة على "تونس" عام 1881م. أمّا بعد الحماية فقد تدخلت الإدارة الاستعماريّة في تنظيم منصب المشيخة ووضعت لكلّ جهةٍ شيخاً مُعيّناً من طرف المقيم العام أو يقترحه المراقب المدني ويعينه الباي رسمياً، وكانت توكل للشيخ عديد المهام المدنيّة، حيث يقدّم لأهالي الجهة التّابعة له كلّ الوثائق والشّهادات المدنيّة، أمّا مهامه في الحالة العسكريّة فتتمثل في تسجيل ودعوة البالغين سنة الخدمة ويقدمهم للسّلطات الفرنسيّة، وله مهام جبائيّة تتمثل في جمع ضريبة المساهمة المفروضة على الجزائريين الذين تتراوح أعمارهم ما بين (18-60) سنة والتي تقدر قيمتها بـ: 60 فرنكاً فرنسياً، والشّيوخ يتقاضى نسبة معينة من الضّرائب المجموعه⁴.

أمّا فيما يتعلق بتنظيمهم القانوني، فقبل الحماية الفرنسيّة منح الوزير "خير الدّين باشا" الجنسيّة التّونسيّة لكل مهاجر مسلم إلى "تونس" بدافع تشجيعهم على الاستقرار، واعتماد هذه السّياسة الاغرائيّة من طرف "خير الدّين باشا" تأتي بفعل تداخل الوضعية القانونيّة للجزائريين والتي تنقسم إلى ثلاث فئات: قسم متجنّس

¹ - العجيلي التّليبي: الطّرق الصّوفيّة والاستعمار الفرنسي 1881-1939م، ط1، منشورات كليّة الآداب، جامعة منوبة، تونس، 1992م، ص107.

² - أ. و. ت: المحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 132. ينظر الملحق رقم (10)

³ - أ. و. ت: المحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 162. ينظر الملحق رقم (03)

⁴ - بشير مديني: إسهامات الجالية الجزائريّة بتونس في الحياة الاجتماعيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة، المرجع السّابق، ص37-38.

بالجنسية الفرنسية، وقسم متجنس بالجنسية التونسية، وثالث بين الجنسيتين التونسية والفرنسية، وهذا جراء السياسة الفرنسية المختلفة والمطبقة عليهم منذ سنة 1830م، من هنا إرتأى هذا الوزير توحيدهم تحت الجنسية التونسية ومنحهم الحقوق وإلزامهم بالواجبات، وأصبح المهاجرون في ظل هذا الوضع الجديد ملزمون بضريبة المحبي والخدمة العسكرية، وبوقوع "تونس" تحت الهيمنة الاستعمارية تم تقليص صلاحيات الباي وتقلص على إثره عدد الجزائريين الحاملين للجنسية التونسية¹.

3 - 1 - موقف الإدارة الاستعمارية:

في السابق كانت كلا الإيالتين تتعاملان مع هذه الظاهرة بمقتضى أحكام الشّرع الإسلامي التي تنظر للمهاجر المسلم كأحد رعايا تلك الدولة بمجرد دخوله في مجالها الإقليمي، فيخضع لقوانينها ومحامها الشرعية والذي نجد له تجسيدا في اتفاقية الحدود المبرمة بين البلدين عام 1628م² والذي جاء فيها: «الذين يعبرون الحدود من كلا البلدين، لا يتم الإعلان عنهم من طرف الدولة، ويعتبرون مُتخليين عن بلدهم ويعتبرون من اختصاص البلد الذين اختاروا الاستقرار فيه»³.

لكن هذا الموقف بين ساسة البلدين تغير بمجيء الاستعمار الفرنسي، هذه الأخير الذي كانت أحكامه لا تخضع لقوانين رباية أو دولية وإنما تخضع لقانون المصلحة الخاصة ويؤطرها بأطر قانونية لخداع الرأي العام العالمي والفرنسي ومنه فقد كثفت السلطة الاستعمارية نشاطها وتحركاتها لمقاومة والحد من هذه الهجرات الفردية والجماعية للقبائل الحدودية، فشرعت في اتخاذ كافة التدابير وتسخير كافة الوسائل من باب أخذ الحيطة والحذر من أجل إيقاف عجلة هذا التحرك البشري مخافة من أن يتحوّل لحركة مضادة تُهدد بزوال وجودها بالجزائر بفعل التضامن الديني الذي يوحّد البلدين، لهذا وقفت بصرامة من أجل وقف هذه الظاهرة وعمدت إلى تكثيف سيطرتها ومراقبتها الدائمة لحركة الهجرة التي لم تكن بالحركة السهلة للقبائل الحدودية لما يكتنفها من مناوشات بالأسلحة بين المتنقلين وحراس الحدود⁴، وقامت بسنّ قوانين جديدة تحدّ من حرية حركة التنقل بين الإيالتين أو إلى بلد آخر وذلك عبر إجبار من يرغب في مغادرة "الجزائر" بضرورة تزوده بوثيقة رسمية تُعرف برخصة السّفر أو جواز السّفر والتي تضمن له حقّ العبور من "الجزائر" إلى أي بلد آخر كما تضمن له حقّ الحماية بصفة شرعية كالرعايا الفرنسيين في الخارج، هذا بطبيعة الحال حسب ادعائها أمام الرأي العام العالمي، أما ما تُضمّره من نوايا من وراء هذا الإجراء فيصعب في قالب حصر حركة الجزائريين والحد منها، وهذا بهدف

¹ - بشير مديني: إسهامات الجالية الجزائرية بتونس في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، المرجع نفسه، ص 41-43.

² - بشير مديني: إسهامات الجالية الجزائرية بتونس في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، المرجع السابق، ص 49.

³ - مُحمّد صالح العنزي: تاريخ قسنطينة، المصدر السابق، ص 49.

⁴ - محمد بوطيبي: «الهجرة الجزائرية للبلاد التونسية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر»، مجلة الرّاصد العلمي، مع 7، ع2، تصدر عن مخبر تحليل، تنميط وتصميم المنتجات الإعلامية في الميادين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، جامعة وهران 1 - أحمد بن بلة"، الجزائر، 2020م، ص 9.

محاصرة الجزائريين وعزل الرافضين للاحتلال ومراقبتهم والضغظ عليهم بشتى الوسائل، مع السعي الحثيث لدفع السلطات التونسية لعدم قبول المهاجرين الجزائريين بتونس خوفاً من التضامن وتكوين قاعدة خلفية للمقاومة¹.

وتستمر إدارة الاحتلال الفرنسي في سياستها الاحترازية ضد الشعبين التونسي والجزائري بما يؤمن لها مصالحها، فقد سعت بعد فرض هيمنتها على القطر التونسي إلى اعتماد بث بذور التفرقة بين المهاجرين الجزائريين والتونسيين عبر بث المساومات² لكنها أخفقت فيها، وهنا كان عليها البحث عن حيل أخرى فأصدرت عام 1883م قراراً للمراقبين المدنيين جاء فيه: «أن كل من خرج من "الجزائر" بدون ترخيص ويريد اليوم تسجيل نفسه يجب رفضه...»³. ثم شرعت في تدشين محكمة ابتدائية في مدينة "تونس" وستة محاكم مصالح موزعة على كافة القطر التونسي وهذا لتضييق الخناق على المهاجرين الجزائريين الوافدين إلى "تونس" ومتابعة تحركاتهم، خاصة بعد انتصاب الحماية الفرنسية على تونس وموقف الجزائريين الرافض لها، وبسط نفوذها على الأهالي، والتقليص من سلطة الباي القضائية⁴.

و للحد من هجرة الجزائريين أصدرت إدارة المحتل الفرنسي قراراً في 7 فيفري 1889م الذي جاء نصه على النحو التالي: «كلما ألقى القبض على جزائريين في وضع غير قانوني يجب إيقافهم وتوجيههم إلى الحدود وعلى الأعوان المراقبين لهم أن يقدموا للسلطات الجزائرية كل المعلومات حول الموقفين فيما يخص وضعهم المدني وسبب ترحيلهم ومكان إقامتهم بالجزائر»⁵.

هذه التحقيقات تُسجّل في تقارير خاصة وتحتوي غالباً على المعلومات التالية: الاسم، اللقب، الجنسية، مكان وتاريخ الازدياد، الحالة العائلية، عدد الأولاد، المهنة، العنوان القديم، العنوان الحالي، القامة، ملامح الوجه والوجهة والعيان والشم واللحية، شكل الوجه، لون البشرة، وحتى نوع اللباس⁶.

ولمعرفة إجراءات المحتل لتقييد حركة المهاجرين، نقدم نموذج عن جواز سفر ممنوح لمهاجر جزائري من "وادي سوف"⁷.

¹ - أحمد بن جابو: المرجع السابق، ص 151-150.

² - تتمثل هذه المساومات في منح قانون المواطنة لكل أهلي مسلم بناء على قرار المشيخة الصادر بتاريخ 15 جويلية 1865 ويصبح على إثرها الجزائري المنتسب يخضع للقوانين المدنية والسياسية الفرنسية مع ارتباطه بالدين الإسلامي، ومرمى فرنسا من هذه السياسية هو محاصرة الجزائريين وعزل الرافضين لقوانينها ومراقبتهم والضغظ عليهم بشتى الطرق والوسائل مع دفع السلطات التونسية إلى عدم قبول المهاجرين الجزائريين بالبلاد خوفاً من تشكيلهم قاعدة خلفية للمقاومة هناك انطلاقاً من الأراضي التونسية. ينظر: فارس العيد: المرجع السابق، ص 95-96.

³ - أحمد بن جابو: المرجع السابق، ص 152.

⁴ - نفسه.

⁵ - أحمد الطويلي: المرجع السابق، ص 50.

⁶ - محمد بوطيبي: المرجع السابق، ص 9.

⁷ - أحمد بن جابو: المرجع السابق، ص 153.

الاسم	السّنة (عام)	مكان الولادة / إقامة	المهنة	تاريخ الإصدار	ملاحظات مسجلة على رخصة السفر
الحاج سالم بن مبروك	45 سنة	سوف/سوف	حمّال	جوان 1849	له الحق في الحماية بسبب العودة

أمّا التّقارير المتعلّقة برصد الهجرات الجماعيّة للقبائل، فاشتملت على المعلومات التّالية: اسم القبيلة، وعدد خيامها وأسباب هجرتها وتاريخها وموطن استقرارها بتونس. ونورد كمثال على الإحصاءات والتّقارير المتعلّقة بحركة وتعداد القبائل المهاجرة ما يلي¹:

السّنة	المنطقة	ع. الخيام	مناطق الاستقرار	سبب الهجرة	المجموع
1840	سوق أهراس	453	الخمير، أولاد بوغانم، الكاف، مدينة تونس	الفرار من المتابعة القضائية	630 خيمة
	القالّة	154			
	قالمة	29			
	عنابة	2			
المجموع الإجمالي					630 خيمة

أمّا حق الحماية فجاء مقرون بشرط العودة، أمّا وعد الأمان فكان لقبوله من بعض الأشخاص والقبائل أن لا تكون قد ارتكبت أفعالاً مُضادة للاحتلال الفرنسي والذي نستشفه من خلال الوثيقة التّالية: «...اعلموا أنّي نعطيك الأمان التّام أمان الله ورسله وانبياه عليهم الصّلاة والسّلام لأنكم أنتم خاطبين الأمور الذي وقعوا، فاقعدوا في بلادكم ولا تخشوا من حاجة وارجعوا لدياركم و ديروا العافية وما تروا إلّا الخير وكونوا طابعين لشيخكم وما عليكم إلّا الأمان التّام. والسّلام عليكم من سعادة المعظم الهمام الأنفع السيّد الجنرال "فيكره" الحاكم الكبير بقسنطينة وعنابة وسطيف نصره الله تعالى أمين»².

1 - أحمد بن جابو: المرجع السابق، ص 147.

2 - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 164.

3 - 2 - موقف بايات تونس:

في البداية وقف بايات "تونس" موقفاً مؤازراً ومناصراً للمهاجرين الجزائريين وفتحوا لهم الأبواب، لكن بحكم عديد العوامل والظروف والتداعيات السياسية تغيّر هذا الموقف وذلك بفعل أمرين وهما:

● أولاً: دور الضغوطات الفرنسية ومخافة من أن يتحوّل إيواء الجزائريين لذريعة للاحتلال، وهذا بحسب ما لمسناه في بعض الوثائق: «... لا بد منه تحصل العداوة ويكون الحرب والطراد بيننا وها أنا أعلمت سيدك سعادة البيك بهذا الشّي الذي حصل وأنت خامن بما يحصل منه وأن كان سيدك سعادة البيك مشتتة الحرب فلازم يظهر لنا ذلك...»¹. ولأنّ الحدود كانت حاضنة لأبرز المقاومات خيّرت السّلطة التّونسيّة المهاجرين بعد اندلاع ثورة "المقراني" ما بين الاستقرار في عمق الإيالة بعيداً عن الحدود أو بين تسليمهم للسّلطة الفرنسيّة، وهذا تجنباً لتوتر علاقاتها مع الطّرف الفرنسي.

● وثانياً: بحسب مقتضيات المصلحة، فعند المصالح تسقط كافة الأعراف كالجوار والاحتماء والنصرة... وعليه فبحكم المصالح التي تجمعها بالاحتل الفرنسي وموازن القوى الجغرافية السياسيّة، أصدر الباي في 1874/04/06 م أمراً يقضي بمنع دخول الجزائريين للإيالة التّونسيّة الذين يدخلون بصفة غير قانونيّة، وأبدى صرامة اتجاه المجموعات المتعاونة والدّاعمة للمقاومة الجزائريّة الموجهة ضدّ الاستعمار الفرنسي، وهي مواقف مطابقة للمواقف الفرنسيّة؛ وفي هذا الشأن يظهر أنّ التّحول في موقف بايات "تونس" من الهجرة خاصة منها الحدوديّة والذي انقلب من المؤازرة إلى موقف المراقبة المشدّدة على الحدود إلى إعادة المهاجرين باتجاه "الجزائر" عبر تسليمهم للسّلطات الفرنسيّة، تبيّن أنّها مواقف خاضعة للمصلحة... وهي في النّتيجة مواقف محكومة بالأوضاع الدّاخلية الخاصة بكلّ بلد والمصالح المشتركة بينهما، وبالخصوص بموازن القوى التي تتحكم في هذه العلاقات، هي في النّتيجة مواقف متشابهة ومتغايرة تحكمها في نهاية الأمر، الرّهانات الجيو-إستراتيجية أكثر من أيّة اعتبارات أخرى كالجوار والدين»².

ومهما يكن من حصار نُفدَ في حقّ المهاجرين من الطّرف الفرنسي والتّونسي على السّواء، غير أنّ الوجود الجزائري للمهاجرين في "تونس" كان مُثمراً في جوانب عديدة، منها: الدّفاع والدّود عن حماها من سطوة المحتل الفرنسي الذي مدّ يده للاستيلاء على خيرات القطر التّونسي، والذي تصدّت له المقاومة التّونسيّة ودعمتها مشاركة للمهاجرين الجزائريين في مقاومة الغزو الفرنسي لتونس سنة 1881م في ثورة "جبال الخمير" و"وشتاتة" و"الفراشيش" و"بني مازن"³، كما قام المهاجرون الجزائريون المنتشرون في شتّى أصقاع القطر التّونسي كـ"الفراشيش" و"الهمامة" و"وشتاتة" و"الجريد" بتنظيم عمل جهادي، وذلك بشراء الأسلحة والدّخيرة

1 - أ. و. ت: الحافظة 213، الملف 245، الوثيقة 162.

2 - الأزهر الماجري: القبيلة الولائيّة والاستعمار، المرجع السّابق ص 213 - 214.

3 - جمعة بن زروال: المرجع السّابق، ص 418.

والخيول والجمال والأحصنة ولوازم الحرب من أجل استغلالها في حركة الجهاد المشترك في "الجزائر" و"تونس"، وقد تمكنت قوات الاحتلال من أسر جملين محمّلين بكمية من البرود قدرت بثلاثمائة وثلاثين (330) كغ، وتمّ أسرُ زوجة الثائر "يوسف الشّعباني" المتابع من طرف قوات الاحتلال¹.

كما ظهر دعاة جزائريون وتونسيون في واحات "وادي سوف" و"وادي ريغ" وتوقرت يثون الناس على حمل السلاح ومقاومة قوات الاحتلال ويحثونهم أيضا على تقديم العون للمقاومين التونسيين².

وعلى أي حال فمساندة المقاومة التونسية لم يكن حكرًا على المهاجرين، فحتى سكان المناطق الحدودية بل الجزائريين برمتهم ساندوا المقاومة التونسية، ولم يكن لتلك الإجراءات الزجرية والقمعية والتعسفية المسلطة على الجزائريين من طرف قوات المحتل في سبيل حماية ظهره قبل شروعه لاحتلال تونس أن تُثني من عزيمة المناضلين الذين انظموا للمقاومة نصرًا ومساندةً منهم للمقاومة التونسية، وكان الدعم نشطا وفعالاً من سكان المناطق الحدودية الذين تجندوا للمقاومة بداية من شهر أفريل بعد انتهائهم من عملية اقتناء الأسلحة والذخيرة بفضل تعاونهم مع المهاجرين الجزائريين في "تونس"، ومنه فالمشاركة الجزائرية سجّلت حضورها بقوة جنباً إلى جنب للمقاومة التونسية التي اندلعت في مناطق عديدة من الثراب التونسي، الأمر الذي دفع بقوات الاحتلال إلى تشديد الحراسة على الشريط الحدودي بدءاً من "القاله" و"عنابة" شمالاً إلى جنوب منطقة "تبسة" بعدد من الجنود قدر بثلاثة عشر ألف (13000) جندي فرنسي، لمراقبة مناطق عمالة "قسنطينة" ومنطقة "القيروان" بتونس، ومع ذلك فالمساندة ظلّت مستمرة حتى في ظلّ هذه المراقبة المشدّدة، ففي منطقة الواحات "وادي سوف" و"وادي ريغ" انطلق نشاط ثنائي جزائري وتونسي ينادي بحمل السلاح لمقاومة جيش الاحتلال تدعيماً للمقاومة التونسية، وقام سكان منطقة "تبسة" بإرسال أعداد من الأحصنة إلى المناطق التونسية المجاورة كـ"توزر" و"نفطة" و"نفزاوة"³.

إن هذا الدعم المشترك للجزائريين سواء أكانوا في "تونس" كمهاجرين أو في "الجزائر" كمواطنين يعكس لنا صورة حيّة عن التضامن الأخوي الكبير والوثيق بين شعبي البلدين خاصة في الظروف الصعبة والأزمات التي تعصف بالبلدين كتعرضهم للسيطرة الفرنسية على السّواء⁴.

وختاماً نسأل: إذا كان هذا هو حال التواصل الاجتماعي بين القبائل الحدودية، فكيف كان واقع التواصل الثقافي بينها؟

¹ - أحمد بن جابو: المرجع السابق، ص 241.

² - فارس العيد: المرجع السابق، ص 170.

³ - أحمد بن جابو: المرجع السابق، ص 240-242.

⁴ - نفسه.

الفصل الرَّابِع

المحاكاة الثقافيَّة بين القبائل الحدوديَّة.

- أوَّلاً- الرِّحلات والهجرة العلميَّة.
- ثانياً- الطُّرق الصُّوفيَّة المنتشرة بين القبائل الحدوديَّة.
- ثالثاً- الزِّيارات و الوعدات المتبادلة للأضرحة والزَّوايا بين القبائل والمجموعات الحدوديَّة.
- رابعاً- التَّشابه والتَّشارك في بعض الممارسات الاجتماعيَّة والثقافيَّة والعُرفيَّة.

بالرغم من القيود التي مارستها السلطة الاستعمارية في سبيل كبح حركة القبائل الحدودية على الشريط الحدودي بين البلدين إلا أن القبائل رفضت هذا التقييد، بل وفي المقابل أخذت تمارس تواصلها الذي اجتاز القطر الواحد وامتد للقطر المجاور، هذه الحركة التي أخذت أبعاداً عديدة كما سبق ومررنا به في الفصول السابقة وتترجمت هذه المرة في الصبغة الحضارية والثقافية، ففيما تمثل هذا التواصل الثقافي؟ وما هي أوجهه؟ وما هي خصائص هذا التفاعل في قبائل جُبلت على ظاهرة التبدلي؟

أولاً- الرحلات والهجرة العلمية:

نظراً للأوضاع الثقافية المتأزمة التي كانت تعيشها البلاد الجزائرية في ظلّ السيطرة الاستعمارية والتي أتت مخططاتها الاستعمارية من أجل محو الشخصية الثقافية والحضارية للجزائريين، ف"الجزائر" قبل الاحتلال الفرنسي كانت تتوفر على عدد هائل من العلماء وعدد كبير من الحواضر العلمية، بدليل أن هناك عددًا من طلاب العلم من البلدان المجاورة كـ: "تونس" و"المغرب" قصدوها للاستزادة والنهل من ينابيعها العلمية، بل أنه هناك من العلماء¹ من قصدوها للأخذ من علمائها، ف"الجزائر" وعلى غرار بقية أقطار العالم الإسلامي قبل تعرضها للاستعمار الفرنسي كانت تعرف نوعاً من الحضور العلمي والثقافي الذي سعى الاستعمار الفرنسي في سبيل طمس معالمه وإخفاء أنواره، عبر سعيه لإفشاء ظاهري الجهل والأمية بين مكونات شعبه، فالمطلع على مراسلات أعيان "الجزائر" لتذكيرهم بالتقييد بنود الاستسلام الممضاة مع الداي حسين² يتبين له بحق مقدار الوعي والنضج الفكري الذي وصل إليه أشرف وأعيان "الجزائر" في تلك الفترة، بل أن الوضع الثقافي كانت بدرجة من الاستقرار والصحة ما جعل أحد أعضاء مجلس الشيوخ الفرنسي وهو "أوجين كومب" Eugène Cumb يقول: «مما لاشك فيه هو أن التعليم في "الجزائر" كان قبل الاحتلال الفرنسي سنة 1830م بشهادة "روزيت" "Risette" حيث قال: أن هذا الشعب له من التربية ما يفوق الشعب الفرنسي، فكانت أغلبية الناس تعرف القراءة والكتابة»³، وهو نفس الرأي ذهب إليه "استنهازي" (Isten haze) حسب ما

1 - أمثال: "محمد تاج العارفين بن أحمد البكري العثماني" (كان حياً في سنة 1037هـ/1628م)، ويعتبر من أوائل من تولى الإمامة بجامع الزيتونة من بيت البكريين، وقد ظلت الإمامة حصراً عليهم مدة مئة وثلاثة وسبعون (173) سنة، والشَّيخ "تاج العارفين" تلقى تحصيله العلمي على عدد كبير من علماء "الجزائر"، منهم: الشَّيخ "عميسى العالبي الجزائري"، والشَّيخ "تاج العارفين" من بين العلماء الذين شهدوا واقعة الحدود بين القطرين "الجزائر" و"تونس" بل أنه كان من أعضاء الوفد الذين قدموا "الجزائر" من أجل الهدنة، ترك الشَّيخ عدَّة تآليف من أهمها: "إعمال النظر الفكري في تحرير الصَّاع النَّبويِّ التُّونسي"، بالإضافة إلى العالم "ابن برناز" (1074هـ/1677م-1138هـ/1726م) الذي جال معظم القطر الجزائري لتحصيل العلم أين نزل بعناية وأخذ عن شيخها "أحمد بن ساسي" ومفتيها الشَّيخ "الصدريقي". ينظر: مُحمَّد محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982م، صص 122-154. وينظر أيضاً: أحمد الطَّويلي: تاريخ مدينة تونس الثقافي والحضاري من الفتح إلى أواخر القرن التاسع عشر، ط1، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرِّسم، تونس، 2002م، صص 113-114.

2 - جمال قنان: نصوص سياسية جزائرية في القرن 19م. (1830-1914)، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م، صص 36.

3 - آندري رينان وآخرون: الجزائر بين الماضي والحاضر، تر: رابح اسطنبولي ومنصف عاشور، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994م، صص 211.

أورده الأستاذ "إيفريت" (Ivrite) بما معناه عن الشعب الجزائري أنّ نسبة غير المتعلمين كانت أقل مما كانت عليه في "فرنسا" في ذلك العهد ، حيث كانت نسبة الأمية في فرنسا تتجاوز نسبة 40%، وحثته في ذلك توقيع السكان وإمضاؤهم في دفاتر الحالة المدنية باللغة العربية في السنوات الأولى من الاحتلال الفرنسي¹، فقد كانت الكتاتيب حوالي 3000 كتاب والمساجد والزوايا تقوم بمهمتها في تعليم الأمة وتنشئتها التنشئة العربية الدينية الصالحة، فالاستعمار أول ما حطّم، حطّم الكتاتيب القرآنية وألغى وحجر التعليم في المساجد التي دمر وهدم أكثرها، فالمستعمر الفرنسي لم يكذّئهُ مخطّطه الدّموي الذي يقوم على إفناء العنصر الجزائري حتى كانت البلاد قد فرغت من العلم بصفة تكاد تكون مُطلقة² على حدّ تعبير "أحمد توفيق المدني"³، على أنّ هذا الوصف ليس بمستبعد إذا علمنا محاولات إدارة الاحتلال في تحطيم الكتاتيب القرآنية وإلغاء وحجر التّعليم في المساجد، هاته الأخيرة التي قام بتحطيم بعضها وتحويل بعضها الآخر إلى إسطبلات وكنائس وثكنات عسكرية أو لإقامة بنايات جديدة في محلها⁴، وهي التي كانت فيما سبق منارة للعلم لتلجئ إليه أفئدة طلبة العلم وأساتذة علماء أكفاء لتلقي وإلقاء العلوم الدّينية واللغويّة.

إنّ إقدام إدارة الاحتلال على المخطط التدميري في وجهته التّقافيّة، كان الغاية منه هو التّضييق و القضاء على التّعليم لعلها أنّ الأمة إذا علمت سترفض الخنوع والخضوع للاستعمار وسترفع لواء المقاومة ضدّه لاسترداد حقوقها الطّبيعيّة في حياة كريمة، بخلاف الأمة الجاهلة التي تتخبّط في غيابات التّحجّير الفكري، الأمة التي لا تدري مالها وما عليها، وبالتالي لن تدافع عن أولويّات حقوقها والمتمثلة في الحرّيّة والاستقلال ورفض الاستعباد، من هنا عمل المستعمر كلّ ما بوسعه في سبيل طمس ومحو كلّ المعالم الحضاريّة والتّقافيّة لهذه الأمة من أجل أنّ يضمن ركوتها وعدم مقاومتها له، بغرض تهيئتها لقبليته، كما جاء مشروعه التّجهيلي هذا إدراكا منه لقيمة المدارس ودورها الفعّال في بناء الفرد والروح الوطنية ونبذ الانتكاثة والظلم ورفعها لواء المقاومة والجهاد

1 - آنديري رينان وآخرون: المرجع السابق، ص 211.

2 - أحمد توفيق المدني: هذه الجزائر، (د. ط)، دار النّهضة المصريّة، القاهرة، (د. س. ن)، ص 140.

3 - أحمد توفيق المدني: هو أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد المدني القبي الغرناطي، ولد في تونس يوم 24 جمادي الثانية 1317 هـ الموافق لأول نوفمبر 1899 م، والده محمد بن أحمد المدني دّرّس بالجامع الكبير ، أما جده فهو أحمد بن محمد المدني نسبة إلى المدينة المنورة فقد كان أمين الأمانة أي شيخ العاصمة ، هاجرت أسرته وأسرة جده لأمه إلى تونس إثر ثورة المقراني عام 1871، زاول أحمد توفيق المدني دراسته الإبتدائية والثانوية وتعليمه العالي بالزيتونة وتعلم فيها مبادئ اللغة العربية وعلوم الدين والحساب والكيمياء والطبيعة ومبادئ اللغة الفرنسية ، كما درس في المدرسة الصادقية والخلدونية وتلقى فيها العلوم اللغوية والدينية والتاريخ والفلسفة والاجتماع، عُرف بشغفه الكبير للمطالعة الشيء الذي كان له الأثر الطيب في تكوينه وتحصيله العلمي خاصة في التاريخ ، من مؤلفاته وهي عديدة: المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا ، مسرحية حنبل الأدبية التاريخية ، كتاب تونس وجمعية الأمم ، الحرية ثمرة الجهاد ، كتاب الجزائر ، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791 ، جغرافية القطر الجزائري ، كتاب هذه الجزائر ، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792، وحياة كفاح وهو عبارة عن مذكرات شخصية جاءت في ثلاث أجزاء . ينظر : أمال معوشي : « أحمد توفيق المدني لحظة عن إسهاماته الثقافية ودوره الدبلوماسية في الثورة الجزائرية » مجلة البحوث التاريخية ، مج 3 ، ع 1 ، مارس 2019 ، ص ص 193-200.

4 - نصيرة زميرلين: التعليم الإسلامي في الجزائر في ظل الاحتلال الفرنسي (1830-1962)، دط، دار الخلدونية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1453/هـ 2013، ص 91.

ضده ، والذي نلاحظه في قول وزير التربية والتعليم الفرنسي جول فيري عام 1883 بقوله : «المدرسة سلاح ماض في التغلب على الروح الوطنية التي سعت إلى إشعال الثورات المتوالية وجعلت الجزائر بالنسبة إلينا جحيما لا يطاق¹ » .

ثم إن المدارس الحكومية التي أنشأت عملاً بأوامر "نابليون الثالث"² الصادرة عام 1857م، وهي أول المدارس المختلطة من أجل أن يلتحق بها 150 تلميذاً من أبناء المسلمين والمسحيين الرّاغبين في تعلم اللغة العربيّة الفرنسيّة³، وقد سَطُرَتْ تحتها أهداف عدّة لعل أهمها: السّعي لتقريب الجزائريين من "فرنسا" حتى يسهل إدماجهم⁴، والعمل على تكوين طبقة تساعد على تيسر الشُّؤون الجزائريّة⁵، وفي هذا الشّأن يصرح "جول كامبون" بقوله : «...، أرادوا غزو الشعب العربي من جديد، واحتلاله معنوياً ومن ثمّ جاءتنا فكرة احتواء الأهالي فكربا بنشر التعليم بينهم، التعليم الابتدائي خاصة⁶» واستطرد قائلاً : «أظن من الأهمية بما كان توظيف نخبة من الأهالي ليقوموا مثلما صرحت بذلك قبل قليل ، بمهمة وساطة طبيعية ولازمة بين الحكومة والسكان» وربما فتحت المدارس أيضاً لتجنّب الأطفال تقليد آبائهم في كرههم للاستعمار ومناهضته، حيث يقول "الدوق دومال" : «إن فتح مدرسة وسط الأهالي يعادل فيلقا من حيث تطويع البلاد⁷» ثمّ أنّ التّعليم الحكومي بدوره شهد العديد من التّضحيقات والعراقيل التي خلقتها إدارة الاحتلال في سبيل تمكين التّحاق أضال نسبة ممكنة من الطّلبة الجزائريين وذلك عبر :

✓ حصر التّعليم الجزائري في أضيق الحدود، وذلك بعدم إنشاء مدارس وفصول جديدة سنوياً لمواجهة الزّيادة في عدد أطفال الجزائريين في التّعليم، بدعوى أنّ ذلك يُهدّد المركز المادي للأوروبيين، مع العلم أنّ هاته

¹ - نصيرة زميرلين : المرجع السابق ، ص ص 96-97.

² - نابليون الثالث : 1873 1808 هو شارل لويس نابليون ولد(بباريس في 20 أبريل 1808 وهو ابن شقيق نابليون الأول . ترقى في سويسرا بعد سقوط النظام الإمبراطوري . 1815 التحق بالمدرسة العسكرية بسويسرا ، حيث تخرج برتبة ضابط في سلاح المدفعية. نفي في سنة 1836 إلى البرازيل ومنها إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، ومنها انتقل إلى بريطانيا . عاد إلى فرنسا 1848 بعد سقوط النظام الملكي . انتخب رئيسا للجمهورية الفرنسية الثانية. وفي 2 ديسمبر أعلن نفسه إمبراطورا . من أعماله ؛ إطلاق سراح الأمير عبد القادر وخوضه العديد من الحروب القارية . قام بزيارة الجزائر مرتين الأولى في شهر سبتمبر 1860 والثانية في مايو 1865، إذ زار العديد من المدن الجزائرية . أعلن الحرب على بروسيا في جويلية 1870 انتهت بانحزام فرنسا ووقوعه أسيرا في 2 سبتمبر 1870 ، وبعدها نفي الى بريطانيا ، فيها توفي وكان ذلك في 9 جانفي 1873 . ينظر :نادية طرشون «سياسة نابليون الثالث العربية»،مجلة دراسات وأبحاث، مج 8، السنة التاسعة ، العدد26مارس 2017، ص 335،الهامش رقم 1.

³ - عمار بوحوش:التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962م،3ط،دار البصائر،الجزائر،2008م،ص179.

⁴ - أحمد توفيق المدني: المرجع السّابق،ص141.

⁵ - عمار بوحوش: المرجع السّابق،ص179.

⁶ - محفوظ سماتي :الأمة الجزائرية نشأتها وتطورها، تر : محمد الصغير بناني وعبد العزيز بوشعيب، د ط ، منشورات المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة الرغبة ، الجزائر ، 2009، ص ص 210-211.

⁷ - نفسه ، ص ص 188-189.

المراكز إلى تفتقر للوزم التعليم مما جعل عدد من الطلبة الجزائريون يجربون عنها عند إلتحاقهم بها لعدم توفر أماكن لهم.

✓ تحديد عدد الأطفال الجزائريين في مختلف المراحل التعليمية، والذي كان يقل في كل مرحلة تعليمية إذ بلغ عدد الأطفال الجزائريين 2% مقابل 11% من المستوطنين.

✓ خفض ميزانية التعليم بالجزائر إلى أقل حد ممكن، حيث أنها لم تتعد 4-5% من جملة الإعدادات المخصصة للتعليم بالجزائر .

✓ الاهتمام بالتعليم النظري على حساب التعليم الفني والمهني فوضعت شروط قاسية للالتحاق بالمعاهد الزراعية، وذلك من أجل عدم تمكين الجزائريين من تحقيق نهضة في هذا المجال الحيوي¹.

✓ فرض مصاريف تعليمية باهظة تفوق إمكانات الجزائريين المادية حيث كانت المصاريف المخصصة للالتحاق بالثانوي تتراوح بين 40-50 ألف فرنك، بالإضافة إلى مستلزمات الكتب والأدوات المدرسية والملابس،... فبالرغم من قيام الإدارة بإعطاء منح دراسية كافية لأبناء الأوربيين العاجزين مادياً فإن الجزائريين لم يستفيدوا منها إلا نادراً².

على أن المستوطنين أنفسهم لم يكن يرضيهم أن يتعلم الشباب الجزائري وذلك مخافة أن يطالبوا بالمساواة معهم، فعملوا كل ما بوسعهم لصد أبواب التعليم في وجوه أبناء الجزائريين، مما تسبب في انخفاض عدد الطلبة الجزائريين إلى أن وصل إلى 85 تلميذ عام 1872م في مدرسة "الجزائر العاصمة"، وفي عام 1903م كانت النسبة لا تتجاوز 4,26% من أبناء الجزائريين المسلمين الذين أتيحت لهم فرصة التعليم وامتد هذا الانخفاض حتى في عدد الأساتذة المعيّنين لتعليم أبناء "الجزائر"، الذي شهد تراجعاً هو الآخر وبصورة مستمرة فمن 216 معلماً سنة 1877م إلى 69 معلماً فقط سنة 1893م³، وما يُقال عن مدينة "الجزائر" يقال في بقية المدن الأخرى سواء كانت في الشمال والجنوب أو الشرق والغرب .

وفي ظل هذا التحجير المطبق على التعليم والطلاب والعلماء ما كان من سكان الحدود الجزائرية إلا طرق أبواب "تونس" رغبة في تحصيل العلم في مجاهدة والتصدي منهم لسياسة التجهيل، ليرفع بذلك لواء المقاومة ضد المحتل الفرنسي، والتي اتخذت السمة الثقافية هذه المرة والتي تترجم تجلياتها عبر الرحلات والهجرات العلمية، وقد أخذت هم أعداد كبيرة من الطلبة والتلاميذ تحترق الصعاب قبل الحدود لتصل إلى منابع العلم والمعرفة عملاً منهم بمنهج القرآن والسنة المشرفة اللذين حثاً على طلب العلم وشد الرحال في سبيل تحصيله، فقد صور القصص القرآني هذا المشهد العلمي في سبيل تحصيل ثمرات العلم في "سورة الكهف" عبر سرده لرحلة كليم الله "موسى" إلى العبد الصالح ليأخذ منه العلم، حيث قال عز من قائل بعد بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿فَوَجَدَا

¹ - رابع تركي: التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص 145 و 148 و 159.

² - رابع تركي: المرجع نفسه، ص 164.

³ - عمار بوحوش: المرجع السابق، ص 180.

عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا، قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا¹، فرغم بلوغ سيدنا "موسى" عليه السَّلام درجة عالية عند الله واختصاصه بكلامه، بنحده يرحل مُصراً على أخذ العلم من "الخضر" عليه السَّلام، متحدياً بذلك كافة الصَّعاب بغية تحصيل علم لم يعرفه، فقد كان بمقدور المولى عز وجل إحضار العبد الصَّالح لموسى عليه السَّلام لكن الله أراد توضيح بأنَّ العلم يتطلب البحث والانتقال لطلبه²، بدورها السُّنَّة المشرفَّة حثَّت على السَّعي العلمي مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ³»، وقال أيضاً: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهِ فِي الدِّينِ»⁴ ويرى "ابن خلدون" أنَّ الرِّحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيدُ كمال في التَّعليم، وعليه فالرِّحلة شيء لا بد منه في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال ولقاء المشايخ ومباشرة الرِّجال⁵.

وعلى هذا الأساس شدَّ أبناء القبائل الحدودية الجزائرية الرِّحال نحو "تونس" التي غدت قبلةً لأكثر عدد منهم وذلك للأسباب التالية:

✓ كون "تونس" قبلة "الجزائر" العلمية ومُزْرَهاً الذي تُأزَّر به عند النَّوَّاب ومنازلها التي تُشرق على الشَّرْق وأنواره⁶.

✓ عملاً منهم وتأسياً واقتداءً بالسَّلف السَّابقين، حيث كانت الدُّروب معلومة بين الحواضر الجزائرية و"تونس" منذ أزمنة غابرة.

✓ بفعل جذور التَّواصل التَّقافي الذي كان قائماً بين "تونس" و"الجزائر" في الفترات السَّابقة للاحتلال وقد أدت فيه المدن الواقعة على التُّخوم دوراً مميّزاً وفعّالاً في رسم خطوط الحركة التَّقافية للطلبة والعلماء من وإلى البلدين، كالدَّور الذي أدته مدينة "الكاف" التي تعتبر أحد روافد التَّبادل التَّقافي وكذلك الحال بالنَّسبة لمدينتي "توزر" و"نقطة"، والشَّأن ذاته أدته مدينتي "الوادي" و"توقرت" اللتين كانتا مقصداً لعلماء "تونس" دونما أيّ

1- سورة الكهف: الآيتان 65 - 66.

2- عواطف محمد يوسف نواب: الرحلات المغاربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن هجريين، د ط، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض 1417هـ، ص ص34-35.

3- أبو داود سليمان بن الأشعث: سنن أبي داود، كتاب العلم، باب: الحثُّ على طلب العلم، رقم الحديث: 3641.

4- مُحَمَّد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، كتاب العلم، باب: من يرد الله به خيراً يفقهه في الدِّين، رقم الحديث: 71.

5- عبد الرَّحْمَن بن خلدون: مُقدِّمة ابن خلدون - المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشَّأن الأكبر، ط1، دار الفكر للطباعة والنَّشر والتَّوزيع، بيروت، 2003م، ص ص559-560.

6- مُحَمَّد البشير الإبراهيمي: آثار مُحَمَّد البشير الإبراهيمي (1940-1954م)، جمع وتَق: مُحَمَّد طالب الإبراهيمي، ج2، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م، ص271.

صعوبة وعراقيل كأمثال: العالم "مبارك بن المازق التُّوزري" الذي وفد لتماسين، و"المكي التُّوزري" و"العربي القيرواني"¹.

✓ تمتع "تونس" بمناخ علمي هام جعل منها مقصداً لطلاب العلوم وشيوخ العلم الجزائريين، فـ"تونس" كان لها تأثير في نهضة المغرب العربي؛ بفضل ما شهدته في العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين من جوٍّ علميٍّ وسياسيٍّ وأدبيٍّ، ندر له نظير في بلاد المغرب، فضلاً على أنّ الأوضاع الثقافيّة هناك كانت أفضل وأرحب مجالاً واهتماماً بمختلف العلوم، مقارنة بالوضع الذي آلت إليه "الجزائر"².

✓ افتقار "الجزائر" لنخبة تدافع عن المصالح الداتية والحضارية للجزائريين عامة وللمثقفين خاصة، بفعل سياسة التّفي والإبعاد التي مارسها العدو ضدّ كلّ من يلمس فيهم خطراً عليه وهجرة الآخرين عندما فشلوا في التغلّب على الحضارة الجديدة متوجهين إلى قواعد الثقافة التي تلائم تكوينهم.

✓ كردّ فعل على السياسة الاستعماريّة اتجه المؤسسات التّعليميّة والمساجد التي امتدت لها يد الاستعمار وشوّمت كلّ وظائفها وأدوارها عندما قامت هي باختيار من يقوم بهذه الوظائف، فانفتح الباب على مصراعيه للتشويه في الدّين ونشر مختلف عوامل تهديم الانتماء الحضاري العربي - الإسلامي للجزائريين، و قضى على الدّراسات المسجديّة باستيلائه على المساجد نفسها، حيث لم يبق إلّا على دراسات الكُتّاب في بدائيتها الأولى، مما اضطر الجزائريون الذين أتيحت لهم الفرص إلى الاغتراب في سبيل أخذ التّعليم العربي من "تونس" وأقطار عربية مجاورة.

✓ لقرب البلاد التّونسيّة من "الجزائر" وبالنظر للتبادل والتّواصل بين القطرين في مختلف الميادين وفي كافة الحقب التّاريخيّة، وقد كان للقرب الجغرافي واشتراك البلدين في شريط حدودي واحد أن جعل كثيراً من أفئدة طلاب العلم وشيوخ العلم تأوي إليها³، فخلال الفترة الممتدة من (1876-1900م) كان عدد الوافدين من الطّلبة إلى "تونس" من جهة الشّرق الجزائري هو الأكثر مقارنة بطلبة جهة الغرب إذ بلغت نسبتهم 60 % فمن مجموع 33 طالباً جزائرياً كان منهم 20 طالباً من جهة الشّرق، وهذا بفعل قرب المناطق الشّرقية من الحدود الغربيّة للبلاد التّونسيّة، وقد تميّزت هذه الدّفعة بحفظ القرآن الكريم حيث كان 17 طالباً منهم يحفظ القرآن كله، وهذا المستوى المتميّز للطلبة يعود للدور الهام الذي أدّته مدارس الزّوايا والطّرق الصّوفيّة خاصة منها

1 - احميده عميرواي: المرجع السّابق، ص 35-54.

2 - علي حراث: «أسباب تركيز الرّحلة العلميّة الجزائريّة على تونس»، أعمال الملتقى الدّولي حول: التّواصل الحضاري بين الجنوب الشّرقى الجزائري وتونس 1881 - 1954م، المنعقد يومي: 10/ 11 نوفمبر 2013م، بقسم العلوم الإنسانيّة، كليّة العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة، بجامعة الوادي - الجزائر، 2014م، ص 4.

3 - علي حراث: المرجع السابق، ص 4.

الرَّحمانِيَّة والقادريَّة والتَّجانيَّة المنتشرة على الحدود التُّونسيَّة الجزائريَّة خاصة بمنطقتي "الكاف" و"نفطة" اللتين تقومان بتحفيظ القرآن ونشر العلم والدِّفاع عن الهوية العربيَّة الإسلاميَّة للجزائريين¹.

1- تصنيفات طلبة العلم الرَّاحلين إلى تونس:

يمكن تصنيف طلبة العلم الرَّاحلين إلى "تونس" إلى أصنافٍ أساسيَّة هي:

1 - 1 - الصَّنْف الأوَّل: المستقر بتونس استقرارًا دائمًا، ويندرج ضمنهم أولئك الذين دخلوا في خدمة الحكومة التُّونسيَّة والمستكثبين فيها.

1 - 2 - الصَّنْف الثَّاني: المقيم بتونس إقامة مؤقتة ولفترة محدودة، لم تكن فيه "تونس" إلا محطة عبورٍ لقصد المراكز العلميَّة الأخرى المنتشرة في شتى أصقاع العالم العربي.

1 - 3 - الصَّنْف الثَّالث: وهو يشكل الأغليبيَّة، وهو الصَّنْف الذي يقصد "تونس" طلبًا للعلم بها، وكان لهذا الصَّنْف مساهمة بارزة في السَّاحة التُّونسيَّة إبَّان مرحلة تَعَلُّمِهِ ليرجع بعدها إلى بلاده².

وهناك تصنيف آخر حسب عدد الرَّاحلين، فكانت هناك رحلات فرديَّة وأخرى جماعيَّة بحكم خصائص كل فترة تاريخيَّة ومدى تأثرها بالظُّروف والضُّغوطات الممارسة على فئة الطُّلاب ك: إجباريَّة حصولهم على رُخص العبور للرحيل إلى "تونس"، وبحسب سجل الدَّفتر التَّأسيسي يعتبر التَّلמיד "عمر بن مبارك التَّموشي" أوَّل تلميذٍ الذي ينتمي لقبيلة النمامشة ببلاد تبسة بالشَّرْق الجزائري³.

كما رحل من منطقة سوف ثُلَّة من الطُّلبة كان لهم دورٌ بارز في السَّاحة العلميَّة في منطقة "وادي سوف" بفعل مهامهم التي تولها أو بالنظر لأعمالهم التي خلفوها.

2- الرِّحلة العلميَّة الفرديَّة (نماذج من طلبة العلم السَّوافة الرَّاحلين إلى تونس):

من جملة هؤلاء نذكر على سبيل المثال:

2- 1 - الشَّيخ أحمد بن عبد الله دغمان: ولد العلامة ببلدته "قمار" بالوادي سنة 1226هـ/1811م. حفظ القرآن الكريم ومبادئ علوم الفقه، وبعد ذلك رحل إلى جامع الزيتونة المعمور، وتحصل على شهادة التَّطويح، درس الشَّيخ مُدَّة بمدينة "الكاف" التُّونسيَّة ثمَّ استقدمته الرَّاوية التَّجانيَّة بـ"قمار"،

¹ حبيب حسن اللُّوب: «الطُّلبة الجزائريون بالبلاد التُّونسيَّة (1876 - 1962م)»، أعمال الملتقى الدُّولي حول: التَّواصل الحضاري بين الجنوب الشَّرقي الجزائري وتونس 1881 - 1954م، المنعقد يومي: 10/ 11 نوفمبر 2013م، بقسم العلوم الإنسانيَّة، كليَّة العلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة، بجامعة الوادي - الجزائر، 2014م، ص9.

² خير الدِّين شترة: «الرِّحلات العلميَّة بين الجنوب الشَّرقي الجزائري وتونس وأثرها في خصوصيَّة التَّواصل بين المنطقتين»، أعمال الملتقى الدُّولي حول: التَّواصل الحضاري بين الجنوب الشَّرقي الجزائري وتونس 1881 - 1954م، المنعقد يومي: 10/ 11 نوفمبر 2013م، بقسم العلوم الإنسانيَّة، كليَّة العلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة، بجامعة الوادي - الجزائر، 2014م، ص3.

³ حبيب حسن اللُّوب: المرجع السَّابق، ص7.

وعين شبه قاضي يفصل في التّوازل ويحلّ المشاكل، ثم عينته الحكومة الفرنسيّة قاضياً بالوادي في الفترة ما بين (1864-1878م) ثم استقال من منصبه واعتكف على التّدريس والإفتاء بالرّؤية التّجانيّة بين مدينتي "قمار" و"تماسين"، وعلى يده تخرّجت جماعة من فقهاء المنطقة، توفي الشّيخ سنة 1309هـ/1891م وهو عائد من "تماسين" مُخلفاً منظومات عدّة في البسملة والتّجويد، منها: "الإجابة بحسب خلاف أسوأ السّوأى في الكتابة"، وكان للشّيخ أيضاً قصائد شعرية في المدح¹.

2-2- الشّيخ الحاج علي بن الحاج مُحمّد بن القيم القماري سنة 1258هـ/1842م بـ"قمار" وبها نشأ وحفظ القرآن الكريم، وتعلم منذ صغره على شيوخ بلدته مبادئ العلوم، ثم ارتحل لمواصلة تحصيله العلمي في نفطة وتوزر بالجريد التّونسي، حيث تعلم هناك الفقه، أصول الدّين، اللغة العربيّة، وكذا تجويد القرآن الكريم، ثم رجع لأرض الوطن واشتغل بالتّدريس في كلّ من "قمار" بالرّؤية التّجانيّة ثمّ "تماسين" بوادي ريغ، و"تبسة" و"سوق أهراس" و"الجزائر العاصمة" لاختصاصه بعلم التّجويد -القراءات. أصبح من الأعلام الذين يُشار لهم بالبنان، وعلى يده تخرج جماعة من الفقهاء منهم الشّيخ الأديب مُحمّد الزّيري المعروف بسي "مُحمّد بن البرية". ما ميز حياته هو أنه كان من رواد الرّحلة العلميّة، وكان نسّاحاً للكتب، فترك مكتبة خاصة تحوي عدّة عناوين منها: نسخة لكتاب (شرح المرام على مختصر خليل). تأهل إلى خطة القضاء إلّا أنه لم يمارسها، توفي سنة 1328هـ/1910م².

2-3- الشّيخ إبراهيم العوامر: هو إبراهيم بن مُحمّد السّاسي بن مُحمّد بن عامر الملقب بالعوامر، ولد الشّيخ سنة 1292هـ/1875م بالوادي وتربى في بيت متوسط الحال، فكان والده يبيع الصّوف في بلدة "قمار"، وكان المترجم له يساعد والده في صباحه وفي نفس الوقت يقوم بحفظ القرآن الكريم ويحضر بعض الدّروس التي كان يتلقاها على يد بعض المعلمين القماريين في "الأجروميّة" و"متن ابن عاشر" ليصبح مولعاً بالمعرفة و العلم فغدا ينتظر حلقاته بشوق ولهفة كبيرتين وبعد تلقيه العلوم الأولى انتقل على غرار أبناء "سوف" إلى القطر التّونسي فقصّد منطقة الجريد التّونسي وهناك مكث مُدّة يأخذ عن علمائها البارزين وبعد عودته إلى "الوادي" ربط صلته بالشّيخين "عبد الرّحمان العمودي" و"مُحمّد العربي بن موسى"، اللذين أحّا عليه بمواصلة طريق العلم مما شجعه على الالتحاق بجامعة الزّيتونة فتتلمذ على خيرة علمائها أمثال: الشّيخ "مُحمّد النّخلي" والشّيخ "الخضر بن الحسين" والشّيخ "حسن بن يوسف" وغيرهم من العلماء³.

1 - عاشوري قمعون: الشّيخان، ط1، مطبعة مزوار للطباعة والنشر والإشهار والتوزيع، الوادي - الجزائر، 2010م، ص51.

2- مُحمّد الطّاهر التّليبي: من تاريخ وادي سوف، (مخطوط)، ص97. وينظر أيضاً: عبد الباقي مفتاح: أضواء على الشّيخ أحمد التّجاني وأتباعه، ط1، مطبعة الوليد للنشر، الوادي - الجزائر، 2007م، ص243. وينظر أيضاً: التّجاني العقون: أعلام من قمار بوادي سوف، ط1، مطبعة سخري، الوادي - الجزائر، 2013م. ص427. وينظر أيضاً: سعد بن بشير العامرة: أعلام من سوف في الفقه والثّقافة والأدب، ط1، جمعيّة الجماعة السّوفية، مطبعة مزوار للطباعة والنشر والإشهار والتوزيع، الوادي - الجزائر، 2006م، ص16.

3- ديوان الشّيخ العلامة إبراهيم بن عامر السّوفي (1292 - 1351هـ / 1875 - 1932م)، تق و تع: عاشوري قمعون، ط1، مطبعة مزوار للطباعة والنشر والإشهار والتوزيع، الوادي - الجزائر، 2013م، ص16.

وبعد رجوعه من الزيتونة استقر به الحال بوادي سوف فتولى منصب القضاء في "الوادي" و"أولاد جلال" و"تقرت"، وكان له العديد من الأنشطة الفكرية في المنطقة، ورغم قصر مدة حياته إلا أنه خلف ثروة علمية وأدبية كبيرة هامة، مثل كتاب: "مواهب الكافي على التبر الصافي" طبع بتونس سنة 1905م، وهو شرح لكتاب مفتي قسنطينة "المولود بن الموهوب"، وكتاب "الصُروف في تاريخ الصحراء وسوف" الذي طبع سنة 1977م مشتركاً بين "الجزائر" و"تونس"، وتعرض فيه لتاريخ الصحراء منذ القدم، وكذا "الجواهر الحسان في بعض ما يتعلق بالمعلمين والمتعلمين من حملة القرآن"، كذلك كتاب "نيل المرام من رسالة كشف اللثام"، وهي حاشية على رسالة الشيخ سيدي "محمد البخاري العقبي"، وكتاب "حاشية على شرح السنوسي الكبير"، كذلك كتاب "شرح رسالة الأخصري في الحساب"، و"رسالة منظومة في الفلك"، فيها تقريبا نحو خمسمائة بيت، كذلك "نظم قطر النداء وبل الصدا"، كذلك كتاب "تقريرات على كتاب الرحمة في الطب والحكمة"، وكتاب "التفحاح الربانية على القصيدة المدنية"، و"منظومة في الأفعال"، وله ديوان في الشعر الملحون أغلبه في المديح الصوفي. توفي الشيخ سنة 1350هـ/1932م¹.

2-4- الشيخ أحمد بن القا: هو أحمد بن محمد بن عبد القادر بن نور الدين بن القا، ولد سنة 1305هـ/1884م بـ"قمار" من أسرة فقيرة، تحدى إعاقة البصرية فحفظ القرآن على يد الشيخ "إبراهيم بن زغودة" وتعلم مبادئ العلوم الدينية والعربية على شيوخ "قمار"، ثم هاجر للجريد التونسي فتعلم على يد علمائها، ثم قفل راجعاً إلى بلدته "قمار" وانخرط في سلك التعليم².

3- الرحلة العلمية الجماعية:

من الهجرات الجماعية البارزة نجد أن أبلغ النماذج تجسداً نموذج أسرة الشيخ "محمد بن عزوز البرجي" التي استوطنت مدينة "نفطة" بالقطر التونسي وأسست زاويتها بها، والتي خرجت أفراداً من بينها علماء، فقد ارتحل الشيخ "مصطفى بن عزوز" إلى جنوب "تونس" عام 1837م، وأنشأ زاوية رحمانية بـ"نفطة"، وأخذت الوفود الطلابية من الجنوب والشرق الجزائري وبلاد القبائل وغيرها، تتهاطل على الزاوية، لتتزد من تعاليمها وتجد روحانيتها، وكان لها الدور الفعال في تخريج العلماء والمتقنين والطبقة المنتورة، التي كان لها نشاط تعليمي في "الجزائر" وغيرها من الأوطان المغاربية، مثل: الشيخ "محمد بن عيسى الجزائري" (1828 - 1892م) العالم باللغة والتفسير، الذي تولى بـ"تونس" رئاسة الكتابة العامة، ثم خطة الإنشاء سنة 1885م، ثم انقطع عن العلم إلى أن توفي وكانت له مساهمات كبيرة في الحياة الفكرية التونسية³.

¹ - عاشوري قمعون: الشيوخان، المرجع السابق، ص 21 - 61. وينظر أيضاً: سعد بن بشير العامرة: المرجع السابق، ص 30 - 35.

وينظر أيضاً: ديوان الشيخ العلامة إبراهيم بن عامر السوفي، المرجع السابق، ص 13 - 40.

² - سعد بن بشير العامرة: المرجع السابق، ص 35 - 36.

³ - عادل نويهيض: معجم أعلام الجزائر...، المرجع السابق، ص 112. وينظر أيضاً: محمد الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ج 2، ط 1، دار كردادة للنشر والتوزيع، بوسعادة - الجزائر، 2012م، ص 522 - 523.

ثانياً- الطرق¹ الصوفية التي المنتشرة بين القبائل الحدودية:

هي مدارس سلوكية جرى إنشاؤها على أيدي مشايخ مسلمين عارفين بالله انتهجوا التصوف، الذي يُعرفه "ابن خلدون" بقوله: «هو من العلوم الشرعية الحادثة في الملة وهي طريق الحق والهداية، أما أصلها فهو العكوف إلى العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والرُّهد فيما يُقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف. ومنه فهذا المنهج هو منهج الصحابة عليهم رضوان الله والسلف الصالح ولكن لما أقبل الناس على الدنيا تسمى المقبلون إلى هذا المنهج بالصوفية أو المتصوفة، وفي موضع آخر يذكر: بأن أصل طريقتهم كلها محاسبة النفس في الأفعال والتزك والقيام في هذه الأذواق والمواجد التي تحصل عن المجاهدات ثم تستقر للمريد مقاماً يرتقي منها إلى غيرها... وعن تسميتهم بالصوفية فيرجحها إلى لبسهم للصوف في قوله: وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كان عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف»².

فالتصوف عبادة ومجاهدة للنفس للوصول إلى الحقيقة³، وبها «... لا يزال المريد يرتقي من مقام إلى مقام إلى أن ينتهي إلى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة... بخاتمة تحقُّقه بمقام التوحيد والعرفان»⁴.

واختلف رجال الطرق في تعريف التصوف فمنهم من يراه بأنه ممارسة التطهر والتكشف والقيام بالواجبات الشرعية على أتم وجهه، والتخلي بالأخلاق والفضائل وتجنب كل الشبه والمزالق، ويراه فريق آخر بأنه الوصول للإلهام وكشف الرؤى والسرّحان في عوالم الأسرار الغامضة، وهناك من يراه أنه معرفة بالله على نحو من اليقين، وهو ما قصده الجنيد (ت. 298هـ/911م) في قوله: «التصوف هو أن تكون مع الله بلا علاقة»⁵ والذي لا يكون إلا بالتجرد الكلي من السوء من القلب، وهو أيضاً ما يتجلى في قول معروف الكركي (ت. 200هـ/810م) عندما سئل عن الأمر فأجاب: «التصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس مما في يدي

1 - الطرق أو الطريقة: هذا المصطلح ظهر في مصادر المتين 8 و 9/14 و 15م، والجدير بالذكر أنه عندما نستعمل لفظة "طريق" فهي مقرونة بلفظة "التصوف"، وهذا الثنائي "طريق التصوف" من الأدبيات الرائجة في الأدبيات الصوفية، وقد اقترن هذا المصطلح بعبء "طقوسي" كالمعادمة والمصافحة والمبايعة وأخذ الورد ولبس الخرق. أما "لويس رين" فيعرفها على أنها مجموعة العقائد والممارسات والصلوات الخاصة بكل طريقة. ينظر: نللي سلامة العامري: التصوف بإفريقية في العصر الوسيط، ط1، دار كونتراست للنشر، سوسة - تونس، 2009م، ص205.

وينظر أيضاً: Luis Rinn: MARABOUTS ET KHOUANS, Etude Sur L'islam En Adolph. Jourdan, Libraire Editeur Algérie, 1884.p.64.

2- عبد الزحمان بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، المرجع السابق، ص 462 - 463.

3 - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج4، ص8.

4- عبد الزحمان بن خلدون: المرجع السابق، ص463.

5 - أبو القاسم الجنيد: رسائل الجنيد، تح: علي حسن عبد القادر، ط1، مطبعة برعي وجدادي، القاهرة، 1988م، ص 52 - 54.

الخلايق»¹، فيما يرى "أبو القاسم سعد الله" بأنَّ التَّيْجَة واحدة تقريباً من خلال التَّسامي والتَّطهر للوصول للدرجة العليا في القربى لله ونيل رضاه².

وهناك من اعتبر أنَّ التَّصوْفَ ظاهرة دينية ومفهوم معين للإسلام عرفه التَّاريخ الإسلامي، قوامه فلسفة روحية ترتكز على الذِّكْر والاعتكاف وفق أساليب تربوية مرهقة للنفس، حملها على الطَّاعة حتى تزكو وترتقي إلى مراتب عليا من الإيمان، وفي موضع آخر يرون التَّصوْفَ بأنَّه سلوك في الحياة ذو مضامين فكرية تغلب فيه الجانب الرُّوحي على الجانب المادي، وقد ظهر في المشرق في المائة الأولى والثَّانية للهجرة أين لقي معارضة كبيرة من أهل السُّنة لمغلاة المتصوِّفة في الدِّين³. أمَّا فيما يتعلق بادعاء بعض المتصوِّفة أنَّ كبار الصَّحابة وحتى التَّابعين كانوا متصوِّفة فالواضح أنَّه جاء تأكيداً على انتمائهم للإسلام، لكن الرَّاجح أنَّه نشأ في مطلع عصر الدَّولة العباسية وهذا بفعل عوامل عديدة أبرزها:

✓ اتساع الفتوحات وركون المسلمين إلى البذخ، الأمر الذي ولَّد نفوراً من الماديات والاتجاه نحو الرُّهد والانقطاع للعبادة.

✓ امتزاج المسلمين بأجناس من أمم عديدة أسلمت، لكنها مازلت تحمل رواسب حضارية كالشُّعوب الهندية والفارسية.

✓ الاستبداد السياسي وعجز الكثيرين عن التَّصدي له، مما ولد دافعاً للبعض للجوء للعزلة والانزواء والتَّفرغ لإصلاح النَّفس وهجرة المجتمع الفاسد، والتَّركيز على التَّأمل والملاحظة حتى تستشف النَّفس وتصل إلى درجة الإشراق.

ومنه فالتَّصوْفَ ظهر في المائة الأولى والثَّانية للهجرة في شكل زهدٍ وورعٍ لدى أشخاص معينين، ثمَّ ما لبث أن صار مذهباً قائماً على أركان مُدعَّمة بنصوص مؤوَّلة من القرآن الكريم والحديث النَّبوي الشَّريف يُسمَّى علم الباطن، وقد تجسّد في "أبي الفيض ثوبان بن إبراهيم" و"رابعة العدوية"، وفي القرن الثَّالث هجري أخذ البعض يُدوِّن أقوال المشايخ ويسجل مناقبهم ويُعدِّد كراماتهم، فكان ذلك تمهيداً لعلم التَّصوْف⁴.

أمَّا الطَّريقة: فهي أسلوب عملي يطلق عليها أيضاً المذهب والرَّعاية والسُّلوك لإرشاد المرید عن طريق اقتفاء أثر أي طريقة تفكير وشعور وعمل تؤدي من خلال تعاقب مراحل المقامات في ارتباط متكامل مع التَّجارب

1 - علوي بن عبد القادر السُّقَّاف و آخرون: موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام، ج6، ط1، دار وائل للنشر والتَّوزيع، عمَّان، 2012م، ص449. وينظر أيضاً: محمد الكحلوي: الفكر الصُّوفي في إفريقيا والغرب الإسلامي القرن التاسع هجري/الخامس عشر ميلادي، ط1، دار الطليعة، بيروت، 2009م، ص29.

2 - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السَّابق، ج4، ص9.

3 - التَّليبي العجيلي: الطُّرق الصُّوفية والاستعمار بتونس (1881-1939م)، ط1، منشورات كلية الآداب بمنوبة، تونس، 1992م، ص25-27.

4 - نفسه، ص25-28.

السيكولوجية أو النفسية المسماة حالات أو أحوال إلى معايشة تجربة الحقيقة، وعلى كلِّ فالطريقة: تعني ذلك المنهج التدريجي للتصوف التأملي وتحرير الروح، وقد بدأت حلقات المريدين في التجمع حول شيخ الطريقة المعترف به، طالبا للتدريب خلال الاتصال أو الصُحبة ولكن دون الارتباط بأيِّ قيد مرئي أو قسم بالولاء¹.

هذه الظاهرة التي تبرز بين الطرق المرتبطة بالتصوف، والتي تستند إلى أعلام عرفوا بهذا النهج ويُطرقُ نسبت إلى هؤلاء الأعلام، كانت تعجُّ بهم القبائل الحدودية بين "تونس" و"الجزائر"، فما هي هذه الطرق؟

1/- الطريقة القادرية: تُنسب هذه الطريقة إلى مؤسسها الشيخ "عبد القادر الجيلاني"²، وهي من أقدم الطرق الصوفية، وتعتبر أمُّ باقي الطرق الصوفية، ظهرت باكراً في "الجزائر" وانتشرت في كامل البلاد والجهات شرقاً وغرباً وحتى جنوباً، وقد قدر الفرنسيون عدد أتباع الطريقة في "الجزائر" بحسب الجدول التالي:

السنة	عدد الإخوان (الأتباع)	عدد المُقدِّمين	عدد الزوايا
1882	14.574	268	29
1897	24.578	258	33

وبقراءة سريعة للجدول نلاحظ أنَّ: عدد الأتباع في تزايد بمرور الزمن وكذلك الحال بعدد الزوايا المنتشرة في ربوع البلاد، فخلال خمسة عشرة سنة زاد عدد الأتباع بـ: 10.008 إخوانياً، وزاد عدد الزوايا بـ: 4 زوايا، ورغم أنَّ هذه الزيادة ليست بالسريعة أو الكبيرة، ولكن إذا لاحظنا أنَّها تتعلق بفترة الاستعمار وتلك الملاحظات والمضايقات التي تتعرض لها الطرق الصوفية ندرك بأنَّها كانت هناك زيادة.

ولهذه الطريقة أوراها العامة وأخرى خاصة، أمَّا العامة: فتتمثل في ترديد المريد 165 مرة الشهادة، شهادة أنَّ لا إله إلاَّ الله، وترديد عبارات (الاستغفار، التسبيح، والصلاة على النبي وصحبه)، وشهادة أنَّ لا إله إلاَّ الله خمس مرات، أمَّا الدعاء الخاص فيمتمثل في دعاء القنوت الذي يأتي بالصيغة التالية: اللهم إنَّا نستعينك ونستغفرك ونؤمن بك ونتوكل عليك ونُخضع لك ونُخلك لك ونترك ما يكفر بك، اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد واليك نسعى ونُحسد ونرجو رحمتك ونُخاف عذابك الجدَّ إنَّ عذابك بالكافرين ملحق³.

¹ - سينسر ترمينجهام: الفرق الصوفية في الإسلام، تر: عبد القادر البهاوي، ط1، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1994م، ص26.

² - الشيخ عبد القادر الجيلاني: هو عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الجيلاني أو الكيلاني أو الجيلي، مؤسس الطريقة القادرية من كبار المتصوفة، وُلد بجيلان (وراء طبرستان) سنة 471هـ/1078م. قدم إلى بغداد ففتقه على "أبي سعيد المخرمي"، وسمع الحديث وحَدَّث على طائفة من كبار العلماء. كان يأكل من عمل يده. وتصدر للتدريس والإفتاء ببغداد سنة 528هـ/1133م. له عدة مؤلفات منها: "الغنية لطالبي طريق الحق". توفي سنة 561هـ/1165م. ينظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، ج4، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، 1980م، ص47.

³ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج4، ص60.

والقادرية أيضا هي من أقدم الطرق دخولا إلى "تونس"، ذلك أن "أبي مدين شعيب"¹ بعد أخذه الطريقة من مؤسسها مرّ عند رجوعه بـ"تونس" فالتقى ببعض مشايخها فتمتنت علاقته بهم حتى غدى بعضهم يزوره في "بجاية" ولكن هذه الطريقة ظلت بلا زاوية إلى غاية ظهور الشيخ "محمد الإمام المنزلي"² الذي أتمّ أول زاوية لها "بمنزل بوزلفة" بمعونة "حمودة باشا" الذي يعتبر من أول أتباعها، ثم أخذت في الانتشار في الإيالة التونسية إلى أن عمّت كافة أنحاءها تقريبا، أمّا عن وصولها إلى منطقة "الجريد التونسي" فيرجع الباحثون ذلك إلى الشيخ "بوبكر بن الشريف" تلميذ الشيخ "محمد المنزلي"، والذي قام بالتجول في توزر لجلب أتباع للطريقة، فانضمّ إليه عدد كبير من قبيلة "الفراشيش" و"ماجر"، كما قام بتأسيس زاوية توزر الكائنة بسيدي العواتي في سنة 1816م. وكان نفوذ هذه الزاوية يمتد إلى أقصى الجنوب التونسي وكذا الجزائري³.

وعلى العموم فقد كان للطريقة القادرية عديد الزوايا بالحاضرة التونسية كزاوية "منزل بوزلفة" وزاوية "الكاف" التي كان يمتد نفوذها على "أولاد بوغانم" و"شارن" و"الرغامة" و"طبرقة" و"بنزرت" في الشمال⁴، لنجد أن زاوية الشرق الجزائري والجنوب كانت ذات روابط وثيقة بزاويتي "نقطة" و"الكاف" القادريتين، ومؤسس زاوية "نقطة" هو الشيخ "إبراهيم بن أحمد بن عطية"⁵ تلميذ "أبو

1 - الشيخ سيدي أبو مدين شعيب: هو أبو مدين شعيب بن الحسين الأصراري، الأندلسي، الإشبيلي، المالكي، الصوفي، الفقيه، المحدث. وكنيته "أبو مدين" تكنى بابنه "مدين" ذي الفضائل المشهورة دفن "مصر". ولد أبو مدين في حصن "قطنبائة"، شمال شرق مدينة "إشبيلية". اختلف المؤرخون في عام ولادته، فقبل سنة 509هـ/1116م، وقيل سنة 514هـ، والأرجح أنه ولد سنة 509هـ استنادا إلى رواية "محمد بن حمدون البناني" حين تعرض لوفاته فقال: «توفي سيدي أبو مدين... سنة 594هـ عن نحو 85 سنة». أي المولد في سنة 509هـ. اتجه إلى المغرب وسكن مدينة "فاس" وأخذ العلم على كبار علمائها من أمثال: "ابن حرازم"، و"أبي الحسن علي ابن غالب" رحل إلى المشرق والتقى بالشيخ "عبد القادر الجليلي"، وأخذ عنه الخزقة الصوفية، ثم عاد إلى "بجاية" ومكث بها مدة طويلة إلى أن وُشي به عند السلطان يعقوب المنصور الموحدي، فبعث إليه = كي يختبره، فلما أوتي به إلى تلمسان توفي بها سنة 594هـ/1198م. انظر: أبو يعقوب يوسف بن يحيى النّادلي: **التشوف إلى رجال التصوف**، تح: أحمد توفيق، ط. 2، مطبعة النجاح الجديدة، 1997م، ص. 319. و عبد الحميد حميدو التلمساني: **السعادة الأبدية**، ط. 3، المطبعة الجديدة، فاس، المغرب، 1996م، ص. 38. وديوان سيدي أبو مدين: تع: العربي بن مصطفى الشّوار، ط. 4، دار القلم، دمشق، 1994م، ص. 44.

2 - **محمد الإمام المنزلي**: هو محمد بن محمد (بفتح الميم) بن فرج، اشتهر باسم الإمام المنزلي نسبة إلى بلدة "منزل بوزلفة"، قدم جدّه الأعلى من "مصر" إلى "تونس" في آخر القرن السادس للهجرة/12م، ولما رآوا فيه الفقيه الصالح وآوه الامامة والخطابة بجامع البلدة. وبقيت إمامة الجامع في عقبه يتوارثونها خلفا عن سلف حتى إنّ أسرته اشتهرت بعائلة الإمام. لم تحدد المصادر تاريخا لولادة **محمد المنزلي**. تلقى في أول عهده تعليما تقليديا جمع فيه بين فقه الشريعة وآداب العربية. ثم لم يلبث أنّ اهتم اهتماما بالغا بالتصوّف حتى صار شيخا للقادرية بعد وفاة الشيخ علي الشايب بن عمر المنزلي الذي بنى زاوية خاصة بهذه الطريقة، وقد أتمّ تلميذه **محمد المنزلي** بناءها. واجتهد في وضع تصانيف عدّة في الأدب والتصوف والشعر الصوفي، منها: "تحاميس على رائية البوصيري في الصلاة على رسول الله"، و"منظومة آداب المريدين"، التي شرحها الشيخ عبد القادر الجاوي الجزائري (ط. تونس 1314هـ/1897م)، وغيرها من المؤلفات. توفي الإمام محمد المنزلي سنة 1248هـ/1832م. ينظر موقع: الموسوعة التونسية المفتوحة، محمد المنزلي/ <http://www.mawsouaa.tn/wiki>. تاريخ الاطلاع: 2020/04/30م.

3 - التّليبي العجيلي: المرجع السابق، ص. 78.

4 - نفسه، ص. 42.

5 - الشيخ إبراهيم بن أحمد بن عطية: ابن إبراهيم بن محمد بن إسماعيل، ويتصل نسبه بالحسن السبّط بن الإمام علي زوج فاطمة بنت رسول الله ﷺ، يعود أصله الجزائري إلى قبيلة البوازيد العربية الهبلائية المنتشرة بين "فوغالة" و"بسكرة"، ولد بنقطة سنة 1228هـ/1813م، تركه والده صغيراً =

بكر بن أحمد الشَّريف "المتلمذ على الشَّيخ "المنزلي" وقد ترك الشَّيخ إبراهيم أولاداً حذو حذوه في تأسيس الرُّوَايا في كلِّ من "الجزائر" و"تونس"، فأكبرهم وهو "مُحمَّد" تولى الرُّوَاية الأُمُّ بِـ "نقطة" بعد وفاة والده وأخذ المشيخة القادريَّة بالقطرين الجزائري والتونسي، وأسس "مُحمَّد الهاشمي"¹ زاوية في منطقة "عميش" بِـ "وادي سوف" وأصبح نائباً لأخيه وتمكَّن هذا الأخير من تجنيد الأتباع ونشر الطَّريقة إلى أقصى الجنوب، وربط علاقات مع "السُّودان" و"غات" وجند العديد من أهل "سوف" الذين يمارسون التَّجارة الصَّحراويَّة للدعوة أمَّا "مُحمَّد الطَّيب"² فقد نشر الطَّريقة في ناحية "ورقلة" وأسس زاوية في منطقة "الرُّويسات" وأخاه "الحسين"³ أسس زاوية في "قمار" بِـ "وادي سوف"، أمَّا "مُحمَّد الإمام"⁴ فأسس زاوية في "صحن الشَّعابنة" بِـ "وادي سوف" أيضاً، وفي "تونس" عمل

=فتري في أحضان جدِّه من وهو الولي الصَّالح سيدي "بن ضيف الله"، عندما كبر تتلمذ على يد الشَّيخ "أبي بكر الشَّريف" دفين زاوية "تورز القادريَّة". أسس زاوية "نقطة القادريَّة" سنة 1251هـ/1835م، كما أنشأ زاوية "المنعة" بباتنة سنة 1280هـ/1863م. توفي سنة 1292هـ/1875م. خلفاً 13 ولادا واصلوا مسيرة والدهم. ينظر: عاشوري قمعون: «دور عائلة الشَّيخ إبراهيم بن أحمد الشَّريف في الحركة الوطنيَّة الجزائريَّة»، مجلة البحوث والدراسات، ع.3، يصدرها المركز الجامعي بالوادي، الجزائر، جوان/2006م، ص 72 – 73.

¹ - الشَّيخ مُحمَّد الهاشمي: وُلد بمدينة "نقطة" سنة 1269هـ/1853م، حفظ القرآن الكريم في سنِّ مبكرة وتعلَّم أصول الفقه بتونس، جاء صغيراً إلى "سوف" وترى في أحضان أمِّه بالبياضة، أسس "زاوية البياضة القادريَّة" سنة 1303هـ/1886م، أعطى للطَّريقة القادريَّة اتساعاً مضطرباً في الصَّحراء، فوصل نفوذها حتى "تيميمون" و"غات" و"غدامس"، كانت له مساعدة للأخوة الليبيين في حرهم ضد الطليان سنة 1911/1912م، كما كانت له مواقف ضد المحتل الفرنسي منها: انتفاضة عميش في 15/11/1918م. حبس أملاكه كلها للعلم وأرسل أبناءه لجامع الرُّيتون المعمور. توفي في 23/09/1923م. ينظر: سعد بن بشير العامرة: أعلام من سوف في الفقه والثَّقافة والأدب، المرجع السَّابق، ص 19 – 22. وينظر أيضاً: عاشوري قمعون: «دور عائلة الشَّيخ إبراهيم بن أحمد الشَّريف...»، المرجع السَّابق، ص 76 – 79.

² - الشَّيخ مُحمَّد الطَّيب: لا نعرف له تاريخ ميلاد، هو الابن الثَّاني للشَّيخ "إبراهيم"، أمُّه من "شعابنة متليلي" لهذا جاء إلى ورقلة وأسس "زاوية الرُّويسات القادريَّة" سنة 1297هـ/1880م، رافق العديد من الرِّحلات الاستكشافيَّة في الصَّحراء الجزائريَّة منها: رحلة "بول سوليه - Paul Soleillet" سنة 1873م انطلاقاً من "متليلي" نحو "عين صالح"، كما قام برحلة سنة 1885م من "ورقلة" إلى "غدامس" وحزَّ كلَّ مرحلها في مخطوط صغير، كما شارك في رحلة أخرى في خريف 1899م بقيادة "فلامون - Flumand" من أجل اكتشاف منطقة "تادمايت"، غير أنَّ هذه الرِّحلة تحوَّلت إلى حملة عسكريَّة شرسة، تصدى لها سكَان "عين صالح"، وقتل فيها الشَّيخ "مُحمَّد الطَّيب" في قرية "شروين" القريبة من "تيميمون" سنة 1901م، ونقل جثمانه إلى زاوية بورقلة ودفن هناك. ينظر: عاشوري قمعون: «دور عائلة الشَّيخ إبراهيم بن أحمد الشَّريف في الحركة الوطنيَّة الجزائريَّة»، المرجع نفسه، ص 75 – 76. وينظر أيضاً: عبد الباقي مفتاح: أعضاء على الشَّيخ عبد القادر الجيلاني وانتشار طريقتيه، ط1، دار الكتب العلميَّة، بيروت، 2009م، ص 304.

³ - الشَّيخ الحسين: وُلد سنة 1276هـ/1860م، حفظ القرآن الكريم في زاوية والده على يد مؤدبها، كما تلقى مبادئ التَّصوف على والده، ترأس زاوية قمار في سنة 1896م ومكث بما ممثلاً لأخيه الهاشمي شيخ الطَّريقة القادريَّة في سوف آنذاك. وفي سنة 1910م، ارتحل باتجاه "مدينة نقطة" ثم استقرت به الأقدار الإلهية بمدينة "قبلي" بمنطقة تدعى "سوق الأحد" حيث شيدَّ زاوية هناك. توفي سنة 1349هـ/1930م ودفن بزاويته. ينظر: مُحمَّد حناي: المدرسة الأهليَّة بقمار بين نشر التَّعليم وسياسة التَّغريب، ط1، مطبعة الرُّمال، الوادي - الجزائر، 2016م، ص 33. وينظر أيضاً: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السَّابق، ج.4، ص 51.

⁴ - الشَّيخ مُحمَّد الإمام: وُلد سنة 1280هـ/1864م، أسس زاوية بِـ "الرَّيباح" جنوب الوادي، لم يشتهر بسبب موته مبكراً في سنِّ الأربعين سنة 1322هـ/1904م. ينظر: عاشوري قمعون: «دور عائلة الشَّيخ إبراهيم بن أحمد الشَّريف...»، المرجع السَّابق، ص 75.

الإخوة على تأسيس زوايا في كل من "الكاف" بقيادة "مُحمَّد الأزهر" وفي "قابس" بزعامه "الحاج أحمد"¹ وفي قفصة فأسسها "مُحمَّد العربي"، أما زاوية "الكاف" فقد أسسها "مُحمَّد المازوني"².

وقد تعزز التّواصل الطّرفي بين البلدين من خلال هذه الطّريقة، بخاصة بين سكان الحدود وتمتد أكثر بفعل عوامل أبرزها: عامل القرب الجغرافي، وقد تناولنا سابقا هذا العامل وأدركنا أهميّة دوره في رسم خطوط الحركيّة والتّفاعل بين قبائل الحدود إبّان العهد العثماني أين كان المجال بينهما فسيح وينتقلون عبره بكل سلاسة، أمّا إبّان فترة الاحتلال فقد جابهت هذه القبائل تحديات التّحديد التي حاولت إخضاعهم لمجالين مختلفين سياسياً وقانونياً، أمّا العامل الثّاني فيتمثل في: النّضال السّياسي الذي رفع لواءه العديد من مشايخ الطّريقة القادرية بالجنوب الشّرقى الجزائري أين اتخذوا من منطقة "الجريد التّونسي" منطلقاً في نضالهم ضد المحتل الفرنسي، كمثل: "ابن النّاصر بن شهرة" الذي يعتبر أحد أتباع القادرية، فهذا الأخير التجأ إلى "نفطة" و"توزر" بالجريد التّونسي بعد دخول الفرنسيين الأغواط سنة 1853م، واتخذها منطلقاً لشن هجمات على الفرنسيين في "الجزائر"، هذا و ظلّت "فرنسا" في صراع مع القادرية على الحدود من البلدين، الأمر الذي دفع بعض زعماء هذه الطّريقة إلى اللجوء نحو منطقة "الجريد" لتأسيس زوايا بها، والذي نجد له تجسيدا في موقف الشّيخ "إبراهيم بن أحمد الكبير"، الذي عرف بمعارضته للاستعمار منذ سنة 1830م³، أين قام بالانضمام لمقاومة "الأمير عبد القادر"، لتؤدي بعدها زاويته دوراً بارزاً في دعم المقاومة الجزائرية من خلال جمع الأموال والأسلحة وتقديمها للجزائريين، لتتحول زاويته إلى تمركز للمجاهدين، حيث أقام فيها "الأمير محي الدّين" بن "الأمير عبد القادر" بعد ثورة 1871م إلى أن التحق بالشّام، والأمر نفسه مع ابن شهرة، كما كان لهذه الزّاوية دوراً بارزاً في تحريض سكان الحدود وقبائل "النّمामشة" على الالتحاق بصنوف المقاومين⁴.

وإن كان دعم مقاومة "الأمير عبد القادر" لم يكن حصراً على الطّريقة القادرية، والتي لا ننكر ما لدعمها من أثر فعّال وإيجابي، فإنّ هناك العديد من الطّرق من غير القادرية دعمت مقاومته، كالتّريقة الرّحمانيّة والدّرقاوية والطّيبية والشّيخية⁵، لأن الأتباع لم يكونوا يفرقون بين صوت المجاهدين، و لا يستبعد المؤرخ سعد الله أن يكون قدوم "الأمير محي الدّين" للجزائر بعد الحرب البروسية عام 1870م من أنّه كان مدعوماً من

1 - الشّيخ الحاج أحمد: أمّه أمة سوداء، عمّر زاوية بـ"قابس" ثمّ انتقل إلى مدينة "تبسة" وأسس زاوية بأكس بالحمامات، توفي سنة 1359هـ/1940م ودفن بضريحه الواقع جنوب البلدة. ينظر: G. P. J. (André): **Confréries Religieuses Musulmanes**, édition la aison de livre, Alger, 1956, p.45.

2 - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، صص 47 - 48.

3- التّليبي العجيلي: المرجع السّابق، ص78.

4 - التّليبي العجيلي: «الوضع الطّرفي بالجريد في النّصف الثّاني من القرن الثّاسع عشر»، المجلد التاريخيّة المغربية، ع.76/75، مطبعة الاتحاد التّونسي للشغل، زغوان - تونس، ماي/1994م، ص307.

5 - عبد القادر خليفي: الطّريقة الشّيخية، ط1، دار الأديب للنشر والتّوزيع، وهران - الجزائر، 2006م، ص66.

أخيه "محمد السعيد" شيخ القادرية¹.

وإلى الجانب الدور النضالي لهذه الطريقة نجدها لم تغفل دورها التعليمي، فزاوية "نفطة" مثلاً ساهمت مساهمة فعالة في تخريج عدد كبير من المثقفين والمعلمين الذين كان عدد كبيراً منهم من سكان الجنوب الشرقي الجزائري على الخصوص².

ونظراً لصمود الطرق وقيادتها على طريق العديد من المقاومات بالجزائر، حيث كانت بمثابة الوقود لمختلف المقاومات الشعبية التي اندلعت في شتى أصقاع الوطن، فإن إدارة الاحتلال أخذت تفرض عليها ميزانية ابتداءً من سنة 1892م بما مقداره عشرين ألف (20.000) فرنك وهذا بهدف تتبع ومراقبة نشاط هذه الطرق³، كما توجست "فرنسا" خيفة من أن تصادف نفس المصير من الطرق الصوفية بـ"تونس"، وعليه فقد جندت وسخرت خبرتها في "الجزائر" واستخدمتها في "تونس" أين فسحت المجال أمام الطرق الموالية لها وضيقت على المعادية لسياستها الاحتلالية، فتدخلت في تسمية مشايخ الطرق وفرضت على الوزير الأكبر عدّة شروط منها: المعرفة المسبقة بنوايا المترشح للمشيخة السياسية وميولاته، كما اشترطت خلوص المترشح من السوابق العدلية، كما عمدت إلى ترشيح نوع معين من المشايخ من أصحاب الوجاهة والنفوذ الاجتماعي كي يمكن لها توظيفهم لصالحها، وأقصت من الترشيحات كل من يشتهه في معاداته لـ"فرنسا" ولو كان الأمر مجرد إشاعات لا أكثر، وحجرت على تنقلات المشايخ دون رخصة، وأخضعت تنقلاتهم للمراقبة المشددة، وسنت مناشير لتنظيم تنقلات مشايخ الطرق في "الجزائر" والعكس صحيح⁴.

وبهذه الإجراءات فقد الشيوخ حرية التنقل وأصبحوا مطالبين قانونياً قبل تنقلهم بتقديم مطالب إلى السلطات التي يعودون إليها للنظر في الأمر، والذي ترتب عنه ممانعة وبيروقراطية وإهدار للوقت، وتعطيل للمصالح العامة والشخصية لأولئك المشايخ، مما دفع البعض منهم للتنقل قبل صدور الرخصة وهنا قامت السلطات الاحتلالية بتسليط عقوبات على أولئك من أجل إلزامهم للخضوع لتعليماتها وعدم تجاوزها، ومن نماذج المنتقلين دون رخصة الشيخ "العربي بن سالم" شيخ "زاوية جرجيس"، و"إبراهيم بن محمد الكبير" شيخ "زاوية توزر القادرية"⁵.

1- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص45 الهامش رقم 1.

2- يوسف بن حيدة: «التواصل الطريقي بين الجنوب الشرقي الجزائري ومنطقة الجريد خلال القرن 19م»، أعمال الملتقى الدولي حول: التواصل الحضاري بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس 1881 - 1954م، المنعقد يومي: 10 / 11 نوفمبر 2013م، بقسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، بجامعة الوادي - الجزائر، 2014م، ص14.

3- عبد الحميد عومري: الحياة الثقافية والفكرية في الجزائر (1880 - 1914م)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث (L. D. M.)، (غ.م)، تخ: تاريخ الحركة الوطنية والثورة الجزائرية، جامعة جيلالي لباس، سيدي بلعباس - الجزائر، 2011م، ص175 - 176.

4- التليلي العجيلي: الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي، المرجع السابق، ص89-90.

5- المرجع نفسه.

وعلى كلٍ فالطريقة القادرية لم تسلم بدورها هي الأخرى من الضغوطات الفرنسية فقد حدث لها هي الأخرى ما حدث لكل الطرق، حيث أصبحت جميعها تحت رحمة المخابرات الفرنسية والضغط المتعدد الجوانب لكي تعمل وفق مخطط إدارة الاحتلال، ووظفت في مناسبات عديدة لصالح المحتل الفرنسي ولصالح أهدافه في احتلال عدّة مناطق¹.

2/- الطريقة الرحمانية: هي فرع من الطريقة الأم الخلوتية²، وتنسب في "الجزائر" إلى مؤسسها الشيخ "محمد عبد الرحمن الأزهرى القشتولي الجزائري" المولود حوالي سنة 1720م من قبيلة "آيت إسماعيل"³، واصل الشيخ تعليمه الأول في مسقط رأسه ثم درس بالعاصمة، وفي عام 1152هـ/1739م توجه إلى المشرق لأداء فريضة الحج وأثناء عودته استقر بالأزهر الشريف فترة طويلة يتردد فيها على علمائها وكبار متصوفيهها، كالشيخ "محمد بن سالم الحفناوي" الذي عمل على إدخاله الطريقة الخلوتية وحثه في العديد من المرات على القيام بمهمة الدعوة بما لبى الشيخ كلام شيخه وقام بالدعوة في كل من "الهند" و"السودان" ولقي نجاحا باهرا⁴، ثم عاد الشيخ "عبد الرحمن الأزهرى" إلى الجزائر عام 1183هـ/1769م نزولاً عند رغبة شيخه، فأسس في مسقط رأسه زاوية قام فيها بنشر العلم والسلوك الصوفي على نهج الطريقة الخلوتية التي يقوم وريثها على التعود من الشيطان الرجيم والاستغفار والتشهد وقراءة الفاتحة وبعض الأدعية⁵، فذاع صيته وورد عليه المريدون من كافة أنحاء "الجزائر" و"تونس" و"المغرب"؛ بعدها انتقل إلى الحامة بالجزائر العاصمة⁶، وأسس فيها زاوية عمل فيها على نشر تعاليمه الصوفية الخلوتية إلا أنه سرعان ما قامت ضده معارضة أرغمته على المثول أمام المجلس العلمي، لكنه برأ من كل التهم التي ألحقت به، هذا الطرف أدى به إلى العودة مجدداً إلى مسقط رأسه وبقي

1- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص49.

2- الطريقة الخلوتية: هي امتدادٌ للسهوردية الجنيديّة، وتنسب للشيخ "سراج الدين عمر الخلوتي"، أخذ الطريق عن خاله وشيخه "محمد بن نور الخلوتي"، وقد لُقب عُمر وخاله بالخلوتي لكثرة إلتزامهما بالخلوة. لكن أول انتشار واسع للخلوتية ظهر على يد الشيخ "صدر الدين الحياوي" وخصوصاً على يد خليفته صهره "بجي الشرفاني" المولود بالقوقاز والذي استقرّ بباكو في أذربيجان، والذي تنتهي إليه كل السلاسل الخلوتية، فهو المؤسس العملي لهذه الطريقة، وقد توفي سنة 808هـ/1406م. ينظر: عبد الباقي مفتاح: أضواء على الطريقة الرحمانية الخلوتية، ط1، مطبعة الوليد، الوادي - الجزائر، 2004م، ص19.

3- آيت إسماعيل: قبيلة كانت جزء من حلف "قشتولة" في قبائل جرجرة. ينظر: مختار الطاهر فيلالي: نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني، ط1، دار الفن الجرافيك للطباعة والنشر، الجزائر، د س ن، ص40.

4- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص508 - 509. وينظر أيضاً: صلاح مؤيد العقي: الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر. تاريخها ونشاطها، (ط.خ)، دار البصائر للنشر والتوزيع، 2009م، ص103. وينظر أيضاً: محمد نسيب: زوايا العلم والقرآن في الجزائر، ط1، دار الفكر، الجزائر، 1989م، ص151 - 152. وينظر أيضاً: عبد العزيز رأس مال: الزوايا والأصالة الجزائرية بين التاريخ والواقع (دراسة انثروبولوجية حول صحراء تلمسان وأطرافها)، ج2، ط1، منشورات تالة، الجزائر، 2011م، ص74.

5- يوسف بن حيدة: المرجع السابق، ص5.

6- مع أنه لا يعرف السبب الحقيقي الذي دعا الشيخ إلى مغادرة مسقط رأسه إلا أنه من المحتمل أن يكون ذلك فراراً من خصومه المرابطين الحاقدين عليه لتهديده لنفوذهم، أو غادرها بعد تأكده من رسوخ تعاليمه وانتشارها في المنطقة، فرأى أن يستقر بالعاصمة ليوسع دائرة دعوته أكثر. ينظر: مختار الطاهر فيلالي: المرجع السابق ص ص40-41.

فيه حتى وافه الأجل عام 1208هـ/1793م¹، وبوفاته عمل خليفته على طريفته في القبائل "علي بن عيسى" وفي قسنطينة "عبد الرَّحمان باش تارزي"² بمهمة نشر تعاليم الطريقة في البلاد الجزائرية فحققاً نفوذاً واسعاً في جميع البلاد³، ثم أعطى الشَّيخ عهد الطريقة بالجنوب الشرقي⁴ للشَّيخ "مُحمَّد بن عزوز البرحي" الذي يعتبر مؤسس لطريقة جديدة تعرف بالعزويَّة الرَّحمانية، وعند احتلال "بسكرة" غادرها هذا الأخير متجهاً إلى "نفطة" التي أسَّس بها زاوية رحمانية آلت مشيختها من بعده لابنه، ولم يقتصر نفوذ الرَّحمانية على الجنوب الشرقي بل انتشرت في مناطق أخرى من الوطن كـ"تبسة" و"سوق أهراس" و"مسكيانة" و"عين البيضاء"⁵.

أمَّا في "تونس" فقد بدأت الطريقة تظهر منذ أواخر القرن الثامن عشر، وقد عيَّن الشَّيخ "عبد الرَّحمن الأزهري القشتولي" الشَّيخ "مصطفى الطرابلسي" أحد أتباعه للدعوة ونشر الطريقة، وبوفاته عام 1190هـ/1776م عوضه بـ"أحمد بن علي بوحجر" (ت. 1247هـ/1832م) الذي تمكَّن من بثِّ أصول الطريقة بنجاح في الوسط التُّونسي، حيث أسَّس زاوية في "الكاف" عام 1785/1784م، علماً أنَّه تأسَّست بـ"الكاف" زاوية ثانية عام 1821م على يد "مُحمَّد بن صالح بن يوسف بوحجر"، وقد كان لها كبير التأثير على بقية مدن الإيالة إذ اعتبرت بمثابة الزاوية الأمُّ للطريقة بالبلاد فيما بين 1821/1843م، وظلَّت تشعُّ وتمارس نفوذها على أغلب جهات الشَّمال الغربي، وتأسَّست زوايا رحمانية أخرى بالقطر التُّونسي كزاوية "سيدي عبد

¹ عبد المنعم القاسمي الحسني: الطريقة الرَّحمانية الأصول والآثار، ط1، دار الخليل للنشر والتوزيع، بوسعادة - الجزائر، 2013م، ص ص304 - 324.

² عبد الرَّحمان باش تارزي: هو الصوفي الكبير والمربي الشَّهير "عبد الرَّحمان بن حمودة بن مامش تارزي"، الجزائري المنشأ القسنطيني داراً، وهو من تلاميذ الشَّيخ "مُحمَّد بن عبد الرَّحمان الأزهري"، من مؤلفاته: "عمدة المرید في بيان الطريقة"، "غنية المرید في شرح مسائل التَّوحيد"، و"منظومة الرَّحمانية". ينظر: صلاح مؤيد العقبي: المرجع السَّابق، ص 492.

³ مختار الطاهر فيلالي: المرجع السَّابق، ص ص40-41.

⁴ من أبرز الزوايا الرَّحمانية التي انتشرت في مناطق الجنوب الشرقي الجزائري نجد: زاوية البرج قرب "طولقة" بـ"بسكرة" بقيادة "مُحمَّد بن عزوز" وزاوية الشَّيخ "علي بن عمر" بـ"طولقة" بـ"بسكرة" وزاوية "المختار بن خليفة بن عبد الرَّحمان" بـ"أولاد جلال" بـ"بسكرة" أيضاً، وزاوية الشَّيخ "الصادق بن رمضان" بـ"سيدي بركات" بـ"بسكرة"... وزاوية "سيدي سالم" بـ"الوادي" وزاوية الشَّيخ "مُحمَّد بن أبي القاسم بالهامل" بـ"بوسعادة". ينظر: عباس كحول: «الجريد التُّونسي القاعدة الخلفية للزوايا العزويَّة والمقاومة الوطنيَّة في الجنوب الشرقي الجزائري»، أعمال الملتقى الدُّولي حول: التَّواصل الحضاري بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس 1881 - 1954م، المنعقد يومي: 10/ 11 نوفمبر 2013م، بقسم العلوم الإنسانيَّة، كليَّة العلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة، بجامعة الوادي - الجزائر، 2014م، ص 3.

⁵ - قاصري مُحمَّد السَّعيد: «الطرق الصُّوفية ودورها في التَّواصل الحضاري والثَّقافي بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس»، أعمال الملتقى الدُّولي حول: التَّواصل الحضاري بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس 1881 - 1954م، المنعقد يومي: 10/ 11 نوفمبر 2013م، بقسم العلوم الإنسانيَّة، كليَّة العلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة، بجامعة الوادي - الجزائر، 2014م، ص 8.

الملك "بـ" سريانة" و زاوية "سيدي صالح" بـ"عين الصّابون"¹، وأسّس شقيقه "مُحمّد بن عزوز" زاوية بـ"القيروان"، وأسّس "محمود بن عبد الحفيظ" زاوية بـ"تمغزة" بالجنوب التونسي، وزاوية "باجحة" للشيخ "القسطلي" وزاوية "سليانة" لابن عبد الملك، وغيرها من الزّوايا المنتشرة في شتى ربوع الإيالة².

وأسّس سليل عائلة العزوزيّة "مصطفى بن مُحمّد"³ زاوية بـ"نفطة"، وأسّس إلى جانب ذلك شبكة من الزّوايا الفرعية بجهة الوسط الغربي من أهمها: ببلاد "ماجر" زاوية "سيدي مُحمّد بن عمار" بسبيبة، وزاوية "سيدي أحمد الزّائر" بـ"كُدية الشّعير" الواقعة شمال "الرّوحيّة"، أمّا ببلاد "الفراشيش" فتَمَّ بعث الزّاوية الرّحمانيّة بـ"تالة" التي كان على رأسها الشّيخ "الحاج مبارك الغيداوي الفرشيشي"، والزّاوية العزوزية بـ"هنشير القصرين" أواسط القرن التّاسع عشر⁴.

كانت زاوية "نفطة" بمثابة الزّاوية الأم لباقي الزّوايا، وقد شغلت دوراً علمياً ودينياً واجتماعياً فطلبتها كانوا يواصلون دراستهم بالزيتونة، وقد كان لها أيضاً دوراً سياسياً في السّاحة السياسيّة التّونسيّة، وذلك بموجب الحظوة والاحترام اللذان يتمتع بهما الشّيخ "مصطفى بن عزوز" في نفوس حكام "تونس"⁵.

كما قدّمت زاوية "مصطفى بن عزوز" بـ"نفطة" بالجزيرة التّونسي الدّعم لـ"مُحمّد علاق" شيخ "أولاد يعقوب" و"أولاد الطّيب بن عمران الثّعالي" و"المقرانيين" و"الكبلوتي" و"حركة" الشّريف مُحمّد بن عبد الله بـ"أولاد سيدي الشّيخ" فيما بين 1851-1876م، وكانت بمثابة القاعدة الخلفية للمقاومين الجزائريين.

1- مُحمّد الحناشي: الحياة الدّينيّة والعلميّة بمدينة الكاف خلال القرنين الثّامن عشر والتّاسع عشر، مُدكّرة مُقدّمة لنيل شهادة الماجستير (غ. م)، تخ: تاريخ، جامعة تونس، تونس، 2005م، ص 36-37. وينظر أيضاً: التّليبي العجيلي: الطّرق الصّوفيّة والاستعمار الفرنسي، المرجع السّابق، ص 51-52.

2- عباس كحول: «الجزيرة التّونسي القاعدة الخلفية للزوايا العزوزيّة والمقاومة الوطنيّة في الجنوب الشرقي الجزائري»، المرجع السّابق . ص 8.

3- مصطفى بن مُحمّد: عالم فاضل وعابد زاهد وهو من أشهر أبناء "مُحمّد بن عزوز"، وأحد أعلام الطّريقة العزوزيّة الرّحمانيّة، ولد عام 1220هـ/1805م بـ"طولقة"، توفي والده وهو صغير فكفله خليفة والده "علي بن عمر" مؤسس زاوية "طولقة" وترى في كنفه إلى أن رأى الشّيخ "علي التّماسيني" كفاءته وأهليته للمشيخة، أمره بالذهاب إلى "نفطة" بالجزيرة التّونسي ليؤسس فيها زاوية علم وقرآن وتربية، وكان ذلك بالفعل، حيث أضحت زاويته قبلة المتعلمين وطلاب المعرفة. من مؤلفاته: "روضة الأنوار" و"رسالة في السّلوكة إلى الطّريقة" و"رسالة في مناقب علي بن عمر مؤسس الطّريقة الرّحمانيّة بطولقة. ينظر: عبد الباقي مفتاح: أضواء على الطّريقة الرّحمانيّة الخلوئيّة، المرجع السّابق، ص 122. وينظر أيضاً: صلاح مؤيد العقي: المرجع السّابق، ص 545.

4- الأزهر المجري: قبائل ماجر والفراشيش، المرجع السّابق، ص 445.

5- ومن الحكام التّونسيين الذين عاصرهم الشّيخ "مصطفى بن عزوز"، نجد: "أحمد باي الأوّل" بن "مصطفى باي"، تولى الحكم بين (10 أكتوبر 1837م إلى غاية 30 ماي 1855م)، و"مُحمّد باي" بن "حسين باي الثّاني"، حكم بين (30 ماي 1855م إلى غاية 22 سبتمبر 1859م)، و"مُحمّد الصّادق باي" بن "حسين باي الثّاني" حكم فيما بين (22 سبتمبر 1859م إلى غاية 1882م). ينظر: عبد الباقي مفتاح: المرجع السّابق، ص 123-124. وينظر أيضاً: حمادي السّاحلي: المرجع السّابق، ص 43.

وفي شأن إحصاء عدد أتباع الزاوية الرحمانية العزويّة حسب إحصاءات 1890م في "الجزائر"، فقد كانت نحو سبعة وسبعون (77) زاوية، ومائة وخمسون (150) ألف مُريد، أمّا في القطر التونسي فبلغ عدد الزوايا نحو تسعون (90) زاوية، وسبعة عشر (17) ألف مُريد¹.

وزيادة عن دورها في رفع لواء المقاومة ودورها كحاضنة وملجأ للشوار، نجدتها تُثمر في دورها التّعليمي والتّثقيفي عبر سعيها في المحافظة على الهوية الوطنيّة ومواجهة التّخافة الاستعماريّة ودعوها للتّصوف الحقيقي ونبذ كل مظاهر الجهل والرّجعيّة²، وكبقية الطّرق الأخرى لم تسلم الرّحمانيّة من الملاحظات والضّغوطات الفرنسيّة التي حاولت تغيير نمط نشاطها، فتدخلت في شؤونها وراقبتها بلّ وسعت جاهدة لإحداث شقاق بينها وبين "زاوية طولقة" من جهة، وبينها وبين الزاوية التّجانيّة من جهة ثانية³.

3/- الطّريقة التّجانيّة: تنسب هذه الطّريقة للشيخ "أبي العباس أحمد بن مُحمّد بن سالم المختار التّجاني"⁴، وهو من مواليد "عين ماضي" بمدينة "الأغواط" سنة 1150هـ/1737م، وأصله من "بني توجين" أمراء "تبهرت"⁵، نشأ في بيئة صحراويّة في وسط أسرة شريفة مشبّعة بالعلم والتّصوف وتلاوة القرآن، حفظ القرآن الكريم في صباه على يد الشيخ "أبي عبد الله بن حمو التّجاني"⁶، وكان عالماً زاهداً عابداً، مشتهراً بالصّلاح⁷، لما بلغ عشرين سنة توجه إلى "فاس" لأخذ العلم من علمائها، وفي "فاس" اهتم الشيخ بتحصيل الأوراد والأذكار فأخذ الطّريقة الطّبيّة⁸ عن الشيخ "الطّيب الوزاني" وعن الشيخ "مُحمّد بن عبد الله التّزاني" مبادئ النّاصريّة⁹، وأخذ الشيخ "أحمد التّجاني" يتردّد بين الصّحراء و"تلمسان" إلى غاية ذهابه إلى الحج، أين أخذ عن الشيخ "عبد الرّحمان الأزهري القشتولي" الطّريقة الرّحمانيّة أثناء مروره بمنطقة القبائل، وتوقّف بعض

1- عباس كحول: المرجع السّابق، ص 6.

2- عباس كحول: المرجع السّابق، ص 5.

3- قاصري مُحمّد السّعيد: المرجع السّابق، ص 8.

4- مختار الطّاهر فيلاي: المرجع السّابق، ص 46. وينظر أيضاً: عبد الباقي مفتاح: أضواء على الشيخ أحمد التّجاني وأتباعه، المرجع السّابق، ص 28. وينظر أيضاً: L. Arnaud: Histoire de L'Ouali Ahmed et Tidjani, R.A, Vol. N° 5, Alger, 1861, P.468.

5- مُحمّد بن عبد القادر الجزائري: تحفة الزّائر في مآثر الأمير عبد القادر وتاريخ الجزائر، تع: ممدوح حقي، ج 1، ط 2، دار اليقظة العربيّة للتأليف والترجمة والنّشر، بيروت، 1964م، ص 303.

6- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر التّخافي، المرجع السّابق، ج 1، ص 510-511.

7- مُحمّد بن عبد القادر الجزائري: المصدر السّابق، ج 1، ص 303.

8- الطّريقة الطّبيّة: مؤسسها هو الصّوفي المغربي "أبي عبد الله بن إبراهيم الوزاني" من أشرف المغرب (ت. 1089-1678م)، بيد أن طريقتة نسبت إلى أحد أبنائه وهو مولاي عبد الله، وهذه الطّريقة شاذلية الأصل، وقد دخلت "الجزائر" في عهد مولاي عبد الله بن إسماعيل (1694 - 1757م) ملك المغرب. ينظر: صلاح مؤيد العقي: المرجع السّابق، ص 150.

9- الطّريقة النّاصريّة: طريقة متفرعة عن الشّاذليّة، أسّسها "مُحمّد بن أحمد بن ناصر الدّرعي"، أحد المحدثين للطّريقة الأمّ، حصل على العلوم في "فاس" و"مصر" ثم عاد إلى مسقط رأسه وأسس زاوية بـ"وادي درعة" لنشر العلم والطّريقة، توفي عام 1669م. ينظر: التّليبي العجيلي: المرجع السّابق، ص 48.

الشَّيْء في "تونس" و"مصر"، بعدها عاد إلى الوطن متنقلاً بين "تلمسان" و"فاس"، ثم قصد "توات" للانعزال في "أبي سمغون"¹، وفي هذه البلدة أعلن أمام جمهور مردييه عام 1196هـ/1782م بأنَّ الله قد فتح عليه الفتح الأكبر قائلاً: بأنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد صرح له بأنَّه شيخه ومربيه وكافله، وأمره بترك جميع الطُّرُق الأخرى ومنعه من زيارة الأولياء قائلاً: سوف أكون وسيطتك لدى الله ومساعدك ومعاونك كما لقنه الذِّكْر الحديد والورد² الذي أملاه على أتباعه، وهذه الرُّؤية هي التي شحذت عزيمته بقوة كبيرة وجعلته ينظِّم أتباعه في طريقة جديدة ظلَّ يدعوا لها بكلِّ جدٍ ونشاط قرابة ثمانية عشر عاماً، وهو متجول عبر "الصَّحراء" و"توات" و"تونس"، منشئاً في الأماكن زاوياً ومعيّناً مقادير يسهرون على نشر تعاليم طريقته³.

وقد دفع هذا النِّشاط المتزايد للشيخ الباي مُحَمَّد الكبير⁴ باي وهران للاستيلاء على مقر الطُّريقة بلدة "عين ماضي" عام 1784م وفرض على أهلها ضريبة، هذه المضايقة المعلنة من طرف السُّلطة ضده دفعته به إلى التَّوجه إلى "فاس" التي لقي من سلطاتها "سليمان العلوي" كافة التَّرحاب، بل أنَّ هذا الأخير منحه داراً، وظلَّ الشَّيْخ في هذه الدِّيار إلى غاية وفاته في 14 شوال 1230هـ/19 سبتمبر 1815م⁵.

وبوفاته تولى القيادة الرُّوحية للطريقة تلميذه الشَّيْخ الحاج "علي بن عيسى التَّماسيني"⁶ الذي عمل على توسيع الزَّاوية بفضل جهوده وجهود أبنائه الذين كانوا يأتونها صيفاً من "تماسين"، وبحسب إحصاء 1897م

1- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج1، صص 510-511.

2- تقوم أوراد التَّجائبة على: الوظيفة والورد المعلوم (المُحْتَم) والهيلة يوم الجمعة، أمَّا الوظيفة فتتكون من: 30 مرة استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، و 50 مرة الصَّلَاة على النَّبِيِّ بصيغة "الفتاح" وهي: اللهم صلي على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والمهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم. و 100 مرة الكلمة المشرفة لا إله إلا الله. و 12 مرة الصَّلَاة على النَّبِيِّ بصيغة "جوهره الكمال". وتذكر مرة في اليوم. أمَّا المعلوم (المُحْتَم) فهو: 100 مرة استغفر الله، و 100 مرة الصَّلَاة على النَّبِيِّ بصيغة "الفتاح"، و 100 مرة لا إله إلا الله. أمَّا هيلة الجمعة فهي 1000 مرة فما فوق من لا إله إلا الله. ينظر: مُحَمَّد بن المشري السَّائحي الحسني: الجامع لدرر العلوم الفانضة من بحار القطب المكتوم، تح: مُحَمَّد الراضي كنون، ج1، ط1، دار الأمان للنشر والتَّوزيع، الرِّباط، 2012م، ص90.

3- عمار هلال: الطُّرُق الصُّوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية بإفريقيا السَّمر، ط1، مطبعة الجيش، الجزائر، 2007م، ص121.

4- الباي مُحَمَّد الكبير: هو محمد بن عثمان الكردي، كنيته "أبو عثمان"، و "أبو محمد"، ولقبه "الأكحل"، تولى بايلك الغرب سنة 1778م، على يده تمَّ فتح مدينة "وهران" في 22 فيفري 1792م، وكانت له إنجازات كبيرة في مدينة "وهران" توفي سنة 1799م. ينظر: أحمد ابن هطال التلمساني رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصَّحراوي الجزائري، تح: محمد بن عبد الكريم، ط1، عالم لكتب، القاهرة، 1969م، ص15. وينظر أيضاً: يحي بوعزيز: مُدُن تاريخية "وهران"، ط1، منشورات وزارة الثقافة والسَّيحة، الجزائر، 1985م، ص99 وما بعد.

5- مختار الطاهر فيلاي: المرجع السابق، صص 48-49.

6- الشَّيْخ الحاج علي التَّماسيني: ابن الحاج عيسى بن مُحَمَّد، يُرفع نسبه إلى سيدنا الحسن السَّبَّط بن السَّيِّدة فاطمة الزَّهراء بنت رسول الله ﷺ. وُلِد سنة 1180هـ/1766م، نشأ نشأةً دينية، فحفظ القرآن الكريم، ثمَّ تفقه في الدِّين، واعتنى به والده تعليماً وتربيتاً فنشأ على أقوم سبيل، عُرف منذ صغره بالعفاف والميل إلى الانزواء والحفاظ على أداء العبادات. سلك الطُّريقة التَّجانية على يد شيخها الشَّيْخ أحمد التَّجاني وارتبط بها كمرید في شهر ذي الحجة 1204هـ/أوت 1790م، ترقى في الطُّريقة التَّجانية حتى أصبح هو خليفتها الأعظم بعد رحيل شيخه، من أقواله: «اجعل السَّيِّحة في يمينك والمسحة في شمالك واللوحه أمامك»، ثمَّ صغرها لأجل تعظيمها وأصبح يُردد: «السَّيِّحة والمسيحة واللويحة حتى تخرج الرويحة». =

فقد بلغ عدد أتباع هذه الطريقة 25.323 إخوانياً¹، وتتميز هذه الطريقة على خلاف بقية الطرق الصوفية الأخرى بالمركزية الشديدة، أين يعتبر الشيخ فيها هو المرجع الوحيد في تعيين الشيوخ، ولعل هذا ما يفسر عدم تعددية المشايخ في الطريقة التجانية².

وكان للاتصالات بين "سوف" و"القطر التونسي" دوراً في وصول إشعاعات هذه الطريقة أكثر إلى البلاد التونسية، فقد رحل "الطاهر بن عبد الصادق القماري"³ إلى "توزر" بالجنوب التونسي بأمر من الحاج "علي التماسيني"، وأسّس زاوية هناك. ومن مشاهير التجانيين من التونسيين نجد العلامة "إبراهيم الرياحي"⁴ التونسي الذي التقى بالشيخ المؤسس في "فاس" فتأثر به وكان بذلك من أوائل الذين تلقوا الطريقة على يده وتعلقوا به، ونال شرف مشيخة الطريقة التجانية في "تونس"، فأخذ ينشرها في "تونس" وأقام أوردتها ووظائفها وكانت زاويته قرب "حوانيت عاشور" أول زاوية للطريقة بالبلاد التونسية⁵، واعتبر الشيخ "إبراهيم الرياحي" في نظر أتباع الطريقة ناصرها وحامي دمارها⁶، ثم غزت الطريقة الجنوب التونسي فتأسست زاويتا "توزر" و"نفطة" ولم تظهر لها زوايا في النصف الشمالي إلا مع مطلع النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كزاوية "الشاوش صالح" بمدينة "باجة" سنة 1846م، وباب المنارة سنة 1875م⁷.

=ترك أملاكاً كبيرة من التّخيل قُدّر عددها بما يزيد عن 14000 نخلة، أوقفها لله تعالى. توفي الثلاثاء 22 صفر 1260هـ/12 مارس 1844م. انظر: الصادق التّجاني: العرف الرياحيني في ترجمة سيدي الحاج علي التّماسيني، (مخطوط)، ص ص2-13.

1 - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج4، ص242.

2 - نفسه، ص240.

3- الشيخ الطاهر بن عبد الصادق: هو "الطاهر بن موسى بن محمد بن عبد الصادق"، أصيل "فمار"، من عرش "أولاد بوغافية"، ولد سنة 1187هـ/1773م كان ضمن الوفد الأول المكون من عشرة أفراد الذين توجهوا لزيارة الشيخ أحمد التّجاني سنة 1202هـ/1788م، نال على يده شيخة معارفاً وفيوضاتاً وأسراراً، وقد مات الشيخ "أحمد التّجاني" في حجره موكّفاً على صدر الشيخ "الطاهر بن عبد الصادق"، وهو من جهزه بالتّغسيل والتّكفين. أمره الشيخ الحاج "علي التّماسيني" بالتّوجه للجزيرة التونسية ونشر الطريقة هناك والسّهر على شؤون مريديها بدأ من سنة = 1240هـ/1825م، وواصل نشر الطريقة حتى وصل "قابس" وبها أسس الزاوية العتيقة سنة 1242هـ/1827م. توفي على عمر ناهز 80 عاماً سنة 1267هـ/1851م. ينظر: محمّد بن محمّد الحجوجي: إتحاف أهل المراتب العرفانية بذكر بعض رجال الطريقة التّجانية، تح: محمّد الرّاضي كنون، ج1، ط1، دار الأمان للتوزيع، الرّباط، 2012م، ص423.

4 - الشيخ إبراهيم الرياحي: هو "إبراهيم بن عبد القادر بن الرياحي" التونسي، وُلِدَ بِتستو سنة 1180هـ/1767م، وأخذ العلم على جماعة علماء وفقهاء تونس منهم: الشيخ "صالح الكواش". أخذ الطريقة التّجانية على الشيخ "الحاج علي حرازم براده" الفاسي سنة 1216هـ/1802م. التقى في "فاس" الشيخ "أحمد التّجاني"، وأجازته في طريقته بالإطلاق، كما زار الشيخ "الحاج علي التّماسيني" سنة 1238هـ/1823م. له العديد من المؤلفات منها: مبرد الصّوارم والأسنة في الرّد على من أخرج الشيخ التّجاني من دائرة أهل السنة، توفي يوم الثلاثاء 27 رمضان 1266هـ/6 أوت 1850م بحاضرة تونس وُدفن بها. ينظر: عمر بن محمّد الرّياحي: تعطير النّواحي بترجمة سيدي إبراهيم الرّياحي، ط1، مطبعة بكار وشركائه، تونس، 1903م، ص7 وما بعد.

5 - التّليبي العجيلي: الطّرق الصّوفية والاستعمار الفرنسي، المرجع السابق، ص44.

6 - عمر بن محمّد بن إبراهيم الرّياحي: المصدر السابق، ص ص27-28.

7 - خير الدين شترة: المرجع السابق، ص77.

ومن مشاهير أتباع الطريقة نجد المقاوم "علي بن غذاهم" الذي عرف بإخلاصه للطريقة، بل وعدَّ من خيرة أتباعها على حد قول شيخ الطريقة "مُحمَّد العيد التَّجاني"¹ بِـ"تماسين" عندما سألته السُّلطات الفرنسيَّة أثناء الانتفاضة عن معرفته بالمقاوم فأجاب عليهم بما نصه: «بأنَّه يعرفه جيداً وأنَّه من خيرة أحباب الطريقة التَّجانيَّة، لقد كان قاضياً وعُزل وهو مثقف جداً، ولم يعرف عنه، أنَّه اشتغل واهتم بالسياسة»²، فقد وهب "علي بن غذاهم" حياته خدمة للطريقة التَّجانيَّة، وبفضل اتصالاته الشخصيّة بالشيخ "مُحمَّد العيد" كسب بسيرته قبائل "ماجر"، وكان لا يتأخر في اطلاع الشيخ على كافة مشاريعه وأدى سي "مُحمَّد بين إبراهيم" أحد أقرباء "مُحمَّد بن ناصر" رئيس الزاوية العيساويَّة دور الوسيط بين "علي بن غذاهم" والشيخ "مُحمَّد العيد" إذ أنَّه كان ينقل رسائل "بن غذاهم" للشيخ، كما كانت لـ"ابن غذاهم" عديد اللقاءات بإخوان الطريقة التَّجانيَّة، بل أثناء قبوله للصلح الذي توسط فيه شيخ الطريقة الرِّحمانِيَّة "مصطفى بن عزوز" طلب من الباي أن يمنحه "هنشير الرُّوحِيَّة" ليني بها زاوية للقطب الأعظم سيدي أحمد التَّيجاني³.

ولقد استغلت السُّلطة التُّونسيَّة نفوذ كلاً من الطريقتين الرِّحمانِيَّة والتَّجانيَّة ووظفتها لصالحها للقضاء على الانتفاضة وزعيمها "علي بن غذاهم"، ففي البداية اتصلت بالشيخ "مصطفى بن عزوز" للتوسط لعقد صلح مع الثَّائر وقد نجح الشيخ "مصطفى بن عزوز" في ذلك⁴، لكن السُّلطة سرعان ما نكثت العهد وقامت في المقابل منه بعمليات تطهير واسعة، وهو ما كان له بالغ الأثر على نفسيَّة زعيم الطريقة الرِّحمانِيَّة آنذاك⁵، ولم تتوقف السُّلطة عند هذا الحدِّ وكتَّفت هذه المرة اتصالها بالرَّعيم الرُّوحِي لـ"علي بن غذاهم" الشيخ "مُحمَّد العيد التَّجاني" الذي تمكَّن في ظرف وجيز من تسليم الثَّائر للسُّلطة، وهذا طبعاً ضمناً لمصالح ربطته بالسُّلطة⁶.

1 - الشيخ محمَّد العيد: هو أوَّل خلفاء والده الحاج "علي التَّماسيني"، ولد عام 1230هـ/1815م بتماسين، حفظ القرآن على المولى "سعيد الفاسي"، أمَّا العلوم الأخرى فتلقاها عن فقهاء الزاوية منهم مفتي سوف العلامة "أحمد بن عمار التَّغزوتي"، وسي "لخضر بن حمّان القماري"، وغيرهم، كان معتدل القامة، قوي البدن، قليل الكلام، وقوراً مهاباً. أجازته والده بالإطلاق في الطريقة وبويع بالخلافة يوم الثلاثاء 12 ملرس 1844م. له مواقف وطنية عظيمة منها: جلب السِّلاح والذخيرة لثوار منطقة "تبسة" حسب رواية بير كاستيل. إنقاذ أهالي المنطقة من ظلم الجنرال "لكروا". توفي يوم الجمعة 13 شوال 1292هـ/12 نوفمبر 1875م وفُيّر بتماسين. ينظر: غريسي علي: أعلام وأختام، ج1، ط1، مطبعة SIB، الوادي، الجزائر، 2013م، ص ص 13 - 19.

2- عبد الجليل التَّميمي: المرجع السَّابق، ص ص 20 - 24.

3- عبد الجليل التَّميمي: المرجع السَّابق، ص ص 20 - 24.

4- نفسه

5- التَّليبي العجيلي: «الوضع الطُّرقي بالجريد في النِّصف الثَّاني من القرن التَّاسع عشر»، المجلة التَّاريخيَّة المغربيَّة، ع.76/75، مطبعة الاتحاد التُّونسي للشغل، زغوان - تونس، ماي/ 1994م، ص ص 330 - 331.

6- الأزهر الماجري: قبائل ماجر والفراشيش، ص ص 450-452.

كما اعتبرت "تونس" مجالاً واسعاً لنشاط الطرق الصوفية ومريديها الذين تستهويهم زيارة الزوايا والمزارات، فمع دخول الفرنسيين إلى "الجزائر" اختار هؤلاء "تونس" موطناً للدعة والأمن من اضطهاد الفرنسيين لتصبح بعدها المهجرة مسألة ضرورية وواجبة لتلبية فتوى بعض المجتهدين نجاة للمال والدين والعرض، وأن دعوة القرآن للهجرة من الكفر إلى دار الإسلام ضرورة، كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم¹.

لقد أسهم تواجد الطرق الصوفية المذكورة أعلاه، من خلال تواجد الزوايا في المناطق الحدودية بين القطرين الشقيقين في تنشيط حركة القبائل والأفراد، في شقها الثقافي المعتقد المرتبط بالمشايخ والزوايا والمزارات، ومن خلاله تم رفع التحدي لأجل كسر قيود المحتل الذي عمل جاهداً إلى تكريس منطق التجاور بدل التواصل².

4- الطريقة الشاذلية³: هي طريقة صوفية تنسب إلى مؤسسها الشيخ أحمد بن مخلوف⁴، ويعتبر هذا الشيخ من أنصار الشيخ "ناصر الدرعي" مؤسس الطريقة الناصرية، ولعل هذا ما جعل بعض المستشرقين كـ"ديبوت" (DEBOUT) و"كابولاني" (COBBOLANI) يقولان بأنها متفرعة عن الطريقة الناصرية⁵، غير أن الأرجح أن مرجعها وأصلها شاذلي شأنها شأن بقية الطرق الأخرى المتفرعة من الطريقة الشاذلية⁶، وإذا

¹ -خير الدين شفرة: إسهامات النخبة الجزائرية، ص ص 87-88.

² - نور الدين صحراوي: المرجع السابق، ص 14.

³ - الشاذلية: نسبة إلى الشاذبة وهي مكان قرب مدينة "المهدية" بتونس. والشاذلية: هي إحدى الطرق الصوفية التي كان لها آثار كبيرة في القطر التونسي والشرق الجزائري، سوى على المستوى الديني أو الاجتماعي أو السياسي، وقد امتدت خلال القرن العاشر إلى المغرب الأقصى وإلى الشرق الأوسط وتركيا، ولا تزال سلسلة شيوخها موصولة لحد اليوم. ينظر: عبد الباقي مفتاح: أضواء على الطريقة الشاذلية وتطورها وشيوخها في المغرب والشرق، ط 1، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر، 2016م، ص 6. وينظر أيضاً: إبراهيم العوامر: الصُروف في تاريخ الصحراء وسوف، تع: الجيلاني بن إبراهيم العوامر، ط 1، الدار التونسية للنشر، تونس، 1977، ص 192.

⁴ - أحمد بن مخلوف الشاذلي: (835-895هـ/1431-1492م)، لقبه صوفية المشرق بزهرة أهل المغرب المنعمة، والشيخ أحد أتباع الشيخ "محمد بن ناصر الدرعي"، أسس مدرسته الربوية بتونس وأدى فريضة الحج عام 878هـ/1473م، تتلمذ على يده أقطاب التصوف من أمثال: "أحمد الغوث التباسي التوزري" و"أحمد المقنعي الحناشي الجزائري". بدأ حياته معلماً للقرآن الكريم وناشراً للأمن في الريف والصحراء الشرقية التي عرّفت فوضى عارمة أواخر العهد الحفصي وبداية العهد العثماني وتولى أيضاً إمامة جامع الداروي بالقيروان، وكان الشيخ "ابن مخلوف" عالماً باللغة وحافظاً لكتاب الله مشاركاً في علوم عصره، كما تميز بقوة إدراكه وفهمه. ينظر: محمد الأمين بلغيث: الشيخ محمد بن عمر العدواني مؤرخ سوف والطريقة الشاذلية، المرجع السابق، ص 99.

⁵ - محمد الأمين بلغيث: «الطريقة الشاذلية في الجزائر وتونس، محاولة لرسم مسار الحركة»، المجلة التاريخية المغربية، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، السنة 31، ع. 114، تونس، مارس/ 2004م، ص ص 40-41.

⁶ - الطريقة الشاذلية: تنسب إلى مؤسسها الشيخ "أبي الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي"، المولود ببلدة "غمارة" قرب مدينة "سبتة" المغربية عام 593هـ/1196م، حفظ القرآن الكريم في مسقط رأسه ودرس العلوم الدينية واللغوية والتي برع فيها براعة كبيرة. من أبرز شيوخه الذين أخذ عنهم: الصوفي الكبير الشيخ "عبد السلام بن مشيش"، ثم رحل إلى "تونس" وتعلم على يد كبار علمائها فازداد علماً وفقهاً وتصوّفاً، ثم انتقل ليستقر ببلدة "شاذلة" بتونس التي نسب إليها وعرف بها، ونتيجة للمضايقات رحل إلى "الإسكندرية" إلى أن توفاه الأجل سنة 656هـ/1258م، ودفن بصحراء عيذاب المصرية. تأسس هذه الطريقة يعود إلى القرن الثالث عشر ميلادي وهي من أقدم الطرق الصوفية =

كان الشيخ "ابن مخلوف" الممهد الأول للطريقة، فإن ابنه الشيخ "عرفة الشّابي" يعتبر المؤسس الحقيقي لها، لكونه جعل من الشّابية منهجاً ومسلكاً دينياً ودولة، وتعرّضت هذه الطريقة إلى معارضة شديدة من طرف السلطات العثمانية في "تونس" لذلك خبّت بعض الشّيء ثم عادت للظهور مجدداً تحت مسمى جديد وهو "بيت الشريعة" بقيادة "علي بن مسعود الشّابي"²، وقد ربّب فيها دروساً لمختلف الفنون استمرت في الإشعاع إلى غاية النّصف الثاني من القرن التاسع عشر ميلادي³.

ونجد من أهم الشخصيات الشّابية الفاعلة والمؤثرة شخصية الشيخ "مسعود الشّابي"⁴، الذي كان له دوراً بارزاً في أحداث "تونس" و"الجزائر"، ويذكر العدواني، بأنّه قديم إلى "سوف" إثر سماعه بضلال أهلها وبعدهم عن الحقّ، فقدم إليهم من أجل انتشالهم من ظلمات الباطل إلى نور الحق والإيمان، ومدينة "الوادي" تشهد له بعملين هامين من أعماله هما: بنائه مسجدين الأول بـ"الوادي" والثاني بـ"قمار" سنة 1597م⁵.

وبسبب توتر علاقاته مع الإيالة التونسية لجأ إلى جبل ششار (بالقرب من مدينة "خنشلة") وأقام فيه زاوية⁶، وفي هذه المنطقة وما جاورها استطاع أن يبين له نفوذاً دينياً واسعاً امتدّ إلى كلٍّ من "القاله" و"سوق

=ظهوراً واستقراراً وأول الطُرق التي أدخلت التّصوف إلى بلاد المغرب بالموازاة مع الطريقة القادرية. ينظر: صلاح مؤد العقي: المرجع السابق، ص 99. وينظر أيضاً: محمّد أحمد وزنيقة: الطريقة الشاذلية وأعلامها، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1990م، ص 14.

1- سيدي عرفة الشّابي: هو عرفة القيرواني المغربي المالكي، وهو الولد الثاني للشيخ "أحمد بن مخلوف"، حفظ القرآن وتلمذ على يد والده وغيره من العلماء، برع في التّصوف والعلوم النّقليّة والعقلية. من مؤلفاته كتاب: "الدّر الفائق في علم الطريقة والحقائق". عمل الشيخ على تأسيس دولة في القيروان تكون صوفيّة الطّابع تطيح بالحكم الحفصي وتدرأ عن المسلمين الوهن المستشري والتّفوذ المسيحي، وكان له ذلك بفضل القبائل الموالية له في 842هـ/1532م، وقد تمكّن من هزم الحفصيين والإسبان في موقعين هما: "باطن القرن" سنة 1532م، و"واد الجمال" سنة 947هـ/1540م، غير أنّ حملة "درغوث باشا" وضعت حداً للنّفوذ المسيحي وقضت على الدّولة الشّابية. ينظر: ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مج4، ج8، ط1، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1975م، ص 277. وينظر أيضاً: علي الشّابي: عرفة الشّابي رائد النّضال القومي في العهد الحفصي، ط1، دار الكتب العربية، تونس، 1982م، ص 38. وينظر أيضاً: علي الشّابي: «مصادر جديدة لدراسة تاريخ الشّابية»، المجلة التاريخية المغاربية، ع. 13/14، مطبعة الاتحاد التونسي للشغل، تونس، 1979م، ص 55-65.

2- علي الشّابي: هو ابن الشيخ "مسعود الشّابي" توفي سنة 1663م. ينظر: التّليبي العجيلي: الطُرق الصوفيّة والاستعمار الفرنسي، المرجع السابق، ص 49.

3- التّليبي العجيلي: الطُرق الصوفيّة والاستعمار الفرنسي، المرجع السابق، ص 49.

4- المسعود الشّابي: هو "المسعود بن محمّد الشّابي بن عبد اللطيف بن أبي بكر بن أحمد بن مخلوف"، يرجع نسبه إلى "هذيل بن عبد الله بن مسعود"، صاحب رسول الله ﷺ. وهو ثالث حفيد لابن مخلوف، انتقلت به أسرته عقب سقوط الإمارة الشّابية على يد العثمانيين والإسبانيين عام 965هـ/1557م إلى "توزر" وهو صغير، حفظ القرآن الكريم، وتلمذ على يد شيوخ أجلاء كالشيخ "التّواتي" شارح "المدونة"، وبعد أدائه فريضة الحج سنة 1003هـ/1594م اتصل بعلماء "مصر" كـ"محمّد بن أبي القاسم المصري المالكي" و"محمّد بن محمّد المنزي الشّافعي" و"صالح البلقيني الشافعي" وناقش آراءهم، كان الشيخ "مسعود" على اشتغال بالتأليف منذ شبابه فكتب ثمانية عشر كتاباً في التاريخ والفقه والتّصوف والتّوحيد كـ"الفتح المنير"، و"الدّر الفائق". ينظر: محمّد بن عمر العدواني: المصدر السابق، ص 110-111. وينظر أيضاً: علي الشّابي: «مصادر جديدة لدراسة تاريخ الشّابية»، المرجع السابق، ص 62-63. وينظر أيضاً: إبراهيم العوامر: المصدر السابق، ج2، ص 21.

5- محمّد بن عمر العدواني: المصدر السابق، ص 122-123. وينظر أيضاً: إبراهيم العوامر: المصدر السابق، ج2، ص 21.

6- محمّد الأمين بلغيث: «الطريقة الشّابية في الجزائر وتونس، محاولة لرسم مسار الحركة»، المرجع السابق، ص 39.

أهراس" و"تبسة"، بل وكانت القبائل والأسر في منطقة "الأوراس" تتور على السُلطة وهي مدعّمة بقوة الشّابّية، كما سعت هذه الطّريقة للارتكاز على قاعدة شعبية توفر لها السّند العسكري إن احتاجت إليه، لذلك تحدت مع كبريات القبائل المؤثرة في علاقات كلاً البلدين، خاصة منها القبائل الحدودية ذات الوزن الثّقيل، والذين كان لدعمهم الأثر الفعال في توسيع أفق ومدى الطّريقة التي عمّت "الجزائر" و"تونس" فاعتبروا بذلك الدّعامة الأساسيّة في مشروع الطّريقة لنشر دعوتها وضمّان استمراريتها¹، وهذه القبائل هي:

1-4- قبيلة الحنانشة: انظم "الحنانشة" للطريقة الشّابّية على يد أحد أبنائهم وهو "أحمد بن نصر الملقني" مقدم "ابن مخلوف" بعد مقدّمه من الحج بعد سنة 878هـ/1473م، وكان لانضمام "الحنانشة" السّند الفعّال لـ"أحمد بن مخلوف" اين انقلب حاله من فقر إلى غنى، ومن عسر إلى يسر، بل أصبحوا دعاة للقبائل الأخرى لأنّ "الحنانشة" لما انظموا كانت تحت نفوذهم عدّة قبائل تونسيّة كـ"خمير" و"قرفة" و"نهد" و"ورغة" و"شارن" و"أولاد بوغانم" و"الفراشيش"، وبذلك اعتبروا قوّة حقيقيّة لا نظير لها، وبفعل هذا السّند المتين من قبيلة بحجم قوة ونفوذ قبيلة "الحنانشة" التي وفّرت للطريقة الموردين الأساسيين وهما: المال والقوة البشريّة، ومنه فالطّريقة الشّابّية أضحت القوة الأولى في القيروان²، لذا عمل الشّيخ "عرفة الشّابي" جاهداً لتوثيق علاقاتهم به عن طريق الرّيادة، بل أنّه كان يكثر التّردّد عليهم، فقد كانت قبيلة "الحنانشة" درعاً في حروبه ومعتمده في أمنه وثروته التي لا ينضب لها معين، ليثمر انضمام "الحنانشة" إلى الطّريقة الشّابّية إضفاء قيمة أخلاقية على أخلاقهم وتصرفاتهم التي حقّت حدّة رعونتها مع حسن تدينهم و ركنوهم إلى الانضباط³.

وامتد دعم "الحنانشة" إلى مد يد العون والمساعدة للشّيخ "عبد الصّمد الشّابي"⁴ الذي كان له نفوذاً في قسنطينة⁵، ودعم ابنه "بوزيان" الذي استطاع بفضل دعم "الحنانشة" أن يسترد للطريقة بعضاً من نفوذها بفعل ملاحظات "حمودة باشا" لها⁶.

1- يوسف بن حيدة: المرجع السّابق، ص11.

2- علي الشّابي: تاريخ الشّابّية خلال العهدين الحفصي والعماني، ط1، دار نقوش عربية، تونس، 2015م، ص 87 - 88.

3- المرجع نفسه، ص242.

4- الشّيخ عبد الصّمد الشّابي: اشتهر بصلابته وحوضه لحروب متواصلة ضدّ الأتراك العثمانيين في "الجزائر" و"تونس"، وتسببت صلابته هذه في انفصال "الحنانشة" عنه وانضمامهم للعثمانيين مما تسبب في هزيمته في موقعة "رهبية" انتهت بفراره إلى جبل "ششار" ثمّ انتقال إلى "الجريد"، ثمّ رجع إلى مكمنه برّواد هلال "برّجبل أرقوا" وما لبث أن توفي سنة (1025هـ/1616) ودفن بهذا الجبل. ينظر: علي الشّابي: «مصادر جديدة لدراسة تاريخ الشّابّية»، المرجع السّابق، ص74.

5- توفيق بن زرّة: الكنفدراليات القبلية الحدودية ودورها في العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الجزائر وتونس خلال العهد العثماني - الحنانشة أنموذجاً - مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمصادر، تخصص العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الجزائر العثمانية ودول المغرب العربي، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة، إشراف علاوة عمارة، السنة الجامعية 2013/2014، ص92.

6- علي الشّابي: تاريخ الشّابّية خلال العهدين الحفصي والعماني، المرجع السّابق، ص376.

4-2 - قبيلة طرود: تعتبر هي الأخرى من أقوى القبائل التي ناصرته الشيخ "عرفة الشابي"، وعمل هذا الأخير على تجنيدها بنفسه بل وأقحمها في دعوته عن طريق من كان يتردد منهم للقيروان للتجارة، و زارهم في موطنهم بـ"وادي سوف"، وقام بإرشادهم وعيّن مُقدّمين من بينهم لتوجيههم وإعادة تم لحظيرة الإسلام من جديد، وكان الشيخ يلي أهمية بالغة بتلاميذته منهم، فكلّف من يقوم بتربيتهم ومتابعتهم حسب ما حدّث به أحد تلميذاته وهو "بنور الطرودي"، وعندما أحكم الشيخ علاقته بهم بدأ يشرح لهم الوضع السياسي من أجل أن يحصل منهم على الدعم اللازم في مساره النضالي¹، ذلك أنّ الشابيّة قد تبنت إلى جانب التيار الدّيني الذي كان يمثله "مسعود الشابي" التيار السياسي بقيادة "عبد الصّمد الشابي"، وقد استمر نضالها السياسي من الفترة الحفصية إلى غاية الفترة الاستعمارية²، وقد شاركت معه "قبيلة طرود" وتجنّد من بينهم ثلاثمائة وأعدوا خمسمائة فارس للالتحاق بالشيخ "عرفة"، وحين قدموا إليه قال فيهم كلمته المشهورة: «يا طرود من نصرتموه انتصر ومن كسرتموه انكسر، قليلكم كثير وكثيركم لا حد له»³، وقد ظلّ ولاء سكان "سوف" للشابيّة مستمراً حتى إبّان الفترة الاستعمارية، حتى أنّ الفرنسيين أنفسهم لاحظوا أنّ الشابيّة ما تزال قويّة في "سوف" لأنّ أهل "الوادي" ما يزالون على احترامهم لأجداد وشيوخ الشابيّة⁴.

4-3 - النمامشة وبنو بربار: تتلمذ "المامشة" على يد الشيخ "عرفة الشابي" وأسهموا معه في حروبه بالرجال والأموال، وفرض عليهم الشيخ "عرفة" ما عُرف عندهم "العادة"⁵، فوفوا بها وظلّوا يؤدونها دونما كلل أو ملل، وقد تأكّد نفوذ "عرفة الشابي" في منطقة "قسنطينة" و"عنابة" و"الأوراس" و"أرض الزّيبان"، وأصبحت هذه الأماكن في نظره رغم بُعدها عن "القيروان" كأثما حارة من حاراتها⁶، ويحفظ الشابيّة "النمامشة" و"الهمامة" صدق وفائهم وعظيم ثباتهم وزكي إخلاصهم للحلف، دون أن تنال منها الأيام مهما اشتدت العسرة، وبالإضافة إلى "النمامشة" انظم "الحراكتة" و"أولاد مهلهل" و"النبائل" للطريقة وساندوها⁷.

4-4 - قبيلة الهمامة: اخلصوا في تتلمذهم لها ولولفائها لنهجها الذي عرفوه في عهد مشايخها الأوائل، بيد أنّه لم يحدث إقبالهم عليها بصورة جماعيّة إلا على يد "عرفة الشابي" فضلا عن كثرة تردّددهم وحلوله بينهم

1 - علي الشّابي: تاريخ الشّابيّة خلال العهدين الحفصي والعثماني، المرجع السّابق، ص 245.

2 - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثّقافي، ج 4، ص 277.

3 - علي الشّابي: تاريخ الشّابيّة خلال العهدين الحفصي والعثماني، المرجع السّابق، ص 245.

4 - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثّقافي، المرجع السّابق، ج 4، ص 277.

5 - العادة: هي ضريبة كانت تؤدي في شكل "فتوح" أي عون مادي لابن مخلوف في صورة زكاة لتصبح عادة ألفو على أديائها وأصبحوا غير قادرين عن التّخلف عنها. ينظر: علي الشّابي: تاريخ الشّابيّة خلال العهدين الحفصي والعثماني، المرجع السّابق، ص 248 - 249.

6 - المرجع نفسه، ص 247.

7 - محمّد بن عمر العدواني: المصدر السّابق، ص 180-181. وينظر أيضاً: علي الشّابي: «مصادر جديدة لدراسة تاريخ الشّابيّة»، المرجع السّابق، ص 68. وينظر أيضاً: محمّد الأمين بلغيث: الشيخ محمّد بن عمر العدواني مؤرخ سوف والطريقة الشّابيّة، المرجع السّابق، ص 106 - 107.

معلماً ومرشداً في مواطنهم الأصلية بجهة "قفصة" و"الشَّرْقِيَّة" عند "الرَّقَاب" و"القيروان"، وقد عَيَّن لهم مقدام من بينهم للإشراف على تربيتهم ولإعانتهم في حلِّ المسائل الدِّينِيَّة والصُّوفِيَّة التي تستعصي عليهم، ولقد أمعن "الهمامة" في حُبِّة الشَّيخ "عرفة" فحاربوا معه وخضعوا لسلطانه، وانصرفت فئة منهم للتغني به في أشعارهم الشَّعْبِيَّة منذ ذلك التَّاريخ، ولم ينفكوا يفعلون هذا حتى اليوم، في سبك غنائي شفاف ينمُّ عن حُبِّة صادقة وإكبار لخصائصه الدَّائِيَّة وتمجيد لبطولته التَّاريخِيَّة وحمِيَّة الوطَنِيَّة¹، بالإضافة "للهمامة الذين حظوا بمكانة بين مريدي الشَّابِيَّة أنظمت قبيلة "دريد" الذين كانوا بمثابة حراس للشَّيخ "عرفة" وأسرته من بعده²، كما تمَّ تسخير عدد من العبيد ما مقداره خمسمائة عبد يحرسون "عبد الصَّمَد الشَّابِي" في قلعة بـ"واد هلال" بـ"جبل أرقوا" التي اتخذها منطلقاً لشن حروبه وغاراته على أعدائه، وتبعد هذه القلعة عن "الشَّرِيعة" بنحو 40 كلم، وعن "تزرارين" بنحو 10 كلم، وهي على مقربة من قرية "الجرف" في قلعة، كانوا يركبون الخيول السُّوداء تصبح وتمسي طائفة بالقلعة، هذا فضلا عن العدد الكبير من الأعراب المقيمين لحراسته في "دريد" خاصة، و"النمامشة" و"الهمامة" و"الحراكتة" عامة، الذين آثروا نصب خيامهم على مقربة من "القلعة" إلى مسافة تمتد نحو عشرة كلم³.

لكن ما يلاحظ على القبائل التُّونسيَّة والجزائريَّة أنَّ علاقاتها بالشَّابِيَّة لم تكن متينة، بل خاضعة لعامل المصلحة، حيث أنَّها كلَّما توفرت لها مصالح مُعيَّنة مع طرف مغاير قد تنقلب على الشَّابِيَّة أحيانا، وقد تكرَّر هذا المشهد في مسيرتها من طرف عدَّة قبائل كانت مُنظَّمَة تحت لوائها لكنها سرعان ما سحبت السُّجاد من تحت قدميها مثلما حصل من طرف قبيلة "دريد" و"الحنانشة"⁴.

والمصلحة هي بدورها ما دفعت بهذه الطَّرِيقَة في حد ذاتها إلى أن تقترب من الحكومات وأصحاب التَّفوذ حفاظاً في الظَّاهر على عوائد الرِّيارات من الأتباع، ويذكر الفرنسيون أنَّهم وجدوا من قادة الشَّابِيَّة مساعدة في احتلال "تونس" وإعانتهم في استتباب الأمن، ولما لا، حتى إرجاع الهاربين والمتمردين على السُّلطة الاستعماريَّة، فأثناء دخول "فيليب" (Filipe) للجريد فرَّ من أمامه أهل "توزر" فأعانه "ابن جدو" على إعادتهم، وأصبح هو الواسطة بينهم وبين الفرنسيين، وكافأت "فرنسا" مجهوداته معهم في تعيينه قائداً على "بيت الشَّرِيعة" فأصبح بذلك يجمع بين القيادتين الدُّنيويَّة والدِّينيَّة، ولعل هذا الأمر هو ما جعل الخلاف يَدُبُّ بين أفراد

1 - علي الشَّابِي: تاريخ الشَّابِيَّة خلال العهدين الحفصي والعثماني، المرجع السَّابق، ص 248 - 249.

2 - مُحَمَّد بن عمر العدواني: المصدر السَّابق، ص 180-181. وينظر أيضاً: علي الشَّابِي: «مصادر جديدة لدراسة تاريخ الشَّابِيَّة»، المرجع السَّابق، ص 68. وينظر أيضاً: مُحَمَّد الأمين بلغيث: الشَّيخ مُحَمَّد بن عمر العدواني مؤرخ سوف والطَّرِيقَة الشَّابِيَّة، المرجع السَّابق، ص 106 - 107.

3 - علي الشَّابِي: تاريخ الشَّابِيَّة خلال العهدين الحفصي والعثماني، المرجع السَّابق، ص 362.

4 - المرجع نفسه، ص 363.

العائلة الشَّابِيَّة وجعل من مكانتها تتراجع في أعين النَّاس¹، بالإضافة إلى ما سبق من سوء في الأحوال الاجتماعية للأتباع بمدينة "توزر"، حيث أصاب مواشيهم الفناء فأصبحوا يعانون من الفقر والاحتياج، وليس لهم من حيلة إلا التَّضَرُّع لله، وهذا ما أثر على مداخيل وموارد الطَّريقة، إضافة إلى التَّنَافس حول مشيخة الطَّريقة، حيث رفض بعض الأتباع سنة 1896م الاعتراف بمشيخة الحاج "مُحمَّد بن إبراهيم"، ومنذ ذلك الوقت انقسم أتباع الشَّابِيَّة بين شيخين متنافسين متصارعين، وتطور الصِّراع بين أفراد العائلة حول الشَّيخ القادم (الخليفة)، مما أحدث خلافاً داخل الطَّريقة وأفقدها تأثيرها وأدى إلى تراجع أتباعها²، حتى أضحت الطَّريقة تكاد تختفي بعد خمسة عشر سنة من احتلال "تونس"³.

ويقوم ورد الطَّريقة الشَّابِيَّة على الاستغفار مئة (100) مرة، وذكر لا إله إلا الله إلا أنت، مئة (100) مرة، واللهم صلي على سيدنا محمد وعلى آله مئة (100) مرة بعد صلاة الفجر؛ وتميز الشَّابِيَّة بخاصِّية في هذا وهي الرِّقْم (70)، حتى سمت قاعدتهم بالسَّبْعِيَّة، ويعتقد أنَّها كلمة السَّر عندهم أو علامة الفأل والسُّرور⁴.

ما يلاحظ على الشَّابِيَّة وما يميزها على بقية الطُّرق الأخرى هو استعمال الشَّيخ "عرفة" للغة العامية من أجل أن تصل تعاليم طريقتهم لكافة الأطياف الشَّعبية ولا تقتصر على الخاصة دون العامة، حيث استعمل الشَّيخ منذ القرن العاشر اللغة الدَّارحة ليطرح بها قضايا تصوِّفه ليصل إلى أعماق القلوب، بهدف تكوين مريدين مخلصين للطريقة، أما أسلوبه فقد قام على أساسين هما: اعتماده ظاهرة التَّكرار، وكذا الاستشهاد بالأمثلة والصِّبغ الشَّعبية والعادات، أي الاستدلال بالتَّمثيل والاستقراء⁵.

أمَّا عن أثارها في كل من "الجزائر" و"تونس" فتتمثل في زاوية "سيدي مسعود الشَّابي" في جبل "ششار" بمدينة "خنشلة"، لتتجلى أثارها أيضاً في شكل مؤسسات دينية كالمساجد الموجودة بجهة "سوف" و"بيت الشَّريعة" الذي أسسه "عمار بن رمضان" بمدينة "توزر"⁶.

ثالثاً- الزِّيارات والوعود المتبادلة للأضرحة والزُّوايا بين القبائل والمجموعات الحدودية:

1- الزِّيارة والوعدة ونظامهما:

تعتبر الزِّيارة ظاهرة مشتركة بين مختلف الطُّرق الصُّوفية وأيضاً لدى المرابطين، وهي تعني التَّوجه إلى شخص مقدس أو مكانٍ معظَّم دينياً، وقد تكون الزِّيارة لأضرحة وهي عادة مرفوقة بالعطاءات من دراهم وغيرها،

1 - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج4، ص277.

2 - يوسف بن حيدة: المرجع السابق، ص13.

3 - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج4، ص277.

4 - نفسه.

5- علي الشَّابي: تاريخ الشَّابِيَّة خلال العهدين الحفصي والعثماني، المرجع السابق، ص249 - 252.

6 - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج4، ص276.

وعلى كلِّ فالزَّيَّارة ارتبطت بالدَّراهم حتى أصبحت هذه لا تذكر صراحة والزَّيَّارة و(الترَّحم) بالنَّسبة للطرق الصَّوْفِيَّة تصبح واجباً على الإخوان وبمثابة تعبير منهم على ولائهم للطريقة بمثل ولائهم للسلطات التي يدفعون لها الضَّرائب خاضعين أو مكرهين، كالعوائد التي كانت تدفع من طرف القبائل الحدودية للطريقة الشَّابِيَّة وقد اصطلح عليها بمصطلح "العادة" لاكتسابها صفة الاستمرارية واللزوم، واستفادت الشَّابِيَّة بشكل كبير من هذه الآداءات المفروضة في نشر الطَّريقة والإنفاق على الزَّاوية وبناء الدَّولة¹.

و الزَّيَّارة عند الطُّرق الصَّوْفِيَّة أمراً واجباً ومحدداً، و"المقدَّم" يرسل "الشُّواش" للبحث فيها، والتي هي عبارة عن استفسارات للمتأخرين عن الدَّفْع، وشرط المرابط المحنَّك مهم جداً هنا من أجل تسيير هذه الزَّيارات بُعية تحصيل العطاءات المائيَّة التي تدفع من أجل سمعته وأعماله التي يقوم بها، والتي في أساسها هي عبارة عن واجبات تطوعيَّة، وفي عهد الاحتلال الفرنسي أضحت هذه الزَّيارات بمثابة ورقة الضَّغط على الطُّرق والمرابطين، فمن رضيت عليه "فرنسا" فسحت له المجال ورخصت له بإقامتها فاستغنى وتنقَّذ، ومن سخطت عليه منعتة منها فافتقر وعُلب على أمره، ومن الواجبات على الإخوان أيضاً دفع الهدية لخرينة الطَّريقة، والهدية على هذا النَّحو تُفرض على الإخوان الذين أحلوا بواجباتهم التي ينصُّ عليها النَّظام الدَّاخلي، أو لم يمارسوا الشَّعائر المطلوبة منهم، مما يوحي لنا بأنَّها نوع من أنواع العقوبات أو الغرامات، وكان بعض الحُكَّام يدفعون عطاءات الشَّيخ و"المقدَّم" اتقاءً للعنة التي تحصل بالاعتقال أو التَّسُمُّ أو حرق الممتلكات أو نحو ذلك من الجوائح².

أمَّا "الوعدة" فهي من الوعد بفعل شيء إذا حدث، وعليه فهي كالنَّذر ولكن في مصطلحات بعض الطُّرق "الوعدة" عبارة عن "زيارة" لضريح الشَّيخ والتَّضحية عنده بشاة أو بقرة أو عجل أو حتى دجاجة، و"الوعدة" أيضاً طريقة تقليدية لزيارة العائلة أو القبيلة تقوم بها شهرياً أو سنوياً في أماكن ذات تقديس واحترام، وليست بالضرَّورة في ضريح الشَّيخ، بل قد تكون منزلاً معيناً أو شجرة أو حتى مغارة³.

2/- الزَّيارات المتبادلة للأضرحة والزَّوايا بين القبائل الحدودية:

أقيمت حول الزَّوايا والأضرحة عديد الاحتفالات التي حضرتها القبائل الحدودية في مشهد يتجاوز كلَّ تحديد أقيم أثناء الفترة الاستعمارية وأوجد لنفسه مضماراً ومساراً يفرض به استمرارية تحرك القبائل الحدودية، ولكن هذه المرة بطبعة ثقافية، ولعلنا نجد من أهم الطُّقوس الاحتفالية للزَّوايا التي جمعت بين مختلف القبائل الحدودية بين البلدين زيارة زاوية الشَّيخ "أحمد التليلي"⁴ بمدينة "فريانة"، هذه الزَّاوية التي التحمت مختلف

¹ - علي الشَّابي: تاريخ الشَّابِيَّة خلال العهدين الحفصي والعثماني، المرجع السَّابق، ص 423.

² - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السَّابق، ج 4، ص 20 - 21.

³ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السَّابق، ج 4، ص 23.

⁴ - الشَّيخ أحمد التليلي: من أبرز أعلام التَّصوف الذين ظهروا بالوسط الغربي في "تونس" خلال القرن الثَّامن عشر، وهو سليل أسرة عُرفت بالزُّهد والصَّلاح والعلم والإصلاح الاجتماعي، ولد بمدينة "فريانة" سنة 1121هـ/1709م، حفظ القرآن الكريم منذ عهد مبكر وحذق علوم اللغة العربية وآدابها وارتحل بعدها للتحرييد بغية التَّعمق في العلوم والمعارف، ثمَّ قصد زاوية "سيدي عبد الحفيظ" الواقعة قرب جبل "الأوراس" بالجزائر واستمر

القبائل الحدودية في سبيل تشييد سرحها ودعمتها بما تملك لبلوغ مقصودها الذي شيدت من أجله، حيث نجدها قد تأسست على فضاء قوى قبليّة كبرى كقبيلة "الحنانسة" وكذا "التمامشة" وبالقرب من مجاهم الحيوي، فقد ساندها شيخ "الحنانسة" الشيخ إبراهيم بوعزيز" وخصّص لها منذ تأسيسها هدايا سنوية منتظمة، تمثّلت في أربعين جملاً إضافة إلى كميات هامة من الحبوب والمواشي، كما دأب أحفاده على الحفاظ على استمرارية هذه العلاقة بالزاوية وذلك بغية ضمان استمرارية نشاطاتهم التجارية مع الجهة الغربية للبلاد التونسية، ودعمته قبيلة "التمامشة" بدورها هي الأخرى، وكانت ترسل لها باستمرار سنوياً قوافل الحبوب والتّمر وقطعان الأغنام والإبل، دون أن ننسى الموقف الداعم لشيخ "زاوية بكارية" في بناء هذه الزاوية، بالإضافة إلى دعم مختلف القبائل الحدودية التونسية كـ"الفراشيش" و"الممامة" و"ماجر" والمتجسد في الدّعم المادي عبر مختلف الأعطيات العينية والعقارات من أجل الحصول على بركة الزاوية والاستفادة من مختلف خدماتها خاصة منها الاجتماعية والسياسية، لنجد أنّ السّلطة التونسية لم تتأخر بدورها هي الأخرى في دعم الزاوية مادياً وأديباً للشيخ المؤسس، وهذا من أجل كسب ولاءات المجموعات المحليّة عن طريق العائلات المرابطة¹.

ومن الطقوس الاحتفالية لهذه الزاوية التي جمعت بين مختلف العروش الحدودية التونسية كـ"ماجر" و"الفراشيش" والقبائل الجزائرية "التمامشة" و"أولاد سيدي عبيد"، الزيارة التي سنّها الشيخ أحمد التليلي "بنفسه في محاولة منه لتجميع القبائل الكبرى حول الزاوية من أجل توسيع نفوذ زاويته، ومنه فقد قصد الزوار من مختلف القبائل الحدودية وهذا بقصد التّقرب والتّبرك، وكانت هذه المناسبة تتزامن مع نهاية شهر أغسطس من كل سنة، وفيها يتم ذبح الخراف وإقامة عروض الفروسية وتلاوة القرآن الكريم، ويُعدّ هذا الطّقس الاحتفالي إلى وقتنا الحالي من أعرق المهرجانات الثقافية في "تونس" ومتنفساً أيضاً يقف فيه الزوار على تاريخ أجدادهم القديم، كما تعتبر هذه الزيارة إلى جانب أبعادها الطّقوسية فضاءً تجارياً تُعرض فيه إنتاجات القبائل، كالبقول الجافة والحبوب وبعض المنتوجات التقليدية التي تصنعها النسوة في بيوتهن من نسج للحلفاء والأقمشة²، وكانت هذه الزيارة حقلاً لعقد الصّفقات المرتبطة بحراثة الأرض، كما كانت تعقد خلالها اتفاقيات المصاهرة، ومهما يكن فالزيارة تحمل في مضمونها إلى جانب ما سبق ذكره أبعاداً نفسية وتربوية هامة، مثل: السّؤال عن الأحبة والأقارب والتّزاور فيما بين المسلمين، أمّا التّربوية فتتمثل في التّواصل، الكرم حسن الضّيافة والوفادة، وتقوم إلى جانب ذلك كلّ بتأطير العنف القبلي والتّعبير عنه بمباريات الفروسية وإطلاق البارود، حيث يتنافس فرسان

به المقام هناك مدّة سبع سنوات قضاه في طلب العلوم الصّوفية وما يتصل بها من أسرار وعلوم روحية، ولما عاد إلى مسقط رأسه قرر بناء مدرسة تكون بمثابة مركز للعلم والمعرفة. ينظر الموقع الإلكتروني: سيدي أحمد التليلي/ <http://www.mawsouaa.tn/wiki>. تاريخ الاطلاع:

2020/06/14 على الساعة 16:00. ينظر الملحق رقم (27)

¹ - الأزهر المجري: قبائل ماجر والفراشيش، ص 147-152.

² - ينظر: www.aljazerra.net تم الاطلاع عليه بتاريخ 2020/06/05 م على الساعة : 00:36

"أولاد تليل" و"الحواظ" و"أولاد عسكر" و"الهمامة" و"التمامشة"¹، كما تُقام فيها مختلف الأنشطة الثقافية والموسيقية².

بدورها زاوية "علي بن إبراهيم" بـ"حيدرة" أدت هذا الدور أيضاً حيث كانت ملتقى مختلف عروش "الحواظ" من "الفراشيش" و"الزغلمة" و"أولاد بوغنام" من عروش "ونيفة" و"قبائل" "أولاد يحيى بن طالب" و"أولاد خيار" من "الحراكتة" الجزائريين، كما شارك الجزائريون إخوانهم التونسيين في زيارة ضريح الولي "علي العزوي" الذي حضر اتفاقية الحدود المبرمة بين الإيالتين عام 1628م، وقد كان الناس على مختلف أجناسهم ورتبهم في "تونس" وحتى "الجزائر" في سعي لزيارة ضريحه أملاً في الظفر بملاقاته وتحصيل بركاته³، ناهيك عن المشاركة في حفلات الولائم التي تقام على شرف مؤسسي بعض الزوايا، خاصة عند القبائل ذات الأصل الواحد كـ"أولاد سيدي عبيد" المنتشرين على تراب الإيالتين، حيث كانوا على تردد مستمر للمزارات والأضرحة الموجودة في البلدين ويتشاركون مع بعضهم هذه الاحتفالات التي تقام في مواسم معينة من السنة، فمثلاً في فصل الصيف تقام زيارة "سيدي عبيد" بـ"الجزائر" بـ"جبل قنتيس" وزاوية "بئر العاتر"، وكان أفراد أولاد "سيدي عبيد الحمادي" المقيمين بـ"الجريد التونسي" و"مناجم الرديف" و"المتلوي" و"أم العرائس" يحضرونها، ليحضر بدورهم "أولاد عبد الملك" الموزعين بالشرق الجزائري كلَّ حريف زيارة "سيدي عبيد الحمادي" بـ"نفطة" و"سيدي عبيد الأخضر" بـ"توزر"، فيتقاسمون الأطعمة الجماعية ويرتلون القرآن الكريم ويرددون الأوراد التي كان أجدادهم يرددونها⁴.

ومما سبق عرضه تبين لنا أن أراضي القبائل لم تكن مغلقة وإنما كانت مفتوحة وممدودة لهذا الجسر التواصلي الثقافي الذي أضفى معنى جديداً في حركة القبائل الذي تجاوزت من خلاله كافة معوقات التَّحيز والتَّحديد المفروضة عليهم، وتجاوزت كل عراقيل العنف الجبول في طباع القبائل وهو الغورة والإغارة، وسمح في المقابل منه بفتح ومدّ جسر تواصل ثقافي بينهما، والذي تبرز تجلياته في التشابه ببعض المظاهر الحضارية المشتركة بين القبائل الحدودية حيث ولَّد التفاعل والتَّحرك المستمر بين القبائل الحدودية العديد من أوجه التشابه في الكثير من الممارسات الاجتماعية والثقافية والعرفية التي تبين وتؤكد لنا مدى الانسجام الكائن بينهما، والذي تبرز آثاره و تجلياته أكثر في صور هذه المحاكاة العرفية والاجتماعية والثقافية والتي قسمناها في محطات بارزة. فما هي هذه المحطات؟

رابعاً- التشابه والتشارك في بعض الممارسات الاجتماعية والثقافية والعرفية:

¹ - الأزهر الماجري: قبائل ماجر والفراشيش، المرجع السابق، ص 225-226.

² - ينظر: www.aljazerra.net تم الاطلاع عليه بتاريخ 05/06/2020م على الساعة: 00:36

³ - أحمد عبد السلام: المؤرخون التونسيون في القرون 17م و 18م و 19م، تر: أحمد عبد السلام وعبد الزّراق الحليوي، ط1، بيت الحكمة، تونس، 1993م، ص 57.

⁴ - الأزهر الماجري: قبائل ماجر والفراشيش، المرجع السابق، ص 29.

1- / التَّشابهُ في الملبس:

في هذا النموذج قبل التَّطرق لأوجه التَّشابه، نورد نصين، الأوَّل منهما: لـ"مُحمَّد بريم الخامس" والذي تحدث فيه عن خصائص لباس البدو في "تونس"؛ والثَّاني لـ"إبراهيم العوامر" الذي يتعرَّض فيه للباس عيَّنة من القبائل البدويَّة الصَّحراويَّة وهو مجتمع "وادي سوف" الذي حاولنا إيرادَه كعيَّنة عن المجتمع القبلي الحدودي الجزائري، كما أوردنا نماذج عن قبائل حدوديَّة تونسيَّة والمتمثلة في قبيلتي "الفراشيش" و"ماجر".

يقول "مُحمَّد بريم الخامس" في وصفه لنموذج لبس القبائل البدويَّة التُّونسيَّة: «..وأما نسوة الأعراب فهنَّ مثل ذلك أيضاً، سوى "الجبَّة" فبدلاً منها يلبسون "رداءً" واسعاً تمسكه المرأة بمسالك كبار من فضة أو ذهب أو نحاس حذو كتفيتها مما يلي الصَّدر، وتمنطق عليه بحزام يكون ساتراً حتى القدمين مع الاتساع، غير أنَّهن لا يلبسن السَّراويل، أمَّا البوادي فلباسهم "قميص" و"رداء" من الصُّوف يسمي بـ"الحرام" و"برنس" من الصُّوف، غير أنَّه يلبس لبسا بأنَّ يدخل الرَّجل رأسه في الطُّربوشة وتارة يقيها على رأسه وتارة يلقها إلى ورائه على كتفيه وهما من مصنوعاتهم وعلى رؤوسهم "شواش" و"عمائم" من خيوط وبر الإبل أو صوف الغنم الأسود أو الأحمر، وفي أرجلهم بلغة»¹.

أمَّا فيما يتعلق بلباس "أهل سوف" فقد أوردَه الشَّيخ "إبراهيم العوامر" قائلاً: «.. ثم تعلموا الغزل والنَّسج فصار الرَّجل يلبس "لحفة" و"قندورة" صوف والمرأة تلبس "حوليا" و"بخنوق"² مصبوغين بالحمرة أو الصُّفرة أو السَّواد وهو الغالب ثمَّ اتخذوا أحذية من جلود الإبل مربوطة بأسيار منه، ثمَّ تفرَّعوا فصارت أسيارهم من جلد الفيلاي الأصفَر أو الأحمر، ثمَّ اتخذوا حرقاً من صوف وخاطوها بالشَّعر أو الوبر أو الصُّوف ويأتون بالكتان المالطي من القطر التُّونسي فيلبس الرَّجل منه ثوباً واحداً يسمي "السُّورية" ويقال له "قمجَّة" ويقال له "بلوزة" وهي "الرقبا" و"الرداء" و"القميص" و"الشَّعار"، والمرأة تلبس ثوبا واحداً يسمي "الملحفة" وهي "الملاءة" و"الرَّيطة"، ثمَّ زاد بعض الرَّجال ثوبا آخر فوق الأوَّل يسمي "قندورة" أو "قدوارة" وهي "الإزرَّة" و"الدَّثار" و"الجبَّة"، وزادت بعض النِّساء ثوباً آخر تحت الأوَّل يسمي "قدوارة"، ثمَّ كثرت الملابس واختلَّفت أنواعها وألوانها أو كيفياتها... الخ»³.

¹ - مُحمَّد بريم الخامس: صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تح: علي بن الطَّاهر الشُّنوفي، ج4، ط2، بيت الحكمة، تونس، 1989م، ص719-720.

² - البخنوق: هو غطاء من الصُّوف الأسود يشبه "البرنوس"، ويمتدُّ إلى أسفل القدمين ويلبس عادة في فصل الشَّتاء، وله ألواناً فاتحة متعدِّدة وتزخرفه أشكالاً هندسيَّة، مثلثات متساوية الأضلاع، وُضِعَّ في جوانبه بعض الدَّوائر النجميَّة. ينظر: علي غنابزيَّة: مجتمع وادي سوف من الاحتلال الفرنسي إلى بداية الثَّورة التَّحريريَّة 1300-1374هـ/1882-1954م، ط1، دار هومو للطباعة والنَّشر والتَّوزيع، الجزائر، 2017م، ص489.

³ - إبراهيم العوامر: المصدر السَّابق، و38.

وما يُستنتج من الفقرتين السَّابقتين أنَّ هناك تشابه كبير في اللباس بين قبائل البلدين، وإن كان هناك اختلاف طفيف من حيث اللون والتَّسميات في بعض الألبسة، أمَّا من حيث الشَّكل وكذلك مادة الصُّنع فهو متشابه إلى حد كبير وكبير جداً وأوجه التَّشابه تتمثل في:

1-1 - لباس الرِّجال:

1 - 1 - 1 - القميص ورداء من الصُّوف: ويرتديه بدو "تونس" وهو نفسه لباس سكان "الوادي" والذي يتكون من: القميص¹ الذي هو عبارة عن لباس داخلي يصنع من القماش ويكون طويل الأيدي وواسعاً وبدون أزرار، ورداء من الصُّوف الذي يسمى عند "أهل سوف" بـ"القدوارة"، وهي نوعين: التَّوع الأوَّل منه: ما كان قُماشه قطني ويستعمل هذا التَّوع في فصل الصَّيف لبرودته؛ والتَّوع الثَّاني: ما كان مادة صنعه من الصُّوف ويستعمل في فصل الشِّتاء لثباته ودفئه، وتعتبر المظهر الخارجي للرجل².

1 - 1 - 2 - البرنوس والقشايَّة: عندما تحدث "بيرم الخامس" عن لباس أهل البوادي ذكر بأنَّهم يلبسون "البرنس" حيث قال: «.. و"برنس" من الصُّوف غير أنَّه يُلبس لبساً بأنَّ يدخل الرِّجل رأسه في "الطُّربوشة"، وتارة يقيها على رأسه وتارة يلقبها إلى ورائه على كتفيه»³؛ فمن خلال وصفه هذا يتضح بأنَّه يقصد "القشايَّة" لأنَّ "البرنس" لا يخاط، وذكر أنَّ لباس المجموعات البدويَّة كان من منتجاتهم المحليَّة، والحال ذاته ينطبق على قبائل الحدود الجزائريَّة، حيث كانت تلبس هذا التَّوع من اللباس ونعني "القشايَّة" التي لاتزال إلى اليوم تُرتدى من طرف جلِّ سكان "الجزائر" للخصائص المميَّزة التي يحويها هذا التَّوع من اللباس إذ أنَّه يُوفِّر الدَّفء ويقي الجسم من جلِّ لفحات البرد القارص.

1 - 1 - 3 - الشَّواشي والعمائم: تصنع في "تونس" من خيوط أو وبر الإبل أو صوف الغنم الأسود أو الأحمر، بالإضافة إلى نوع من "اللحاف" الذي يوضع فوق "الشَّاشيَّة" ويُعرف بـ"الزَّماله" أو "اللحفة"⁴، و"أهل سوف" أيضاً يرتدون "العمامة" أو "الشَّاش" لحماية الرِّأس من أشعة الشَّمس الحارقة، ويمتاز "الشَّاش" عندهم بطوله فقد يصل طول الواحد فيهم إلى عدَّة أمتار،

¹ - يسمى أيضاً: "بلوزة" و"الرَّقبا" و"السُّوريَّة" و"القمحَّة" و"الرِّداء" و"الشُّعار". ينظر: إبراهيم العوامر: المصدر نفسه، و 38.

² - علي غناينية: مجتمع وادي سوف، المرجع السَّابق، ص 488.

³ - محمَّد بيرم الخامس: المصدر السَّابق، ص 719.

⁴ - الأزهر الماجري: قبائل ماجر والفراشيش، المرجع السَّابق، ص 98.

وتلبس زيادة على "الشَّاش" "القلنسوة" التي تعرف باسم "العراقية"¹، وهذه الأغطية مهمّة جداً في المجتمع السُّوفي لارتباطها أو بالأحرى لدلالاتها على الرُّجولة والحياة والمروءة².

1 - 1 - 4- النعال: تنتشر بين قبائل "ماجر" و"الفراشيش"، و"النعال" ذات المفرش الجلدي تدعى عندهم بـ"القرق" الذي ينسج من صوف الغنم وشعر الماعز، أمّا "الطَّرِباقة" فتصنع كلّها من جلد البقر وتكون في شكل سيور أو خيوط تربط على الرِّجل، بالإضافة إلى "العفاس" الذي هو عبارة عن حذاء يُلبس من الحلفاء ويلبسه الفقراء خاصة³، أمّا "أهل الوادي" فكانوا يرتدون بدورهم "نعال" مصنوعة من جلود الإبل مربوطة بأسيار من الجلد، ثمّ تطورت الأسيار وأصبحت تصنع من جلد الفيلاي الأصفّر أو الأحمر⁴، كما ارتدوا أيضاً "نعالا" من شعر الماعز وتدعى بـ"العفان" وهو مقاوم لكلّ شيء ماعدا الرُّطوبة، ويمتاز هذا الحذاء بخصائص عدّة منها: الخفّة والدّفء وسهولة التّحرك والسّير به فوق الرّمال الرّخوة، ويغلب ارتداؤه في فصل الشّتاء⁵.

2-1 - لباس النّساء:

امتازت نسوة القبائل الحدودية في كلا البلدين بلبس "الحولي" الذي هو عبارة عن رداءٍ واسع تمسكه المرأة بمسالك كبار من فضة أو ذهب أو نحاس حذو كتفها مما يلي الصّدر، وتمتنطق عليه بحزام يكون ساتراً حتى القدمين مع الاتساع، غير أنّهن لا يلبسن السّروايل⁶، وكانت نسوة "سوف" يرتدين هذا اللون من اللباس حيث يذكر "العوامر" في شأن وصفه للباس نساء "سوف" قوله: «والمرأة تلبس "حوليا" و"بخنوق" مصبوغين بالحمرة أو الصّفرة أو السّواد وهو الغالب» ويعلّق الدُّكتور "علي غنابزية" عن محاسن هذا اللون من اللباس النّسوي فيقول: «...إنّه يترك الحرية في الحركة ويكون مفتوح الجهتين وتوضع أجنحته على اليدين ويزين باللون الوردى والأخضر والأصفر، وكان اللون الغالب على "الحولي" في "الوداي" الأسود»⁷، أمّا التّونسيات فكان الغالب عليه هو اللون الأزرق⁸.

1 - العراقية: مأخوذ من مفردة "العرق"، وسمّيت بالعراقية، لأنّها تحوز العرق الذي يخرج من الرّأس ولا تتركه ينعكس على "الشّاشية" أو "العمامة" فتحميها وتبقى نقية ورائحتها زكية. مقابلة مع: أحمد خراز: أجريت من قبل الأستاذ محمد حناي بمنزل أحمد خراز بحي المصاعبة، بتاريخ: يوم الثلاثاء 15 ماي 2007م.

2 - علي غنابزية: المرجع السابق، ص 488.

3 - الأزهر الماجري: قبائل ماجر والفراشيش، المرجع السابق، ص 98

4 - إبراهيم العوامر: المصدر السابق، و 38.

5 - علي غنابزية: المرجع السابق، ص 488.

6 - محمّد بيزم الخامس: المصدر السابق، ص 721.

7 - علي غنابزية: المرجع السابق، ص 487 - 489.

8 - حسن محمّد جوهر: تونس (شعوب العالم. 5)، ط 1، دار المعارف، القاهرة، 1961م، ص 86.

وعموماً كانت النَّسوةُ يسبقن لبس "الحوالي" بـ"ملحفة" والتي هي عبارة عن فستان واسع يصل إلى الكعبين ويحاك من أنسجة حريريَّة أو صوفيَّة، أمَّا حُلِيِّهم فكان الغالب عليها الحلبي الفضيَّة¹ لارتباطها بالمستوى المعيشي لهذه المجموعات القبليَّة.

2-/- التَّشابه في بعض أصناف الأكل:

هناك العديد من الأصناف الغذائيَّة التي كانت تطهى لدى متساكني الحدود ومن أهم الأصناف التي سجلناها نجد:

2-1 -الكسكس: وهو ما يُرطب من دقيق القمح أو الشعير وغيرها بنحو السَّمن ويفتل بشكل كروي، ثم يطهى من خلال تعريضه لبخار الماء مرتين، وأجوده المأخوذ من خالص دقيق الحنطة المجفف²، و كان يخلط بمرق الخضار المحليَّة إضافة إلى اللحوم عند توفرها بحوزتهم، وإن كان اللحم لا يتناوله إلى الأغنياء يوم الجمعة أو عند وجود الضَّيف أو في مناسبا الزَّواج، أين تذبح في هذه المناسبة الأغنام، أمَّا الفقراء فلا يعرفونه إلا في الأعياد الدينيَّة وبعض المواسم³، كموسم الحرث والحصاد وعند جَرِّ الأغنام وعند الزَّرد (الوعدات أو الزَّيارات) خصوصاً⁴، وعُدَّ هذا اللون الغذائي بالنسبة لسكان "سوف" الغذاء الأساسي في الليل⁵، أي وجبه العشاء و لمدة زمنية طويلة ليست ببعيدة عن وقتنا الحاضر، ولا ربما لا تزال في بعض الجهات في "الوادي" في تلك البيوت التي مازال بها شيوخ وعجائز لا يتناولون إلا "الكسكس" كوجبة عشاء والذي يتربع المائدة بعد أذان المغرب من كل يوم.

2-2 -البركوكش: وهو نوع من "الكسكسي" ذو حبَّات كبيرة الحجم يختلف في طهيه عن الأوَّل أنَّه يُطهى بالبخار مرة واحدة ثم يضاف إلى المرق ليكتمل طبخه فيه، فيكون شهياً وشبيهاً بـ"الدَّشيشة" على حد قول الشَّيخ "إبراهيم العوامر"⁶.

2-3 -الدَّشيشة أو التَّشيشة: وهي قمع أو شعير يطحن بالرَّحى حتى تصير الحبَّة إلى ثلاثة أو أربعة أجزاء، ثم تطبخ بإضافة بعض الخضر إلى أن تصبح جارية أو مائة⁷.

¹ - علي غنايزية: المرجع السَّابق، ص 490.

² - إبراهيم العوامر: المصدر السَّابق، و 37.

³ - علي غنايزية: المرجع السَّابق، ص 485.

⁴ - الأزهر الماجري : قبائل ماجر والفراشيش، المرجع السَّابق، ص 95.

⁵ - علي غنايزية: المرجع السَّابق، ص 485.

⁶ - إبراهيم العوامر: المصدر السَّابق، و 37.

⁷ - علي غنايزية: المرجع السَّابق ، ص 484.

2-4 - البودشيش أو البوتشيش: وهو الشعير المطحون، بحيث تكون الحبة على جزئين في الغالب، ويبل بالماء ومراق الماء ثم يعطى الفوار مرتين ثم يُرطَّب بزيت أو نحوه...¹.

2-5 - الرُميتة: تتكون من القمح المحمص على مقلاة حديدية، والذي يُطحن ثم يسقى بالزيت، ويحفظ في أوعية جلدية ضمن إستراتيجية الأمن الغذائي، وتعتبر "الرُميتة" زاد الرُّحل والرعاة والمسافرين، لذلك تعرف أيضاً بـ"العوين" عند قبائل "ماجر" و"الفراشيش"².

3- التَّشابه في الألعاب والتَّسليية: من الأنشطة التَّرفيهيَّة التي كان متساكني الحدود على ممارسة لها ومازالت ممارستها إلى اليوم منتشرة في مجتمعنا السُّوفي نجد لعبة "الخريقة" التي تعتبر نوعاً من النشاط التَّرفيهي أو الرِّياضة الفكرية يختصُّ بها الكهول والشُّيوخ لاعتمادها على الفكر، لذلك فهي لا تستهوي الشُّبان، وتتم هذه اللعبة بوضع 24 بعرة جمل و24 حجرة بيضاء (الكلاب) في 49 حفرة صغيرة، تنجز على وجه الأرض بالرَّمال في شكل مربع به 50 سنتمتر وعلى 50 سنتمتر³، وتبقى الحفيرة الوسطى فارغة وتكون نقطة انطلاق اللعبة وكل كلب يحاصر بكلبين من المجموعة المنافسة يموت ويخرج من الرُّقعة، ويتواصل اللعب إلى أن تفرغ كل الرُّقعة ويكون الانتصار لأحد المتبارين، وقد أوَّل "الماجري" هذه اللعبة إلى تأويلات مرتبطة بالواقع المعيشي للمجموعات القبليَّة وصنفها في ثلاث معالم أساسية هي:

- ✓ رمزية لعبة الخريقة وتنظيم العناصر المتبارية داخلها "الكلاب" وأجواء التَّوتر التي تحدثها بين المتبارين من جهة والمجموعات المتحلِّقة حول الرُّقعة من جهة ثانية، يرمز ويترجم لنوع من أنواع الصِّراع الاجتماعي الحاد، وهو صراع غير بعيد عن حالات "الإغارة" و"الغزو" التي تعيشها المجموعات القبليَّة في حياتها اليوميَّة.
- ✓ تحدث حالات الموت التي يتعرض لها عناصر اللعبة وهم الكلاب الذين يرمزون إلى الجنود أو فرسان القبيلة كلما وجد عنصر منفرد ومحاصر بكلبين من الطَّرف المقابل، مما يعني أنَّ قوة المجموعة وبقاؤها على قيد الحياة يكمن في تكتُّلها ووحدتها، أمَّا تفرُّقها وتشتُّتها فيؤدي بطبيعة الحال والمآل إلى هلاكها واندثارها.
- ✓ ترمز "دار الوسط" إلى المجالات الطَّرفيَّة للقبائل "أطراف القبائل" أو مجالات الالتقاء أو الفضاء المحايد، وهذا الأخير يعتبر سبب الصِّراع وبداية انطلاقه⁴.

¹ - ابراهيم العوامر: المصدر السَّابق، و37

² - الأزهر الماجري: قبائل ماجر والفراشيش، المرجع السَّابق، ص95.

³ - هناك من يقول: أنَّ رقعة هذه اللعبة على الأرض 20 سنتمتر على 20 سنتمتر، وبحسب المشاهدة العينيَّة هذا غير منطقي، فالمساحة يجب أن تكون أكبر. ينظر: علي غنازية: المرجع السَّابق، ص577.

⁴ - الأزهر الماجري: قبائل ماجر والفراشيش، المرجع السَّابق، ص111-112.

4/- التَّشابه في بعض الطُّقوس الاحتفاليَّة المتعلِّقة بالزَّواج:

امتدت صور التَّشابه في بعض الممارسات الاجتماعيَّة إلى غاية التَّشابه في مراحل الزَّواج والطقوس المرافقة له، فنجد على سبيل المثال فيما يتعلَّق بأعراف وتقاليد الزَّواج، أنَّ الابن إذا قصد الزَّواج يبعث من ينوبه من أهله في عروس المستقبل، أو تقوم بعض النسوة المتخصِّصات في هذا المجال بذلك، بعد أن يُعدَّد الصِّفات الحسان التي يريدونها في عروسه، فإذا رضي العريس وأهله، ورضت العروس وأهلها، بعدها تقام حفلة صغيرة تقدم فيها الهدايا للعروس من حلي وزينة وفواكه وحلويات،... ثم يأتي عقد القران ويتمُّ في الغالب في أحد المساجد، وحتى زمن كتابة العقد لا يكون العريس قد رأى عروسه إلا إذا كانت جارة بالجنب أو كانت ابنة أحد أقاربه قد رآها صغيرة¹.

نفس الشَّيء ينطبق عن حفلة العرس التي يحضرها أهل وأحباب وأقارب وجيران العريس، فتضرب الطُّبول وتقرع الدُّفوف ويدوي فيها البارود كذلك، في وسط بهيج من الفرحة إلى غاية زفاف العروس إلى بيت زوجها².

وفي ليلة الدُّخلة يتشارك المجتمع القبلي الحدودي في كلا البلدين في ظاهرة "السُّوريَّة" الملوثة بدم العذريَّة، و تعتبر هذه من العادات التي كانت ممارسة في أعراف القبائل، وفيها يخرج العريس ببلوزة زوجته التي بها دمُّ العذريَّة ويأخذ يلوح ويرقص بها رفقة أفراد أسرته وأسرة العروس تعبيرا منهم عن الابتهاج والفرح لسلامة شرف العروس ومن ورائها شرف كامل العرش، وقد كانت هذه الظَّاهرة منتشرة ربما حتى ستينات القرن العشرين في المجتمع السُّوفي لكنها اندثرت اليوم³.

والتَّشابه يسجل في تعظيمهم للشعائر الدِّينيَّة كالحياء مثلاً، وهو بعدم جلوس الابن أمام والده إلا بإذنه ولا يتناول التَّبغ ولا يدخن به أمام والديه، ولا يلفظ أمامهما أي لغو أو سبٍّ وشتم، بل لا يخاطب زوجته أمامهما، وإذا كان للابن المتزوج ولد صغير فإنَّه يتجنب حمله أمامهما وغيرهما من الأخلاق والعادات⁴، التي تكون فيها هذه المغزى من هذه الممارسات أو التَّصرفات استلطافاً منهم لمشاعر الوالدين، خاصة بعد زواج ابنهما الأكبر، أين ترقُّ مشاعرهما بعض الشَّيء ويصبحان يتحسسان لبعض التَّصرفات العاديَّة والطَّبَّعيَّة، ومنه فمن باب الأدب آنذاك كان أن لا ينادي الزَّوج زوجته باسمها أمام والديه ولا يحمل ولا يداعب أبناءه أمامهما، أمَّا اليوم فلا حياة لمن تنادي فقلما نجد من يولي هذه المشاعر المرهفة للوالدين أهمية،... الخ.

1- حسن مُحمَّد جوهر: المرجع السَّابق، ص 85.

2- بن سالم بن الطَّيِّب بلهادف: سوف تاريخ وثقافة، المرجع السَّابق، ص 138-139.

3- بن سالم بن الطَّيِّب بلهادف: سوف تاريخ وثقافة، المرجع السَّابق، ص 138-139.

4- مُحمَّد بيرم الخامس: المصدر السَّابق، ص 685-686.

ومن العادات الاجتماعية فضلا عن طقوس الزواج التي كانت منتشرة بين قبائل البلدين نجد قرار المرأة عندهم في بيتها وعدم خروجها إلا في أوقات الضرورة الملحة ويكون خروجها عند الغروب غالباً¹.
دون أن نغفل التعرّيج عن التشابه الكبير والبالغ في لهجة سكان الحدود، حتى أن السامع لا يكاد يميّز بينهما إلا في بعض المصطلحات الطفيفة التي يشتهر سكان كل جهة عن الأخرى بها، وفيما عدا ذلك فالتشابه موجود وبدرجة كبيرة، وهو من انعكاسات الاحتكاك المستمر الذي أثمر في تسهيل آليات التواصل بين سكان الحدود وأزاح كل عقبات التواصل التي من شأنها أن تنشأ بفعل الاختلاف في اللهجات.

¹ - أحمد بن الطاهر منصوري: المرجع السابق، ص 89.

خاتمة

بعد هذه الدراسة التاريخية حول حركة القبائل الجزائرية التونسية على المنطقة الحدودية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ميلادي، توصلنا لجملة من الاستنتاجات نسوقها كالتالي:

- لقد كان التحرك والتنقل بين القبائل سمة بارزة في حياة القبائل ككل بما فيها القبائل الحدودية التونسية والجزائرية، فالتحرك بالنسبة إليها كان بمثابة العصب الذي ينبض في جسدها ويمدّها بالدماء، إنّه دليل حياة وأيُّ محاولة لبرته هو محاولة في نفس الوقت للقضاء على وجودها، فممارساتها المتعددة فرضت عليها التنقل والتحرك بحثاً عن الكأ والتشارك في بذر وحصاد الزرع وتبادل المنتوجات والسلع .

- إدراك السُلطة العثمانية لقيمة التحرك وارتباطه بحياة القبائل، جعلها تعتبر أنّ الخوض فيه يعني فتح جبهة معادية ضدها هي لا تقوى على مجابقتها فاكتفت بإعلان القبائل ولائها لها ودفع ما عليها من مستلزمات ضريبة اتجاهها، أمّا المحتل الفرنسي فقد أدرك بذكائه مدى أهمية هذا العنصر البشري وأدرك مكامن القوة والضعف فيه، فضربه في صميم وجوده وقام بترسيم الحدود بينهما، كما عمل على بثّ بذور الفتنة والفرقة بينهم ليفسح له المجال لإنجاز مشاريعه التوسعية على حساب مجالات وأراضي هؤلاء.

- ان المستعمر الفرنسي بقيامه بحصر حركة القبائل والأشخاص عن طريق فرض قانون المراقبة وفرض رخص التنقل قد أسهم في إذابة الانتماءات الموجودة سابقا بين قبائل الحدود وخلق لهم شعورا بالانتماء لمجالات متغايرة غير مألوفة لديهم سابقا، الشيء الذي تسبب في خلخلت التوازنات القائمة سابق عبر تغيير مفهوم الحدود التي كانت على أساس مبدأ التواصل إلى الحدود القائمة على مبدأ الحاجز أو التجاور.

- تبين لنا من خلال البحث في الموضوع أهمية المنطقة الحدودية إبان الفترة الاستعمارية فهي منطقة عبور السلاح وملجأ المقاومين، كما تمتعت القبائل الحدودية بالمكانة والحظوة التي اكتسبتها عن طريق طابعها الاستقلالي ونفوذها السياسي وإمكاناتها القتالية، مما جعلها تؤدي دور هام في التأثير على مجريات العلاقات السياسية بين البلدين.

- لم تنجح السياسة الاحترازية للباي التونسي في درأ الخطر عن القطر التونسي، ففرنسا كانت لها نوايا منذ البداية بالتوسع في الثراب التونسي لكنّها كانت تتحين فقط الوقت المناسب لإثبات شرعية مساعيها التوسعية في القطر التونسي.

- لقد كان للنشاط الإغاري بين القبائل الحدودية تداعياته وأبعدها، كما كانت له ميادينه، وإنّه كان ضعيف الصورة خلال الفترة العثمانية، لكنّه تعزّز أكثر إبان الفترة الاستعمارية وذلك راجع لأمرين، أولهما: دور المحتل في تعميق فجوة الخلاف بين القبائل عن طريق ترسيم الحدود، مما أدى لقيام منازعات حول المجالات المدعي بأحققتها من كل طرف، وما أعقب هذه الإجراءات من تبعات أثرت على وضعية القبائل الاقتصادية والاجتماعية، مما جعلهما تلجئ للإغارة لتعويض النقص المادي وسدّ الحاجة. الأمر الثاني: اهتمام الفرنسيين بالتدوين والذي يبرز في كثافة

- المراسلات الفرنسية للسلطات التونسية في شأن تجاوزات القبائل التونسية، مما سمح بتكوين فكرة عن ضخامة هذه الممارسات خلال الحقبة الاستعمارية.
- إن الإغارة لم تكن أبداً تعبيراً صارخاً عن حالات العنف والفرقة والخلاف، بقدر ما كانت سجيّة في طباع القبائل عموماً مجبلة عليها وارتبطت بنشاطاتها المتعدّدة وأصبح أمراً معتاداً عليه في حياتها.
- جاءت السياسة الاستعمارية بما يخدم الطرف المحتل، ولم يراع في إجراءاته هذه أيّ خصوصيات للقبائل، الشيء الذي جعلها تعاني الأمرين جراء هذا التّحديد الذي أضّر بمصالحها وأهلها تماماً، مما يؤكّد مرامي المحتل من هذه الإجراءات الهادفة لإضعاف هذه القبائل واجبرها على الخضوع والاستكانة له.
- ساهمت السياسة الاستعمارية التعسّفية في حق القبائل الحدودية في نشوب أزمات اقتصادية واجتماعية حادة أتت على الشجر والبشر، ولم ينج منها إلا القلّة التي اختارت الهجرة كحل بديل للخروج من هذه الأزمات التي تتخبط فيها.
- تعدّدت دوافع الهجرة وتباينت أنماطها ما بين الهجرات الجماعية والفردية، لكنها مع ذلك كرّست مدى التّعاضد القائم بين مُتقاضي الحدود.
- إخضاع جميع أنماط وألوان التبادل والتواصل بين القبائل الحدودية أي كان نوعه سياسي، اقتصادي، اجتماعي وثقافي حضاري للمراقبة، قد أدخل متساكني الحدود في دائرة تعسفية لم يكن السبيل للخروج منها إلا عن طريق توحيد الجهود لمقاومة هذا المستعمر.
- كان للطرق الصوفيّة دوراً هاماً في مد جسور التّواصل الثّقافي بين القبائل الحدودية، كما كان له دور هام في امتصاص حالات العنف المتولدة بين القبائل الحدودية، التي تبادلت الزيارات للأضرحة والأولياء، فشكّلت بذلك قبور الأولياء أحد بواعث التّحرك القبلي في وجهته الثّقافية.
- لقد احتوت الزّوايا المقاومين وأمدتهم بما يحتاجونه من مؤونة وعتاد ومقاتلين، كدور الزّاوية الرّحمانية بـ"نفطة" التي لجأ إليها المقاومين "ناصر بن شهرة" والأمير "محيي الدين بن الأمير عبد القادر"، كما كانت الزّوايا الملاذ لكلّ الفارين، وملقى المهاجرين واللاجئين، ووظفت واستثمرت الزّوايا أيضاً من قبل السّلطة للتخلص من المعادين لها بمثل ما حدث مع المقاوم "علي بن غذاهم".
- التّمازج كان على أشده بين القبائل الحدودية والذي اصطبغ بسمات عديدة، كان من بينها التّشابه في مجموعة من الممارسات الاجتماعية والأنشطة الثّقافية والتّرفيحية، التي بينت بحق مدى الانسجام والتّرابط الكائن بين المجموعات الحدودية، والذي تحدّث فيه كافة أنماط التّحديد التي أرادت الفصل بين هذين الكيانين، ليتترجم التّواصل والتّرابط في صور عديدة أثبتت مدى عمق العلاقات الاجتماعية التي تعززت بعوامل عديدة كان من أبرزها رابطة الدّم.

ملا ح ق

قائمة الملاحق

- الملحق رقم (01): خارطة توضح تموضع القبائل الحدودية بين البلدين.
- الملحق رقم (02): مراسلة بين مصطفى بين مصطفى باشا شقيق حسين باي تونس في رده عن مكتوب الحاج أحمد باي قسنطينة له في شأن تجاوز قبيلة ورغة التونسية الحدود بين البلدين.
- الملحق رقم (03): رسالة راندون حاكم عنابة إلى محمد كاهية الكاف في شأن تعاون القبائل الحدودية ضد السلطة الفرنسية.
- الملحق رقم (04): رسم الحدود بين الجزائر وإيالة تونس عام 1845.
- الملحق رقم (05): مراكز و أبراج عسكرية على الشريط الحدودي بين الجزائر وتونس.
- الملحق رقم (06): تنافس السلطتين التونسية والسلطة الاستعمارية الفرنسية لضم مجال نهد لنفوذهما عام 1845م
- الملحق رقم (07): الأساليب المعتمدة في الاستدلال بتبعية بعض المناطق لأحد السلطتين
- الملحق رقم (08): المحاولات الفرنسية للإستيلاء على الأراضي التونسية
- الملحق رقم (09): القنصل الفرنسي يطلب من السلطة التونسية ضرورة أخذ التدابير والوسائل الضرورية لحفظ الأمن على الحدود
- الملحق رقم (10): الأمير محي الدين بن الأمير عبد القادر يوجه مكاتيب لقبائل الحدود الجزائرية ويعددهم بالقدوم رفقة ابن شهرة
- الملحق رقم (11): صراع القبائل الحدودية على المراعي
- الملحق رقم (12): نزول النمامشة للأراضي التونسية تتبعاً للمراعي التي بالجمال التونسي
- الملحق رقم (13): رسالة الكماندة فيفانص للسلطات التونسية يحمل فيها عرش وشتاتة تبعات حرائق مزارع سوق أهراس.
- الملحق رقم (14): استئذان الهمايسة من السلطة التونسية للسماح لهم بالرحيل من أراضيهم بعد نزول أولاد مومن (رعايا جزائريين) بأراضيهم.
- الملحق رقم (15): الطرق التجارية الرابطة بين الشرق الجزائري وتونس.
- الملحق رقم (16): رسالة القنصل الفرنسي للوزير الأكبر مصطفى خزندار يشتكي فيها تعديات القبائل الحدودية التونسية على القبائل الحدودية الجزائرية.
- الملحق رقم (17): نماذج من مواضيع المنهوبات في الإغارات الواقعة بين القبائل الحدودية.
- الملحق رقم (18): رسالة من الكماندة فيفانص Vivans حاكم عنابة وسوق أهراس إلى حسونة بن سليمان قايد الفوايد وشقمطة توضح اعتداء وشتاتة على العروش الحدودية الجزائرية.
- الملحق رقم (19): أولاد سديرة يؤدون ما عليهم من مطالب لأحد العروش الجزائرية الحدودية المتضررة من غاراتهم.

الملحق رقم (20): بيان ما على وشتاتة من مطالب لأحد العروش الحدودية الجزائرية المتضررة من إغارتها عليهم.

الملحق رقم (21): جريدة مطالب العروش الجزائرية الحدودية التي على عروش التونسية المجاورين لهم.

الملحق رقم (22): نخب عروش جزائرية حدودية لقبائل حدودية تونسية

الملحق رقم (23): إحدى عشرة غارة لعرب تبسة على عرش الهمامة عام 1276هـ (1859-1860م).

الملحق رقم (24) : من صور مساندة القبائل الحدودية التونسية للقبائل الحدودية الجزائرية .

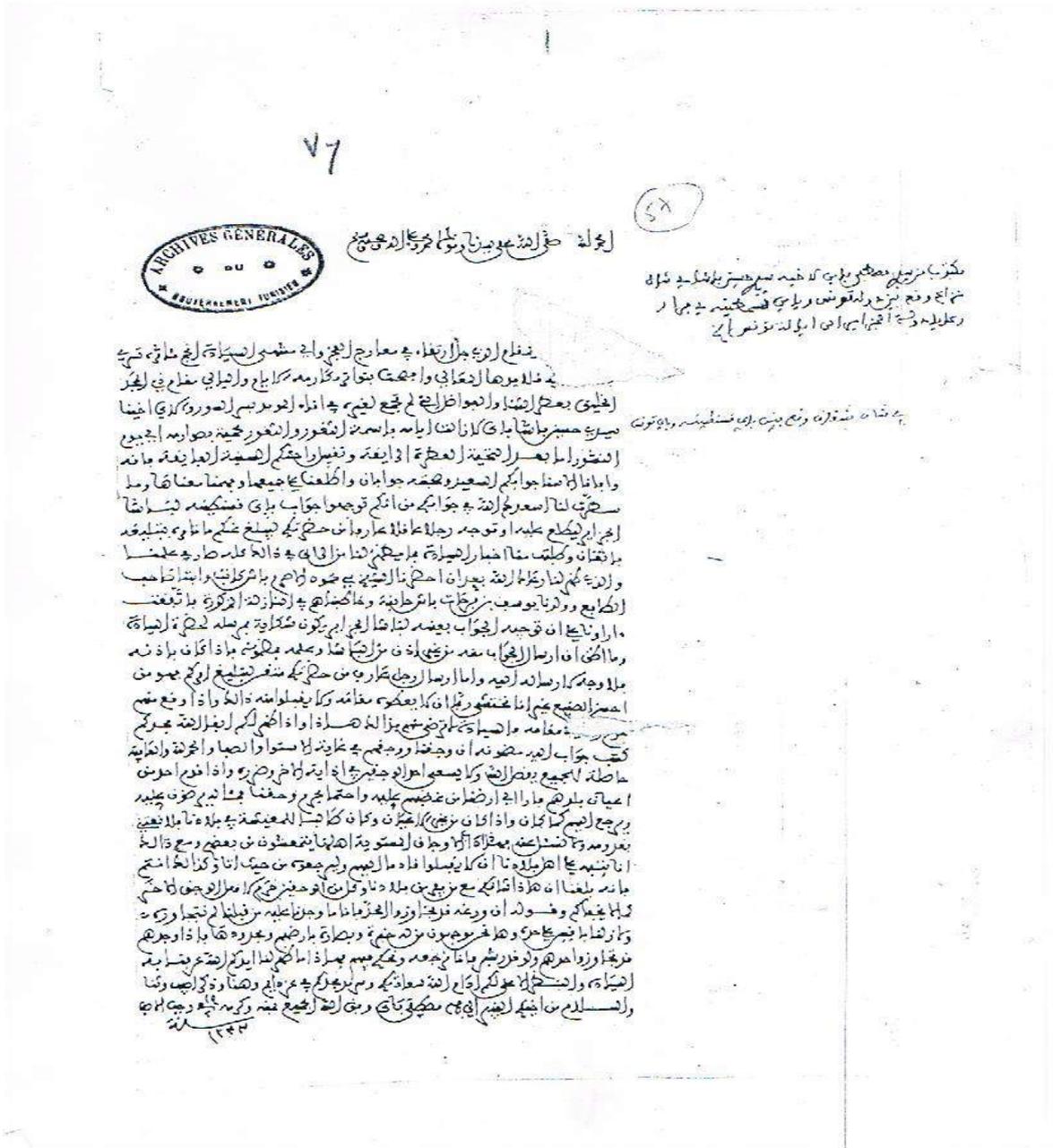
الملحق رقم (25): هجرة جماعية لثلاثة وستون نفر من المسيلة إلى تونس في الفترة الممتدة بين

1860/1859.

الملحق رقم (26): هجرة قبائل تونسية للجزائر مع بيان سبب هجرتها.

الملحق رقم (27): شجرة نسب الشيخ أحمد التليلي .

الملحق رقم 02 : مراسلة بين مصطفى بين مصطفى باشا شقيق حسين باي تونس في رده عن مكتوب الحاج أحمد باي قسنطينة له في شأن تجاوز قبيلة ورغة التونسية الحدود بين البلدين¹.



¹ - الأرشيف الوطني التونسي : الصندوق 223الملف 384 الوثيقة رقم 57.(72)

الملحق رقم 02 : مراسلة بين مصطفى باشا شقيق حسين باي تونس في رده عن مكتوب الحاج أحمد باي قسنطينة له في شأن تجاوز قبيلة ورغة التونسية الحدود بين البلدين¹.

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المقام الذي جل ارتقاه في معارج الفخر وإلى منتهى السيادة لنجم مآثره تسري المعالي وأفصحت بتواتر مكارمه الأيام والليالي مقام ذي المجد الخليق بعطر الثناء و الفواضل التي لم تجمع لغيره في... المديد بسر الله ورده لاي أحنينا سيدي حسين باشا باي لازالت أيامه باسمه الثغور محمية بصوماره إلى يوم الدين والنشور أما بعد التحية العطرة الى يقة وتقبييل راحتكم السنوية الفاتحة بأنه وافانا الأسنا جوابكم السعيد وصحبته جوابان وأطلعنا على جميعها وفهمنا معناها وما سطرنا لنا أسعدكم الله في جوابكم أنكم توجهوا جواب باي قسنطينة لباشا الجزائر ليلطع عليه أو توجه رجلا عاقلا عارفا من حضرتكم ليلبغ عنكم ما تأمره بتبليغه بإتقان وطلبت من إخبار السيادة بما ظهر لنا من الرأي في ذلك كله صار في علمنا والذي ظهر لنا رعاك الله بعد أن حضرنا الشيخ سي محمود الأصرم باش كاتب وبننا صاحب الطابع وولدتنا يوسف بن فرحات باش حانية وخاطبناهم في النازلة المذكورة فاتفقت أراؤنا على أن توجيه لجواب بعينه لباشا الجزائر يكون شكاية بمرسله لحضرة السيادة وما أظن أن إرسال لجواب من غير إذن من الباشا وعلمه بمضمونه فإذا كان بإذنه فلا وجه لإرساله إليه وإما إرسال رجل عارف من حضرتكم متق لتبليغ أمركم فهو أحسن الصنيع غير أننا نخشى ربما أن لا يعطوه مقامه ولا يبلغوا منه ذلك وإذا وقع منهم.... مقامه فالسيادة لا ترضى منهم بذلك هذا وإذا ظهر لكم أبقا الله مجدكم كتب جواب إليه مضمونه أن وجقنا ووجقكم في غاية الاستواء الصفا والحمد لله والعافية حاصلة للجميع بفضل الله ولا يسعى أحد الوجقين في إذابة الآخر وضرره وإذا قدم أحد من أعيان بلدهم فارا إلى أرضنا من غضبهم واحتما بجرم وجقنا فما له يرضن عيه ويرجع كما كان وإذا كان من غير الأعيان وكان طالبا للمعيشة في بلدنا فلا نعتني بقدمه ولا نسئل عنه فهذا إذا الوجاق المستوية أهلها يتمتعشون من بعضهم ومع ذلك إننا ننبه على أهل بلدنا أن لا يقبلوا قادم بينهم وليرجعوه من حيث أتا وكذلك أنتم فإنه بلغنا أن هذا شأنكم مع من يفر من بلدنا وكل من الوجقين حرم لأهل الوجق الآخر كما لا يخفاكم وقوله أن ورغة قد تجاوزا الحد فإننا ما وجدنا عليه من قبلنا لم نتجاوزه ولا زلنا باقين على حده وما نحن موجهون من له خيرة وبصارة بأرضهم ومحدودها فإذا وجدهم قد تجاوزوا حدهم ولو قد شبر فانا رجعه ونحكم فيهم فهذا ما ظهر لنا أيديكم الله عرفنا به السيادة والنظر الأعلى لكم أدام الله سعادتكم وسرمد مجدكم في عز دتم وهنا ذكر طيب وثنا والسلام من أحيكم مصطفى باي وفق اله الجميع منه وكرمه في رجب 1243 (2) / (1827م)

الأرشيف الوطني التونسي : الصندوق 223الملف 384 الوثيقة رقم 57.(72)

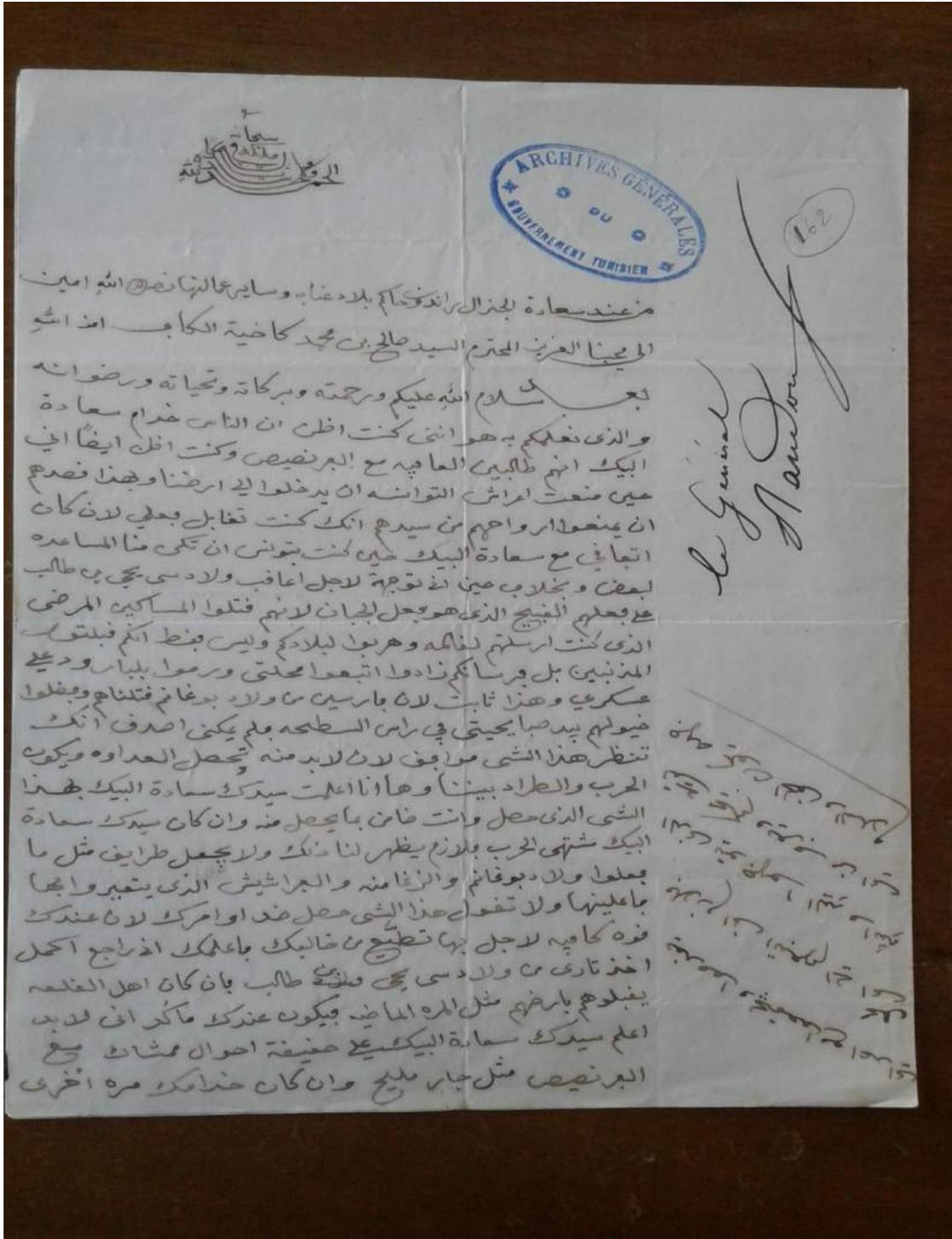
1 - الأرشيف الوطني التونسي : الصندوق 223الملف 384 الوثيقة رقم 57.(72)

2 - الموافق ل1827م. وهي مراسلة تمت بين مصطفى باشا شقيق حسين باي تونس في رده عن مكتوب الحاج أحمد باي قسنطينة له في شأن هجرة قبيلة ورغة التونسية .

*ملاحظة : تركنا مكان الكلمات المتعذر فهمها نقاط ،وفراغ مكان الكلمات الممسوحة ، وهناك وثائق أدرج فيها رقمين حديث وقدم ، ووضعتنا القدم بين قوسين ، هذا وتقبلوا فائق اعتذارني في حالة أي خطأ ارتكب في قراءة الوثائق .

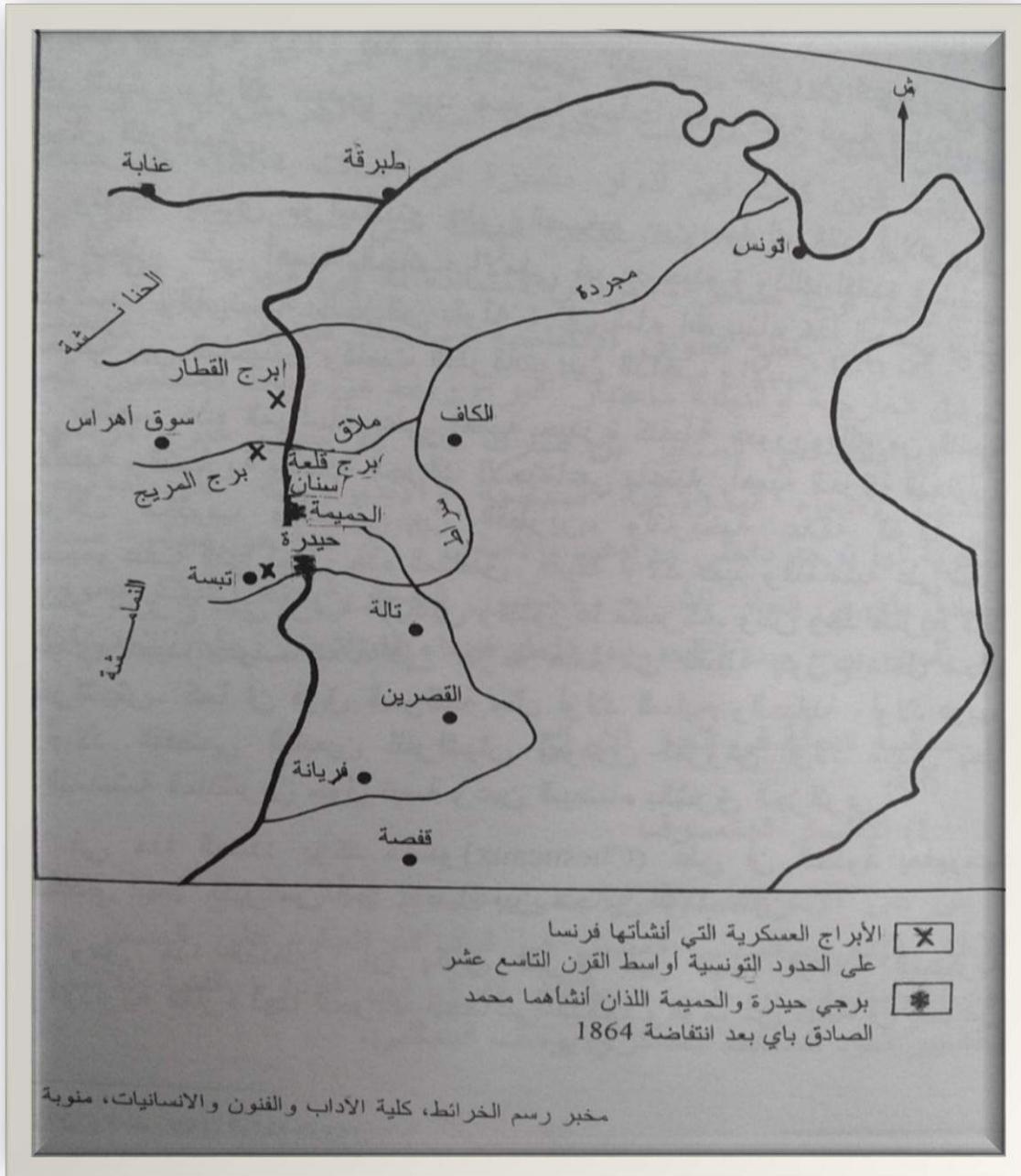
الملحق رقم 03 : رسالة راندون "Randon" حاكم عنابة إلى محمد كاهية الكاف في شأن تعاون

القبايل الحدودية ضد السلطة الفرنسية¹



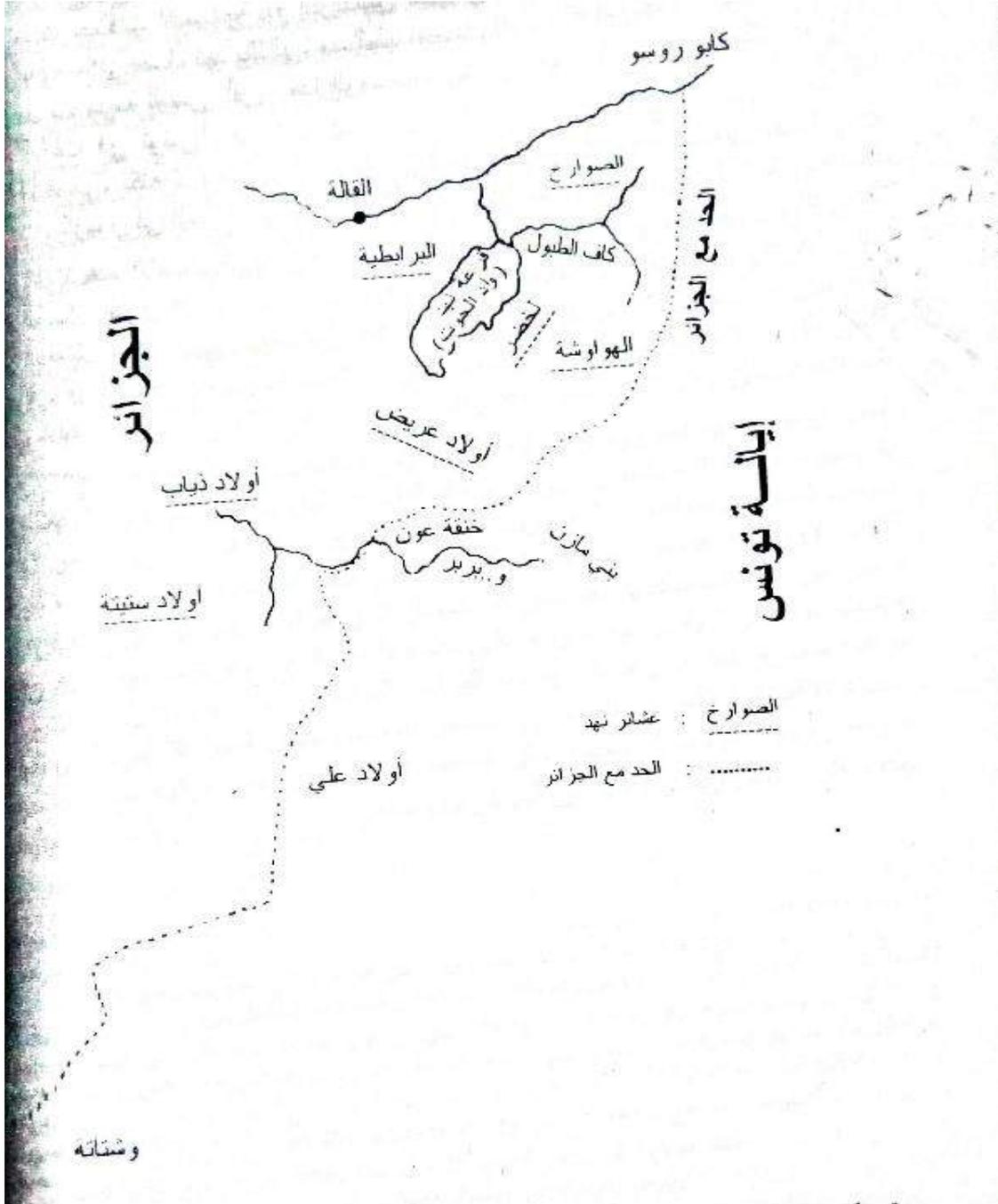
1 أ. و. ت. ، الحافظة 213 ، الملف 245 ، الوثيقة 162.

الملحق رقم 05 : مراكز و أبراج عسكرية على الشريط الحدودي بين الجزائر وتونس¹



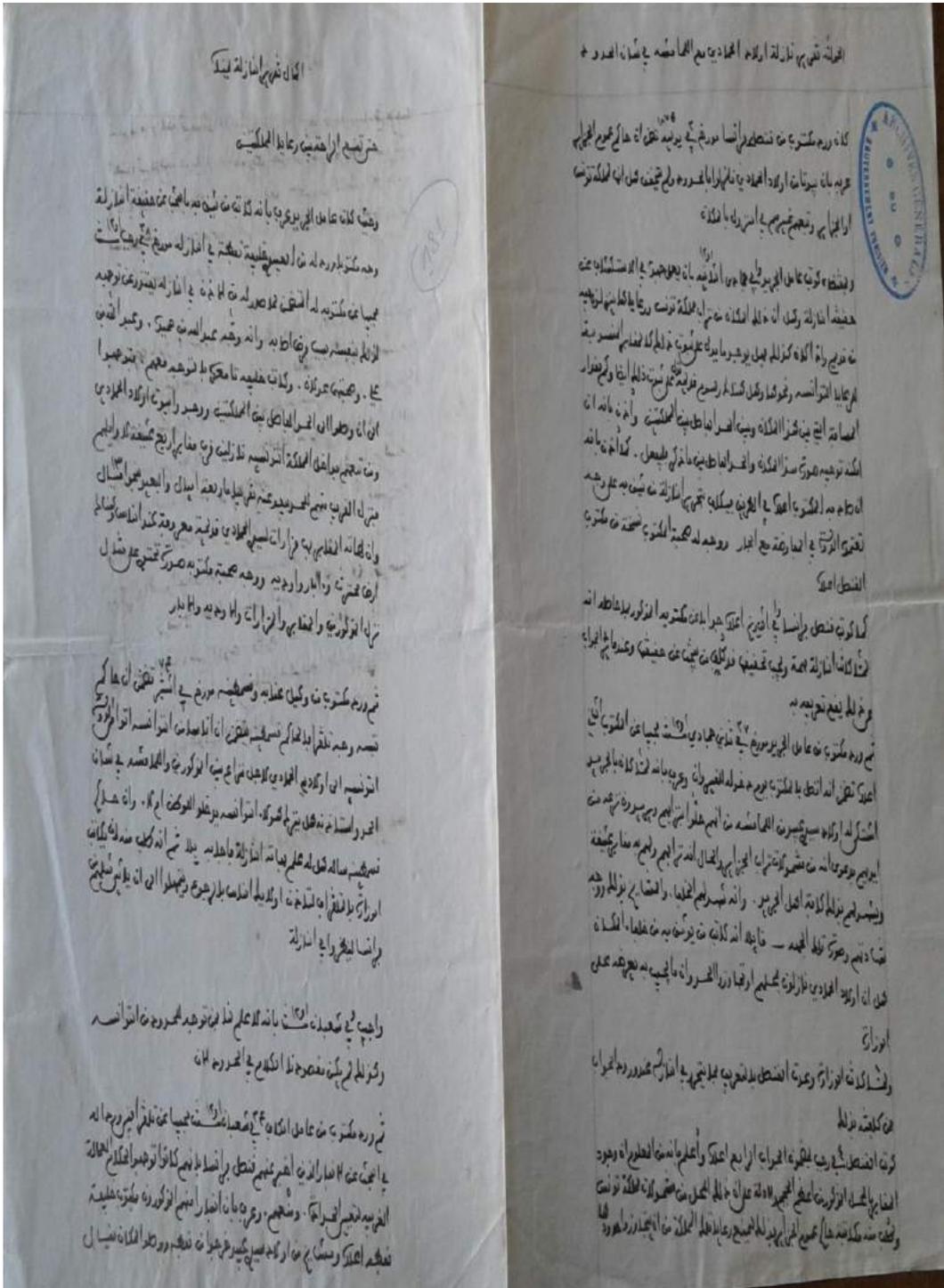
1-الأزهر الماجري : قبائل ماجر والفراشيش ، المرجع السابق ، ص 473.

الملحق رقم 06 : تنافس السلطين التونسية والسلطة الاستعمارية الفرنسية لضم مجال تحد لنفوذها عام 1845م¹



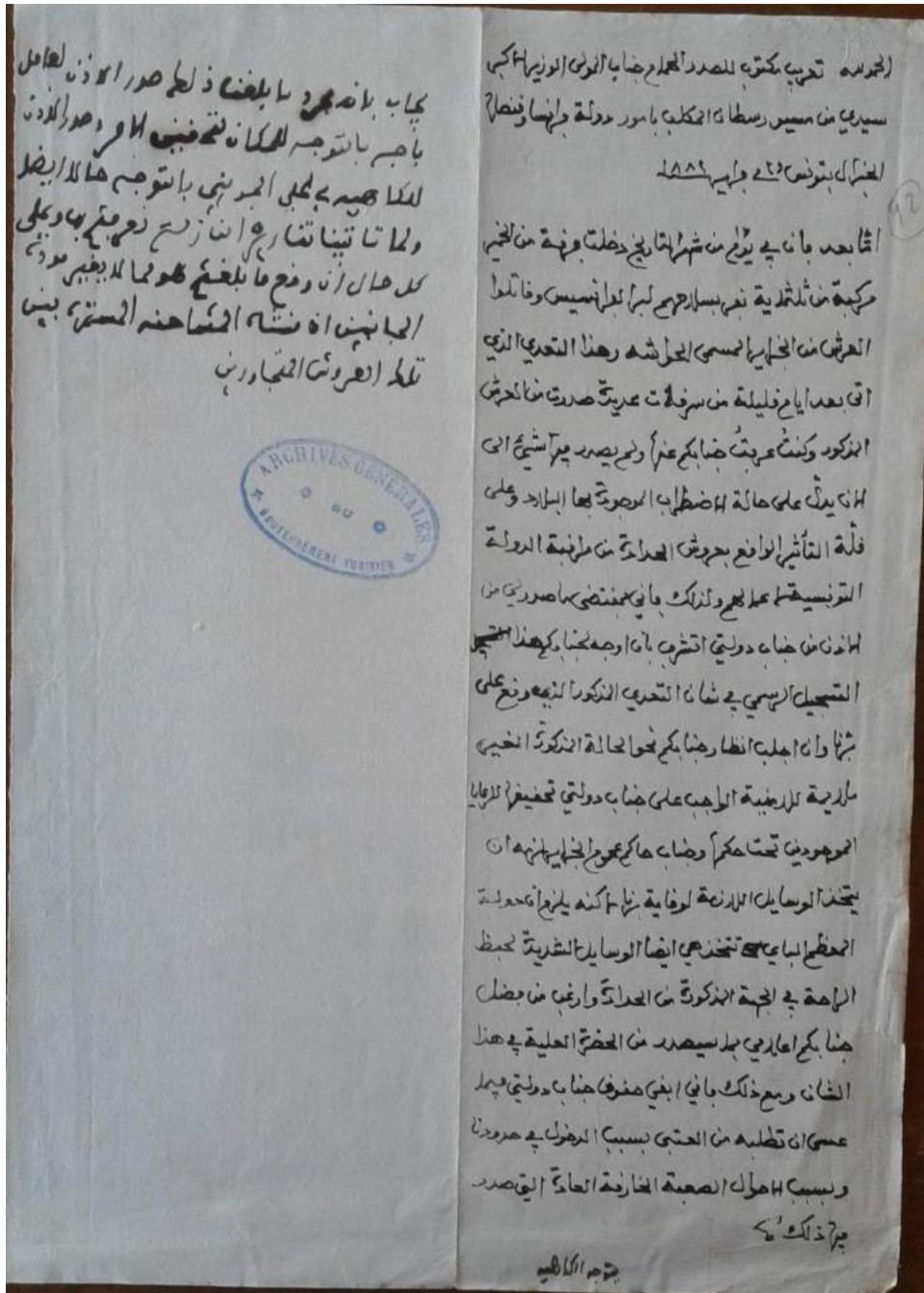
¹ -فاطمة بن سليمان : المرجع السابق ، ص 280.

الملحق رقم 07 : الأساليب المعتمدة في الاستدلال بتبعية بعض المناطق لأحد السلطتين¹



¹ - أ و ت ، الحافظة 213 ، الملف 245، الوثيقة 181. والوثيقة عبارة عن نازلة معربة حول النزاع القائم بين أولاد حمادي مع النمامشة في شأن الحدود

الملحق رقم 09: القنصل الفرنسي يطلب من السلطة التونسية ضرورة أخذ التدابير والوسائل الضرورية لحفظ الأمن على الحدود¹.



¹ - ا و ت ، الحافظة 213 ، الملف 245، الوثيقة 92. والوثيقة عبارة عن مکتوب (رسالة) معربة للوزير الأكبر من السيد رسلطان قنصل فرنسا في تونس مؤرخة في 26 فيفري 1881م.

الملحق رقم 10: الأمير محي الدين بن الأمير عبد القادر يوجه مكاتيب لقبائل الحدود الجزائرية ويعددهم بالقدم رفقة ابن شهرة¹

(132)

المجلد بلغنا من الناظرين بعد اعجاب العزاية ان الاعراب الذين بناحية سوف
 امر اسرو البيض وفتسده وقاتله وفتح الاتباع بينهم على الاغارة على الفطري
 الذين قبلوا النواحي ويذكر ان هذا الامر متوقع لا محالة عنها انهم متى بصرو
 لاقدم حوشهم وينومون بعد ذلك الحجة واحدة

الشيخ مني بيمه تيعا من بيلد الحنا نشد وجه جميع كسبه واثله الي فستكينه
 حو بامه وفتح المرجح

امر راجع فايرو جيلان عازم على البرار وادخلون للمركبة

ابن الحاج عبد القادر وجه مكاتيب لاهل النواحي الغني بدهم يعجزهم بالفرود
 هو وامن الناس ويحضر على الفيلدم محمدا ورجح اهل تلك النواحي
 بيلو في مكاتيبه

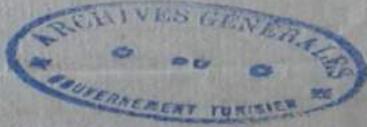
حاكم سوق امر اقبلا كن ازن كسكسبه ثلاث بيلد نغار سببا يسير وانحنا نشد
 لما توقع ضربتهم مع اهلهم

الشيء بعد ابن حزمه لا زال في الغارات بناحية لجزيرة على كادته

ابن ايتيم حمارا خياريه فادع لبيلد الكلاب في هامة الديلوم ويضهر انه راجع
 لاهل الزوايد بالكلاب وبيع الحفيظة انه فادع لشيء البارود والسلاح وفر اعدوا
 له عسة خبيثة من صرورته في ذلك لتقطع على جميع مفاصله

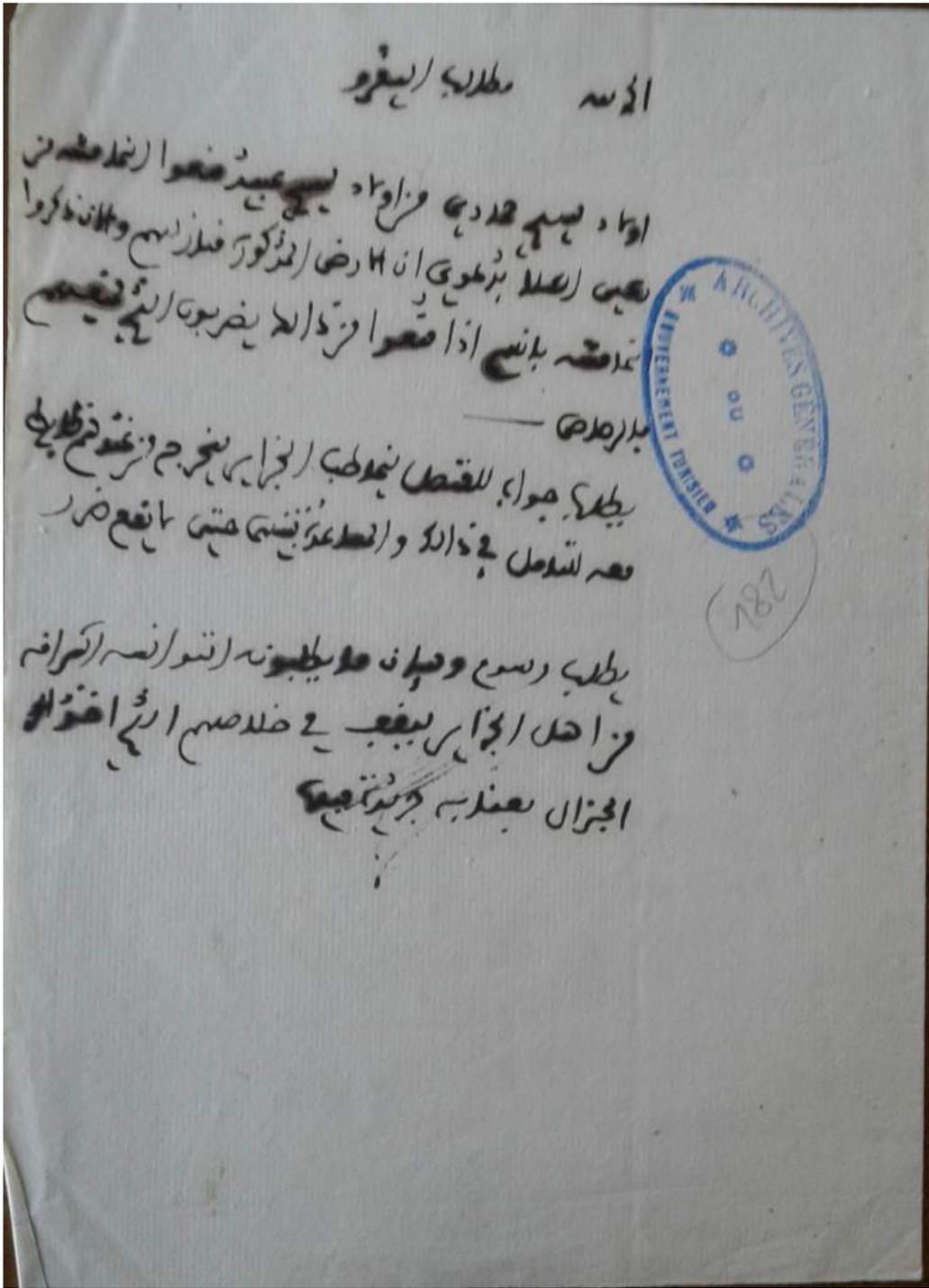
رجل بقال له على الغناحي الكبر والبسي من الغناحي بناحية سوق امري
 كان ابي في اول ايام الحوت لعل الكتاب ورتب موارثي في ثمة ما تركه
 ورجع واق الا ان مياره وحنسيه مائة عنده على كسبه واودعها كندرا ولدا
 المورث بعيل سار

حوش السمامة واولاد تليل في برونه لدرخول للملكة ولما كدان الاطرافهم من
 ركاييد المملكة ولما فعلوا للناحية الغني بدهم فلاحرج في فترتهم كذا صرنا اذن
 باستجلاب اهل المملكة وان ابعثت من اعوانهم لتلك الناحية الذين هم من عدايد
 الدولتة وبعي نسلهم يقصرون في حوز المملكة في ارايسهم وكسبهم من
 الاغارات والتمسج عني فاصدق العماره في حوزها لان من حوزها يتم بملكون عليه
 الحمل في ممانهم



¹ أوت ، المحافظة 213 ، الملف 245 ، الوثيقة 132. (ينظر المقطع الثالث من الوثيقة)

الملحق رقم 11: صراع القبائل الحدودية على المراعي¹



¹ - أ و ت ، الحافظة 213 ، الملف 245 ، الوثيقة 182. الوثيقة تتضمن مطالب النيقرو من السلطات التونسية .

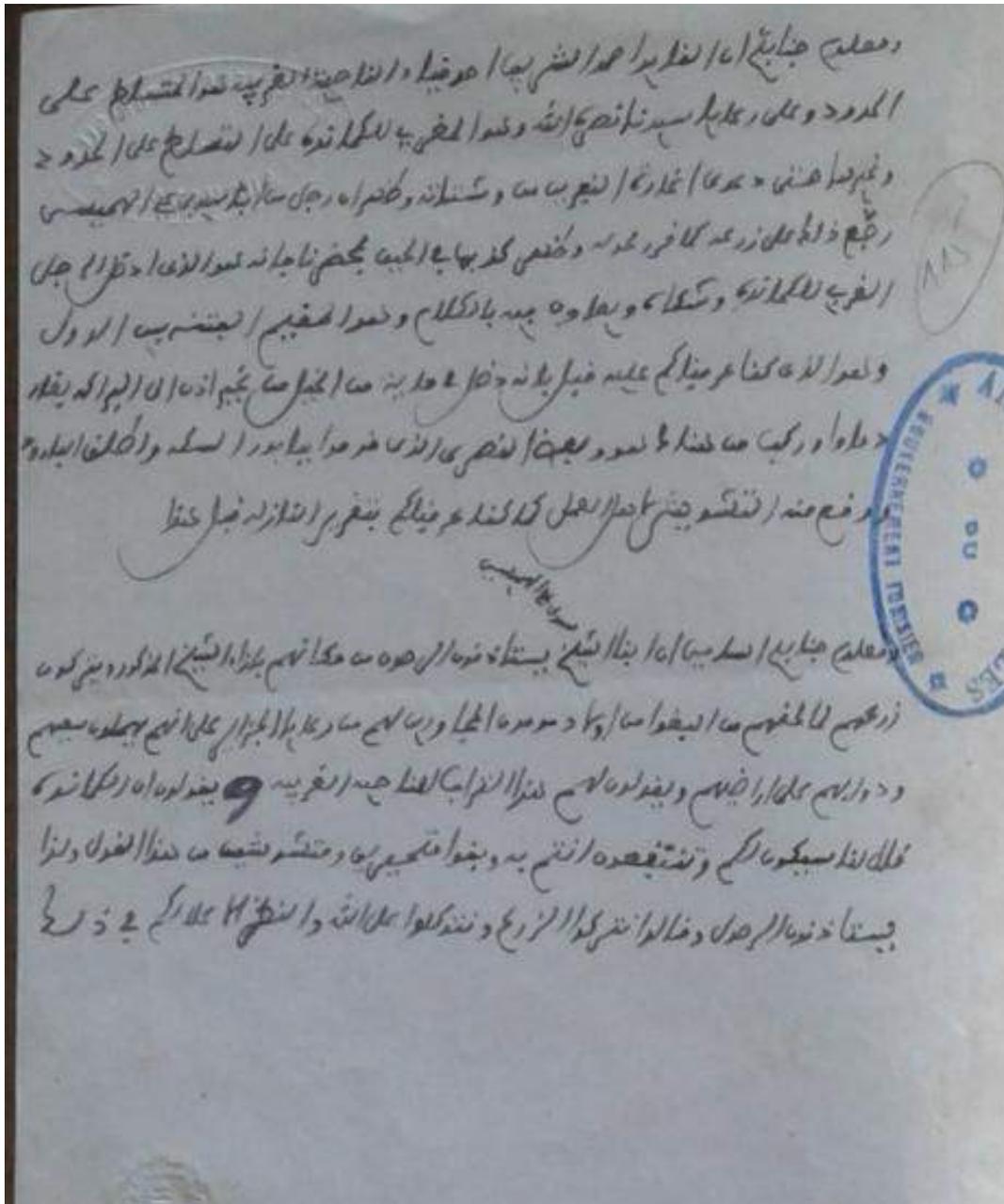
الملحق رقم 12: نزول النمامشة للأراضي التونسية تتبعاً للمراعي التي بالمجال التونسي¹

187

والملاحق بيان من سيرتكم من فرق النمامشة التي هي بين النازلين الآن بجماجم وانعامهم بالامكان
 اذ يتبع ذكرها من المملكة التونسية التي هي باهل التي هي من مسعود خليفة تامغزة والشبيكة
 وميسر
 اولهم وارث اولاد العيساوية اخوة علي بن مهي نازلون بكان من المملكة يعرف بواقع الدرياس مساجد
 ما بينه وبين الخرد من جهة الجنوب ميسر يوم ومن جهة الغرب ميسر نصف يوم —
 وارث البريغ الزكورا بالعصل فله اخوة محمد بن الشيخ بن منصر نازلون بكان منها يعرف بكدفا الكسبي
 مسافة ما بينه وبين الخرد من جهة الجنوب اقل من يوم ومن جهة الغرب نصف يوم —
 وارث جري الزرارة اخوة رابع بن كواخما نازلون بكان منها يعرف بالاسم مساجد ما بينه
 وبين الخرد من جهة الجنوب ميسر يوم ومن جهة الغرب ميسر نصف يوم —
 وارث البريغ الزكورا اخوة عمارة بن علي الزرارة ومين نازلون بكان منها يعرف بواحد الجزرة مساجد
 ما بينه وبين الخرد من جهة الجنوب ميسر يوم وربيع اليوم من جهة الغرب ميسر يوم بالربع اليوم —
 وارث البريغ الزكورا اخوة ابراهيم بن سلطان نازلون بكان منها يعرف بالتحسين ومعهم داران من يعرف
 اذ مسعود اخوة السعدي بن علي مسافة ما بينه وبين الخرد من جهة الجنوب ميسر يوم ومن جهة الغرب كذلك —
 وارث البريغ الزكورا اخوة يوسف بن احمد نازلون بكان منها يعرف بالفسح مساجد ما بينه وبين
 الخرد من جهة الجنوب ميسر نصف يوم —
 وارث البريغ الزكورا اخوة ابراهيم بن محمد نازلون بكان منها يعرف ببيتهم مساجد
 ما بينه وبين الخرد من جهة الجنوب ميسر يوم ومن جهة الغرب ميسر نصف يوم —
 وارث البريغ الزكورا اخوة طاه بن محمد نازلون بكان منها يعرف بكيسان الرخم مساجد ما بينه
 وبين الخرد من جهة الجنوب ميسر نصف يوم —
 وارث البريغ الزكورا اخوة احمد بن سريفة نازلون بكان منها يعرف بقرن الصيلح مساجد
 ما بينه وبين الخرد من جهة الجنوب ميسر نصف يوم —
 وارث البريغ الزكورا اخوة محمد بن محمد نازلون بكان منها يعرف بالقرن مساجد ما بينه
 وبين الخرد من جهة الجنوب ميسر نصف يوم —
 وارث جري بن اولاد النصار في اخوة الحاج احمد بن محمد نازلون بكان منها يعرف بوجدان المحل رخم
 مساجد ما بينه وبين الخرد من جهة الجنوب ميسر يوم ومن جهة الغرب كذلك —
 عمرة وارث من جري الزرارة نازلون بكان منها يعرف بجمانة الغري فيك مسافة ما بينه وبين
 الخرد من جهة الجنوب ميسر نصف يوم —
 وارث جري بن جري الخرد اخوة الشيخ ساعدي بن بلطاس وداران من يعرف بالكلية نازلون بكان
 منها يعرف بالقرن ميسر مسافة ما بينه وبين الخرد ميسر نصف يوم —
 وارث من جري الزرارة ومين اولاد مسعود ومين اولاد محجوب ومين اولاد شكور
 ومين اولاد ابراهيم نازلون جميعا بكان منها يعرف بالعضيلات مسافة ما بينه وبين
 الخرد من جهة الجنوب ميسر نصف يوم ومن جهة الغرب كذلك —

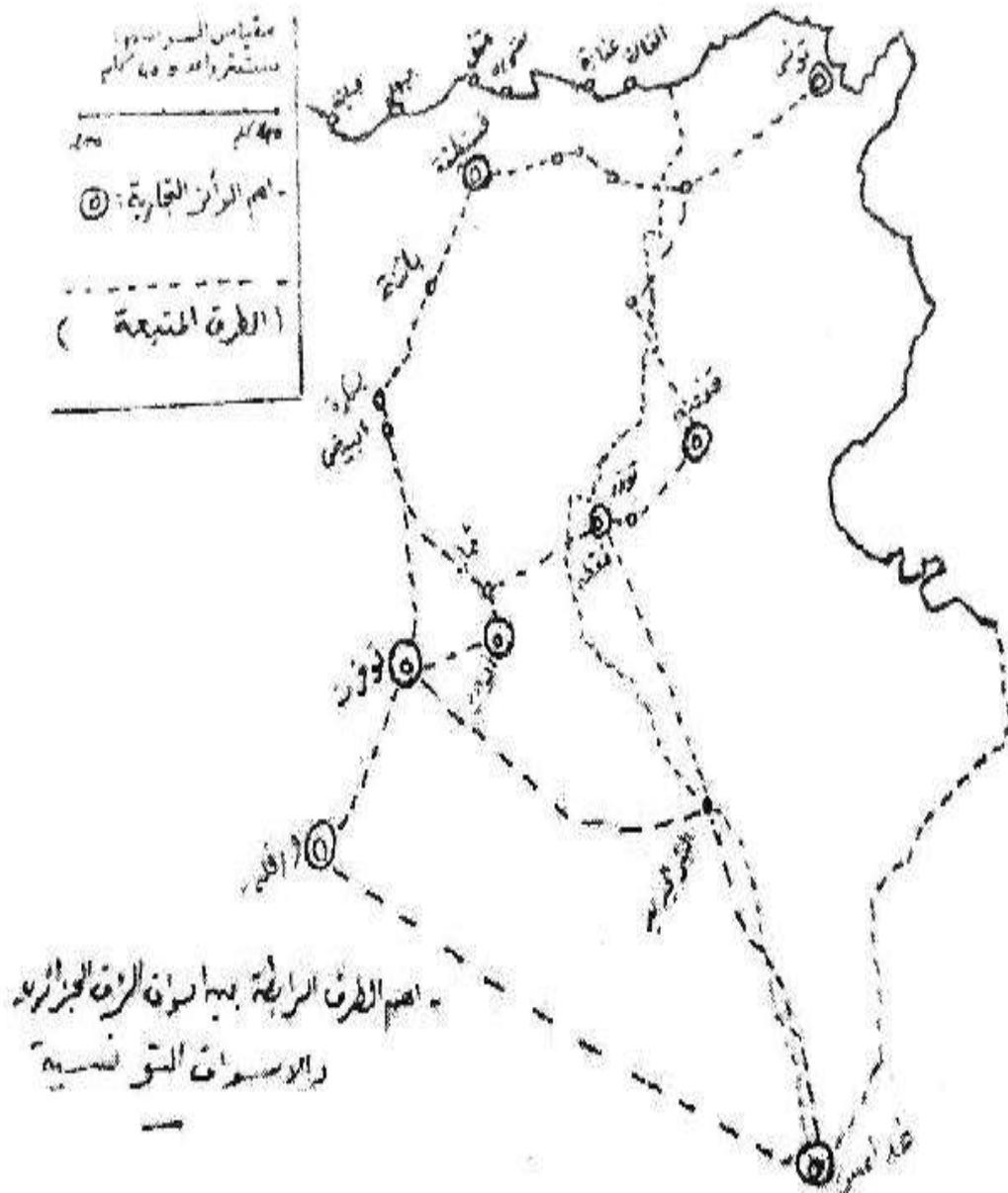
1 - أ و ت ، الحافظة 213 ، الملف 245 ، الوثيقة 187 . والوثيقة عبارة عن بيان بعنوان : من سيرتكم من فرق النمامشة الجزائريين النازلين الآن بجماجمهم وأنعامهم بالأماكن الآتي ذكرها من المملكة التونسية بتحرير الأهل المدعي سيدي أحمد بن مسعود خليفة تامغزة والشبيكة وميداس.

الملحق رقم 14: استئذان الهمايسة من السلطة التونسية للسماح لهم بالرحيل من أراضيهم بعد نزول أولاد مومن (رعايا جزائريين) بأراضيهم¹



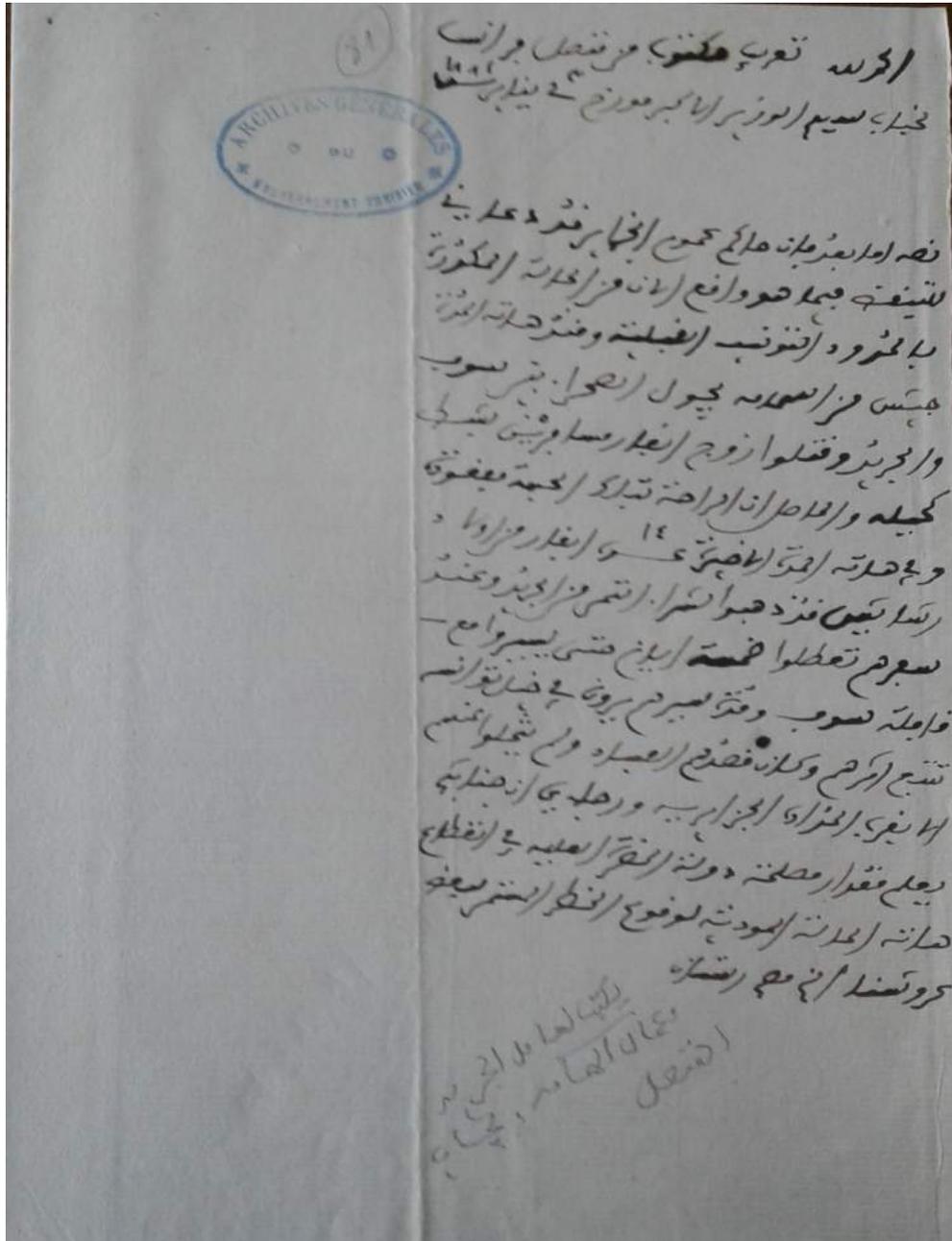
¹ - أ و ت ، الحافظة 212، الملف 236، الوثيقة 115 (الجهة اليسرى من الوثيقة). مقطع من الفقرة الأخيرة من الوثيقة.

الملحق رقم 15: الطرق التجارية الرابطة بين الشرق الجزائري وتونس.¹



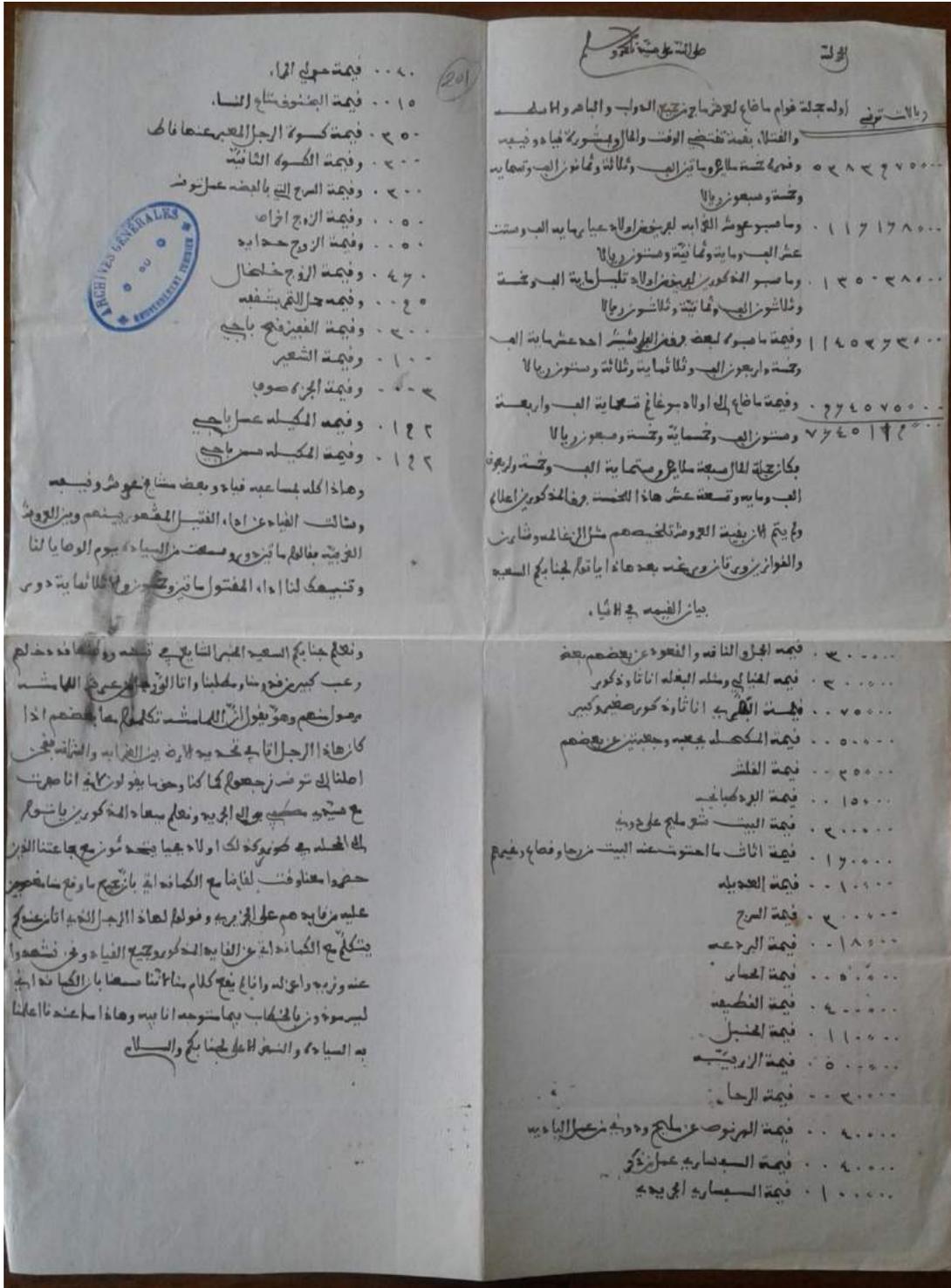
¹ - محمد العربي الزيري : تجارة الشرق الجزائري، ص 160.

الملحق رقم 16: رسالة القنصل الفرنسي للوزير الأكبر مصطفى خزندار يشتكي فيها تعديبات القبائل الحدودية التونسية على القبائل الحدودية الجزائرية¹



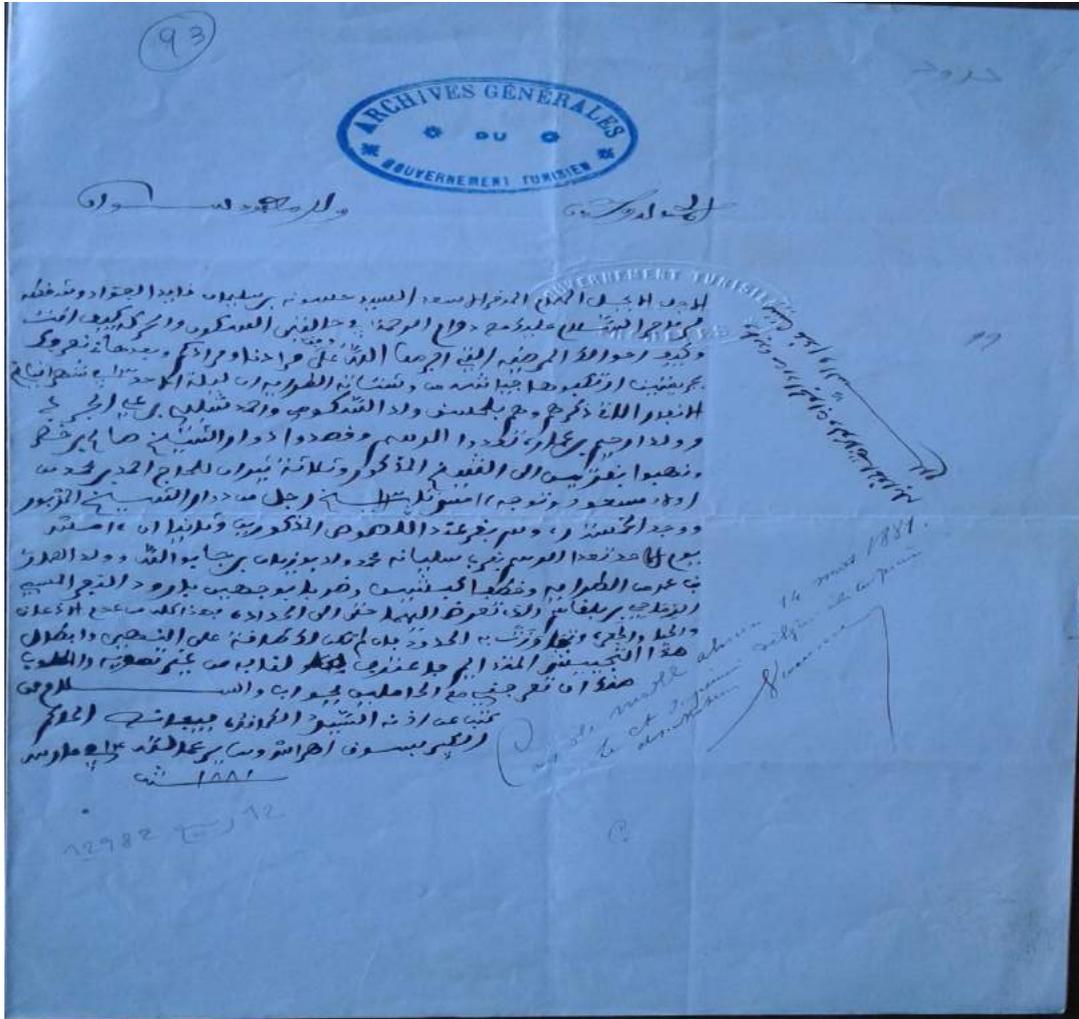
¹ - أ و ت ، الحافظة 213 ، الملف 245 ، الوثيقة 81

الملحق رقم 17: نماذج من مواضيع المنهوبات في الإغارات الواقعة بين القبائل الحدودية¹



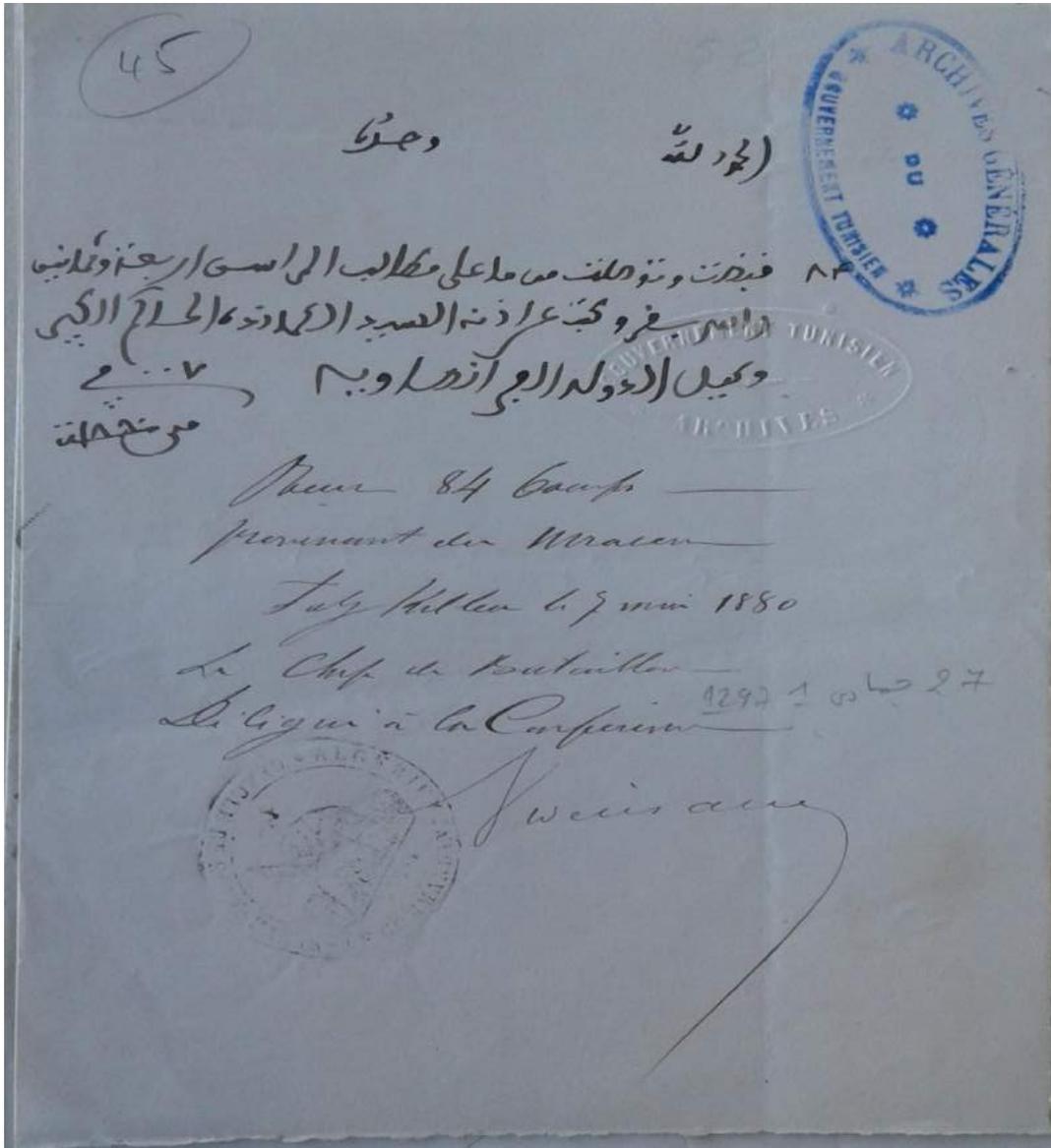
1 - أوت ، الحافظة 213 ، الملف 245 ، الوثيقة 201.

الملحق 18: رسالة من الكماندة فيفانص Vivans حاكم عنابة وسوق أهراس إلى حسونة بن سليمان قايد الفوايد وشقمطة توضح اعتداء وشتاة على العروش الحدودية الجزائرية.¹



1 - أ و ت ، الحافظة 212 ، الملف 236 ، الوثيقة 93.

الملحق رقم 19: أولاد سديرة يؤدون ما عليهم من مطالب لأحد العروش الجزائرية الحدودية المتضررة من غاراتهم¹.



¹ - أوت ، الحافظة 212 ، الملف 236 ، الوثيقة 45.

الملحق رقم 20: بيان ما على وشتاتة من مطالب لأحد العروش الحدودية الجزائرية المتضررة من إغارتها عليهم.¹

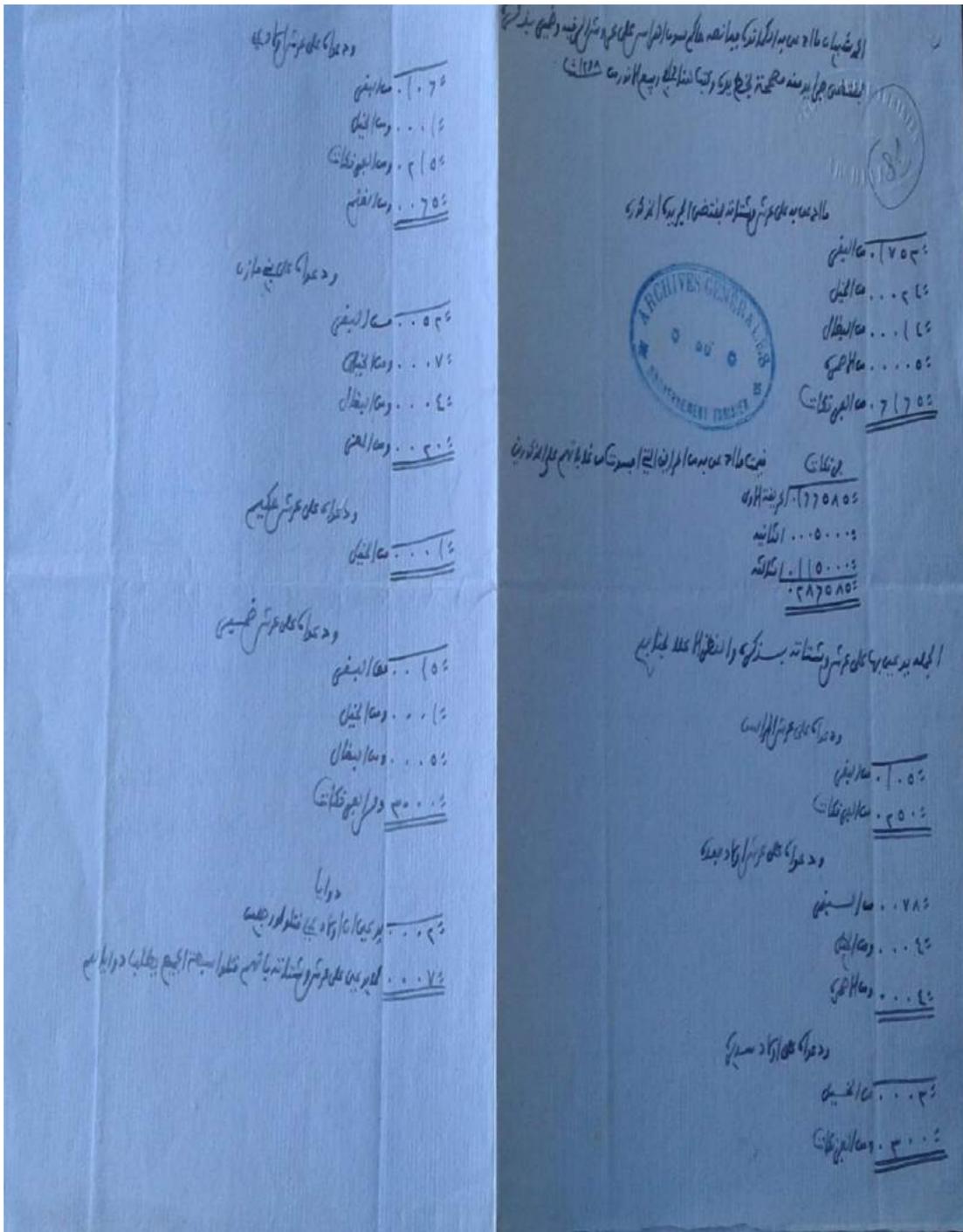
أولاد بيضان ملاحق عروش وشتاتة للعروش

أولاد ما عليهم من الخيل	0 0 8 0
بكر من ذررك	0 0 5 8
أربل في الملاحق ورسم عليهم	0 0 4 0
ملاحق المذكر من الخيل	0 1 0 8
بكر من ذررك	0 0 7 8
أربل في الملاحق ورسم عليهم	0 0 4 0
ملاحق المذكر من الخيل	2 7 8 5
بكر من ذررك	1 8 8 5
أربل في خذرك انداء رسم عليهم	0 8 0 0
ملاحق المذكر من الخيل	1 0 2 5
بكر من ذررك	0 0 2 5
أربل في خذرك ورسم عليهم	0 5 0 0
ملاحق المذكر من خذرك	0 4 0 0
بكر من ذررك	0 1 0 0
أربل في خذرك ورسم عليهم	0 3 0 0

النداء المذكر من الخيل
بكر من ذررك

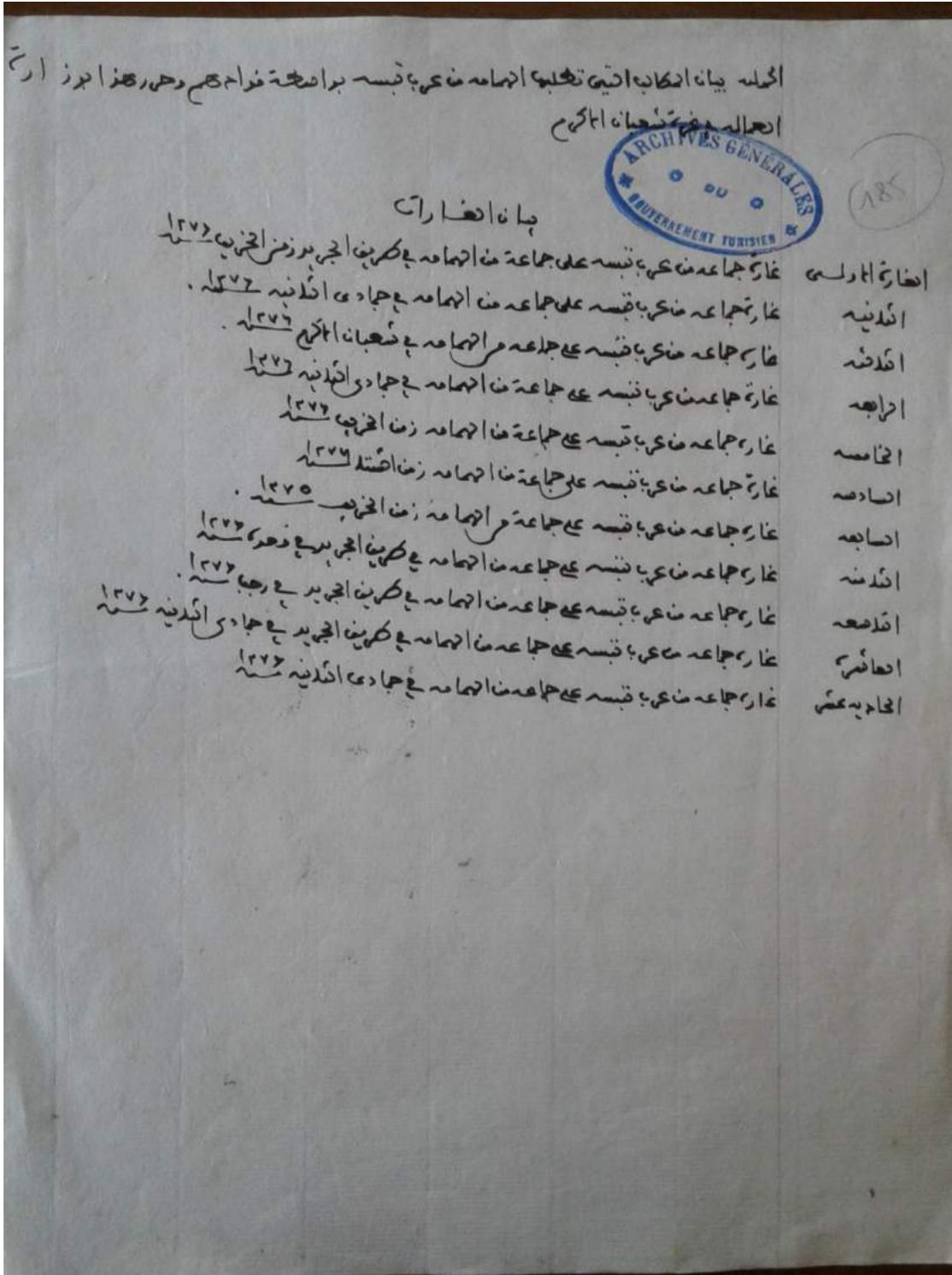
¹ - أوت ، الحافظة 212 ، الملف 236 ، الوثيقة 17.

الملحق رقم 21: جريدة مطالب العروش الجزائرية الحدودية التي على العروش التونسية المجاورين لهم.¹



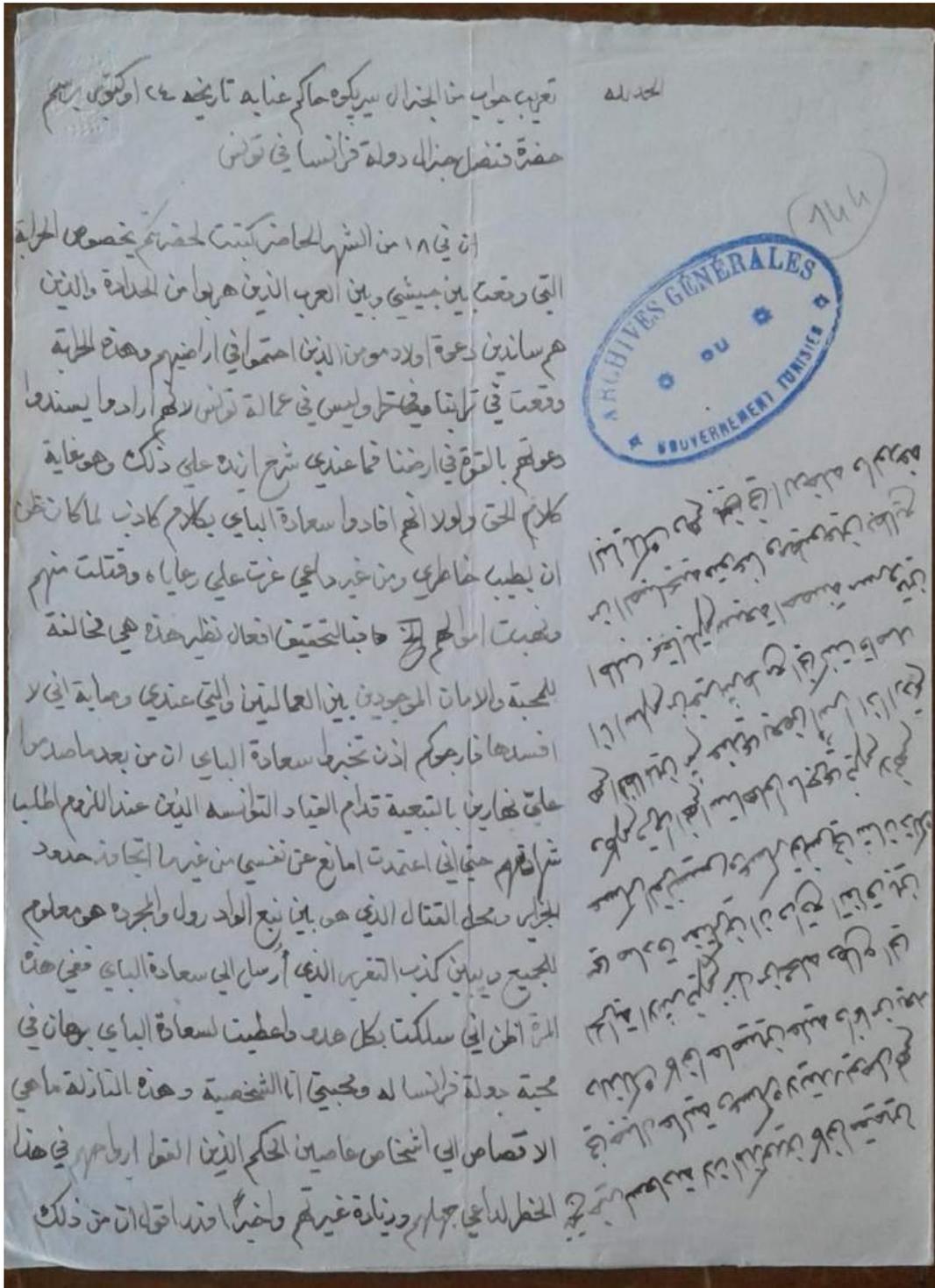
1 - أ و ت ، الحافظة 212 ، الملف 236 ، الوثيقة 81. والوثيقة عبارة عن بيان معنونة كالتالي : بيان ما ادعى به الكماندة فيفانص حاكم سوق أهراس على عروش الرقبة وخمير يذكره بمقتضى جرايد مصححة بخط يده وكتب لنا هنا في 17 ربيع الأنوار 1298هجري الموافق لعام 1881م.

الملحق رقم 23: إحدى عشرة غارة لعرب تبسة على عرش الهمامة عام 1276هـ (1859-1860م)¹



¹ - أوت ، الحافظة 213 ، الملف 245 ، الوثيقة 185.

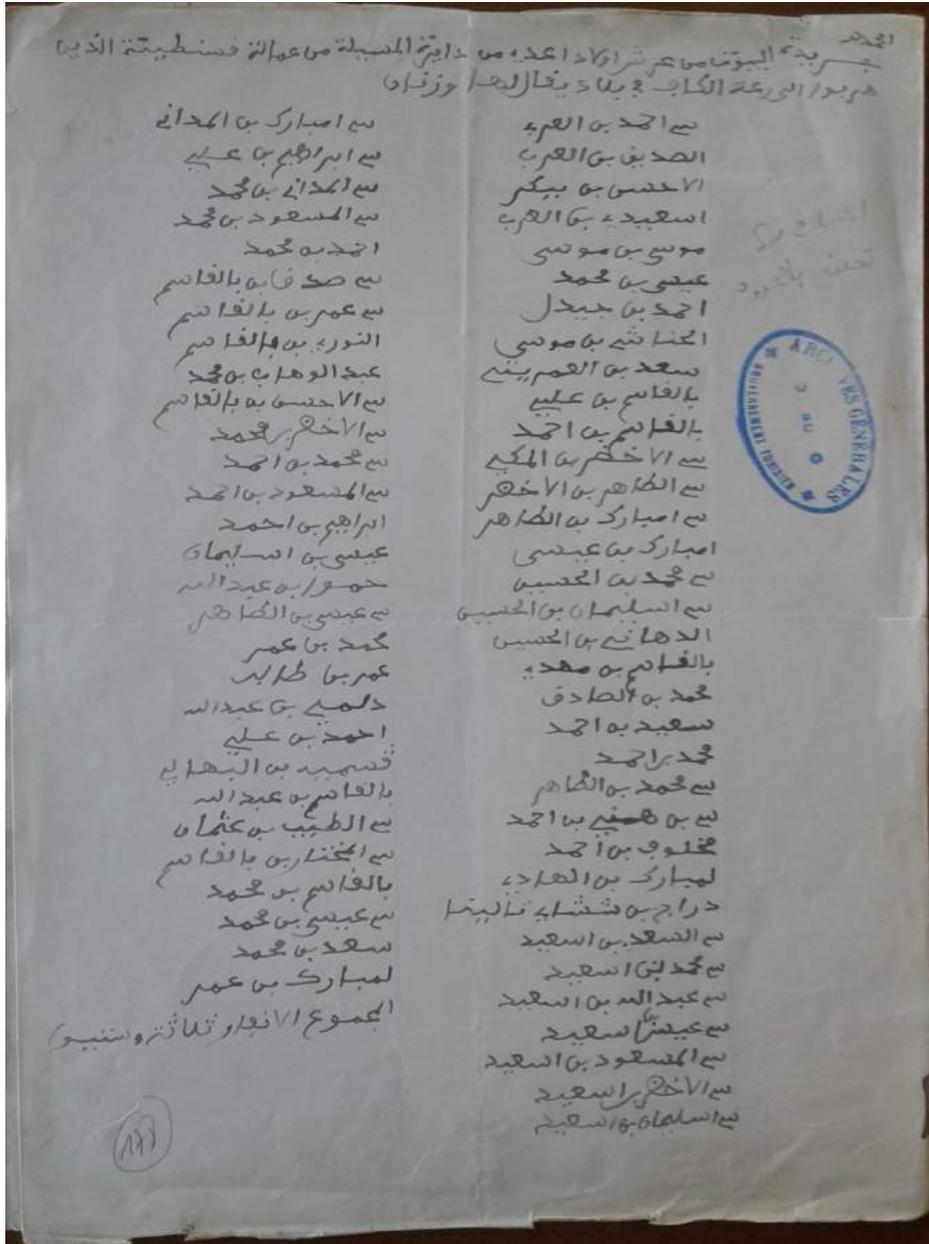
الملحق رقم 24 : من صور مساندة القبائل الحدودية التونسية للقبائل الحدودية الجزائرية¹



1 - أ و ت ، الحافظة 213 ، الملف 245 ، الوثيقة 144. والوثيقة عبارة عن رسالة معربة من الجنرال سيريكوه حاكم عنابة بتاريخ 24 أكتوبر برسم حضرة قنصل جنرال دولة فرنسا بتونس.

الملحق رقم 25: هجرة جماعية لثلاثة وستون نفر من المسيلة إلى تونس في الفترة الممتدة بين

1860/1859¹



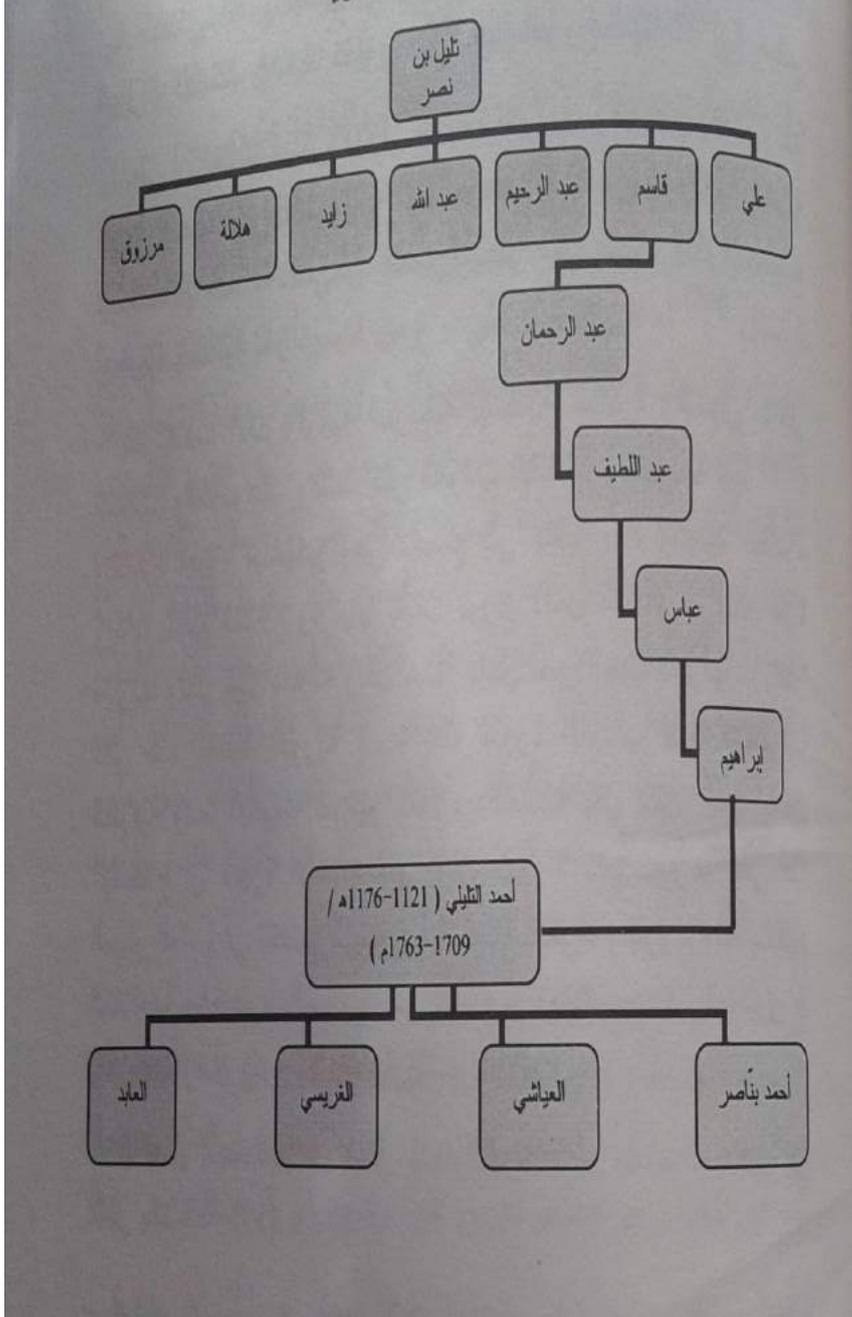
1 - أوت ، الحافظة 213 ، الملف 245 ، الوثيقة 178.

الملحق رقم 26: هجرة قبائل تونسية للجزائر مع بيان سبب هجرتها.¹

٤٧٩
 الحوثة صيرة اعزكم الله. اسفا هو اننا في سفاه
 اهل هيشية اصلي اولادنا اهل در عليا
 القرولة القروية فاصلا الى زمان يودونا لهما
 ما صورنا عليهم بل ما نرى العرايه العمود غير
 ان طلة البرة ليستا بغير منقح من جمل
 الجمل ومنقح من جملته وطحة الكا فوعسما
 مجيوانا نة ومنقح من جمل بل تقعيم لهم وانقحنا
 واستر كنوا في تدار انما حية رالان انك يوضع
 وكلها في اننا قبله يجمع لوكنه ومفتا ايليه
 واهلوا دة بلع اسما معهم فزارا وقلنا لهم لا تسرع
 في بغيرا ولا اتبنا تار الا بعد املكنا القرولة
 العلوية بها فحفا صيرة اعلمنا كم نزل اولاد قشبي
 به يلمينا ما احد الو ب هين اعل بنعم عقاد ضون
 القرولة او بل لا ذن لهم في ذرار و فو كم او صرع

¹ - أوت ، الحافظة 213 ، الملف 245 ، الوثيقة 119 ومكرر الموضوع في الوثيقة 120.

الملحق رقم 27: شجرة نسب الشيخ أحمد التليلي¹



¹ الأزهر الماجري : قبائل ماجر الفراشيش ، ص 129.

قائمة المصادر

والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

-القران الكريم.

أ-المصادر بالعربية

-المصادر غير المطبوعة :

1-الأرشيف

1)-الحافظة 212،الملف 236 المؤطر بتاريخ (1879-1881م)، والذي يتضمن المراسلات في شأن الإغارات بين عروش "الرُقبة" والعروش الجزائرية المجاورة لهم.

2)-الحافظة 213 الملف 245 المؤطر بتاريخ (1879-1883م) والمتضمن مراسلات وتقارير حول اغارات العروش وأعمال الشَّعب والعنف في الحدود الغربية الجزائرية التُّونسية.

3)- الصُّندوق 223الملف رقم 384.

2/ المخطوطات :

1)-ابن عامر إبراهيم:الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، ج1، 2مخطوط بالمكتبة المنزلية لعمار عوادي بلدية تغزوت ولاية الوادي.

2)-التليلي مُحَمَّد الطَّاهر: من تاريخ وادي سوف، (مخطوط).

3)-عبد العزيز حمودة:تاريخ حمودة عبد العزيز (مخ) ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض قسم المخطوطات،[/https://www.kapl.org.sa/](https://www.kapl.org.sa/)

4)-العروسي التماسيني التحاني الصادق بن أحمد:العرف الرياحيني في ترجمة سيدي الحاج علي التماسيني مخطوط لدى ابن المؤلفبزاوية قمار التجانية.

3/ المصادر المطبوعة :

- (1) - ابن أبي الضياف أحمد: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تح: لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، ج2، ط2، الدار العربية للكتاب، تونس، 2004م.
- (2) - _____، _____: إتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان، تح: لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، مج 2، ج 3، د ط، الدار العربية للكتاب، م ن ن، 1999.
- (3) - ابن أبي دينار: المونس في أخبار إفريقية وتونس، ط1، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1286هـ/1869م.
- (4) - بن عبد القادر الجزائري محمد: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وتاريخ الجزائر، تع: ممدوح حقي، ج1، ط2، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، 1964م.
- (5) - ابن محمد الأندلسي محمد (الوزير السراج): الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تق وتح: محمد الحبيب الهيلة، ج2، د ط، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1985.
- (6) - ابن ميمون الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تح: محمد بن عبد الكريم، د ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972.
- (7) - ابن يوسف محمد الصغير: المشرع الملكي في سلطة أولاد علي التركي، تق: أحمد الطويلي، ج1، ط1، المطبعة العصرية، تونس، 1988م.
- (8) - _____، _____: المشرع الملكي في سلطة أولاد علي التركي، تق: أحمد الطويلي، مج 2، ط 1 المطبعة العصرية، تونس، م، 2009
- (9) الإبراهيمي محمد البشير: آثار محمد البشير الإبراهيمي (1940-1954م)، جمع وتق: محمد طالب الإبراهيمي، ج2، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م.
- (10) - بن عامر إبراهيم السوفي: ديوان الشيخ العلامة (1292 - 1351هـ / 1875 - 1932م)، تق و تع: عاشوري قمعون، ط1، مطبعة مزوار للطباعة والنشر والإشهار والتوزيع، الوادي - الجزائر، 2013م.

- 11- بن عبد القادر الجزائري مُحمَّد: تحفة الزَّائر في مآثر الأمير عبد القادر وتاريخ الجزائر، تع: ممدوح حقي، ج1، ط2، دار اليقظة العربيَّة للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، 1964م.
- 12- بن محمَّد الحجوجي محمَّد: إتحاف أهل المراتب العرفانيَّة بذكر بعض رجال الطَّريقة التَّجانيَّة، تح: محمَّد الرَّاضي كنون، ج1، ط1، دار الأمان للتوزيع، الرِّباط، 2012م.
- 13- بن المشري مُحمَّد السَّائحي الحسني: الجامع لدرر العلوم الفائضة من بحار القطب المكتوم، تح: محمَّد الراضي كنون، ج1، ط1، دار الأمان للنشر والتَّوزيع، الرِّباط، 2012م.
- 14- ابن هطال أحمد التلمساني رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصَّحراوي الجزائري، تح: محمد بن عبد الكريم، ط1، عالم لكتب، القاهرة، 1969م.
- 15- بن يحي التَّادلي أبو يعقوب يوسف: التَّشوف إلى رجال التَّصوف، تح: أحمد توفيق، ط2، مطبعة النَّجاح الجديدة، 1997م.
- 16- بريم مُحمَّد الخامس: صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تح: علي بن الطَّاهر الشُّنوفي، ج4، ط2، بيت الحكمة، تونس، 1989م.
- 17- بيطار عبد الرزاق: حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر 1253-1335هـ، حقه ونشقه وعلق عليه حفيده محمد بهجة البيطار مع أعضاء مجمع اللغة العربيَّة، ط2، دار صادر، بيروت - لبنان، 1993م.
- 18- الحفناوي أبو القاسم: تعريف الخلف برجال السَّلف، ج2، ط1، دار كردادة للنشر والتَّوزيع، بوسعادة - الجزائر، 2012م.
- 19- الحنبلي ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مج4، ج8، ط1، دار الكتب العلميَّة، بيروت، 1975م.
- 20- رينان آندري وآخرون: الجزائر بين الماضي والحاضر، تر: رابح اسطنبولي ومنصف عاشور، ط1، ديوان المطبوعات الجامعيَّة، الجزائر، 1994م.
- 21- رسو الفونصو: الحوليات منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر، تر: محمد عبد الكريم الوافي، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي - ليبيا، د س ن.

- (22)- الزهار أحمد الشريف : مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار - نقيب أشرف الجزائر، تق: أحمد توفيق المدني د ط ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974.
- (23)- العدواني مُحَمَّد بن عمر: تاريخ العدواني، تق: أبو القاسم سعد الله، ط2، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 2005.
- (24)- العتري محمد صالح: فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها (تاريخ قسنطينة)، مر: يحي بوعزيز، دار هومة للنشر والطباعة والتوزيع، الجزائر، 2005.
- (25)- _____، _____: مجاعات قسنطينة، تق وتحر: رابح بونار، د ط، الجزائر 1394هـ/1973م.
- (26)- العوامر إبراهيم: الصُروف في تاريخ الصحراء وسوف، تع: الجيلاني بن إبراهيم العوامر ، ط1، الدار التُونسِيَّة للنشر، تونس، 1977.
- (27)- غانياج جان : ثورة علي بن غدامه 1846، تر: لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1965.
- (28)- فيينايروكتون بول: عرق البرنوس. جرائم الاستعمار الفرنسي في عهد الجمهورية الثالثة، تعر: الأزهر المجري ، ط2، نقوش عربية، تونس، 2019م.
- (29)- كاستيل بيار: حوز تبسة، دراسة وصفية جغرافية تاريخية لإقليم تبسة وأعراشه من فجر التاريخ إلى بداية القرن العشرين، تح: مُحَمَّد العربي عقون، ط1، مطبعة بغيحة حسام، الجزائر، 2010م.
- (30)- كرنخال مرمول: إفريقيا، تر: محمد حجي وآخرون، ج3، د ط، دار المعرفة، الرياض، 1989 م .
- (30)- مسعودي: أبو عبد الله محمد الباجي: الخلاصة النقية في أمراء إفريقيا، مطبعة الدولة التونسية بحاضرتها الحميمة، تونس، 1283هـ.
- (31)- المشرفي عبد القادر: بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من أعراب كني عامر، تق وتحر: مُحَمَّد بن عبد الكريم، (د. ط)، (د. م. ن)، (د. س. ن).

ب/المراجع باللغة العربية

1 / الكتب

- (1)- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تح: أبي الفداء عبد الله القاضي، مج2، ط1، دار الكتب العلميَّة

- بيروت، 1987م.
- (2)- ابن الأشعث أبو داود سليمان: سنن أبي داود، كتاب العلم، باب: الحثُّ على طلب العلم، رقم الحديث: 3641.
- (3)- ابن إسماعيل البخاري مُحمَّد: صحيح البخاري، كتاب العلم، باب: من يرد الله به خيراً بفقهه في الدين، رقم الحديث: 71.
- (4)- ابن خلدون عبد الرَّحْمَن: تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ج6، ط1، دار الفكر بيروت، 2000م.
- (5)- _____، _____: مُقدِّمة ابن خلدون - المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ط1، دار الفكر للطباعة والنَّشر والتَّوزيع، بيروت، 2003م.
- (6)- ابن عبد القادر علوي السَّقَّاف و آخرون: موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام، ج6، ط1، دار وائل للنشر والتَّوزيع، عَمَّان، 2012م.
- (7)- ابن كثير الحافظ: البداية والنهاية، تع: حسان عبد المنان، ج1، ط1، دار الأفكار الدُّوليَّة، بيروت، 2004م.
- (8)- أبو ضيف أحمد عمر مصطفى: القبائل العربيَّة في المغرب في عصري الموحدين وبنو مرين، ط1، ديوان المطبوعات الجامعيَّة، الجزائر، 1982م.
- (9)- بالهادف بن سالم بن الطَّيِّب: سوف تاريخ وثقافة، ط1، مطبعة الوليد، وادي سوف، الجزائر، 2007م.
- (10)- برنشفيك روبار: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15، تر: حمادي السَّاحلي، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988م.
- (11)- بلغيث محمَّد الأمين: الشَّيخ بن عمر العدواني مؤرخ سوف والطريقة الشَّابَّية، ط2، دار كتاب الغد للنشر والتَّوزيع، الجزائر، 2008م.
- (12)- بن سليمان فاطمة: الأرض والهويَّة. (نشأة الدَّولة التُّرابيَّة في تونس 1574 - 1881م)، ط1، منشورات كليَّة العلوم الإنسانيَّة و الاجتماعيَّة، تونس، 2009م.

- 13- بوحوش عمار: التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962م، ط3، دار البصائر، الجزائر، 2008م.
- 14- بوطالب محمد نجيب: سوسولوجيا القبيلة في المغرب العربي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2002.
- 15- بوعزيز يحي: تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين، ط1، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، 2001.
- 16- ____، ____: سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1830-1945، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، د س ن.
- 17- ____، ____: مُدُنٌ تاريخية "وهران"، ط1، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر، 1985م.
- 18- ____، ____: مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، (ط. خ)، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.
- 19- ____، ____: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج2، ط1، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة - الجزائر، 2004م.
- 20- تركي رابح: التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
- 21- ترمنجهام سبنسر: الفرق الصوفية في الإسلام، تر: عبد القادر البحراوي، ط1، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1994م.
- 22- التلمساني عبد الحميد حميدو: السعادة الأبدية، ط3، المطبعة الجديدة، فاس، المغرب، 1996م.
- 23- التميمي عبد الجليل: عبد الجليل التميمي: بحوث ووثائق في التاريخ المغربي 1816-1871م، تق: روبر منتران، ط1، الدار التونسية للنشر، تونس، 1972م.
- 24- التيمومي الهادي: مهنة الخماسة في تونس بين التشريع والواقع (1861-1875) من كتاب: المغبيون من تاريخ تونس الاجتماعي، إعداد مجموعة من الباحثين، تح: الهادي التيمومي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، تونس، 1999.
- 25- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، ط2، طبعة جامعة بغداد، بغداد،

- 1993م.
- (26)- الجنيد أبو القاسم: رسائل الجنيد، تح: علي حسن عبد القادر، ط1، مطبعة برعي وجدادي، القاهرة، 1988م.
- (27)- جوهر حسن مُحمَّد: تونس(شعوب العالم.5)، ط1، دار المعارف، القاهرة، 1961م.
- (28)- الحباشي محمد علي: عروش تونس ، ط1 ، منشورات ستوميديا ، تونس ، 2016.
- (29)- حسن حسني عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ، ط3 ، دار الكتب العربية الشرقية، مطبعة دار الفنون ، تونس ، د س ن.
- (30)- الحسني عبد المنعم القاسمي: الطريفة الرَّحمانِيَّة الأصول والآثار، ط1، دار الخليل للنشر والتوزيع، بوسعادة - الجزائر، 2013م.
- (31)- حمّاش خليفة: كشاف وثائق تاريخ الجزائر في الأرشيف التونسي، ج1، ط2، منشورات كلية الآداب والحضارة الإسلامية ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة الجزائر، 1437هـ/2016م .
- (32)- حناي مُحمَّد: المدرسة الأهليَّة بقمّار بين نشر التّعليم وسياسة التّغريب، ط1، مطبعة الرّمال، الوادي - الجزائر، 2016م.
- (33)- خليفني عبد القادر الطريفة الشَّيخِيَّة، ط1، دار الأديب للنشر والتوزيع، وهران - الجزائر، 2006م .
- (34)- دراجي بوزياني: القبائل الأمازيغيَّة أدوارها ومواطنها وأعيانها، ط1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007م.
- (35)- رائسي إدريس: القبائل الحدوديَّة التُّونسيَّة الجزائريَّة بين الإجارة والإغارة (1830-1881م)، ط1، دار المتوسطة للنشر، تونس، 2016م.
- (36)- رأس مال عبد العزيز: الرّوايا والأصالة الجزائريَّة بين التّاريخ والواقع(دراسة انثربولوجيَّة حول صحراء تلمسان وأطرافها)، ج2، ط1، منشورات تالة، الجزائر، 2011م.
- (37)- رياض مُحمَّد: الأصول العامة في الجغرافيا السِّياسيَّة والجيوبوليتيكيَّا، ط1، مؤسسة هندوي، القاهرة، 2012م

- (38)- الزبيري محمد العربي: تاريخ الجزائر المعاصر، ج1، ط1، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ، 1999م.
- (39)- _____، _____: التجارة الخارجية للشرق الجزائري، د ط الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د س ن.
- (40)- الزركلي خير الدين: الأعلام، ج.4، ط.5، دار العلم للملايين، بيروت، 1980م.
- (41)- زمربين نصيرة: التعليم الإسلامي في الجزائر في ظل الاحتلال الفرنسي (1830-1962)، د ط دار الخلدونية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1453هـ/2013.
- (42)- الساحلي حمادي: فصول في التاريخ والحضارة، ط1، دار الغرب الإسلامي، لبنان 1992.
- (43)- سعد الله أبو القاسم: أفكار جامحة، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988م.
- (44)- _____ ، _____ : تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ط6، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.
- (45)- _____، _____: الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، ط1، دار اغرب الإسلامي، بيروت، 1992م.
- (46)- _____ ، _____ : الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930، ج2 ، ط4، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1992م.
- (47)- سعيدوني ناصر الدين :ورقات جزائرية ،دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني ، ط1، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 2000 .
- (48)- سعيدوني ناصر الدين والمهدي بوعبدلي: عميراوي حميده:علاقات بايلك الشرق الجزائري بتونس أواخر العهد العثماني وبدايات الاحتلال الفرنسي، (د. ط)، دار البعث، قسنطينة، (د. س.ن).
- (49)- سيدي أبو مدين: وديوان سيدي أبو مدين: تع: العربي بن مصطفى الشوار، ط.4، دار القلم، دمشق، 1994م.
- (50)- سماتي محفوظ: الأمة الجزائرية نشأتها وتطورها، تر : محمد الصغير بناني وعبد العزيز بوشعيب، د

- ط منشورات المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة الرغاية ، الجزائر ، 2009.
- (51)- الشّابي علي: تاريخ الشّابّيّة خلال العهدين الحفصي والعثماني، ط1، دار نقوش عربية، تونس، 2015 م .
- (52)- _____، _____: عرفة الشّابي رائد النّضال القومي في العهد الحفصي، ط1، دار الكتب العربية، تونس، 1982 م.
- (53)- شترة خير الدّين: إسهامات النّخبة الجزائريّة في الحياة السّياسيّة والفكريّة التّونسيّة 1900-1939 م، ط1، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009 م.
- (54)- الشّريف محمد الهادي: تاريخ تونس من عصور ما قبل التّاريخ إلى الاستقلال، تع: محمد الشّاوش ومحمد عجينة، ط3، دار سراس للنشر، تونس 1993.
- (55)- شلاي عبد الوهاب: نظرات فاحصة في تاريخ تبسة وجهاد أهلها في القرن 19 م، تق: عبد الكريم بوصفصاف، ط1، دار الهدى للطباعة والنّشر والتّوزيع، عين مليلة - الجزائر، 2006 م.
- (56)- الطمار محمد: الرّوابط التّقافيّة بين الجزائر والخارج، (د. ط)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983.
- (57)- الطّويلي أحمد: دراسات ووثائق عن الحركة الإصلاحيّة بتونس، ط1، مؤسسة للطباعة والنّشر، سوسة ، تونس، 1992 م.
- (58)- _____ ، _____: تاريخ مدينة تونس التّقافي والحضاري من الفتح إلى أواخر القرن التّاسع عشر، ط1، الشّركة التّونسيّة للنشر وتنمية فنون الرّسم، تونس، 2002 م.
- (59)- العامري نللي سلامة: التّصوف بإفريقيّة في العصر الوسيط، ط1، دار كونتراست للنشر، سوسة - تونس، 2009 م.
- (60)- عباد صالح: الجزائر خلال الحكم التركي (1514-1830)، دار هومة للنشر والطباعة، الجزائر ، 2011.
- (61)- عبد السّلام أحمد: المؤرخون التّونسيون في القرون 17 م و 18 م و 19 م، تر: أحمد عبد السّلام وعبد الرّزاق الحليوي، ط1، بيت الحكمة، تونس، 1993 م.
- (62)- العجيلي التّليلي: الطّرق الصّوفيّة والاستعمار الفرنسي 1881-1939 م، ط1، منشورات كليّة

- الآداب، جامعة منوبة، تونس، 1992.
- (63) - عدي المواربي: الاستعمار الفرنسي في الجزائر سياسة التفكير الاقتصادي والاجتماعي (1830-1960)، ط1، دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، 1983.
- (64) - العربي إسماعيل: الصحراء الكبرى وشواطئها، د ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.
- (65) - العقبي صلاح مؤيد: الطُّرق الصُّوفيَّة والزُّوايا بالجزائر. تاريخها ونشاطها، (ط.خ)، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.
- (66) - العقون التَّجاني: أعلام من قمار بوادي سوف، ط1، مطبعة سخري، الوادي - الجزائر، 2013م
- (67) - العمامرة سعد بن بشير: أعلام من سوف في الفقه والثَّقافة والأدب، ط1، جمعية الجماعة السُّوفية، مطبعة مزوار للطباعة والنشر والإشهار والتوزيع، الوادي - الجزائر، 2006م.
- (68) - عميرايوي حميده: علاقات بايلك الشَّرْق الجزائري بتونس أواخر العهد العثماني وبدايات الاحتلال الفرنسي، (د. ط)، دار البعث، قسنطينة، (د. س. ن).
- (69) - غانم مُحَمَّد الصَّغِير: التَّوسع الفينيقي في غربي المتوسط، ط1، المؤسسة الوطنيَّة للكتاب، الجزائر، 1992م .
- (70) - غريسي علي: أعلام وأختام، ج1، ط1، مطبعة SIB، الوادي، الجزائر، 2013م.
- (71) - غنابزية علي: مجتمع وادي سوف من الاحتلال الفرنسي إلى بداية الثَّورة الشَّحيريَّة 1300-1374هـ/1882-1954م، ط1، دار هومه للطباعة والنَّشر والتَّوزيع، الجزائر، 2017م.
- (72) - فيلالي مختار الطَّاهر: نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني، ط1، دار الفن الجغرافيكي للطباعة والنشر، الجزائر، د س ن .
- (73) - قاسم أحمد: إيالة تونس العثمانية على ضوء فتاوى ابن عظوم (1574-1600م)، د ط منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، د س ن.
- (74) - القصاب أحمد: تاريخ تونس المعاصر (1881-1956)، تعر: حمادي الساحلي، ط1، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1986.
- (75) - قمعون عاشوري: الشَّيخان، ط1، مطبعة مزوار للطباعة والنشر والإشهار والتوزيع، الوادي - الجزائر، 2010م.

- (76) - قنان جمال : نصوص سياسية جزائرية في القرن 19م. (1830-1914)، ط1، ديوان (79) - المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م.
- (77) - الكحلاوي محمد: الفكر الصوفي في إفريقيا والغرب الإسلامي القرن التاسع هجري/الخامس عشر ميلادي، ط1، دار الطليعة، بيروت، 2009م.
- (78) الماجري الأزهر: قبائل ماجر والفرانشيش خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في جدلية العلاقة بين المحلي والمركزي، منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات، جامعة منوبة - تونس، 2007م.
- (79) - _____ ، _____ : القبيلة الولائية والاستعمار أولاد سيدي عبيد والاستعمار الفرنسي في الجزائر وتونس، ط1، المغاربية للطباعة والنشر، تونس، 2013م.
- (80) - الماجري عبد الكريم: هجرة الجزائريين والطرابلسية والمغاربة الجواننة إلى تونس (1831-1937م)، دراسة تاريخية لإشكالية الاستعمار والهجرة المغاربية بتونس وخصوصياتها الاجتماعية والقانونية، ط1، الشركة التونسية للنشر و تنمية فنون الرسم، تونس، 2010م.
- (81) - المحجوبي علي: انتصاب الفرنسية بتونس، د ط ، دار سراس للنشر ، تونس ، 1986.
- (82) - محفوظ محمد: تراجم المؤلفين التونسيين، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982م.
- (83) - محمد يوسف نواب عواطف : الرحلات المغاربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن هجريين، د ط، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض 1417هـ.
- (84) - المدني أحمد توفيق: جغرافية القطر الجزائري، د ط، دار البصائر، دار الثقافة، الجزائر، 2009.
- (85) - _____ ، _____ : محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766 - 1791م. سيرته، حروبه، أعماله، نظام الدولة والحياة العامة في عهده، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.
- (86) - _____ ، _____ : هذه الجزائر، (د. ط)، دار النهضة المصرية، القاهرة، (د. س. ن).
- (87) - مفتاح عبد الباقي: أضواء على الشيخ أحمد التّجاني وأتباعه، ط1، مطبعة الوليد للنشر، الوادي - الجزائر، 2007م.
- (88) - _____ ، _____ : أضواء على الطريقة الرحمانية الخلوئية، ط1، مطبعة الوليد، الوادي -

- الجزائر، 2004م.
- (89)- _____ ، _____ : أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتشار طريقته، ط1، دار الكتب العلميّة، بيروت، 2009م.
- (90)- _____ ، _____ : أضواء على الطّريقة الشّائبة وتطورها وشيوخها في المغرب والمشرق، ط1، دار نينوى للدراسات والنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2016م.
- (91)- مكي الجميل: البدو والقبائل الرّحالة في العراق، ط1، مطبعة الرّابطة، بغداد، 1956م
- (92)- منصورى أحمد بن الطّاهر: الدّر المرصوف في تاريخ سوف، دار الهدى، دم ن، د س ن.
- (93)- مياسى إبراهيم: الاحتلال الفرنسى للصحراء الجزائرية، د ط، دار هومة، الجزائر، 2005.
- (94)- نسيب مُحمّد: زوايا العلم والقرآن في الجزائر، ط1، دار الفكر، الجزائر، 1989م.
- (95)- نويهض عادل : مُعجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط2، مؤسسة نويهض الثّقافيّة، بيروت، 1980م.
- (96)- هلال عمار: الطّرق الصّوفيّة ونشر الإسلام والثّقافة العربيّة بإفريقيا السّمراء، ط1، مطبعة الجيش، الجزائر، 2007م.
- (97)- هنية عبد الحميد: بناء الدولة المجالية في البلاد التونسية والمغرب الأقصى وآليات الاندماج في خلال الفترة الحديثة ما بين القرنين 17 و19، دراسة مقارنة ، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات قطر ، 2013.
- (98)- _____ ، _____ : تونس العثمانيّة بناء الدولة والمجال ، منشورات تير الزمان ، تونس، 2012.
- (99)- هويدي سلوى: أعوان الدّولة بالإيالة التّونسية الأفراد، القبائل، المجموعات، شبكات العلاقات (1735-1814م) ، كلية العلوم الإنسانيّة والاجتماعية ، مخبر البحث تاريخ اقتصاد المتوسط ومجتمعاته ، تونس، 2014م.
- (100)-ورنيقة مُحمّد أحمد: الطّريقة الشّاذليّة وأعلامها، ط1، المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنّشر والتّوزيع، بيروت، 1990م.

- 1- بلغيث مُحمَّد الأمين: «الطريقة الشَّابَّية في الجزائر وتونس، محاولة لرسم مسار الحركة»، *المجلة التاريخية المغربية*، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، السَّنة 31، ع.114، تونس، مارس/2004م.
- 2- بن زروال جمعة: «هجرة زعماء الطُّرق الصُّوفيَّة التُّونسيَّة نحو الجزائر ونشاطهم السِّياسي والديني الشيخ سيدي علي النَّفطي والحاج مُحمَّد لخضر السَّهيلي أمودجاً»، *مجلة علوم الإنسان والمجتمع*، ع.23، كَلِّية العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، جامعة مُحمَّد خيضر - بسكرة، الجزائر، 2017م.
- 3- بوزيد قصيبة أحمد: «ابن ناصر بن شهرة أحد أبطال ثورة 1871» *الأصالة*، مج 2، السنة الأولى، ع 6، مجلة ثقافية تصدر عن وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، ذوالحجة 1391هـ/جانفي 1972، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، 2014.
- 4- بوطيبي محمد: «المهجرة الجزائريَّة للبلاد التُّونسيَّة خلال النِّصف الأوَّل من القرن التَّاسع عشر»، *مجلة الرَّاصد العلمي*، مج 7، ع 2، تصدر عن مخبر تحليل، تنميط وتصميم المنتجات الإعلاميّة في الميادين الاقتصاديَّة، الاجتماعيَّة والسياسيَّة، جامعة وهران 1 - "أحمد بن بلة"، الجزائر، 2020م.
- 5- بوعزيز يحيى: «أضواء على كفاح الشريف بشوشة»، *مجلة الثقافة*، ع 34، مجلة تصدر عن وزارة الإعلام والثقافة بالجزائر، السنة السادسة، شعبان/رمضان 1396هـ/سبتمبر 1976.
- 6- بوعزيز يحيى: «انتفاضة سكان الأوراس»، *مجلة الأصالة*، مج 19، ع 60/61، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2011.
- 7- يحيى بوعزيز: «مواقف الرسميين التونسيين من ثورة الصبايحية والكبلوتي في منطقة الحدود الشرقية عام 1871م»، *مجلة الأصالة*، مج 19، ع 60/61، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2011.
- 8- تواتي حسين: «بن ناصر بن شهرة والشريف بشوشة أمودجان بارزان لوحدة القضية الجزائرية والروح الوطنية»، *مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية*، ع 4، جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي، 2014م.
- 9- حباش فاطمة: «بن ناصر بن شهرة زعيم الوحدة الوطنية جنوبا (1851-1875م)»، *مجلة*

- عصور الجديدة، ع19-20، الجزائر، 1437هـ/2015م.
- 10- الشّابي علي: «مصادر جديدة لدراسة تاريخ الشّابّية»، المجلة التّاريخية المغاربية، ع.14/13، مطبعة الاتحاد التّونسي للشّغل، تونس، 1979م.
- 11- زبير محمّد: «تجارة القوافل في المغرب»، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التّاسع عشر، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التّاسع عشر، المنظمة العربيّة للتربية والتّثافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربيّة، بغداد، 1984م.
- 12- طرشون نادية : «سياسة نابليون الثالث العربيّة»، مجلة دراسات وأبحاث، مج 8، السنة التاسعة ، ع26 مارس 2017.
- 13- العجيلي التّليبي: «الوضع الطّرفي بالجريد في النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر»، المجلة التّاريخية المغربية، ع.76/75، مطبعة الاتحاد التّونسي للشّغل، زغوان -تونس، ماي/ 1994م.
- 14- عواريب لخضر: «بعض الحقائق عن مقاومة الشريف بشوشة من خلال بعض المصادر المحليّة ومنها الشّهادة التي أملاها بوشوشة على سجنائه»، مجلة العلوم الإنسانيّة والاجتماعية، ع 17، ورقلة، ديسمبر، 2017.
- 15- غنايزة علي: «المقاومة الشعبيّة بوادي سوف وأثرها على العلاقات مع الجنوب التونسي 1854-1882م»، مجلة الباحث في العلوم الإنسانيّة والاجتماعية، ع 4، جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي ، 2014.
- 16- قمعون عاشوري: «دور عائلة الشّيخ إبراهيم بن أحمد الشّريف في الحركة الوطنيّة الجزائريّة»، مجلة البحوث والدراسات، ع.3، يصدرها المركز الجامعي بالوادي، الجزائر، جوان/2006م.
- 17- مطمر محمد العيد : «الغزو والاحتلال الفرنسي للأوراس وأثره على الحالة الاجتماعيّة للسكان»، مجلة العلوم الإنسانيّة، ع 10، بسكرة، الجزائر نوفمبر، 2006م.
- 18- معوشي أمال: « أحمد توفيق المدني لمحة عن إسهاماته الثقافيّة ودوره الدبلوماسي في الثورة الجزائريّة » مجلة البحوث التاريخيّة ، مج 3 ، عدد 1، مارس 2019.

19- الهاشمي جواد رضا: «تجارة القوافل في التاريخ العربي القديم»، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1984م.

3/الملتقيات والندوات

1- بن حيدة يوسف: «التواصل الطرقي بين الجنوب الشرقي الجزائري ومنطقة الجريد خلال القرن 19م»، أعمال الملتقى الدولي حول: التواصل الحضاري بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس 1881 - 1954م، المنعقد يومي: 10/ 11 نوفمبر 2013م، بقسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، بجامعة الوادي - الجزائر، 2014م.

2- بن موسى موسى: «هجرة الجزائريين إلى تونس بين تلبية الحاجيات الاجتماعية وإحداث التكامل الثقافي في النصف الأول من القرن 14هـ/20م(وادي سوف نموذجاً)»، أعمال الملتقى الدولي حول: التواصل الحضاري بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس 1881 - 1954م، المنعقد يومي: 10/ 11 نوفمبر 2013م، بقسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، بجامعة الوادي - الجزائر، 2014م.

3- حراث علي: «أسباب تركيز الرحلة العلمية الجزائرية على تونس»، أعمال الملتقى الدولي حول: التواصل الحضاري بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس 1881 - 1954م، المنعقد يومي: 10/ 11 نوفمبر 2013م، بقسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، بجامعة الوادي - الجزائر، 2014م.

4- شترة خير الدين: «الرحلات العلمية بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس وأثرها في خصوصية التواصل بين المنطقتين»، أعمال الملتقى الدولي حول: التواصل الحضاري بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس 1881 - 1954م، المنعقد يومي: 10/ 11 نوفمبر 2013م، بقسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، بجامعة الوادي - الجزائر، 2014م.

5- صحراوي نور الدين: «المراقبة الفرنسية للحدود الشرقية وتأثيرها على التواصل بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس 1881 - 1954م من خلال الوثائق الأرشيفية»، أعمال الملتقى الدولي حول:

التواصل الحضاري بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس 1881 – 1954م، المنعقد يومي: 11/10 نوفمبر 2013م، بقسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الوادي – الجزائر، 2014م.

(6) - قاصري محمد السعيد: «الطرق الصوفية ودورها في التواصل الحضاري والثقافي بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس»، أعمال الملتقى الدولي حول: التواصل الحضاري بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس 1881 – 1954م، المنعقد يومي: 11/ 10 نوفمبر 2013م، بقسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، بجامعة الوادي – الجزائر، 2014م.

(7) - كحول عباس: «الجريد التونسي القاعدة الخلفية للزوايا العزوية والمقاومة الوطنية في الجنوب الشرقي الجزائري»، أعمال الملتقى الدولي حول: التواصل الحضاري بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس 1881 – 1954م، المنعقد يومي: 11/ 10 نوفمبر 2013م، بقسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، بجامعة الوادي – الجزائر، 2014م.

(8) - اللولب حسن حبيب: «الطلبة الجزائريون بالبلاد التونسية (1876 – 1962م)»، أعمال الملتقى الدولي حول: التواصل الحضاري بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس 1881 – 1954م، المنعقد يومي: 11/ 10 نوفمبر 2013م، بقسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، بجامعة الوادي – الجزائر، 2014م.

4/ الأطروحات والرسائل الجامعية :

أ / أطروحات الدكتوراه

(1) - بزاز عبد الكريم: علم اجتماع بيار بورديو، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم (غ.م)، تخ: علم الاجتماع والديمقراطية، جامعة منتوري، قسنطينة – الجزائر، 2007م.

(2) - بن جابو أحمد: المهاجرون ونشاطهم في تونس 1830 – 1954م، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه (غ.م)، تخ: التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ والآثار، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد – تلمسان، الجزائر، 2011م.

(3) - بن سليمان عبد النور: امتلاك الأراضي الفلاحية والرعية في العرف الجزائري منطقة تارا أنموذجا، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا دراسة انثروبولوجية ريفية، جامعة أبو بكر بلقايد –

تلمسان ، الجزائر ، السنة الجامعية ، 2012/2011.

- 4- حيمر صالح: السياسة العقارية الفرنسية في الجزائر (1830-1930)، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر ، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2014/2013.
- 5- عومري عبد الحميد: الحياة الثقافية والفكرية في الجزائر (1880 - 1914م)، أطروحة مُقدّمة لنيل شهادة دكتوراه الطّور الثّالث (L. M. D)، (غ. م)، تخ: تاريخ الحركة الوطنيّة والثّورة الجزائريّة، جامعة جيلالي ليابس، سيدي بلعباس - الجزائر، 2011م.
- 6- العيد فارس: علاقات الجزائريين بالمغرب الأقصى وتونس، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة أحمد بن بلة ، وهران ، الجزائر ، س ج ، 2017 /2016.
- 7- مديني بشير: إسهامات الجالية الجزائرية بتونس في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية 1830-1962م، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم (غ.م)، تخ: التّاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر 2، الجزائر، 2015م.

ب/ رسائل الماجستير والكفاءة في البحث:

- 1- بن زردة توفيق: الكنفدراليات القبلية الحدودية ودورها في العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الجزائر وتونس خلال العهد العثماني - الحنانشة أنموذجا - مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمحاصر، تخصص العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الجزائر العثمانية ودول المغرب العربي، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة ، السنة الجامعية 2014/2013.
- 2- بن يدر كريم: الحرف والحرفيون بمدينة تونس خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، رسالة ماجستير، جامعة تونس الأولى، تونس، 2005م.
- 3- الحناشي العربي: الحنانشة وعلاقتهم بالسلطة في تونس (1640-1740م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الكفاءة في البحث، جامعة تونس الأولى، تونس، 1988م.
- 4- الحناشي محمد: الحياة الدينيّة والعلميّة بمدينة الكاف خلال القرنين الثّامن عشر والتّاسع عشر، مُدكّرة مُقدّمة لنيل شهادة الماجستير (غ. م)، تخ: تاريخ، جامعة تونس، تونس، 2005م.
- 5- الحفالي: يوسف الجالية الجزائرية بجهة الكاف من (1881 - 1921م)، مذكرة مقدمة لنيل

شهادة الكفاءة في البحث، (غ. م)، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى، تونس، 1993م،

(6) - العايب كوثر: العلاقات الجزائرية التونسية خلال عهد الدايات (1711_1830م)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الشهيد حمه لخضر، السنة الجامعية، 2014/2013.

(7) - مديني بشير: الجالية الجزائرية في تونس. السؤافة نموذجاً (1876-1954م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير (غ. م)، تخ: التاريخ المعاصر، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، الجزائر، 2006م.

5/ الموسوعات ودوائر المعارف

(1) - بن حماد الجوهري أبي نصر إسماعيل: الصّحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، تخ: مُحَمَّد مُحَمَّد تامر وآخرون، (د. ط)، دار الحديث، القاهرة، 2009م.

(2) - بن فارس بن زكرياء أحمد أبو الحسن: معجم مقاييس اللغة، تخ: عبد السلام محمد هارون، ج 5، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 1984م.

(3) - _____، _____: لسان العرب، تخ: عبد الله علي الكبير وآخرون، مج 2، ج 9، دار المعارف، القاهرة، 1981م.

(4) - _____، _____: لسان العرب، تخ: عبد الله علي الكبير وآخرون، مج 2، ج 10، مج 2، ج 9، (د. ط)، دار المعارف، القاهرة، 1981م.

(5) - _____، _____: لسان العرب، تخ: عبد الله علي الكبير وآخرون، مج 4، ج 25، (د. ط)، دار المعارف، القاهرة، 1981م.

(6) - _____، _____: لسان العرب، ج 13، (د. ط)، المؤسسة المصرية للتأليف والأنباء والنشر، القاهرة، 1971م،

(7) - بن يعقوب فيروز أبادي مجد الدين مُحَمَّد: القاموس المحيط، مرتب ترتيباً ألفبائياً وفق ترتيب الحروف، تخ: أبو الوفاء نصر الهوريني المصري الشافعي، ط 2، دار الحديث، القاهرة، 2008م،

- 8)- علوي بن عبد القادر السَّقَّاف و آخرون: موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام، ج6، ط1، دار وائل للنشر والتوزيع، عمّان، 2012م.
- 9)- الكيالي عبد الوهاب: موسوعة السياسة، مج2، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1985م، مج4 مج7.
- 10)- وجددي: محمد فريد دائرة المعارف القرن العشرين، ط3، دار الفكر، بيروت، 1971م، مج7، مج6، ج51.
- 11)- الموسوعة العربية العالمية، ج.18، ط.2، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، 1999م.

ج/المصادر والمراجع والمقالات باللغة الأجنبية

1/ المصادر باللغة الأجنبية

- 01)-G. P. J. (André): **Confréries Religieuses Musulmanes**, édition la aison de livre, Alger, 1956
- 02)-Germain Marty :**Les Algériens à Tunis. tome 1** , : IBLA, Tunis, 1948
- 03)-L'administrateur (Annexe d' El-Oued), le Souf, monographie ,14 année 1953 ,(A.D.M.E.L),.
- 04)-Pigoreau Jean : **L'émigration dans l'Annexe d'El – Oued**, (manuscrit), 1955
- 05)-Rinn Luis:, Marabouts et Khouans, Etude Sur L'islam En Adolph. Jourdan libraire Editeur Algérie, 1884

06)-Rinn Luis :**Histoire de L'insurrection de 1871en Algérie** ,imprimeur –libraire–éditeur ,4, place de gouvernement; 4, Alger , 1891

07)- Roger ,Leonard (Gouverneur Général de l'Algérie),**territoire du sud l'Algérie, compte rendu de l'oeuvre accompli de (1947 – 1952)** , imprimerie officiel, Alger, 1954.

2/ المراجع باللغة الأجنبية:

08)-Drradgi Sellah Yacine :**Mémoire D'Ain Beida**, Achevée d'imprimer de Dar-EL-Houda Ain M'lila,2006

09)- Rozet et Carette: **L'Algérie** ,Par: MM Les Capitaines du Génie ,Paris ,1850.

3/ المقالات باللغة الأجنبية :

10)-Berbrougger. (A): «Des Frontières de L'Algérie», **R.A**, N° 4, Année1859 – 1860, Alger, 1860.

11)- Féroud Charles: «Notes historiques sur la province de Constantine le ben Djellab ,Sultan de Touggourt», **R A** ,VOL26, Alger , 1882.

12)- L. Arnaud.: Histoire de L'Ouali Ahmed et Tidjani, **R.A** , : Vol. N° 5, Alger, 1861.

د/ مواقع البحث في الانترنت:

01)-: <https://www.marefa.org> اطلعت عليه يوم 2018/02/04 على الساعة 18:14

(02)-عبد الغاني: ثورة رجال من الحناشنة ضد المستعمر الغاشم ،
www.khbarbladi.com. تاريخ وساعة الزيارة:2019/10/25 على الساعة 11:07

(03)-الموقع الإلكتروني: <https://www.djelfa.info/ar/sites/10811.html>
تاريخ الولوج: 2020/03/15م.

(04)-<http://islamport.com/k/mjm/5262/4065.htm>. تاريخ الولوج: 2020/03/18م.

(05)-الموسوعة التونسية المفتوحة، محمد المنزلي/<http://www.mawsouaa.tn/wiki/>. تاريخ الاطلاع: 2020/04/30م.

(06)-www.aljazerra.net تم الاطلاع عليه بتاريخ 2020/06/05 على الساعة 00:36
(07)-<http://www.mawsouaa.tn/wiki/>. تاريخ الاطلاع: 2020/06/14 على الساعة 16:00.

(08)-<https://www.echoroukonline.com> أطلعت عليه يوم 2021/05/12 على الساعة 13:08.

(09)-<https://www.aljazeera.net/news/lifestyle/2019/2/7/> أطلعت عليه يوم 2021/05/14 على الساعة 8:29.

الفہرست

فهرس الأعلام

حرف الألف

- أبا القاسم الحداد : 148
- إبراهيم الرياحي : 196
- إبراهيم الشريف : 165
- إبراهيم العوامر : 102 148 182 207 209 210
- إبراهيم بن أحمد الكبير: 189
- إبراهيم بن أحمد بن عطية: 188
- إبراهيم بن أحمد بورقعة: 84
- إبراهيم بن بلقاسم : 112
- إبراهيم بن جدو: 83 202
- إبراهيم بن زعزدة: 183
- إبراهيم بن سلطان: 83
- إبراهيم بن عبد الله: 73 78 154
- إبراهيم بن محمد الكبير: 190
- إبراهيم بوعزيز: 205
- ابن خلدون : 23 184
- ابن عبد الملك : 193
- ابن فطيمة الوزير: 165
- ابن هلال (كاتب الأمير عبد القادر): 154
- أبو القاسم سعد الله : 185 189
- أبي العباس أحمد بن سالم مختار التجاني: 194
- أبي الفيض ثوبان: 185
- أبي عبد الله بن حمو التجاني : 195
- أبي مدين شعيب: 187
- أحمد التليلي: 105 120 205
- أحمد الشاوش: 50 127
- أحمد الشاوش التلمساني: 84

- أحمد الشرفي: 110
- أحمد الشريف: 121
- أحمد الصغير: 38
- أحمد القر: 128
- أحمد باي قسنطينة: 41 42 43 153
- أحمد بن سالم: 69
- أحمد بن صالح رزقي: 76
- أحمد بن عثمان باي: 34
- أحمد بن علي بوحجر: 192
- أحمد بن عمار: 119
- أحمد بن عمارة: 112
- أحمد بن كميل الشيبوي: 121
- أحمد بن محمد التبسي: 128
- أحمد بن مخلوف: 198 199 200
- أحمد بن مسعود خليفة تامغزة وميداس والشبيكة: 82
- أحمد بن مصطفى: 128
- أحمد بوفارس القيل: 117
- أحمد توفيق المدني: 176
- أحمد شلبي بن علي جري: 111
- الأزهر الماجري: 24 211
- استنهازي: 175
- ألقرو النقيب: 138
- الأمير عبد القادر: 60 153 189
- الأميهي: 148
- أوجين كومب: 175
- ايفريت الأستاذ: 175

حرف الباء :

- بالرحايل بن عون القيل: 117

- الباي أحمد: 58
- الباي حسن الكبير : 44
- الباي محمد الرشيد: 150
- الباي محمد الصادق: 136 58
- برو: 51
- بلحسن ولد السكومي: 111
- بلقاسم بن محمد: 127
- بلقاسمي بن نوار: 110
- بنور الطرودي: 201
- بوزيان الشابي : 200
- بوزيان بن عبد الله: 110
- بوزيان سليمان الملوكي: 120
- بوطيب بن عمران : 193 73
- بوعراس: 121
- بول فيينايروكتون: 92
- بومرزاق : 74
- بونيفالي: 143 142 140
- بيار بورديو: 137
- بيار كاستيل: 143 112 109 106 94 88 56 50 25 24
- بيجو : 60

حرف التاء:

- تلمساني أحمد الشاوش: 84

حرف الجيم:

- جابي: 50
- جالوت: 20
- جرجير: 22
- الجنرال فيكيريه: 171
- الجنيدي (الإمام): 184

- جول فيري: 69 177
- جول كامبون: 177
- جنرال سيريكوه حاكم عنابة: 146

حرف الحاء:

- حاج المبارك العيداوي الفرشيشي: 193
- الحاج المرادسي : 38
- الحاج أحمد: 189
- الحاج أحمد بن محمد: 111
- الحاج سالم بن مبروك: 170
- الحاج محمد السهيلي: 166 167
- الحسين بن إبراهيم بن أحمد عطية: 188
- حسن قلاقي : 154
- الحسنواوي بن القاسم الحناشي: 154
- حسونة بن سليمان: 111
- حسين بن علي باي: 30 37 38 150
- حمزة بوبكر : 70
- حمودة باشا الحسيني: 35 36 41 43 45 59 135 136 164 165
- 200 187
- حمودة باشا صاحب كتاب الباشي: 104
- حمودة باشا المرادي : 77

حرف الخاء:

- خير الدين التونسي: 68 93 163 168

حرف الدال:

- الداوي حسين: 175
- الداوي شعبان : 39
- الداوي محمد عثمان باشا : 43 44 164
- الدوق دومال: 177
- دولاكروا (جنرال فرنسي): 72

• ديبوت: 198

• رابح بن الشخمار: 82

حرف الراء:

• رابعة العدوية: 185

• راندون : 47 53 54 60 145 159 160 168

• رزق بالرحايل الوشتاتي: 121

• رستم (جنرال تونسي): 52 75

• رسلطان: 48

• روزيت: 175

حرف السين

• سبوعي بن محمد السبوعي: 51

• سعد بن رجبية: 119

• السعيد بن علي: 83

• سليمان العلوي: 195

• سليمان بن عبيد: 106

• سليمان كاهية : 45

• سي الأعلى بوبكر: 71

• سي الصادق: 77

• سي النعيمي: 70

• سي سليمان بن جلاب : 78 154

• سي عزوز : 74

• سي معمر : 52

• السيد موجو: 89 90

• سيدي عبيد الولي الصالح: 109 122

حرف الشين:

• شاكرا باي: 34

• الشريف بوشوشة (محمد بن التومي): 71 193

• شنوف الصولي: 105

- الشيخ أحمد بن القا: 183
- الشيخ الحاجلي بن القيم: 181
- الشيخ الخضر بن الحسين: 182
- الشيخ القسطلبي: 193
- الشيخ الميزوني: 154 78
- الشيخ حسن بن يوسف: 182
- الشيخ منصر: 40 30
- شيش: 22 21

حرف الصاد:

- صالح بن محمد كاهية الكاف: 159 156 47
- صالح البسكري: 154
- صالح المكّي: 127
- صالح باي قسنطينة: 165 164 44 43
- صالح بن بكري: 119
- صالح بن خضر: 111
- صالح بن علي عياد غنيسي: 155
- صالح بن محمد كاهية الكاف: 159 156 47
- صالح بن يوسف بوحجر: 192
- صالح بن عبد القادر: 110
- صغير بن علي: 127

حرف الضاد:

- ضيف الله بن سعيد: 24

حرف الطاء:

- الطاهر بن الحاج بوقرة: 121
- الطاهر بن صادق القماري: 196
- طرد بن دابس: 21
- الطيب الوزاني: 194

حرف العين:

- العباس بن حمودة: 110
- عبد القادر الجيلاني: 186
- عبد الحفيظ بن أحمد الضياوي: 121
- عبد الرحمن العمودي بن موسى: 182
- عبد الرحمن باش تارزي: 192
- عبد الصمد الشابي: 200 201 202
- عبد العزيز الثعالبي: 154
- عبد القادر المشرفي: 19
- عبد الله بن عباس رضي الله عنه: 18
- عبد الله بن حميدة: 58
- عبد الله بن خميس: 119
- عبد الله بن علي: 58
- عبد الله بن علي الزردومي: 82
- عبيد الشريف: 148
- عثمان التوزري: 128
- عثمان بن عفان رضي الله عنه: 122
- العربي القيرواني: 179
- العربي بن سالم: 190
- عرفة الشابي: 199 200 201 202 203
- عقبة بن نافع رضي الله عنه: 22
- العقيد ديفو: 77
- العكري: 150
- علي العزوزي: 206
- علي الهميسي: 94
- علي باشا التركي: 28 37 38 39 104 105 150 164
- علي باشا المرادي: 38 40
- علي باي: 73
- علي باي بن الحسين بن علي: 150

- علي باي بن فرحات بن سعيد: 77
- علي بن الحفصي الطرودي: 117
- علي بن الصانع: 121
- علي بن حمودة: 121
- علي بن خريف الوشتاتي: 121
- علي بن خوجة باي: 39
- علي بن سعد: 119 120
- علي بن عتروس الوشتاتي: 121
- علي بن عمر الوشتاتي: 121
- علي بن عيسى: 192
- علي بن عيسى التماسيني: 195 196
- علي بن غدهم: 51 52 59 66 165 166 196 216
- علي بن فرحات بن سعيد: 77
- علي بن محمد قايد تبسة: 46
- علي بن مسعود الشابي: 199
- علي بن نصر الوشتاتي: 121
- علي خوجة باي: 39
- علي غنابزية: 209
- عمار بن رمضان: 203
- عمار بن قديدة: 49 50 51
- عمار شليبي الوشتاتي: 117
- عمر بن أحمد القليل: 117
- عمر بن التساوي الحوضي: 121
- عمر بن مبروك: 121
- عمر بن محمد: 119
- عمر بوذينة الضياوي: 121

حرف الفاء:

- فاطمة بن سليمان: 102

- فرج بن منصور: 51
- فورجميل دوبوسكينار (جنرال): 77
- الفضيل بن الفضيل بن رزق : 76
- فلونبي: 46 112 142 143
- فيفانص الكماندة: 85 111 112 114 115 116 117

حرف القاف:

- قاضو بن محمد: 37
- القايد أحمد لخضر : 46 95
- القايد إبراهيم بن بلقاسم : 55
- القايد بن محمد: 49
- القائد الحسن الكبير: 164
- القائد دولاتر: 95
- القائد فلاتير: 95
- القائد مول الحدبة: 167

حرف الكاف:

- كابولاني: 198
- الكبلوتي: 75 147 155 193
- كوهندي: 51

حرف اللام:

- لالة فاطمة نسومر: 153

حرف الميم:

- ماكمهون (ماريشال): 52
- مبارك بن المازن التوزري: 179
- محمد صلى الله عليه وسلم: 50
- محمد الطيب بن إبراهيم بن أحمد عطية : 188
- محمد الإمام المنزلي: 187 188
- محمد الأخضر السهيلي: 167

- محمد التخلي: 182
- محمد الحفصي: 38
- محمد الزبيري (محمد بن البرية): 182
- محمد السعيد بن الأمير عبد القادر: 190
- محمد الشيخ بن محمد منصر: 82
- محمد العشابي البسكري: 78
- محمد العيد التجاني: 51 52 196
- محمد الكبلوتي بن الطاهر رزقي: 76
- محمد الكبير باي وهران: 195
- محمد المازوني: 189
- محمد الهاشمي بن إبراهيم بن أحمد عطية: 188
- محمد أمزيان: 76 77
- محمد باي: 38 39
- محمد بكوش: 75
- محمد بن إبراهيم بن أحمد عطية: 188
- محمد بن الأعجال: 83
- محمد بن السبوعي: 37
- محمد بن الشيخ محمد بن منصر: 82
- محمد بن العزيز البرجي: 183 192 193
- محمد بن إبراهيم (الزاوية العيساوية): 197
- محمد بن أحمد الصغير: 78
- محمد بن أحمد المقراني: 73 74
- محمد بن سالم الحفناوي: 191
- محمد بن سبوعي: 37
- محمد بن صالح الموح الحديدي: 155
- محمد بن عبد الرحمن الأزهري القشتولي: 191 192 194
- محمد بن عبد الله التزاني: 195
- محمد بن عبد الله الشريف: 70 78

- محمد بن علي التلاف ملا: 155
- محمد بن عمار : 120
- محمد بن قاسم بن الحاج عياد: 155
- محمد بن ناصر : 196
- محمد بن يعقوب: 154
- محمد بيرم الخامس : 208 207
- محمد بو القايد الوشتاتي: 121
- محمد بوعلاق التونسي: 73
- محمد سيك : 110
- محمد علاق: 193
- محمد ولد بوزيان بن جاب الله: 111
- محمود بن عبد الحفيظ: 193
- محي الدين بن الامير عبد القادر: 216 189 78 74 73 72
- مراد باي : 40 39
- مساعي بن بلقاسم : 83
- مسعود الشابي : 201
- مسعودة بنت سيدي مستور: 148
- مصطفى الطرابلسي: 192
- مصطفى انجليز: 45 34
- مصطفى باي: 42
- مصطفى بن عزوز: 154
- مصطفى بن محمد: 167
- مصطفى خزندار(الوزير الأكبر بتونس) 120 109 75 63
- معروف الكركي: 184
- المقراني: 73
- المكّي التوزري: 179
- المولود بن الموهوب: 183

حرف النون:

- نابليون الثالث : 177
- ناصر الدرعي : 198
- ناصر بن شهرة : 69 70 71 73 74 75 76 78

حرف الهاء:

- همام : 23

حرف الواو:

- الوزناحي : 34 135
- ولد العمار بن عمر : 111

حرف الياء:

- يوسف الشعباني : 172
- يوسف النيقرو : 91
- يوسف بن لخضر : 83
- يوسف صاحب الطابع (وزير تونسي) : 45
- يونس الجزائري عامل الكاف : 161
- يونس بن إسماعيل : 37

فهرس الأماكن والبلدان والمناطق

حرف الألف

- إسبانيا : 151
- إفريقية : 23
- الأغواط : 69 194
- ألمانيا : 72
- أم الطبول : 25
- الأوراس : 20 27 29 74 76 77 301
- آيت إسماعيل : 191

حرف الباء:

- البابور : 27 74

- باتنة: 77 76
- باجة : 96 91 62 61
- بجاية: 187
- بسكرة: 192 163 154 145 134 98 76 74
- بكارية: 200 141 140 132 98 80 65 56 55 49 26 20
- بلاد المغرب القديم: 151
- البلدان الأوربية: 100
- البلقان: 151
- بنزرت: 187
- بودرياس: 26
- بيروت: 167
- بئر العاتر: 206 148 141 80

حرف التاء:

- تامغزة: 141 82 58 20
- تبسة: 84 80 73 66 64 63 56 55 54 50 49 44 43 39 22 21 20 19
- 148 143 142 140 132 130 129 128 127 113 112 99 98 95 88
- 192 182 181 173 166 164 163 162 160 158 157 156 155
- تيهرت: 194
- تطاوين : 91
- تلمسان: 195 194
- تماسين: 196 195 182 179 166 51
- توات: 195
- توزر: 203 202 196 190 189 182 179 173 154 141 91 70 54 20
- 207
- توقرت : 182 179 172 166 164 100 98 97 78 77 73 65
- تونس: 101 100 97 91 78 75 74 55 54 49 48 45 44 40 38 33 28
- 162 160 159 158 157 156 155 154 153 152 151 150 146 105
- 183 181 180 179 175 173 172 171 170 168 167 165 164 163

207 206 203 202 200 199 198 193 190 188 187 186

• تيزي وزو: 74

• التيطري: 74 75

حرف الجيم:

• الجديدة (تبسة): 148

• الجريد: 19 49 51 65 77 78 100 102 134 136 141 143 148 149

154 156 162 172 182 183 187 189

• الجزائر: 20 25 29 33 35 37 38 40 43 45 49 73 74 75 76 80 81 86

88 97 101 112 136 149 151 154 159 162 164 165 167 169

170 172 173 175 178 179 180 183 186 188 189 190 191 194

198 199 200 203 206 208

• الجزائر العاصمة: 182

حرف الحاء:

• حاجب العيون: 23

• حساني عبد الكريم (البهيمه): 148

حرف الخاء

• خنشلة: 77 138 155 157 160

حرف الدال:

• دلّس: 74

حرف الراء

• رويسات (ورقلة): 188

حرف السين :

• سبيطلة: 22 141

• سريانة: 111

• سطيف: 77 171

• سكيكدة: 77

• السودان: 100 151 188 191

• سوريا: 73 151

● سوق أهراس: 20 39 55 75 85 98 100 110 111 112 114 158 171

182 192 199

● سيدي بوزيد: 149

حرف الشين :

● الشبيكة: 20 82 141

حرف الصاد:

● صحن الزقم الشرقي: 147

● صحن الشعابنة (الوادي): 188

● صحن الطرفاوي الشرقي: 147

حرف الطاء:

● الطارف: 75

● طبرقة: 26 187

● طرابلس الغرب: 20 23 73 99 167

حرف العين:

● العراق: 151

● عميش (الوادي): 188

● عنابة: 20 39 77 98 112 156 158 159 171 173 201

● عين البيضاء: 97 113 132 166 192

● عين ببوش: 128

● عين ماضي: 167 195

حرف الغين:

● غات: 188

● غدامس: 98 99

حرف الفاء:

● فاس: 23 104 194 195 196

● فركان: 105 134

● فرنسا: 53 55 56 72 73 74 89 146 151 153 157 167 175 189

190 202 203

• فريانة: 204 141 182

حرف القاف:

• قابس : 148 91

• القالة: 199 173 171 112 108 100 26 25

• قالمة: 171 159 48

• القرارة: 70

• قسنطينة: 156 100 98 97 88 77 52 45 44 40 30 29 27 23 21

201 183 173 171 165

• القصرين

• قفصة: 202 188 163 97 72 54

• قمار: 199 188 183 182

• قنتيس : 149 148

• القنطرة: 203 199 77

• القيروان: 193 100 90

حرف الكاف:

• الكاف: 180 161 160 156 154 147 142 100 98 78 72 58 51 46

192 188

حرف اللام:

• لبنان : 151

• ليبيا : 101

حرف الميم:

• الماء الأبيض: 141 140 97 20

• مجانة: 74

• مدنين : 91

• المدينة المنورة: 151

• مسكيانة : 192

• المسيلة: 167

• المشرق: 152 99

- مصر : 195 72
- معسكر: 69
- المغرب : 175 99
- المغرب الأقصى: 98
- مكة : 151
- مليانة: 74
- منطقة القبائل: 194
- ميداس: 141 82 20

حرف النون:

- نفاوة: 173 154 21 19
- نفطة: 182 180 179 173 154 148 141 109 98 91 78 73 70 20
- 216 206 196 193 192 190 189 188 187 183
- نقرين : 134 105 77 73
- نحد: 57

حرف الهاء:

- الهضاب عليا (الجزائر): 30
- الهند: 191

حرف الواو:

- وادي (سوف): 156 148 147 107 101 98 97 78 77 73 72 66 65 21
- 209 208 207 203 201 199 196 188 182 179 173 172 170 157
- 210
- وادي ريغ : 173 172
- ورقلة : 188 164 163 156 154 99 97 78
- ورماس: 164
- ونزة: 113 98
- وهران : 19

فهرس الأمم و القبائل والأعراش والفرق والعائلات والأسر

حرف الألف:

- الأترك: 23
- أجلامدة وأجدور: 139
- أداسة: 20
- الأرباع: 71
- أسرة الزواغة: 74
- أسرة المقراني: 74
- أسرة أوقاسي: 74
- أسرة أولاد محي الدين: 74
- أسرة أولاد مختار: 74
- أسرة بن صيام: 74
- أسرة بن قانة: 74 76
- أسرة بوعكاز بن عاشور: 34
- الأعراض: 135
- الإغريق: 151
- الأميهات: 148
- أولاد ناصر: 157
- أولاد العسّال: 134
- أولاد العيساوي: 82
- أولاد الكحلة: 119 120
- أولاد إبراهيم: 83
- أولاد أحمد (سوافة): 147
- أولاد أحمد بن إبراهيم: 141
- أولاد أحمد بن علي: 139
- أولاد بو الانوار: 139

- أولاد بوشقرة: 141
- أولاد بوصلاح: 141
- أولاد بوغانم: 28 40 48 57 79 63 64 95 112 113 122 142
- 206 200 187 160 159 156 149 147 145
- أولاد تليل: 206 167 122
- أولاد ثابت: 141
- أولاد حداد: 148
- أولاد حفدة: 118
- أولاد حميدة: 139
- أولاد خليفة: 157
- أولاد خيار: 206 113 112 55
- أولاد داود: 76
- أولاد ذياب: 129
- أولاد رشاش: 31 50 63 108 139
- أولاد رشائش: 50 64 138 139
- أولاد رضوان: 23 147
- أولاد ريشيام: 110
- أولاد زايد: 31 139
- أولاد زيد: 133 134
- أولاد ساعد: 139
- أولاد سالم: 29 40 157
- أولاد سديرة: 94 115 116 118 129
- أولاد سعيد: 30 31 105 165
- أولاد سلامة: 23
- أولاد سليم: 113
- أولاد سمية: 141
- أولاد سيدي الحمادي: 48 56 58 63 67 82 95 141 158 206
- أولاد سيدي الشيخ: 70 71 74 193

- أولاد سيدي إبراهيم: 158
- أولاد سيدي عبيد: 19 26 28 46 50 55 59 81 82 84 109 113 140
- 206 205 163 162 148 147 143 142 141
- أولاد شارن: 29 43 48 122 135 187 200
- أولاد شامخ: 139
- أولاد شكرة: 83
- أولاد شنوف: 31
- أولاد ضياء : 86
- أولاد عاشور: 139 157
- أولاد عبد السلام: 142 149 158
- أولاد عبد الله بن العمري : 113
- أولاد عبد الملك: 57 63 82 95 141 158 206
- أولاد عبد النور: 30 52
- أولاد عبيدي : 148
- أولاد عزيز: 23
- أولاد عسكر: 134
- أولاد علي: 30 40 106 118 119 129 166
- أولاد علي الحشيشة : 119
- أولاد علي الفزوع: 119
- أولاد عمران: 128
- أولاد عمر بن عيسى: 142
- أولاد عون: 133
- أولاد عيار: 38 122 133
- أولاد ماجر: 23 36 37 38 51 81 111 135 146 187
- 210 209 207 205 193
- أولاد ماضي: 74
- أولاد محبوب : 83 139
- أولاد محمد: 142

- أولاد مسعود : 83 111
- أولاد معاني: 148
- أولاد معمر: 23
- أولاد مهلهل: 201
- أولاد مهني: 23
- أولاد مومن : 48 94 124 146 147
- أولاد ميداني: 148
- أولاد ناجي: 107
- أولاد نايث : 139
- أولاد نصر : 38 112 139
- أولاد ناصر: 157
- أولاد وزاس: 57 63 65 67 68 94 95 106 108
- أولاد وزه: 95
- أولاد يحيى بن طالب: 31 46 48 49 55 57 63 64 67 95 108 113
- أولاد يعقوب: 78 147 154 193

حرف الباء:

- البرارشة: 31 50 55 105 113 127 138 139
- بربر: 23 24
- بني أسيد: 139
- بن شنوف : 76
- بني بربار: 20 201
- بني توجين: 194
- بني حميد عرش الحشيشة: 119
- بني زنداني : 29 40
- بني سقوال: 29 40
- بني سليم: 134
- بني سليمان: 76

- بني صالح: 158 110
- بني مازن: 172 118
- بني معمري: 29
- بني مناللة : 40 29
- بني يزيد: 37
- بيزنطيين: 23

حرف التاء :

- توبسة : 40 29

حرف الجيم:

- جلاص : 133 52 51 37
- جلامدة : 83

حرف الحاء:

- الحراكنة: 206 202 201 135 97 64 35 34 29 20
- الحنانشة: 205 202 200 150 146 132 75 64 62 43 42 40 28 20
- الحواشة: 63
- الحوافظ: 206 146 134 132

حرف الخاء:

- خلايفية: 141
- خمير : 200 172 117 108 100 90 81 69 63 53
- الخنافسة : 149

حرف الدال:

- دريد: 202 165 148 35 105 52 37 30

حرف الراء :

- رتان: 133 122
- الرقبة : 120 117 100 48
- الركائة : 141
- الرواسية : 117

حرف الزاي:

• الزرادمة : 82 83 139

• الرغبة: 141

• الرغالة: 48 122 141 187 206

• الرغامنة: 159

• زواغة: 23

حرف السين :

• ساميين : 151

• السواسي: 105

• سوالمية: 141

• سيالة : 89

حرف الشين:

• الشايبية : 28 148 149

• الشاوية : 20

• الشبابطة: 148

• الشراردة: 148

• الشرايطة: 141

• الشعانية: 70

• شقظمة : 23 111

• شمانة: 159

حرف الطاء:

• طبابة : 141

• الطرايد: 111

• طرود: 21 24 117 134 149 201

• طكاكة : 83

حرف العين:

• عائلة بن الحفصي : 50

• عائلة بن عربية: 50

• عائلة بوعكاز: 76

- عائلة غابة
- عائلة قلاتي : 154
- العبادنة : 149 127
- العرب: 154 23
- عرب بني هلال وبني سليم: 20 21
- عرش حكيم: 118
- العسيلات: 132
- العلاونة : 31 50 55 113 138 139
- العيساوي : 31

حرف الفاء:

- الفراشيش: 21 22 30 31 37 40 49 51 56 57 59 63 64 67 68 80 81
- 84 93 94 95 98 100 102 106 108 109 112 113 127 128
- 131 132 133 134 135 141 146 149 159 172 187 193
- 200 205 206 207 209 210

- الفنيقيين : 151
- الفواد: 23 111

حرف القاف:

- قبائل المخزن: 27 35 36
- قبيلة رياح: 51
- قرفة: 200
- القرين: 148
- القشاشطة: 148
- القمامطة: 132
- القوايز: 122

حرف الميم:

- المخادمة: 70
- المرادسي: 112
- المراسن : 112 115 116 118 119 120

● المقادة: 139

حرف النون:

● النبائل: 201

● النمامشة : 20 29 30 34 35 48 49 57 64 67 80 81 82 94 104 105

106 109 113 127 128 132 133 134 135 138 142

143 146 148 149 150 155 164 181 201 202 205 206

● نهد: 25 69 90 200

حرف الهاء :

● الهمامة: 23 36 37 47 48 52 63 97 100 109 129 130 133 134 135

141 142 147 148 149 167 172 201 202 205 206

● الهمايسية: 67 94 124

● هواراة : 20 24

حرف الواو:

● ورغة: 24 42 43 62 81 122 200

● ورغمة : 133 134

● وشتاتة: 42 85 86 110 111 114 115 116 117 118 120

121 128 147 172

● ونيغة : 40 133 135 141 206

فهرس الموضوعات

الصفحة

المحتويات

الإهداء

شكر وعرهان

قائمة المختصرات

المقدمة: 8

الفصل التمهيدي:

القبائل الحدودية الجزائرية والتونسية

(التكوين - الموقع (المجال) - العلاقة)

17	أولا: القبيلة التعريف والمكونات :
17	1/ تعريف القبيلة:
17	1-1 لغة:
18	1-2 اصطلاحا:
14	2/ مكونات القبيلة :
19	ثانيا : القبائل الحدودية بين البلدين:
19	1/ القبائل الجزائرية:
19	1-1 أولاد سيدي عبيد :
20	1-2 قبيلة الحنانشة:
20	1-3 النمامشة:
21	1-4 الطرود :
21	ثانيا القبائل التونسية :
21	1-2 الفراشيش:
23	2-2 الهمامة.....
24	2-3 أولاد ماجر
24	2-4 ورغة:
24	ثالثا: مسألة بين البلدين وعلاقة القبائل بالسلطة القائمة في الفترتين العثمانية والفرنسية.....
24	1/ مسألة الحدود بين الفترتين العثمانية والفرنسية.....

27/2 علاقة القبائل الحدودية بالسلطتين العثمانية والفرنسية:
271-2 علاقة القبائل بالسلطة العثمانية.
281-1-2 القبائل في الإيالة التونسية.
28(أ) - قبائل المخزن:
28(ب) - المزرابية:
28(ج) - القبائل الخارجة على نفوذ السلطة والمتمردة:
292-1-2: القبائل في الإيالة الجزائرية:
28(أ) - القبائل الممتنعة عن سلطة البايلك.
29(ب) - القبائل المتحالفة مع السلطة.
312-2 علاقة القبائل بالسلطة الفرنسية.
311-2-2 الرضوخ لسلطة الاحتلال.
312-2-2 قبائل معارضة لسلطة الاحتلال

الفصل الأول

حركة القبائل الحدودية الجزائرية وبعدها السياسي

33أولاً - حركة القبائل عند المنطقة الحدودية خلال القرن الثامن عشر:
331- / علاقة السُلطة القائمة بالقبائل الحدودية في كل من الجزائر وتونس:
331 - 1 - علاقة السُلطة القائمة بالقبائل الحدودية في الجزائر.
34أ - منع اتحادات القبائل فيما بينها:
35ب - إتباع سياسة فرق تسد بين القبائل.
35ج - المهادنة ومحاولة كسب الولاء.
35د - استخدام القبائل المخزنية.
351 - 2 - علاقة السُلطة القائمة بالقبائل الحدودية في تونس.
35أ - صنف فُرَضَ عليه المجبي.
36ب - صنف القبائل الخاضعة:
36ج - القبائل المخزنية:
382- / دور بعض القبائل الحدودية في الحياة السياسية بين البلدين:
40ثانياً - حركة القبائل عند المنطقة الحدودية وتأثيره على علاقات البلدين خلال القرن التاسع عشر:
461- / التّواصل السياسي بين القبائل الحدودية:

- 1-1 - مظاهر تواصل القبائل الجزائرية بالتونسية سياسياً: 46
- 2-1 - مظاهر تواصل القبائل الحدودية التونسية بالجزائرية سياسياً..... 47
- مقاومة عمار بن قديدة..... 49
- ثورة علي بن غزاهم..... 51
- 2- /المساعي الفرنسية لحصر حركة القبائل الحدودية:..... 52
- 3- /موقف بايات تونس من الإجراءات الفرنسية:..... 57
- ثالثاً- أثر الإجراءات الفرنسية على التواصل القبلي وموقف القبائل الحدودية منه:..... 59
- رابعاً- القبائل الحدودية بين الإغارة والتآزر لمقاومة المحتل الفرنسي:..... 63
- 1- /الإغارات بين القبائل الحدودية:..... 63
- تعريف الإغارة لغة:..... 63
- اصطلاحاً..... 63
- 2- /المقاومة الجزائرية على الحدود ودور القبائل التونسية فيها:..... 69
- مقاومة بن ناصر بن شهرة..... 69
- مقاومة الشريف بشوشة..... 72
- مقاومة محيي الدين بن الأمير عبد القادر..... 73
- ثورة المقرانيين بتونس 1871م..... 74
- مقاومة صبايحية الحدود والكلوتي في تونس..... 75
- مقاومة الأوراس الغربية في سنة 1879م:..... 77
- المقاومة الشعبية بوادي سوف..... 78

الفصل الثاني

مظاهر التفاعل الاقتصادي بين القبائل الحدودية ونتائجه

- أولاً- مشاركة القبائل الحدودية في نشاطي الزراعة والرعي:..... 81
- 1- /الزراعة:..... 81
- 2- /الرعي:..... 82
- 3- /افتكاك الاحتلال للأراضي القبائل الحدودية بالجزائر وتونس وأثره على الوضع الاقتصادي لها:..... 88
- ثانياً- الصراع حول الأرض بين القبائل الحدودية:..... 94
- ثالثاً- تجارة القوافل بين القبائل الحدودية:..... 97
- 1- /مراكز ومحطات التبادل التجاري بين القبائل الحدودية:..... 98

98 1 - 1 - طريق قفصة ونفطة
99 2 - 1 - طريق نفطة غدامس
100 /2- الأسواق التّجاريّة:.....
100 1 - 2 - سوق قسنطينة
100 2 - 2 - وادي سوف:.....
100 3 - 2 - ورقلة:.....
101 4 - 2 - توفرت:.....
101 5-2 - سوق الكاف
101 /3- الصّادرات والواردات بين القبائل الحدوديّة:.....
102 1 -3 - الصّادرات الجزائريّة إلى تونس:.....
102 2-3- الواردات الجزائريّة من تونس:.....
103 رابعاً- الإغارات وأعمال النّهب والسّطو على القوافل التّجاريّة:.....
103 /1- اغارات القبائل الحدوديّة على القوافل التّجارية بين البلدين:.....
107 1 - 1 - نماذج من إغارات القبائل الحدوديّة الجزائريّة على القوافل التّجاريّة للقبائل التّونسيّة:.....
108 2 - 1 - نماذج من إغارات القبائل الحدوديّة التّونسيّة على القوافل التّجاريّة للقبائل الجزائريّة:.....
109 /2- أعمال النّهب والسّطو بين القبائل الحدوديّة:.....
109 1 - 2 - أعمال النّهب والسّطو التي طالت القبائل الحدوديّة الجزائريّة:.....
120 2-2- أعمال النّهب والسّطو التي طالت القبائل الحدوديّة التّونسيّة:.....

الفصل الثالث

التواصل والتفاعل الاجتماعي بين القبائل الحدودية

128 أوّلاً- الإغارة بين القبائل الحدوديّة كمعطى اجتماعي:.....
128 /1- جذور الإغارة:.....
133 /2- الإغارة وازدواجيّة الولاء:.....
134 ثانياً- الأحلاف والصّفوف عند القبائل الحدوديّة وتفكّكها:.....
134 /1- الأحلاف والصّفوف:.....
137 /2- التّفكّك والتّصدع للأحلاف والصّفوف:.....
139 1 - 2 - أسباب التّفكّك:.....
139 2 - 2 - إستراتيجية التّفكّك:.....

- 140 نماذج من القبائل التي نفذ فيها مخطط التفكيك 3-2
- 140 تجزئة قبيلة التمامشة 1- 3 - 2
- 142 تجزئة قبيلة أولاد سيدي يحي: 2- 3 - 2
- 142 تجزئة قبيلة أولاد سيدي عبيد: 3 - 3 - 2
- 145 3/- مخطفات وانعكاسات هذه الإجراءات على القبائل:
- 147 ثالثا- التعاقد والتآزر وعلاقات المصاهرة بين القبائل الحدودية:
- 147 1/- التعاقد والتآزر بين القبائل الحدودية:
- 149 2/- المصاهرة بين القبائل الحدودية:
- 152 رابعاً- الهجرة بين القبائل الحدودية:
- 153 1- هجرة الجزائريين نحو تونس.....
- 154 1 - 1 - دوافع هجرة الجزائريين إلى تونس:
- 154 1 - 1 - 1 - الدوافع الدينية والطبيعية والجغرافية:
- 154 1 - 1 - 2 - الدوافع النفسية والسيكولوجية:
- 155 1 - 1 - 3 - الدوافع السياسية والعسكرية:
- 155 1 - 1 - 4 - الدوافع الاقتصادية:
- 155 1 - 1 - 5 - الدوافع التعليمية:
- 156 1 - 2 - أنواع هجرة الجزائريين إلى تونس:
- 156 1 - 2 - 1 - هجرة العلماء وزعماء الطرق الصوفية وأصحاب النفوذ:
- 156 1 - 2 - 2 - هجرة المقاومين السياسيين وأتباعهم:
- 157 1 - 3 - أشكال الهجرة:
- 157 1 - 3 - 1 - الهجرة الفردية:
- 158 1 - 3 - 2 - الهجرة الجماعية:
- 160 1 - 3 - 3 - نماذج لهجرة القبائل الحدودية الجزائرية مع بيان سبب هجرتها ومناطق استقرارها:
- 160 أ)- القبائل الحدودية المهاجرة لأسباب سياسية:
- 162 ب)- القبائل المهاجرة لأسباب اقتصادية:
- 165 ج)- القبائل المهاجرة لأسباب اجتماعية:
- 166 د)- مناطق الاستقرار:
- 167 2/- هجرة التونسيين نحو الجزائر:

- 3-وضعية المهاجرين الاجتماعية والقانونية وموقف الإدارتين الاستعمارية والتونسية منها: 170
 3 - 1 - موقف الإدارة الاستعمارية: 173
 3 - 2 - موقف بايات تونس: 173

الفصل الرابع

المحاكاة الثقافية بين القبائل الحدودية

- أولاً- الرحلات والمجرة العلمية: 177
 1- تصنيفات طلبة العلم الراحلين إلى تونس: 182
 1 - 1 - الصنف الأول: المستقر بتونس استقراراً دائماً 183
 1 - 2 - الصنف الثاني: المقيم بتونس إقامة مؤقتة 183
 1 - 3 - الصنف الثالث: الذي يقصد تونس طلباً للعلم 183
 2- الرحلة العلمية الفردية (نماذج من طلبة العلم الشوافة الراحلين إلى تونس): 183
 2 - 1 - الشيخ أحمد بن عبد الله دغمان: 183
 2-2- الشيخ الحاجلي بن القيم: 184
 2-3- الشيخ إبراهيم 184
 العوامر:
 2-4- الشيخ أحمد بن القا: 185
 3- الرحلة العلمية الجماعية: 185
 ثانياً- الطرق الصوفية التي المنتشرة بين القبائل الحدودية: 186
 1- الطريقة القادرية: 188
 2- الطريقة الرحمانية: 193
 3- الطريقة التجانية: 196
 4- الطريقة الشائبة: 200
 ثالثاً- الزيارات والوعود المتبادلة للأضرحة والزوايا بين القبائل والمجموعات الحدودية: 205
 1- الزيارة والوعدة ونظامهما: 205
 2- الزيارات المتبادلة للأضرحة والزوايا بين القبائل الحدودية: 206
 رابعاً- التشابه والتشارك في بعض الممارسات الاجتماعية والثقافية والعرفية: 209
 1- التشابه في الملابس: 209
 1-1- لباس الرجال: 210

210 1 - 1 - 1 - القميص ورداء من الصُوف
210 2 - 1 - 1 - البرنوس والقشايَّة:
210 3 - 1 - 1 - الشَّواشي والعمائم:
211 4 - 1 - 1 - التَّعال:
212 2-1 - لباس النَّساء:
212 /2- التَّشابه في بعض أصناف الأكل:
212 1-2 - الكسكس:
212 2-2 - البركوكش:
212 3-2 - الدَّشيشة أو التَّشيشة:
213 4-2 - البودشيش أو البوتشيش:
213 5-2 - الزُّميتة:
213 /3- التَّشابه في الألعاب والتَّسلية:
214 /4- التَّشابه في بعض الطُّقوس الاحتفاليَّة المتعلِّقة بالزَّواج:
216 خاتمة:
219 ملاحق
250 قائمة المصادر والمراجع:
272 الفهارس:
274 فهرس الأعلام:
285 فهرس الأماكن والبلدان والمناطق:
290 فهرس الأمم والقبائل و الأعراس والفرق والعائلات والأسر:
298 فهرس الموضوعات: